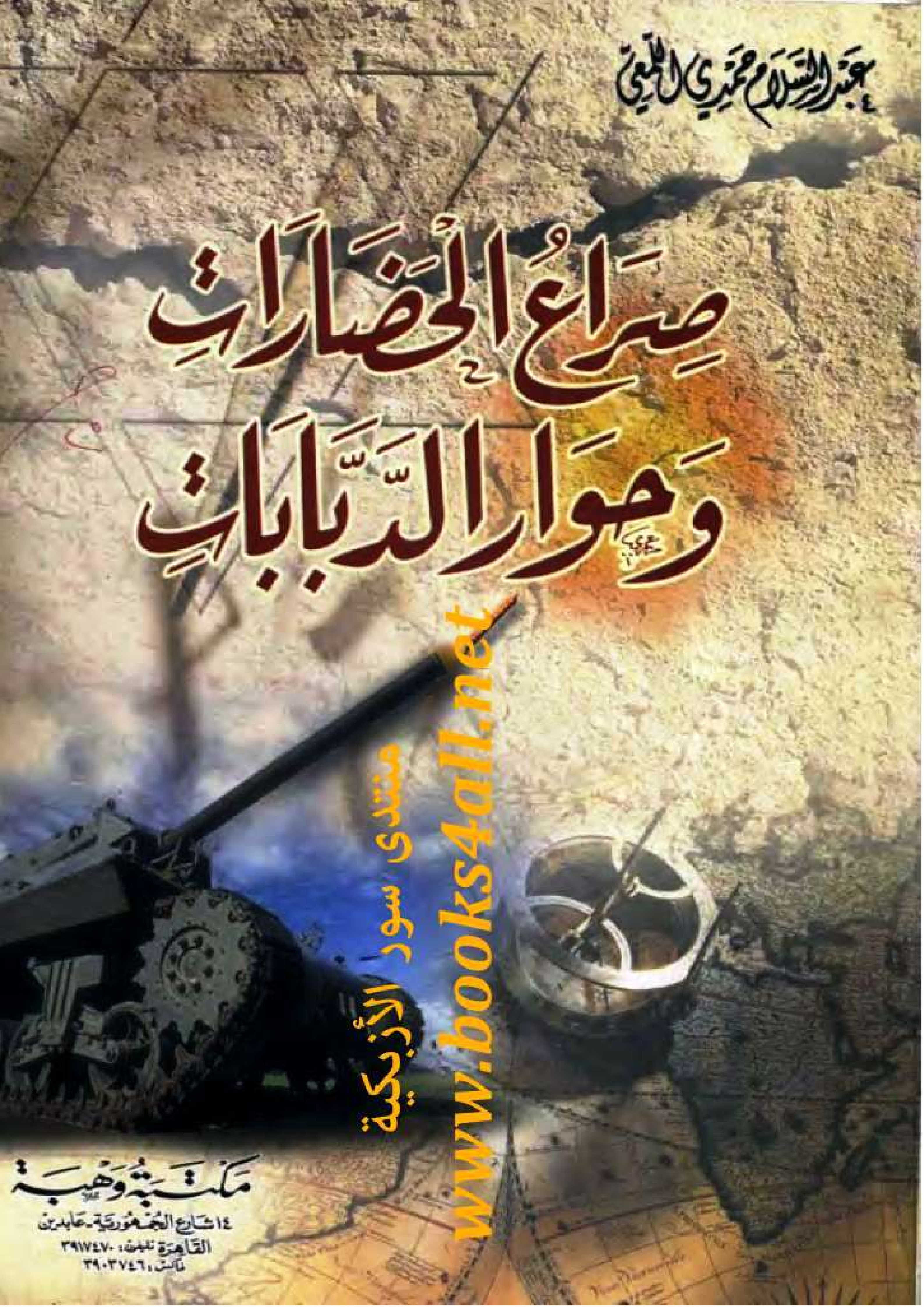

عبد السلام محمدي البسيوني
صراع الحضارات
وحوار الدبابات
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦٠
www.books4all.net
منتدى سور الأزبكية

عبد السلام حمدي اللمعي

صراع الحضارات وحوار الدبابات

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون : ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعـة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهــــداء

- ●● إلى القارئ الكريم :
- ● الذى التقى معنا فى الجزئين السابقين (المؤامرة الكبرى ، وحيد القرن) .
- ● إلى الباحثين والمهتمين بحقيقة صراع الحضارات المسمى حوار الديانات .
- ● إلى المهتمين بدراسة مصادر رياح التغيير ، واتجاهاتها ، وآثارها .
- ● إلى كل قارئ يعيش معنا فى عالم الفكر (مملكة الكتاب) .
- ● إلى المتألمين والمتأملين فى الوضع العربى ، والإسلامى الراهن .
- ● إلى الحالمين . الطامعين فى غد أفضل .
- ● إليكم جميعًا أهدى . . . هذا الكتاب .

عبدالسلام اللمعى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن دراسة تاريخ الفكر البشرى منذ نشأته هى مسألة عقلية ومنطقية بحتة، وقد تناولها الكثيرون منذ العصور القديمة والوسطى، ومازلنا نشتغل بدراستها حتى الآن فى العصر الحديث والزمن المعاصر.

وقد اختلف الباحثون والمؤرخون فى آرائهم ونزعاتهم؛ وما زال الخلاف مستمراً بنفس الحدة، والصراع محتدماً بنفس الشدة فى الوقت المعاصر كما كان فى القرون السابقة على الميلاد، وذلك لأن حركة الفكر البشرى تمثل نتاجا تصادميا طبيعيا لحركة الحياة، وهى بهذا تمثل صراعًا متأججًا ومتطوراً بين الخير والشر، الحق والباطل، العلم والجهل، القبح والجَمَال.

وهذه الأضداد لا تلتقى فى فكر واحد، إنما هى كائنة عند فريقين - فريق يؤمن بالحق وينكر الباطل، وآخر يؤمن بالباطل على أنه الحق وما عداه باطل وهو الحق عند الآخَرين.

وكلها مسائل نسبية عند جموع البشر - سواء فى المجتمعات البدوية البدائية البسيطة أو فى الحياة المدنية الحديثة عند أهل الحضر.

من ذلك ما قال به اليهود من أن نبَّى الله يعقوب عليه السلام قد تمكن من أسر الله ولم يطلق سراحه إلا عند الفجر، بعد أن حدد يعقوبُ شروطَ صفقة، قبلها الرب حتى يفك يعقوبُ أسرَه؛ بينما يرفض أهل النصرانية والمسلمون هذا الكلام ويعتبرونه تطاولاً على الذات الإلهيّة.

ثم حدث اتفاق واختلاف، وجاء إقرار وإنكار من أهل النصرانية واليهودية على السواء كما حكى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّه ﴾ [التوبة : ٣٠] .

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّه ﴾ [التوبة : ٣٠] .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة : ١١٣] .

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ [البقرة : ١١٣] .

وإن كانوا قد صدقوا فى الثانية عن غير قصد، إلا أنهم قد خابوا يقينا لما خالفوا أصل العقيدة فيما قالت به الفئتان فى الأولى.

ويأتى المسلمون على إثر ذلك ليؤكدوا على كذب، وافتراء، وبهتان، وكُفر الفئتين الضالّتين. اللتين جعلتا لله ولدا، ويقطعون بصدق قول اليهود والنصارى من أن الفئتين ليست إحداهما على شيء، كما يؤكدون على أن : (عُزيرٌ، وعيسى) عليهما السلام هما عَبْدان لله تعالى، وخلق من خلقه .

كما قال تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦].

وتلك هى طبيعة الصراع الأزلى بين المادة التى تُجَسّد كل شىء، فتجعل الجسدَ المادى هو مادة الفكر وصورته، وبين الروح التى تسبق المادة وتعتليها، وتجعل من ذروة عقيدتها الإيمان المطلق بأنه هو حقا كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥]

والحاصل أن كثيرين قد آمنوا بالله تعالى (ربا – خالقا – وهّابا – عاطيا) إلا أنهم والآخرين – منهم جميعا – وقع بينهم اختلاف فى ذاتيته تعالى : لما قال تعالى حكاية عنهم :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ [الأنعام : ١٠٠] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ [إبراهيم : ٣٠] .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف : ١٩] .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾ [الأنبياء : من ٢٦] .

وهذا الفريق يلقى معارضة كبيرة من فريق آخر يحمل طابعا حضاريًا خاصًا وخصائص ثقافية متميزة تقضى جميعها ببطلان قول الفريق الأول ويُدحضه ويَجزم البتة على صَلابة رأيه وصدق موقفه إعمالا لقوله تعالى :

﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً ﴾ [الجن : ٣] .

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾ [مريم : ٣٥] .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

ولكننا نجد اللقاء الفكرى القهرى، والإلتقاء الفكرى الإختيارى من الطرفين المتحاجين أصحاب التيارات الفكرية المتباينة. متفقين عند نقطة بعينها – مجتمعين عليها فيما قال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا

تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون : ٨٤-٨٩] .

ومن ثم تبرز أهمية تباين الآراء ، والأفكار، والعقائدية التى تتباين بين الإنكار المطلق عند فريق إلى يقين مطلق عند آخر، ليتأكد من خلال هذا البروز حقيقة الإختلافات والتصادمات التى تحدث عبر الأزمان، وليُتبيّن بمقدار أهمية التفاوت فى الأفكار والمعتقدات، التى تمثل الوجود المادى، والجوهر الحقيقى للتخلف والتقدم فى حياة البدو والحضر، والجهل والمعرفة.

وهى تكشف كذلك عن تضاد دائم، وصِدَامٍ متجدد بين الآخذين بأسباب المدنية والرقى والتحضر، وبين الرابضين فى مستنقعات التخلف والعجز والفقر . . . وبذلك يمكن القول بأنه صِدَامٌ – أو هو – صراعٌ متجدد ومتحورٌ ومتنوع بين كل هؤلاء.

ويلعب العقل دوراً كبيراً فى نشأة الصراع بين الحضارات، خاصة مع أصحاب المدنية والرفه (المترفون، الماديون، الداعون لإطلاق الشهوات على عنانها بما فيهَا اشتهاء رؤية الله جهرة وتعليق حصول إيمانهم على التثبت من رؤية الله تعالى فى حكاية القرآن الكريم عنهم.

وقالوا ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ [البقرة : ٥٥] أولئك هم الماديون أو هم (الطبيعيون)[١] الذين ينسب إليهم فضل صناعة الإبرة والصاروخ، وقد تطورت على أيديهم مصادر الطاقة من إيقاد الفحم إلى توليد الكهرباء، من الطاقة الشمسية، ومن المياه، ومن الرياح، وهو ما يعنى أن التقدم المادى والإنجاز العلمى قام من أساسه على صياغة العقل البشرى، وتطور أفكاره، وإبداعاته.

وفريق آخر يؤمن بالجمع بين النظرية والتطبيق، والعلم والإيمان، ويبحث في العجز واليقين، همُّه العمل للدنيا كأنّه يعيش فيها أبداً، وللآخرة كأنه يموت غداً ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ [الأنفال: ٧٤].

هذه التيارات الفكرية المتباينة، والمعتقدات المغايرة. هى التي خلقت الصراع البشرى منذ دهر البشرية الأول، والذى تطور إلى صراعات وحروب محلية وإقليمية ثم أصابتها الحداثة والصيرورة لتصير حروبا عالمية، لا لسبب إلا لاختلاف الأفكار وتباين الثقافات – بالأدق – صراع الأديان.

---

(١) سيرد الكلام عنهم تفصيلا فى موضوع العلمانية والزمن الردئ.

رغم ما يتردد من هنا أو من هناك وما يقال عن حوار الأديان، وعلى الرغم أيضًا مما يعقد لأجله من ندوات ومؤتمرات، حتى وإن صدر إعلان عن أسباب أخرى غير حقيقية لتلك الحروب، أو هذه المصادمات، فكلها تعبيرات فضفاضة لا تُطَمئن خاطرا ولا تُريح مشغولا. وإن اجتهد لأجل ذلك البعض بحثًا عن مبررات لتمرير سوء نتائجها.

إلا أنها لا تمثل في الواقع إلا صراعًا بين الحضارات لا يعرف لغة في الحوار غير حوار الدبابات، التي تُخضع فريقا لإرادة الآخر؛ حتى وإن كان إخضاعا مرحليا أو مؤقتا.

فإنهُ دائمًا ما ينتهي بثورة المقهورين المدافعين عن وجودهم، وثقافتهم وعقيدتهم – أي – من أجل حضارتهم، رفضا للخضوع لثقافة غريبة حتى وإن كان تحت شعارات دينية، ودوافع أخلاقية كتلك التي قادت أُمما نحو إقامة إمبراطوريات عظمى سابقا، ثم لم تلبث أن دبت فيَها عوامل الضعف وظهرت عليها علامات الشيخوخة، وظهر الفساد جليا في شتى مناحي حياتها فرحلت، كما أن تلك الشعارات، وهذه الدوافعَ حَمَلَت أممًا على القفز فَوْق رقاب الآخرين فصعدت غير مُكترثة بمستقبل الشعوب، كما أنها أضاعت أمما، وأبادت أُخريات.

وبطن التاريخ حُبلى بالدلائل، التي سوف نتعرض لها، حتى الوصول إلى الملحمة الكبرى. أو هي صراع الديانات الأخير والذي يبدأ بحرب كبيرة ومدمرة بين الأمريكيين والإسرائيليين على أرض العالم العربي .. والتي سيكون فيها المسلمون طرفا أصليًا يفعل فعل الحسم تمهيداً لنزول نبي الله عيسى عليه السلام. فيقتل اليهود، ويذبح الخنزير، ويكسر الصليب، ويحكم بدين الله (الإسلام) وبسُنّة النبي العدنان ﷺ، والذي بنزوله تعرف الساعة وتشرف الدنيا على الانتهاء لقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ** ﴾ [الزخرف : ٦١] .

عبد السلام اللمعى

* * *

الباب الأول
تاريخ الحضارة الإنسانية

تقديم : معنى الحضارة

الفصل الأول : الحضارة فى عالم ما قبل الإسلام :

أولاً : الحضارة الفرعونية (المصرية)

ثانيًا : الحضارة العربية

ثالثًا : الحضارة الفارسية

رابعًا : الحضارة الرومانية

خامسًا : الحضارة القرطاجية (التونسية)

سادسًا : الحضارة الفينيقية (اللبنانية)

الفصل الثانى : الحضارة الإسلامية والحضارات القديمة :

أولاً : الثقافة عند عرب الجاهلية - دراسة مقارنة

ثانيًا : أضواء على العقيدة اليهودية .

١- النظم القانونية والاجتماعية لدى الاسرائيليين

٢- التربية والتعليم عند الإسرائيليين.

٣- الأنشطة عند الإسرائيليين .

٤- آثار الأفكار الحزبية والقوى السياسية الأخرى على الفرد الإسرائيلى .

ثالثًا : نشأة الدولة الإسلامية .

رابعًا : نشأة الحضارة الإسلامية .

خامسًا : فضل العرب فى الفتوحات الإسلامية .

سادسًا : الآثار ولغة الحوار .

الفصل الثالث : آسيا والتاج الملكى :

أولاً : الإسلام فى آسيا .

ثانيًا : أفغانستان .

ثالثًا : الشرق الأقصى .

رابعًا : جنوب شرق آسيا .

خامسًا : رِدّةُ الفعل الصليبية .

تاريخ الحضارة الإنسانية

تقديم : معنى الحضارة

الحضارة فى اللغة هى الإقامة فى الحَضَر[1]، وهى ضد البداوة، و : مظاهر الرقى العلمى والفنى والاجتماعى فى الحضَرَ، (والحَضَرْ، والحاضرةُ والحَضْرُ – واحد)، وهى خلاف البادية وهى المدن والقرى والريف والعاصمة .

وقد عَرَّفَها ابن خلدون فى مقدمته بأنّها (أحوال عادية زائدة على الضرورة من أحوال العمران زيادةً تتفاوت بتفاوت الرَفِه[2]، وتفاوت الأمم فى القِلّة والكثرة تفاوتًا غير منحصر[3] .

وسُمِّيت بذلك لأن أهلها حضروْا الأمصار، بعد أن هجروا البادية وتمردوا عليها، لانعدام حصول الغنى والرَفَه، اللذان بهما تتحرر فى النفوس دوافع التطلع، وتتحرك فى العقول عوامل الإنشاء والإبداع، وتبدأ السير فى طريق الحضارة خطوات تتلوها خطوات، فتكون الاكتشافات والإبداعات والانطلاقات الكبرى بما فى ذلك غزو الفضاء ومحاولات كشف أسراره وألغازه .

وتنطق الشواهد، وتؤكد التجارب أن الحضارة لا يختص بها شعب دون آخر، أو جنس دون جنس، أو لون دون لون . فقد تظهر فى قارة بعينها . وقد تكون فى كل القارات، كما يمكن أن تتنوع وتتعدد فى القارة الواحدة . كما هو الحال فى الشمال الإفريقى الذى تأتى فى مقدمته الحضارة المصرية القديمة الجارة لحضارات أخرى طاعنة فى الساحل الشمالى الإفريقى .

وهناك فى آسيا كانت قديمًا الحضارة الهندية، والصينية، والفارسية، وفى أوروبا اللاتينية – والرومانية .

وكانت الحضارة العربية فى أرض العرب .

وانتهى المطاف بالحضارة الإسلامية التى تَمكّن بفضلها العرب بعد أن تهيأت

---

(١) المعجم الوجيز باب حَضَرَ ص ١٥٧ .

(٢) لين العيش .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣٠٩ .

لهم ظروف التحضر وإمكانيات التطور، أن يضيئوا مصابيح الحضارة فى عصر القرون الوُسطى، والتى انعكست أضواؤها على أوروبا، فأضاءت ظلام شعوبها المتخبطة فى غيابة الجهل والتخلف، وهم قيد أغلال الأَسْر الفوضوى والإستبدادى، وضيق الأفق، حتى شَرَع مفكرو الغرب يتلمسون فى الحضارة الإسلامية آفاق التحرر، وسبل الانطلاق، وذلك لأن المدنيّة العربية والحضارة الإسلامية من أدهش ما عرف التاريخ.

ولئن كان التأثير العربى جليّا فى الغرب، فإن آثاره فى الشرق أعظم، لأنّ العرب هم الذين علمّوا العالم شرقا وغربا كيفية استقامة حرية الفكر والتطوير والإبداع – مع استقامة أحوال الدين وأمور العقيدة .

بينما يتطلب وجود حضارة من الحضارات مجموعة من العناصر الأساسية والعوامل الجوهرية لوجود تلك الحضارة، وقيامها، ونهضتها، وتطورها. وذلك لأنها ليست أمراً ينقاد الناس إليه بالفطرة. بل يتعين على الأجيال المتلاحقة اكتسابها بالمران والتعلم أو التلقين والتطويع.

حيث أن نقل موروث التراث الإنسانى من جيل إلى جيل هو عمل مرهون بجودة (المرُسِل) الناقل، والمرُسَل إليه (المتلقى) كما أنها نتاج طبيعى لتطور الاحتياجات البشرية وتنميتها والتى لن تصل يوما إلى درجة الكفاية أو التشبع.

ومن أهم تلك العناصر :

أولاً : نظم الحكم السياسية :

ففى ظل أى نظام يرتضيه المجتمع، بحيث يأمن الناسُ ويطمئنُون على أنفسهم، وأموالهم، وأقواتهم. يحصل الإنصراف إلى التفكير الهادئ السليم المنتج، والمبدع.

ثانيا : التقاليد الاجتماعية، والقيم الأخلاقية :

وهى التى تفعل فعل الدستور باعتباره قانون القوانين التى تحكم المجتمع وتصون حقوقه فى إطار من الأعراف والقوانين الاجتماعية إذا كان ذلك عندَ شعوب غابت عنها (التشريعات السماوية)[1]، بحيث يرعى الجميع تلك التقاليد وهذه القيم ويتمسكون بها لتقوية الروابط والصلات بين أفراد المجتمع على اختلاف شرائحه، حتى ينتظم سلوك الناس، وكي يتخذ – المجتمع – طريقه الصحيح نحو الهدف الذى يسعى الجميع إلى تحقيقه .

---

(١) أى أهملتها الشعوب وأعرضت عنها .

ثالثًا : وحدة اللغة :

وهى لغة التخاطب، وأداة نقل الثقافات، والأخلاق، والتقاليد، والقيم من جيل إلى جيل. كونها كذلك وسيلة تبادل الأفكار، والأبحاث، ومتابعة العلوم، والفنون، والآداب، والمواثيق الإنسانية لأمة بأسرها، كما هو الحال فى الأمة العربية، وفى الحضارة الصينية.

رابعًا : الموارد الاقتصادية :

ويقصد بها تنوع الموارد وتجددها من مواد خام ووسائل إنتاج ورؤوس أموال وأدوات تسويق بحيث تعمل كلها باتساق تام لخلق وإيجاد المدنيّة (الحضارة) وازدهار فنونها وذيوع صيتها.

وهناك من العوامل التى قد تعوق سير الحضارة ونهضتها، أو قد تستثيرها وتحثُّ خُطاها على السعى والتقدم. من أهمها :

- **العوامل الطبيعية (الچيولوچية) :**

حيث يلعب ذلك العامل دوراً خطيراً في نهضة الحضارة أو كبوتها، قيامها أو اندثارها، فقد يحدث أن يغمر الجليد الأرض بركام من الثلوج فَيحُصر الحياة فى نطاق ضَيّق، ويطمس ما أنشأه الإنسان. أو قد يحدث زلزال عظيم تنشق الأرض له فتبتلع ما فوقها، ومن فوقها من المبدعين وإبداعاتهم ومن ثم يتضح ما للطبيعة من تأثيرات حاسمة على حركة التاريخ الإنسانى كله. مثال ذلك ما كان فى شأن (إِرَم) ذات العماد.

- **العوامل الجغرافية :**

لا تقل فى تأثيرها عن سابقتها فى نشأة الحضارات، وازدهارها ففى المناطق الاستوائية حيث الخُمُول، والأوبئة، وأمراض المناطق الحارة يتعذر قيام حياة مدنية طبيعية سوية - هذا بخلاف بعض الحضارات التى ازدهرت فى القديم، واندثرت بسبب الجفاف الشديد، وندرة الأمطار.

ويعتبر وجود التربة الخصبة، والأنهار الصالحة للملاحة والنقل، ووفرة الشواطىء التى تصلح مرافىء للسفن، والواقعة على طرق التجارة العالمية، بالإضافة إلى وجود

الممرات المائية الطبيعية أو الصناعية، مثل مضيق جبل طارق، وقناة السويس، وكذلك وفرة الثروات المعدنية والمواد الخام الأولية في باطن الأرض، كل هذا وهذه عوامل ضرورية ولازمة لنمو الحضارة وتطورها، بينما يُعدُّ ندرة ما تقدم مُقوِّضا فعليا لفكرة نشأة حضارة من الحضارات أوْ حائلا أساسيا دون قيامها .

● **عوامل أمنية :**

حيث تبدأ الحضارة : حين ينتهى القلق، وينعدم التوتر، وتزول الاضطرابات فتنطلق فى الإنسانية ملكات الإبداعات، وقدرات الإحداثات . وتتفجر فى العقول الطاقات . ومن ثم تقوم أعظم الحضارات الإنسانية .

* * *

الفصل الأول

الحضارة فى عالم ما قبل الإسلام

تؤكد الحقائق على أن الإنسان مدنىٌّ بطبعه، يميل دائمًا إلى الحداثة والتجديد والإبداع والتبديل، لأنه دائمًا ما يتمرد على واقعه، أملا فى الوصول إلى غد أفضل يتوافر له فيه الرفَهُ، والترف، ولين العيش، ومن ثَمَّ فإنه يبحث عن الإندماج فى مجموعات بشرية تتطور هى الأخرى بتلقائية من البعض إلى الكل، ومن القِلّة إلى الكثرة، وتلك نواة المجتمع المدنى المتكامل الذى احترف بعضه الزراعة، وبعضٌ التجارة. وآخرون قد احترفوا الصيد.

ثم تطورت طموحاتهم وحاجاتهم جميعا فاختطُّوا، المدن والأمصار، وأجادوا فى الأبحاث الدوائية لعلاج المرضى، وصاروا يتأنقون فى اختيار أشهر الأطعمة وأفخر الملابس، محققين بتعاونهم الاجتماعى أعلى استفادة ممكنة، مما أتاحته الإمكانيات، ووفرته البيئة، ثم اجتهدوا فى جلب أدوات ووسائل أخرى، من الأمصار الأخرى التى وصلوا إليها عن طريق الهجرة البدائيّة، والتى تطورت بعد لتصل إلى حد الكشوف الجغرافية، وتطورت بالضرورة فيما بعد لتصل إلى حد قهر شعوب أخرى للإستيلاء على مواردهم، وثرواتهم، وتسخيرهم بل وخلق نوع جديد من التجارة فى البشر فيما عُرِف بَعْدُ (النخاسة). وتلك هى نتائج حركة الهجرة الجديدة الموسعة ومساوئها والتى ارتبطت دائمًا بالدول الاستعمارية.

وقد شبّت فى مناطق مختلفة على سطح الأرض حضاراتٌ عظيمةٌ منذ ما قبل التاريخ، وعند فجره. وبعد أن عُرِف التاريخ. ومن أمثلتها:

الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية)، والتى نبغت فى علوم الفلك والطب والجغرافيا، وعلم «تحنيط الموتى»، والرياضيات، والهندسة، والعمارة.... والتى لم تدع فرعًا من فروع العلم والمعرفة إلّا وطرقت أبوابه، وسجلت على صفحات التاريخ نُبُوغ أصحابه (الفراعنة)... ثم كانت كذلك الحضارات (العربية، الفارسية، الرومانية، القرطاجية، الفينيقية) وكلها قد ساهمت بمقدار فى إعداد أبنائها علمًا وفنًا وأدبًا ونبوغًا وسلوكًا وتقاليد وأخلاقًا وسلوكًا.

* * *

أولاً: الحضارة المصرية (الفرعونية)

هى من أقدم الحضارات التى عرفتها البشرية، والتى نشأت فى الجزء الشمالى الشرقى من قارة إفريقيا .

وقد برع المصريون القدماء فى تحسين زراعة الأرض، حتى أصبحت الزراعة من الحرف الأساسية فى مصر، ثم فى وادى النيل بعد ذلك .

وإلى جانب هذا التطور فى الزراعة فقد ظهرت بعض الحرف الأخرى كأشغال الحجر، والصلصال، والخشب، كما ظهرت حرفة النسيج، ودباغة الجلود، وساعدتهم أبحاثهم وإمكانياتهم على اكتشاف المعادن التى فتحت الأبواب إيذانا ببداية عهد جديد، وازدادت تجارة المقايضة ازدياداً كبيرا بظهور الحرف[1]، كما برعوا فى صناعة السفن، وضربوا بسهم وافر فى الأدب، ودرسوا الفَلَك، وكانوا أسبق الناس فى وضع التقويم السنوى، وعرفوا النظام العشرى فى الرياضيات، وألمُّوا بشىء من علم الجبر، واهتموا بترقية فن العمارة، فدرسوا العمليات الحسابية المتصلة بالمربعات، والمثلثات، والدوائر، وحجوم الأهرامات البسيطة والناقصة .

وبرعوا كذلك فى الطب كما تشهد على ذلك وإلى الآن دراسات المومياء (علم تحنيط الموتى)، وعالجوا العظام، والأنسجة الجلدية المريضة بالآلات الجراحية وأبدعوا فى علاج الأسنان بالتوصل إلى الحشو، كما أبدعوا فى صناعة الأوانى الزجاجية، والخزفية، والأصباغ، وعَرَفُوا الورق من نَبات البردى، ومن مواد أخرى، ومازال الفن والإبداع الفرعونّي واقفا على رؤوس الأشهاد يستهوى الوافدين من العالم للتعرف على عبقريات المصرى القديم .

بينما لم يشأ المصرى القديم أن يظل حبيساً بطاقاته فى حدوده الجغرافية، وأيضًا عليها، إنما قد خَطَى خُطوات تلو أخريات للتعرف على جيرانه ونشر مدنيته فيهم وكانت تلك هى أول الخطوات التى كشفت أجزاء مهمة من قارة إفريقيا، وبعثت أشعة النور بين جنباتها وفى ظلمات أدغالها .

واستمر التوسع المصرى فى إفريقيا، حتى وصلت الأسرة الخامسة إلى الصومال والمناطق الواقعة جنوبى خليج عدن. وكانت تلك هى البعثة التى أرسلها (سحور رع) وهى بعثة ذات طابع تجارى خالص فى المقام الأول .

وقد استطاع المصرى القديم التوغل عن طريق النيل صوب الجنوب فى عصر الملك [بيبى الأول] حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م. حين أرسل حملة إلى بلاد النوبة (وراء الشلال الأول) وجنَّد من بين النوبيين فرقا بالجيش المصرى، واستعملهم فى غزواته الشمالية وظلت هذه عادته وعادةُ كثير من الحكام الذين جاءوا من بعده .

---

(١) موجز تاريخ إفريقيا ص ٤ ، ٥ تعريب أمين الشريف .

وفى أيام (بيبى الثانى) أُرسلت حملة بحرية إلى الصومال، دلت عليها النقوش التاريخية الموجودة إلى الآن، وتكررت غزوات مصر فى عصر الدولة الوسطى.

وتعتبر رحلات المصريين فى عصر الملكة « حتشبسوت » فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. رحلات استكشافية من الدرجة الأولى، وقد سلكت هذه الرحلات طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى حتى وصلت إلى بلاد الصومال وإريتريا[١] ، وهكذا يتبين كيف عمل المصرى القديم على نشر مدنيته فى بلاد الجوار حتى وصل إلى منابع النيل، واتجهوا غربا حتى بُحيرة تشاد، ثم تخطوها إلى الغرب الإفريقى وتطورت صلات المصريين القدماء بهذه المناطق، وتنوعت إلى صلات تجارية، وثقافية، وتطورت أكثر لتُصبَغ أحياناً بالطابع السياسى والعسكرى.

فهناك على ضفاف النيل حيث [السلام، والطعام ، والذكاء] عاشت هذه الحضارات ومن مصر انتقلت إلى أوروبا وإلى إفريقيا[٢] .

هذا وقد عاودت السيادة المصرية بسط نفوذها على الإمبراطورية المصرية فى آسيا، فى عصر الفرعون المصرى (نيكاو)، فى موقعة (مجدو) عام ٦٠٩ ق.م وقد تمكن الفرعون من أن يفرض السيادة المصرية على دويلة (يهوذا) – القسم الجنوبى من المملكة الإسرائيلية القديمة – خلال عهد « يهو آحاذ » ، « يهوياقيم »، واستمر الحال كذلك حتى جاء الملك [نبوخذ نصر] على عرش بابل فى ٦٠٥ : ٥٦٢ ق.م واستولى على أورشاليم[٣] .

هذا وقد شُغف الفراعنة بإحتلال فلسطين وسوريا فاخترقت الجيوش المصرية قلب فلسطين حوالى [١٦٠ : ق.م] ، وظل الحال حتى ضعفت قوة مصر وغزاها الهكسوس[٤] ولم تلبث مصر أن استردت قوتها، حتى تمكنت الإمبراطورية الجديدة من طرد الهكسوس إلى قلاعهم بقيادة (أحمس).

وبعد أن حقق المصرى القديم الكثيرَ من النجاح المادى وقد تحققت أيضًا على يديه المعجزات الإبداعية الخلاّقة – طرأت على آماله الحداثة فاشتغل بالبحث عن إشباع رغباته الروحية استرضاء للغريزة الفطرية التى تميل إلى العبادة، وتحِنّ إلى الكمال وتسأل عن الإله الأعظم.

وقد نشأت فى الحضارة المصرية القديمة نظرية دينية جديدة، قيل فيها أنها المثلث الإلهى الأزلى (سر وجود مصر) والذى بُنِىَ عليه المثلث اليونانى، وقد كانت التقاليد فى مدينة أبيس عبادة أوزيريس فى ثالوث أو مثلث مكون من :

---

(١) كشف إفريقيا ص ٧–٩ من تقديم د. زاهر رياض.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج٦ ص ١٣٣ .

(٣) تاريخ الشعب اليهودى / م.ل – مارجولوليز، أ.ماركس اليهوديان ج٢ ص ٥٦ .

(٤) تاريخ الشرق القديم – مصر وسوريا القديمة ص ٣٣٤ .

١- أوزيريس: وهو يشكل عجل أبيس.
٢- أريس: البقرة المقدسة مغذية ابنها حورس.
٣- الطفل حورس: أو أبيس الصغير أى (العُجَيل)[١].

وقد اتضح التأثير المصرى فى المناطق التى خضعت للنفوذ المصرى المباشر أو تلك التى ارتبطت بروابط ثقافيّة وتجارية من دون التبعية العسكرية فى الداخل الإفريقى. فالقبائل التى كانت لها السيادة فى رواندا، بوروندى كانت تقدس البقرة كما قدس أسلافهم فى مصر عجل أبيس، واتخذوا منها معبوداً كما فعل المصريون بالآلهة (هاتور)، بينما يحظى الكَبْش بتقديس عظيم عند اليوروبا، كما هو مقدس عند المصريين.

وديانة اليوروبا تجمعها عناصر شَبَه. تسترعى الإنتباه وتلفت الأنظار إلى ديانة مصر القديمة، كما أن هناك شبه مثير بين مقبرة [أتاجلاّ] (ATAGALLA) ذى الشكل الكهفى أو القوارب التى كانت تستعمل كتوابيت عند قبائل النوبى، وبين الرسومات الموجودة على المقابر المصرية[٢].

ولقد نزل الروح الأمين (جبريل عليه السلام) فى أرض مصر قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ فى مكة بنحو (ألفين ومائتين وعشرين عاما تقريبا) حيث جاء جبريل عليه السلام بوحى من الله تعالى إلى [يوسف عليه السلام] فى سجنه المجاور لمنزلى بقرية (أبوصير - البدرشين - جيزة) ليعلمه تأويل الأحلام، ويلقنه حجته وليعطيه مقدما إجابة ما قد يُسْئل عنه.

وها هو ذا نبى الله يوسف عليه السلام يُقر إقراراً أكيداً بفضل الله عليه ورحمته به، حين أجاب اللذين دخلا معه السجن، وقد قال: ﴿ **لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي** ﴾ [يوسف: من ٣٧].

وقد استطاع يوسفُ عليه السلام أن يفسر الحلم الذى رآه فرعون مصر، وبعدها صار عزيزاً لمصر - بينما هبط الأمين جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بغار حراء فى مكة المكرمة وكان للرسول ﷺ من العمر أربعون عامًا، وحكى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيّب أنه كان عمره إذ ذاك ثلاثا وأربعين سنة[٣].

---

(١) تاريخ اليهود القديم بمصر - الطبعة الأولى ص ٢٦ : ٢٧ - عبدالمحسن الخشاب.
(٢) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٦ ص ٨٠ : ٨١.
(٣) البداية والنهاية ج ٢ ص ٥.

وفى هذا ما يؤكد على عمق الحضارة المصرية وعظمتها الطاعنة فى بطن التاريخ والتى يدين العالم كله بالفضل العظيم لها، ولإبداعاتها، وآثارها . وإسهاماتها فى الحضارة العالمية .

ويجدر القول بأن المصريين القدماء قد عرفوا كتابة التاريخ وحساب الأيام، ووضعوا التقويم المصرى القديم عام ٤٢٤١ ق.م .

وقد استهل فرعون مصر تحتمس الثالث عصر التوسعات، وأسس امبراطورية فى فلسطين وسوريا إمتدت إلى نهر الفرات منذ [١٥٤٠ : ١٤٧٩] ق.م، وقد فقدت مصر إمبراطوريتها الأسيوية بعد الإضطرابات الدينية التى حدثت بعد أن فرض فرعون مصر (إخناتون) عبادة الشمس فى ١٣٦٠ ق.م .

وفى حوالى (١١٠٠ : ٩٥٠ ق.م) كان عصر الملوك الكهنة (الأسرة ٢١) . وفيه استولى كهنة آمون على العرش، وحكموا باسم الدين، ثم انقسمت مصر إلى الجنوب (طيبة) ويحكمها كهنة « توت عنخ آمون »، والشمال (تانيس) صان الحجر حاليا، حوالى ١٠٧٠ : ١٠٠٠ ق.م .

وكانت مصر مطمعًا للغزاة منذ عهدها الأول، فقد تعرضت عام ١٢٠٠ : ١١٠٠ ق.م إلى غزو خارجى من قِبَل من كانوا يُعرفون حينئذ (شعوب البحر)، وهى شعوب أوروبية قادمة من بحر إيجة، وقد غزت سوريا، وفلسطين، وحاولت دخول مصر. لكن رمسيس الثانى تصدى لهم وطردهم وأحبط محاولاتهم، ثم جاء الأشوريون فى ٦٧٠ ق.م فدمروا ممفيس وطيبة، ولكنهم فشلوا فى السيطرة على مصر، وفى ٥٢٥ ق.م قاد الملك الفارسى (قمبيز) حملة عسكرية إستطاع خلالها احتلال مصر حتى عام ٤٠١ ق.م وهى ما تعرف تاريخيا (الاحتلال الفارسى الأول) . ثم عاوَدَ الفرس احتلالهم مصر ثانية فى ٣٤٣ ق.م بقيادة ملكهم « أرتكسركيز » أو هو (هوار تحشاشا) حتى جاء الإسكندر الأكبر (المقدونى) فى ٣٣٢ ق.م وفتح مصر بعد أن استنجد به المصريون وقد إستطاع تحريرها وطرد الفرس، ثم أسس مدينة الإسكندرية فى العام ذاته، وظلت مصر تحت الحكم المقدونى حتى ٣٠٤ ق.م ليبدأ عصر البطالمة حتى جاء (أوكتافيوس) الديكتاتور الرومانى الذى تمكن من إخضاع مصر للإمبراطورية على مدى عدة قرون، ثم أصبحت بعد ذلك جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية سنة ٣٠ ق.م إلى عام ٣٠٣ ميلادى، وفيه بدأ الإمبراطور الرومانى (ديوكليتيان) . دقلديانوس. اضطهاده للمسيحيين المصريين بشدة وبقسوة وغلظة وكان إرادة الله القوية، ومشيئته الغالبة، وقوته القاهرة، أرادت بمصر والمصريين

الخير كله، فكان أن حدث إلى جانب الإضطهاد الرومانى زلزال شديد فى شرق الدلتا فى ٢١ / ٧ / ٣٦٥ م دمر مدينة تانيس (صان الحجر) تماما (بمحافظة الشرقية)، وحطم معابدها الضخمة، وأتىَ على سَلاَّتها الكبيرة، ومحاها تماماً، وأنهى بذلك وضع المدينة « الخاص » كمركز دينى كبير فى العهدين الوثنى والمسيحى.

مما هيأ الأمور تماماً فى مصر لاستقبال الفتح الإسلامى، وزيوع صيته وسرعة انتشاره، وقضى تماماً على معوقات هذا الفتح.

* * *

ثانياً : الحضارة العربية

تقع بلاد العرب فى منطقة إلى الجنوب الغربى من قارة آسيا، وقد أطلق عليها العرب قديماً الجزيرة العربية، وهى عبارة عن مستطيل غير متوازى الأضلاع وهى فى واقعها شبه جزيرة، وتبلغ مساحتها ثمانية أضعاف الجزر البريطانية مجتمعة، وضعفى مساحة فرنسا، إلا أنها عدا – اليمن – غلب عليها الجدب لندرة الأمطار التى جعلت الناس تنتقل حيث يتساقط القطر، وينبت الكلأ الذى ترعاه دوابهم، وهى بالتالى تفتقر إلى الأنهار دائمة الجريان. غير أنها بها بعض عيون المياه (الآبار) التى لا تفى بحاجة الناس والأرض والحيوان.

ويقص القرآن الكريم أن أقدم طبقات شعوب العرب قد بادت، واندثرت أخبارها بحيث يصير من العسير على الدارسين، والباحثين الخوض فى بحث عن العرب الأول، لأن أكثر المتداول من معلومات والمتاح من أخبار عن هذه الطبقات مستمد من الكتب السماوية، وأكثر ما جاء فيه – غايته – الترهيب والترغيب، واستخلاص العظة والعبرة كقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٥] ، وهناك ما رواه المؤرخون (هيرودويت ، وديودور) وما قالا به لا يميل قلبى إلى تصديقه ويرفض عقلى قبوله لأنها أقوال تعتمد على المظنات ولا جدوى من التوقف عليها.

والذى بين أيدينا أن أولاد "آدم" عليه السلام، وهم الأصول مثل (هابيل، قابيل، وشيث، عبدالحارث) وفى بعض الروايات « إدريس عليه السلام » . وقد وُلِدَ لإدريس (عنْدر ، ولعندر محوايل، ولمحوايل متوشيل، ولمتوشيل لامك) وقد تزوج لامك من امرأتين (عَدَا ، صَلاَ) فولدت الأولى (إبل، نوبل) ، وولدت الثانية (توبلقين) وبنتا اسمها (نعمى) .

وقد رُزِق شيث فى حياة أبيه آدم بإبنه (أنوش) وبنون وبنات غير أنوش، فوُلد

لأنوش (قينان) ووُلد لقينان مهلا ييل ووُلد لمهلاييل (يَرْد) وبنون وبنات غير يرد، فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون وُلد له « خنخوخ » وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة ووُلد له بنون وبنات، فلما كان لخنخوخ خمسة وستون سنة وُلد له متوشلح وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة ووُلد له بنون وبنات، فلما كان لمتوشلح مائة وسبع وثمانون سنة وُلد له لامك، وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة ووُلد له بنون وبنات فلما كان للامك من العمر مائة واثنان وثمانون سنة وَلد له نوح، وعاش بعد ذلك خمسمائة وتسعين سنة ووُلد له بنون وبنات، فلما كان لنوح خمسمائة سنة وُلد له بنون (سام، حام، يافث، كنعان)[1]. وهذا مضمون ما في أيدى أهل الكتاب صراحة.

وقد انحرف مَن جاء من هؤلاء عن طريق الله، ومكروا وعصوا، واعتدوا وكفروا وفسدوا في الأرض بكل أشكال الفساد وطرقها، وقد ضلوا، وعاثوا في الأرض فساداً يمينًا ويساراً، واتخذوا من دون الله آلهة أصنامًا يعبدونها ويدعونها فأرسل الله تبارك وتعالى (نوحًا) عليه السلام إلى قومه، وهم وإخوانه وأخواته وأولادهم وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته وأولادهم، وقرناؤه ونظراؤه من بنى قومه، ليبين لهم طريق الهداية والصراط المستقيم من قبل أن يأتيهم الموت وهم على ذلك. فيأتيهم عذاب أليم. وليبين لهم نوحٌ عليه السلام سبيل العبادة والتقوى والطاعة، وليبشرهم بوعد الله وجزائه. إذا ما أنابوا إلى ربهم وأسلموا له من قبل أن يأتيهم الموت وهم على عُتُلهِّم وبغيهم وكفرهم.

فعدد عليهم نوح عليه السلام وعد الصدق بمغفرة ذنوبهم، وإسعادهم وتمتعهم عند أجل قضى الله فيه أن يأتى بلا تأخير.

ولكنهم بلغوا النهاية فى العتوّ والتكبُّر والنَّفْرَة [أى] فِراراً – والنَّفْرُ والفِرار واحد : فرّ – فرّاً ، فِراراً : هرب : فهو فَارٌ ، وفرّار .

ويقال : فَرَّ إليه : لجأ ، فِرَارًا : و– الفِرار – : الملجأ يُفرُّ إليه[2].

ويقال: نَفَرَ – نُفُوراً : هَجَرَ وطنه وضرب في الأرض، ومِنَ الشيء نفوراً، نِفَاراً: فزع وانقبض غير راض عنه[3].

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) المعجم الوجيز : ص ٤٦٦ .

(٣) المعجم الوجيز : ص ١٢٦ .

وقد عاملوا نوحًا عليه السلام باستياءٍ وباشياءَ كُلّما قصد دعوتهم إلى الله تعالى - من أهمها :

أنّهم جعلوا أصابعهم في آذاناهم لئلا يعلموا الحجة أو تأتيهم البيّنة، واستَغْشَوا ثيابهم: أى تغطوا بها لأجل أن لا يُبصِروا وجهه.

وجعل الأصابع فى الأذان والتغطية بالثياب يؤكدان على الإعراض المطلق مما يصيِّر المانع من السماع أقوى، وأصروا على عنادهم وإعراضهم عن دعوة الحق، واستكبروا استكباراً عظيما بالغا أقاصى المدى.

وقد بين نوح عليه السلام منهجه، وأقر باتِّباعه طرقا ثلاث عند دعوة قومه، وقد بدأها بالمناصحة (أن اعبدوا الله واتقوه) فلما لم تُثمَر ثنّى بالمجاهرة (إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) فلما لم تثمر جمع بين الإعلان والسِّر (أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً).

وقد قال لهم نوح عليه السلام : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً):

وفيها قال مقاتل: إن قوم نوح لما كذبوا طويلا حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام النساء أربعين سنة، فرجعوا إلى نوح. فقال نوح: استغفروا ربكم من كل شرك حتّى يفتح عليكم أبواب نِعَمه، فينزل المطر من السماء (السحاب) ويرزقكم بالأموال التى تعم كل النعم، والبنين: وهو ما تميل النّفْس والفطرة إلى حصوله ويجعل لكم البساتين والأنهار(١).

وقد ذكّرهم نوح عليه السلام بأن تعظيم الله وتوقيره مدعاة لحصول تلك المنافع كلها وزيادة، والإشتغال بهما أولى مما هم عليه، ثم عاد ليذكرهم بقدرة الله عليهم مستخدمًا التنبيه على أطوار خلقهم، ثم أقام لهم الشواهد المادية من البيئة المحيطة وهى من دلائل الآفاق التى تُحدث الإبهار، وتوجب التعظيم، ثم ذكر دلائل النفس التى بالبحث فيها يحصل اليقين بقدرة الله الدالة على الخلق والإيجاد والصيرورة والتغيُّر والفناء والعدم.

ثم نبههم نوح عليه السلام ودعاهم إلى النظر فى هذه الدلائل الظاهرة، وحكى كذلك أنواع قُبح قولهم، وفعلهم، لذلك قال نوح مُتممًا لما بدأ ﴿ **أَنِ اعبدوا اللَّه واتَّقُوهُ وأَطِيعُونِ** ﴾ [نوح : ٣].

وكأنه ههنا يقول يارب إنى طلبت منهم طاعتى فى محبتك والسير على طريقك، فعصَونى واشتروا الدنيا ومنافعها الخاسرة. من المال، والولد، وإن كانا من جملة المنافع فى الدنيا، إلا أنهما فى الآخرة كالعدم ﴿ **يومَ لا ينفعُ مَالٌ**

(١) مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٧٣٨ .

وَلا بَنُونَ ﴾ [الشعراء : ٨٨] ومع ذلك مكروا مكرًا كُبّارا (وهو المبالغة فى كبر المكر) ، وقالوا لأتباعهم أو أمروهم - لا تتركوا عبادة الآلهة (ودّ [١] ، سوَاع [٢] ، يغوث [٣] - يعوق - نسرا [٤]) وكلها أصنام آلهة عبدها قوم نوح عليه السلام.

وقد أضلت تلك الآلهة الكثيرين من الناس كما أنها لا تزد هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالضلال البيّن والحيف الظاهر إلاّ ضلالا وغيًا.

وما كان إغراقهم بالطوفان « وهم » الفئة الأولى من البشر إلا من أجل خطيئاتهم وإصرارهم، وعنادهم وتوليهم عن الحق وعبادتهم الطاغوت عدا نوح وأهله (عدا زوجه) وولد يقال له كنعان. الذى غرق فى الطوفان وهو الأب الشرعى للفلسطينيين الذين سكنوا فلسطين قبل أن يرحل إليها الساميون بنحو (٢٠٠٠) ألفى عام.

وما شاء الله أن يبقى من الأجناس والأنوع. أمر الله تعالى نوحًا بحَملِه معه فى الفلك المشحون.

ولكن نوحًا قد دعا دعاءه لله مناديا إياه كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات : ٧٥] وسمع نوح من فوره نداءً من قبل السماء ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : ٣٧].

ولما هَمَّ عليه السلام بصناعة السفينة تنفيذاً لأمر ربه جل وعلا. تغامزوا عليه وسخروا منه ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود : ٣٨] وكان ما حكت الآيات.

تذرّع نوح عليه السلام بالصبر والإيمان حتى جاء أمر الله، وقضى فيهم قضاءه العادل ومضى حكمه النافذ كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠].

أى أن قضاء الله وأمره وحكمه بإغراق هؤلاء القوم كان يتضمن القضاء على كل نسل آدم عليه السلام بسبب خطيئاتهم ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ [نوح : ٢٥]

---

(١) عبده العرب فى الجاهلية الأولى قبل الطوفان، و-/وُدّ/ للعرب قبل الإسلام.

(٢) صنم عُبد فى قوم نوح ثم صار لهذيل أو كان لهمدان وحُجَّ إليه.

(٣) صنم كان لقبيلة مَذْحج فى الجاهلية .

(٤) النّسر: مع تشديد النون بضمها أو كسرها أو فتحها هو طائر من الجوارح حاد البصر من رتبة الصقريات.

وكان نوح قد طلب من ربه مثل ذلك حين قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح: ٢٦].

جمع نوح ما أُمر به أن يجمع، ومن كتب الله لهم النجاة معه، فجمع من الطير والحيوانات والزواحف، من كُلٍّ [ذكرًا وأنثى] كما قال تعالى: (زوجين اثنين) وأهله غير امرأته وولد له قيل أنه (يام)، وقيل كنعان. ولا مشاكلة في ذلك. وقد قال الولد (سآوى إلى جبل يعصمني من الماء) ولم ينفعه المأوى، وقتَلَهُ الذى ظن أنه سيعصمه من دون الله (الماء)، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وقد اختلف العلماء فى عدد من كانوا فى السفينة. فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفسًا معهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسًا، وقيل كانوا عشرة وورد فيهم كلام كثير [١] - وعدم الاشتغال به أولى فهو علم لا ينفع أو جهل لا يضر.

وقد أهلك الله تعالى معاشر الأقوام الذين أُرسل فيهم نبى الله نوح. فيما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وتجدر الإشارة هنا إلى يأجوج ومأجوج المفسدين فى الأرض وهم على الأرجح من ولد يافث بن نوح. وهؤلاء لم يغرقهم الطوفان، لأن ذى القرنين حبسهم وأقام عليهم الردم والسّد كما حكى القرآن الكريم قصتهم فى سورة الكهف، وذلك قبل حادثة الطوفان بسنوات بحسب مبلغ ظنى. إذ لو كان غير ذلك لكان أوجب بالذكر فى القرآن الكريم والله تعالى أعلى وأعلم.

وثمة دليل مادى على صحة ما ذهبنا إليه، وهو المحبس الذى به يأجوج ومأجوج يقع إلى الشمال كثيرا من المنطقة التى غشيها الطوفان والتى تنتهى من جهة الشمال بمنطقة «جبل الجودى» بالجنوب التركى - أما السدُّ الذى جعله ذو القرنين على هؤلاء المفسدين فإنّه إلى ناحية الشمال، وقيل جبلان بين أرمينية (أرمينيا الآن) وبين أذربيجان وهو الأرجح، وقيل هذا المكان فى مقطع أرض الترك، وحكى محمد ابن جرير الطبرى فى تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجّه إنسانا إليه من ناحية الخزر فشاهده، ووصف بنيانه أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع [٢].

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) انظر: هذا بلاغ للناس: للمؤلف.

وهكذا هلكت البشرية من على وجه المعمورة إلا ذرية نوح. ومنه يُسْتدّل على أن بنى البشر الموجودين حاليا وبعد عصر الطوفان. كلهم من نسل نوح عليه السلام، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ **وجعلنا ذرّيّته هم الْباقين** ﴾ [الصافات : ٧٧].

ورُوى من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد بن المسيب أنه قال: ولدَ نوح ثلاثة (**سام ويافث وحام**) وولد كل من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سام (**العرب وفارس والروم**)، وولد يافث (**الترك والسقالبة ويأجوج ومأجوج**)، وولد حام (**القبط والسودان والبربر**)(١).

وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان اسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من « جرهم » الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

والثابت أن أقدم طبقات العرب قد بادت، واندثرت أخبارها، ومن أشهر الطبقات البائدة عادٌ قوم هود، ومساكنها كانت بالأحقاف شمال شرق بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانت منازلهم بالحجْر شمال الجزيرة العربية، وكان منهم العمالقة، وأحد فروعهم ملوك مصر المعروفُون بالهكسوس أو « الرعاة ».

ومما وقفنا عليه من أخبارهم مما تيّسرت لنا أنهم قد تمدنوا تمدنًا لا يزال الكثير من آثاره مطموراً تحت الرمال، ولم يبق من أخبارهم إلا ما رُوى عن فخامة أبنيتهم فخامة نعدُّ ما قاله المؤرخون فيها من قبيل الخرافات لخروجها عن المألوف فى كل العصور وفى كل الحضارات. وذلك مثل حديثهم عن مدينة « إرم » التى ذكر رجال الأخبار عنها أن « شداد بن عاد » قد بناها فى الأحقاف فى بقعة مساحتها عشرة فراسخ فى مثلها، وغشى جدرانها بصفائح الفضة المموّهة بالذهب، وأنه أقام بها مائة ألف قصر على عمد من الزبرجد واليواقيت، وأجرى جداول الماء فى وسطها، وجعل حصاها من الذهب والجواهر، ومع المبالغة الواضحة فى هذا الوصف فإنه يشفُّ عن حقيقة مهما قيل فى تحقيرها فإنها لا تقل عن أن تكون بعض الأبنية فيها أُقيمت جدرانها أو أساطينها بالحجارة الكريمة، وهذا غاية ما يمكن أن يصل إليه البذخ والترف، ويُهوِّن علينا قبول ذلك ما جاء فى القرآن الكريم عن هذه عند قوله تعالى:

﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** ﴾ [الفجر: ٧-٨].

* * *

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١٣٢ : ١٣٣ .

أما العرب الباقون فشعبان

(أ) عرب الجنوب : القحانيُّون

وموطنهم الأول بلاد اليمن السعيدة - لتوفير المياه الصيفية فيها، وقد تيَسَّرَ لأهلها الحفاظ علي ثرواتهم المائية بما انشأوه من سدود صناعية مكّنتهم من القيام بأعمال الزراعة الدورية المنتظمة التى تنوعت بها المحاصيل الزراعية .

وبلادهم كانت تتوسط أُمم العالم القديم، وتُشرف فى الوقت ذاته على البحر الأحمر والمحيط الهندى مما مكنهم من اكتساب خبرة بحرية استغلوها فى نقل محاصيل الحبشة وشرقى إفريقيا ومحاصيل الهند إلى العراق، وإلى بلدان البحر المتوسط.

وغدت بلاد اليمن القديم مركزًا هامًا من مراكز التجارة العالمية. استطاع اليمنيون بفضلها تحقيق الأرباح الطائلة التى مكنتهم من تطوير الزراعة .

والمعلوم أن اليمن تتأثر مباشرة بالرياح الموسمية التى تتغير اتجاهاتها بتغير الفصول الأربعة، وقد انفرد اليمنيون بمعرفة هذا التغير، واستطاعوا توظيفه لصالحهم، وتحقيق أقصى استفادة ممكنة من هذه المعرفة حتى احتكروا تماما الملاحة فى المحيط الهندى.

وقد استطاع اليمنيون أن يضعوا القوانين السياسية والاقتصادية بما ينظم طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وشيّدوا أروع المدن، وقامت على أرض اليمن دولة عربية قديمة من أشهرها دولة « معين » التى تشابهت حضارتها وحضارة البابليين، وأرجع بعض الباحثين أن أهل معين هم أول من استعمل الحروف الهجائية وقد اقتبسها الفينيقيون عنهم ومنهم أخذها اليونانيون.

أما المصريون فيعاد لهم بالسبق إلى الكتابة إلا أن كتابتهم كانت تصويرية لا هجائية[1].

وتأتي مملكة سبأ كأشهر دول عرب الجنوب، وقد شيد أحد مُلوكها سد مأرب الذى كان يُعتبر من أعاجيب العالم القديم، فقد بلغ طوله ثمانمائة ذراع وعرضه مائة وخمسون، وقد احتاج بناؤه إلى كثير من المهارات الهندسية والدقة فى التنفيذ، حيث كان بناء ضخمًا صبر على صدِّ المياه قرونا عدة[2].

---

(١) تعتمد على صور ورموز ولا تستعمل الحروف الأبجدية .

(٢) المداخل الجنوبية لجزيرة العرب - غريا ستارك ص١٠ .

وقد وقع فى الجزء الأول. على الصفحة الثانية عشرة من كتاب (تاريخ التمدُّن الإسلامى) أن الرحالة اليونانى (استرابون) ذكر عن مدينة مأرب التى بُنى السد قريبا منها أنها كانت فى زمنه وهو القرن الأول من الميلاد كانت مدينة عجيبة، وسقوف أبنيتها مصفحة بالذهب، ومحلاة بالأحجار الكريمة وبالعاج، وبها الأوانى الثمينة المزخرفة التى تبهر العقول، وقد ضرب ملوك اليمن نقوداً تحمل أسماءهم وصورهم، وأسماء المدن التى ضُربت فيها، وبمتحف فيينا بالنمسا مجموعة ثمينة من تلك النقود.

* * *

(ب) عرب الشمال (العدنانيون)

هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، نشأوا بمكة، وانتشروا منها بعد كثرتهم « فى الحجاز وفى نجد وفى تهامة » وكان لمن بقى منهم بمكة إمارة عظيمة أرسى قواعدها قصى وهو الجد الخامس للنبىﷺ بما أنشأه فيها من مناصب الشرف ومنها (دار الندوة، اللواء « وهو راية الحرب »، الحجابة، السقاية، الرفادة، السفارة)[١].

اشتغل المكّيُّون بالتجارة على نطاق واسع ونزلوا بالبلاد المجاورة وخالطوْا سكانها مما كان له عظيم الأثر فى تحضرهم ورقيهم، وقد قال عنهم المؤرخ اليونانى (استرابون) (كل عربى سمسار أو تاجر، ومن لم يكن تاجراً بمكة لم يكن عندهم بشىء)[٢].

وقد شاع بين المكيين بعض التعبيرات المالية، والتجارية الدقيقة، وجاء فى القرآن الكريم غير لفظة منها (الذرّة - القرض - الجزاء - الحساب - القسطاس - المثقال) بما يؤكد على عظيم تلك الحضارة التى قامت على دعائم ثابتة وقوية ترتكز على رواج التجارة المكية التى ألفت رحلتى الشتاء والصيف (اليمن ، الشام) ووصلوا بتجارتهم الحبشة، ومصر، والهند، واليمن وغزة، وقد ساهم موسم الحج إلى حد كبير فى رواج أسواقهم التجارية، وازدهرت مكة أيَّما ازدهار، وسَمت مكانتها فى أنحاء شبه الجزيرة العربية، وغدت وكأنها عاصمة الحجاز، وذلك يرجع إلى وجود بيت الله الحرام فى وسطها، وقد جعله الله مثابة للناس وأمنا فى وقت كان جفاف شبه الجزيرة العربية يهددهم بالفقر والجوع والتخلف.

---

(١) للإستزادة: انظر تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص ٢١ : ٢٢

(٢) الأغانى ج١١ ص٦٧ .

ومن ثم ارتفعت مستوى المعيشة فى مكة، وظهر الترف، وتنوعت مطالب السكان حتى اشتروا القينات، ودرسوا الغناء، وتعلموا العزف على الأوتار الموسيقية، وما أظن ذلك كائناً إلا فى أمة استكملت حاجياتها الضرورية وتطلعت بعد إلى ذلك الكمال والترف.

وقد عَبَدَ العربُ الأوثان ، والأصنام التى يصنعها مثالوهم بأيديهم، وكانت أحب الأشياء وأطيبها على نفوسهم أن يسمروا حول الكعبة إلى جانب ثلاثمائة صنم أو تزيد هُم آلهة المكيين.

وقد عرف العرب النظام القبلى، وكانت القبيلة تعتبر نفسها وحدة مستقلّة وفى حالة حرب دائمة مع غيرها، لذلك صار الغزو عندهم أمراً طبيعياً، وأدّى إلى حال التوتر والقلاقل، وعدم الاستقرار فى شبه الجزيرة الذى لم ينعم بالخضوع لحكومة مركزية. بحيث بدا عرب الشمال فى هذه الخاصية متخلفين عن عرب الجنوب، ولم يعرفوا حقيقة الدولة إلا بعد فتح مكة سنة (ثمان من الهجرة) حيث بدأ عصرٌ جديد هو عصر الدولة الإسلامية، وحضارة جديدة هى الحضارة الإسلامية .

* * *

ثالثًا : الحضارة الفارسية

(وهى تسبق الميلاد كذلك، إلا أنها لا تصل إلى أقاصى ما بلغت الحضارة المصرية التى كان لها الفضل فى كتابة التاريخ وسبقته بآلاف السنين طعنا فى التاريخ، وقد كان لها فضل كبير على أهل اليمن والعراق) .

ومنذ ما قبل الميلاد وكان أمر الفرس موزعاً بين جماعة من الملوك عُرفوا بملوك الطوائف حتى تمكن (أرد شير بن بابك) فى ٢٢٦ م. من تأسيس دولة الأكاسرة التى جمعت أمر الفرس بيد ملك واحد، كان يقيم بالمدائن على شاطىء نهر دجلة جنوبى مدينة بغداد الحالية.

والفارسية كانت تدين بديانة المجوسية (عبادة النار : بالإتفاق)، وعلى الرغم من ذلك فقد نشأ إلى جانبها بدعة (المانويّة) التى قالت بالأصْلَيْن (النور والظلمة)، وأدخل عليها ما فى طريقة التثليث المعروفة فى المسيحية، والمعروفة سلفا عند المصريين بالمثلث الإلهى الأزلى فجعل (مانوى) الأصول ثلاثة (الماء، النور، الأرض) وقال إنها إختلطت فحدث عنها إلهان، إله الخير وهو الذى خلق النور وكل شىء مفيد، وإله الشر وهو الذى خلق الظلمة وكل شىء ضار، وأن الصراع مستمر بين الإلهين حتى يُكتب الظفر لإله الخير، وعند ذلك تكون نهاية العالم.

اعتنق تلك البدعة من الفرس كثيرون على الرغم من عدم اتفاقها مع الدين الرسمى للفُرس مما جعل (هرمز الأول) يُلقى القبض على (مانوى) ثم قتله وعلق جثمانه على أحد أبواب مدينة (جنديسابور)، ولم يلبث أتباعه أن تفرقوا فى البلاد.

ثم ظهر بعد ذلك مارق آخر حاد المزاج (يدعى / مزدك) ، وأخذ يدعو من خلال مذهبه إلى إباحة الأموال والنساء، وجعل منهما شركة بين الناس مثل اشتراكهم فى الماء والهواء - وسارع إلى اعتناق هذا المذهب المتحرر الكثيرون من ذوي الشهوات الجامحة.

ولما اعتنق « كسرى قباذ » هذا المذهب وأصبح مزدكيا خالصا، وبات من أشد المدافعين عن استمراره ومن أوائل الداعين إلي انتشاره، طلب مزدك من كسرى أن يسمح له بتطبيق مذهبه على سيدة نساء الفُرس (زوجة كسرى) فأجابه إلى ذلك كسرى قباذ، وسمح له بمواقعتها لتحل عليها وعلى القصر البركات المزدكية.

عَزّ على ولَدها (أنوشروان) ابن كسرى وولى عهده أن تصبح أمه فراشا لمزدك، ومازال يرجوه حتى عدل مزدك بعد أن انحنى « أنو شروان » علي قدمه يقبلها(١).

ولما أُسند أمر الفرس إلى أنو شروان عُنى بالقضاء على مزدك وقتل أكثر من مائة (١٠٠) ألف من أتباعه، وأحدث ذلك فى بلاد الفرس هزّة اجتماعية ودينية، كان لها فى المجتمع الفارسى أبعد الآثار والإثارة.

وقد ظل أثر تلك النِّحلة الفاسدة كامنًا فى نفوس الفُرس الذين كانت المجوسية المذهب الرسمى لدولتهم.

وقد دخل الفرس فى حروب متصلة مع جيرانهم الرومان أثرت سلبًا إلى حد كبير في مستوى معيشة المواطنين، وفرض عليهم الأكاسرة الضرائب الباهظة والمتنوعة، الأمر الذى جعل الدولة الفارسية فى أواخر أيامها عرضة للقلاقل وعدم الاستقرار، وانغمس الملوك من آل ساسان فى الترف وحياة الفساد واستبدوا بالمحكومين، ممّا باعد بينهم وبين حكامهم، فتوالى خلع الملوك وقتلهم، واضطربت أمور الدولة.

وكان الأكاسرة ينظرون إلى غير المجوسيين من **(اليهود، والمسيحيين، والبوذيين والصابئة)** - نظرة ريبة وتوجس، فأنزلوا بهم من الاضطهاد ما قضى على وحدة الصف والهدف بين الحاكمين والمحكومين.

واستمر الحال كذلك بالدولة الفارسية - وخارت قواها ووهن اقتصادها وتَدَنّى وتدهور مما مهد الطريق فيما بعد للفتح الإسلامى، ويَسَّرَ سُبل انتشاره.

* * *

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص١٣ .

رابعًا : الحضارة الرومانية

والمراد بها ههنا الحضارة القديمة الشرقية التى كانت تبسط سلطانها على بلاد البلقان، وآسيا الصغرى، والشام، ومصر، والشمال الإفريقى، وعاصمتها « القسطنطينية » .

تعتبر الوثنية الديانة الرسمية لتلك الدولة حتى أخذت المسيحية تشق طريقها فيها، وأصبحت فيما بعد « الديانة الرسمية » لدولة الرومان .

واختلف المسيحيون فيما بينهم فى طبيعة المسيح عليه السلام، ووقع بأسهم فيما بينهم بسبب ذلك، وحاول الرومان إلزام مغايريهم فى عقيدتهم، بما يعتقدون فأصاب المسيحيين فى الشام ومصر شقاء بالغ من قسوة الرومان وشدتهم، وفر إلى جوف الصحراء كثيرون من (المصريين) الأقباط . على رأسهم البطريرك بنيامين . الذى قتل الرومان أخاه، وانعكس ذلك على الأحوال الاقتصادية والمعيشية على الأقباط[1] . فانهارت الزراعة، وارتفعت الأسعار بسبب هجرة الأيدي العاملة من بطش الرومان الذى ازداد نتيجة للتعصب الدينى الأعمى ضد المخالفين المسيحيين، ولم يلبث هذا التعصب أن تَجاوز المسيحيين إلى اليهود فقاموا بثورة شديدة تمكنوا خلالها من قتل (أمير انطاكية) فقتل قيصر كثيرين من اليهود، ثم تآمر اليهود على قتل المسيحيين بمدينة « صور » وهاجموا الكنائس .

ويمكن القول بأن تلك الأحداث تعد بمثابة المسمار الأول فى نَعْش الإمبراطورية الرومانيَة، بالإضافة إلى عامل جوهرى آخر تمثل فى تواصل الحروب المتلاحقة مع الفرس التى تطلبت الأموال الطائلة، فعمد الأباطرة علي جمعها من الشعوب الخاضعة لسلطانهم ونفوذهم مستخدمين لذلك أقسى الأساليب وأشدها وحشية مما أدى إلى تذمر الشعوب وضيقها .

وكانت من النتائج الطبيعية لتلك الأحداث أن أصبح اليهود عونا للفتوحات الإسلامية، لأنهم نظروا إلى الفاتحين العرب كمنقذين ومُخلِّصين مما كانوا يرزحون تحته من الإضطهاد القاسي، والطبقية البغيضة، وهو بحق ما يعلل الموقف السلبى الذى وقفه اليهود ومَسيحيو الشام ومصر أثناء الفتح الإسلامى العربى لبلادهم التى كانت وبحق جحيما رومانيًا لا يطاق .

* * *

---

(١) كلمة لاتينية الأصل مصدرها gypt أو cypt ومعناها مصر – وبذلك – الأقباط – المصريون .

خامسًا : الحضارة التونسية القديمة (القرطاجية)

كانت فى زمنها أكبر منافس لروما القديمة، ووقعت بين الدولتين حروب عدوانية مدمرة وطاحنة من أجل السيطرة على البحر المتوسط والعالم القديم بوجه عــــام.

وقد قامت قرطاجة فى ٨١٤ ق.م قرب مدينة تونس الحالية، وفى القرن الخامس ق.م أصبحت قرطاجة مملكة قوية ذات مراكز ومدن تجارية انتشرت على طول الساحل الإفريقى الشمالى كله فى سلسلة طويلة .

ولا تزال حتى الآن أنقاض المدن القرطاجية تُبهر الأنظار بروعتها وعظمتها.

وفى الفترة ذاتها خرجت إلي الوجود دولتان كبيرتان للبربر فى أفريقيا الشمالية هى (نوميديا) وتشمل الجزء الشرقى من (الجزائر الحالية)، وموريتانيا وتشمل الجزء الغربى من الجزائر وجزءاً من دولة المغرب الحالية وقد استطاع (ماسينيا) أن يدمج الدولتين فى دولة واحدة قوية عند أخريات القرن الثالث ق.م .

وعلى الرغم من مطامع قرطاجنة الأسبانية التى سببت الكثير من المشاكل للبربر فقد استطاعت الدولة البربرية أن تحافظ على سيادتها واستقلالها حتى حرب (جوجورتا) من ١١١ : ١٠٦ . ق.م حيث أنزلت الفيالق الرومانية سلسلة من الضربات الأليمة المؤثرة فى ممالك البربر، ثم عزلتها روما فيما بعد، ولم تلبث أن حولت ذلك الجزء من إفريقيا إلى إحدى ولاياتها[١].

* * *

سادسًا : الحضارة الفينيقية

قامت هذه الحضارة على الساحل الشمالى الغربى من بلاد الغساسنة (بلاد الشام) بإمتداد الساحل المتوسطى، واتخذت من (صُورٍ) بالجنوب اللبنانى عاصمة لها.

---

(١) موجز تاريخ إفريقيا (ى سافلييف، ج سافلييف) ص١٢ .

يَتَزَامَنُ عمر الدولة الفينيقية مع قيام دولة (مملكة) اسرائيل الأولى منذ عام ١٠٠٤ ق.م : ٣٢٣ ق.م على يد نبى الله داود عليه السلام.

وقد عمل [آخاب] ابن عمرى - الملك الإسرائيلى - [٨٦٩ : ٨٥٠] ق.م على إقامة روابط وثيقة مع مدن الساحل الشمالى (الفينيقى). فتزوج من إيزبيل ابنة ملك صور التى تمكنت من إحلال الآلهة الفينيقية شيئًا فشيئًا محل عبادة الله فى إسرائيل. وقد أقام الفينيقيون مستعمرات لهم على ساحل إفريقيا فى العصور القديمة منها مستعمرة (أوتيكا) التى تأسست سنة ١١٠١ ق.م ، وقد قامت إلى جوارها حضارة قرطاجة ٨١٤ ق.م [١].

* * *

(١) تاريخ الشرق الادنى القديم، مصر وسوريا القديمة ص ٣٣٧ أحمد أمين سليم.

الفصل الثانى

الحضارة الإسلامية والحضارات القديمة

أولاً : الثقافة عند عرب الجاهلية - دراسة مقارنة

الجاهلية : (لفظ حدث فى الإسلام) للزمن السابق على بعثة الرسول ﷺ .

وقد كان العرب فى نهضة أدبية، ودينية قبل الإسلام، اضطربت معها الأفكار واختلطت الإعتقادات فكان منهم من حرم الخمر علي نفسه، ومن مال عن عبادة الأصنام إلى المسيحية، أو إلى بقايا دين إبراهيم واسماعيل العالقة بنفوسهم وقد عُرف هؤلاء (بالمتحنّفين) .

وفى العراق كان (المناذرة) وأصلهم من عرب الجنوب، وقد استفادوا من اختلاطهم بالفرس والرومان.

أما عرب الحيرة فكان لهم أثر كبير فى الأدب العربى خاصة أنه قد تسربت إليهم أشياء من علوم اليونان وآدابهم.

وقد قامت دول عربية أخرى شمالى الجزيرة العربية منها ممالك (بطرا - تدمر - الغساسنة). وقد قال جويدى فى كتابه (جزيرة العرب قبل الإسلام) : إن شمال جزيرة العرب تأثر بمَدَنيّة البلاد المجاورة وكان العرب مدينين للفرس والروم بكثير من ترقيهم الذى سبق الإسلام، وقد وردت فى أشعار العرب ألفاظ أرامية مثل (دمية، فدان)، وألفاظ يونانية مثل (نوتى، أسطول)، وألفاظ سريانية مثل (قارب، سفينة، قلع، صَارِى، ملاّح) وألفاظ حبشية مثل (بحر، شراع) .

وإلى جانب استعمال عرب الجنوب للحروف الهجائية فى الكتابة لأول مرة فى تاريخ العرب، وهو ما عُرف بالخط المسْند، وقد إنتقل إلى الحيرة ثم الأنباء وانحدر منه هناك ما عرف بالخط الكوفى، ثم جاء إلى مكة وقد تعلمه قليلون من قريش.

وقد أحرز العرب تقدما هائلا فى علم النجوم، الأنواء، مهاب الرياح، والكهانة والعرافة، والطب ، والقيافة، ومنها :

قيافة الأثر : المعروفة (تتبع آثار الرجل واقتفاء أثره حتى التعرف عليه) .

قيافة البشر: التى تُعرف (الريافة): وهى معرفة استنباط المياه من الأرض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده، وقُربه أو بعده عن سطح الأرض ويكون ذلك بشم

التراب، أو شم رائحة بعض النباتات، أو بحركة حيوان مخصوص، وهى من فروع الفراسة كذلك.

ويمكن القول بأن ندرة المياه وشدة حاجتهم إليه هى التى جعلت لهم استعداداً خاصا فى معرفة أماكنه، ولا تزال موجودة فى أعراب نجد بالمنطقة الشرقية حتى اليوم.

مما تقدم يتضح أن منطقة الشرق الأوسط الواقعة بين الخليج العربي والمحيط الأطلسى، والتى تضم إليها إيران - هى فى مجموعها منبت الثقافات، ومهد أقدم الحضارات البشرية، كما أنها صارت بعد مهبطا للديانات السماوية جميعها (يهودية، ومسيحية، وإسلامية)، وعلى هذا فإنها تعد بحق رائدة الحضارات وحاملة المشاعل والنبراسات التى أضاءت جنبات العالم، خاصة على أيدى رجالات الفتح الإسلامى، وهم فى مجموعهم أبناء حضارات الشرق الأوسط كله (فى اليمن، وفي مصر، وسوريا، والعراق، ولبنان وفلسطين وتونس، وموريتانيا) وقد امتزج هؤلاء عبر التجارة، وتبادل الثقافات، والإندماجات التى حدثت بين حضارات الجوار وحضارات الشرق الأوسط القديم.

ويتميز سكان الشرق الأوسط بصفات مشتركة، قَلَّ أن توجد فى غيرهم من سكان المناطق الواقعة خلف جبال طوروس، فاللغات التى يتحدثون بها تشترك في كثير من الخصائص والقواعد اللغوية لأن تصرُّف الأفعال فيها متشابهة[1].

واستناداً على ما تقدم، اعتقد بعض العلماء أن هؤلاء السكان قد انحدروا من أصل واحد، وأطلقوا عليهم الجنس السامى، نسبة إلى سام بن نوح الذى سكن أحفاده الشرق الأوسط، وانقسموا بعد تكاثرهم إلى قبائل وشعوب.

كما أن بعض الباحثين قرروا أن الموطن الأصلى للشعوب السامية هو العراق وحاولوا تأييد نَظَريّتهم بما جاء فى التوراة والقرآن من أن سفينة نوح عليه السلام قد استقرت بعد الطوفان على جبل (الجودى) بشمال العراق عند الحدود مع تركيا، وانتشر الناس منه بعد ذلك.

وكانت حجة المعترضين على هذا الرأى أن الهجرة الجماعية، إنما تكون فى العادة من مناطق الجدب إلى مناطق الخصب والنماء، أما أن يحدث العكس فَلاَ[2].

وعندى يمكن التأكيد على أن الهجرة يمكن أن تكون على الضد من قول هؤلاء الباحثين، إذا ما اقتضت لها ضرورة. من ذلك مثلا - ما كان من هجرة نبيّ الله إبراهيم

---

(١) تاريخ سوريا ص٦٢ فيليب متى .

(٢) محاضرات فى تاريخ العرب . ج١ ص٩ د. صالح العلى .

عليه السلام من عند حدود الآراميين من منطقة (جيرون) الخليل حيث يسكن ولده اسحق (حرار، والنقب)، وحفيده يعقوب (اسرائيل) يسكن فى شكيم، وقد ذهب إبراهيم عليه السلام وولده اسماعيل إلى حيث الجفاف، والجدب والصحراء القاحلة، وقد حكى القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] كما كانت من قبل هجرة العبرانيين من العراق حيث دجلة والفرات (حضارة بين الرافدين) - إلى فلسطين ليعملوا رُعاة يرتادون الأرض مع أغنامهم من مَرْعَى إلى آخر حتى منحهم الفلسطينيون الإقامة المستديمة ليزرعوا الأرض.

ومن مصر مثال آخر: حيث خرج اليهود فى هجرة جماعية من مصر[1] مع نبى الله موسى عليه السلام... هربا من فرعون وجنوده متوجهين إلي بيت المقدس وهناك خذلوا نبي الله موسى عندما أمرهم بدخول المدينة ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾

[المائدة : ٢٢]

ومن ناحية أخرى فإنه كانت حالات ترحيل وتهجير إجبارى على مدار العصور ومن أشهرها عملية الترحيل الجماعى لما يُقارب الأربعين ألفا من اليهود من فلسطين على أيدى الفاتح الكلدانى (نبوخذ نصر) عندما نقلهم إلى العراق (بابل) عام ٥٩٧ ق.م فيما عرف بعد (عصر السبى البابلى) .

ومنه يُستدل على أن منطقة الشرق الأوسط هيأتها ظروفها، وساعدتها مقوماتها على أن تُكوّن وحدة واحدة تنطلق من أرضها أعظم الحضارات، وتحديداً من مكة المكرمة لتنشر الحضارة الإسلامية فى زَوَايَا العالم الأربع. بعد بعثة النبى محمد ﷺ، وقد ساهم فى ذلك مساهمة فعالة أن عرب الشمال (العدنانيون) الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ لم يتأثروا باليهودية على الرغم من الجوار المباشر لفترات طويلة وعلي الرغم من قوة العلاقات التجارية معهم. ويرجع ذلك إلى أمور منها :

١- أن الجموح المادي الطاغى على أتباع العقيدة اليهودية صرف اهتماماتهم نحو إنشاء القواعد والمستعمرات على الطريق الساحلى الممتد بين الشام واليمن. مما شغلهم عن الدعوة.

٢- الإعتقاد الزائف لدى اليهود بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، ومن ثم فإنّهم لم يقبلوا لهذا أن يشاركهم العرب فى هذا الوصف والشرف ونظراً لأنانيتهم الشديدة فقد ضنُّوا بدينهم عن أن ينشروه بين العرب.

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم - مصر وسوريا القديمة ص ٣٣٤ .

هذا بالإضافة إلى اختلاف عقائدى جوهرىّ بين اليهودية التى تحرّمُ الانتفاع بالغنائم بينما العربى (قبل الإسلام) يقاتل من أجلها.

٣- لا تعتبر الديانة المسيحية كما أنها لم تكن المنافس القوى للوثنية العربية لأن تعاليمها المعقدة لا يقبلها العربى الذى فُطر على البساطة فى كل شىء.

وكذلك لوجود خلاف جوهرى بين العقيدتين، فالمسيحية تقرر أن من ضربك على خدّك الأيمن فادرْ له خدّك الأيسر، أما العربى فهو الأبي الذى لا يقبل الضّيْم.

لذلك ظل المجتمع العربى غارقا فى وثنيته الجامدة التى ظلوا عليها عاكفين شجعهم على ذلك أنها الموروث العظيم الهائل عن الأجداد حتى من عصر ما قبل الطوفان، وظلوا عليها عاكفين حتى فتح مكة.

* * *

ثانيًا : أضواء على العقيدة اليهودية

لُقّب بنو إسرائيل بثلاثة أسماء رئيسية عبر تاريخهم:

١- العبرانيون: فى فترة إبراهيم وموسى حيث عبروا نهر الفرات أو نهر الأردن.

٢- الإسرائيليين: بعد خروجهم من مصر حتى عهد سليمان عليه السلام (٩٦٠ : ٩٢٢ ق.م).

٣- اليهود: فى القرن التاسع عشر الميلادى ثم استُبدل باسم الصهيونية كمرادف له وقد مَثّلت إسرائيل الشعب السامى نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام ووقع قولهم أن كتَاب التوراة قد حرص على تأكيد ملكية أرض كنعان (فلسطين) بوعد من الرب لإبراهيم، حيث يزعمون بأن الرب قال له بعد اعتزال الوطن عنه « يا إبراهام، وفى أخرى (إبرام) إرفع عينك وانظر إلى الموضع الذى أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لأن جميع الأرض التى أنت ترى أعطيتها »[١].

ومع تطور أحلام اليهود؛ شرع كُتّاب التوراة فى تنقيح الأخطاء وتقويم الإعوجاجات، وتصويب التشريعات التى جاءت معها من عند الرب (بحسب زعمهم) فقالوا: إن الربّ قطع ميثاقا على نفسه لإبراهيم بقوله (لنسلك أعطى هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير (نهر الفرات)[٢].

وكان من تمام الميثاق أن الرب سيُخرج من صلب إبراهيم « إثنى عشر سبطا »- أبناء يعقوب - يملكون « أرض كنعان » مقابل عبادتهم له وحده وطلب منه أن يختن الذكور علامة على هذا الميثاق[٣].

---

(١) سفر التكوين : ١٣ . (٢) سفر التكوين : ١٥ .

(٣) التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ص ١٢٢ : ١٢٣ - سعيد إسماعيل على .

وأخيراً وصلت أحلام كُتاب التوراة إلى توريث هذه الأرض إلى يعقوب، حيث قال الله له: «والأرض التى أعطيتُ إبراهيم وإسحق لك أعطيها، ولنسلك من بعدك أعطى الأرض»[1].

وقد كان العبرانيون رعاة أغنام وماعز يرتادون الأرض من مرعى إلى آخر، وقد منحهم الفلسطينيون الإقامة المستديمة ليزرعوا الأرض، ولم يلبثوا أن توسعوا فى استيطانها ببطء كلما جاءت جموع من أقربائهم عند حدود الآراميين فى الصحراء.

وعندما هاجم الفرعون المصرى رمسيس الثالث الكنعانيين لبسط نفوذه على المنطقة الساحلية من غزة حتى جنوب يافا، وهزم الفلسطينيين، وطردهم إلى الساحل الجنوبى لسوريا، وكذلك لحرمان أصحاب حضارة بين الرافدين من تحقيق أحلامهم ووأد طموحاتهم فى التقدم نحو الغرب (سوريا وفلسطين) لأنهم منذ فجر التاريخ وعيونهم متوجهة إلى هذه المنطقة.

عند ذاك استغل العبرانيون الفرصة وهاجموا الفلسطينيين، وقد تمكنوا من السيطرة على البلاد، وقسّمُوها بين القبائل الإحدى عشرة وتركوا قبيلة لاوى الكهنوتية موزعة بين القبائل.

وهكذا بدأ الإسرائيليون محاولة تأسيس أول مملكة عبرانية (إسرائيلية) مستفيدين بذلك من الظروف القائمة والأوضاع الجديدة التى خلقها رمسيس الثالث.

بينما كان نظام الملكية مقتبس من الدول المجاورة لهم غير أنهم اختلفوا عنهم فى بقاء التنظيم القبلى من الناحية الإدارية، وأن الملك كان عليه أن يحكم حسب أوامر (يهوه) لذلك نشأ ما يسمى بعصر القُضاة، والتى تُقابل فترة الاستيطان حتى قرب نهاية القرن الحادى عشر قبل الميلاد، وهم الذين قادوا بنى إسرائيل ضد أعدائهم، ولكن سرعان ما انتهى حكم القضاة، وبدأ من حينه العمل بنظام الملكية للأسباب الآتية:

١ - مطالبة بنو اسرائيل بملك يحارب الفلسطينيين، ويكون لهم قاضياً كذلك.
٢ - ضغط الفلسطينيين على بنى إسرائيل.
٣ - وجود نص فى التوراة يجعل الحكم ملكيا فى بنى إسرائيل.
٤ - التهديد العَمُونى لحدود إسرائيل الشرقية.

وكان طالوت أول حكام بنى إسرائيل بعد القضاة، وقد انهارت مملكتُه سريعا، وجاء بعده زوج ابنته داود عليه السلام (١٠٠٤ - ٩٦٣ ق.م) والذى يُعتبر بحق

(١) العهد القديم الإصحاح ٣٥ - سفر التكوين ١٢ .

المؤسس الحقيقى للملكة الإسرائيلية، وورثه ابنه سليمان عليه السلام لقول تعالى :
﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] فى الفترة من ٩٦٠ : ٩٢٢ ق.م، وقد عمل سليمان على التخلص من منافسيه والقضاء عليهم فاستخدم معظم واردات الدولة فى دعم الحكومة والقوات، وقسّم مملكته إلى اثنتى عشرة محافظة، وعين محافظا لكل محافظة، يدير الشئون ويجمع الضرائب، وعمل سليمان عليه السلام على تدعيم العلاقات بجيرانه فارتبط معهم برباط المصاهرة، حيث تزوج من بنات أمراء العمونيين، والمؤابيين، والأراميين والكنعانيين، والحثيين، وكذلك من مصر[١] .

امتاز عصره بالنشاط والتجارة، ساعده فى ذلك تمكنه من إحكام سيطرته على الطرق التجارية فى سوريا وفلسطين، وقد توسع فى العمران واهتم بالتشييد والبناء، ومن أهم مبانيه بيت المقدس الذى بدأ فيه من السنة الرابعة لتوليه الحكم، واستمر العمل فيه سبعة أعوام، وتوفى سليمان فى ٩٢٢ .ق.م، وانقسمت بعده بنو إسرائيل إلى دولتين، ....

واجدة فى الشمال : وتدعى إسرائيل .

والأخرى فى الجنوب: وتدعى يهوذا[٢] .

وقد تمكن الملك الأشورى (تجلا بلاسر) من الإستيلاء على أجزاء كبيرة من مملكة الشمال، واصبحت تابعة للعاهل الأشورى تدفع له الجزية، ثم سقطت السامراء (العاصمة) فى يد سرجون الثانى فى العام الأول من مدة ولايته عام ٧٢١ ق.م وبذلك تلاشت مملكة إسرائيل إلى الأبد .

أما مملكة الجنوب: يهوذا: فقد خضعت للنفوذ المصرى، وظلت السيادة المصرية عليها، واستمر الأمر إلى أن جاء الملك « نبوخذ نصر » على عرش بابل فى [٦٠٥ : ٥٦٢] ق.م وقد حاصر أورشاليم وعندئذ مات ملكها « يهوياقيم » وخلفه (يهوياكين) الذى لم يفكر فى مقاومة « نبوخذ نصر » وخرج وعشيرته وسلموا أنفسهم إلى الفاتح الكدانى فى عام ٥٩٧ ق.م، وتم نقلهم إلى « بابل »، وتؤكد التوراة أن هذه المرحلة هى أهم مرحلة فى تاريخ نهاية يهوذا، وعيّنه « نبوخذ نصر » ملكا على يهوذا وغير اسمه إلى [صدقيا].

وقد حاول صدقيا فيما بعد أن يقود ثورة على بابل مما أدى بالملك البابلى بمحاصرة أورشاليم عام ٨٥٧ ق.م، وحاول صدقيا (يهوياكين)، الهرب من حرسه إلى

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم – مصر وسوريا القديمة ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٢) انظر تفصيلا لذلك فى كتابنا المؤامرة الكبرى على العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ .

الشرق ولكنه أُسر وهو يعبر وادى الأردن قُرب أريحا، وأُقتيد أسيراً إلى (نبوخذ نصر) حيث ذبح أبناءه أمام عينيه ثم سَمَلَ عينيه (فقأهما) وقُيِّد مسلسلاً فى الأغلال إلى بابل حيث مات هناك بعد فترة قصيرة.

وهكذا انتهت (يهوذا) وأُدمجت في التنظيم الإدارى للإمبراطورية البابلية ولعل هذا ما يفسّر ذلك العداء الأزلى الكائن فى نفوس الإسرائيليين ضد الشعب العراقى وحكوماته عبر مراحل التاريخ للأخذ بالثأر القديم.

وعندما تمكن الملك الفارسى من دخول بابل عام ٥٣٨ ق.م سمح للمنفيين من اليهود بالعودة إلى أورشاليم إذا أرادوا ذلك.

وعندما جاء الإسكندر الأكبر ٢٥٦ : ٣٢٣م . إلى بلاد الشام، وخضعت له فلسطين، أصبح اليهود من مواليّه، وبعد موته أصبحت فلسطين تحت حكم السلوقيين وبعد احتلال الرومان لفلسطين ودخول « بومبى » القدس عام « ٦٣ ق.م » أصبحت دولة يهوذا ولاية رومانية، وفى عام ١٣٥م.[١] قام الإمبراطور « هادريان » باحتلال أورشليم حيث تم تدميرها تماما وبنى فوقها مدينة جديدة باسم (إيليا كابيتولينا) وقام الرومان بعمل مذبحة ختمت عصر اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية، حيث تم تصفية بقايا اليهود إما بالإبادة أو الهجرة، وعلى ذلك فإن عام « ١٣٥ .م » يمثل التاريخ الذى انتهت فيه نهائيا علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا، والعدد الذى بقى منهم بعد كل هذه المذابح حوالى (٤٠٠٠٠) أربعين ألفا.

وعند مطلع القرن التاسع عشر كان اليهود فى فلسطين لا يربو عددهم عن العشرة آلاف يهودى، إلا أن عددهم ازداد زيادة مطردة كنتيجة مباشرة لهجرة اليهود إليها بعد « وعد بلفور » الشهير. وتآمر الحلفاء ضد الشريف حسين المضطلع بشرافة مكة وكذلك:

بعد انهيار الخلافة الإسلامية في تركيا؛ وتآمر البريطانيين ضد الفلسطينيين لصالح الإسرائيليين بهدف إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين[٢].

هذا ويمكن القول بأن الديانة الرسمية للكنعانيّين قبل نزوح العبرانيين إليهم كانت ديانة سامية تقر الشرك بالإله، وكان لكل مدينة أوربّما لكلّ عزبة صغيرة أو لكل بئر إله يسمى (بعل) أو (إلَهَةٌ) تسمى « بعلة » فهو أو هى (الملك المقدس) أو حامى القرية أو البئر، وكانت المعاشرة الجنسية تحت رعاية الآلهة عشتروت. وهى كمثيلتها البابلية.

---

(١) تاريخ الشعب اليهودى ج أ. ص ٢٧ . م.ل مارجوليز.

(٢) تفصيل الأحداث كاملة فى كتابنا المؤامرة الكبرى .

وكانت عشتار (عشتروت) يخضع لها الذكور والإناث، وكانوا يمنحون أجسادهم لهذه العملية بالأجر قربانا لها وتقديسا لألوهيتها، وكانت أيضا عبادة الشمس والقمر منتشرة وقد قلّدوا فيها أهل بابل، وكان قد أُقيم بجوار كل مذبح فى المعبد وَتَدٌ أو عامود، وهو يرمز إلى وجود الآلهة، وكان المذبح عبارة عن طولة الآلهة، حيث تُقدّم الهدايا لَهَا استدرارا للبركة من السماء، وكان يحفر فى المذبح (جُبٌ) لإستقبال دماء الذبائح من الحيوانات، أو يسكب فيها النبيذ، وعندما يتناول العباد أنصبتهم من اللحوم يحصل إذن الإتصال بالآلهة، وأحيانًا كان يؤتى بالحيوان الضَحيّة إلى المذبح حيث يُشْوى ويُؤْكل فيكون بذلك قربانا للآلهة ليُخلّص الناس حيث تصعد روحه إلى السماء.

وكانت الأعياد تقام فى فُصول الحصاد أو جمع الفواكه فى فرح عاصف فيقام الرقص تصحبُه الموسيقى الصاخبَة، ويشربون النبيذ بلا حساب، ويتهتك الرجال والنساء، وفى غمرة هذا المجون قد يطعنون بعضهم البعض بالسيوف حتى يسيل الدم بكثرة، وكانوا يقدسون روح الموتى، فيقدمون لهم الأطعمة عند المقابر ويقضون الليالى فى منطقة المعابد، أو يدعون أرواح الموتى ويسألونهم عن الغيب، وانتشر السحر والشعوذة، كما كانوا يدفعون الأطفال لاقتحام النار إما لأغراض دينية أو قربانا لأمور غير عادية من أجل الآلهة(١).

وقد ارتبط تاريخ بني إسرائيل بنبي الله موسى عليه السلام. حيث يحكى لنا القرآن الكريم القصة كاملة بداية من مولده عليه السلام إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى(٢).

وقد ظهر بين اليهود أنبياء كثيرون أرسلهم الله تعالى ليُوبّخُوهُم على شرورهم التى ارتكبوها ويحضوُهم على العودة إلى طريق الله الذى ضلوا ويحثوهم على العمل بشريعته التى أنكروها أو تنكروا لها، وينبئوهم بما أعده الله لهم من خلاص للذين يؤمنون به ويتَقُونه، ويحذروهم من هلاك الذين يكفرون به ويتمردون عليه.

* * *

١ - النظم القانونيّة والاجتماعية لدي الإسرائيليين

اشتُقَّت النظم الاجتماعية والقانونية عند الإسرائيليين من الكتاب المقدس (العهد القديم) ويبدأ العهد القديم بأسفار موسى الخمسة:

---

(١) تاريخ الشعب اليهودى الجزء الأول ص ٢٧ .

(٢) إرجع إلى المصحف الشريف وقد ذكر هذه القصة فى غير موضع.

أولها: سفر التكوين: ويحدثنا عن أصل العالم والبشر، ويتبعه تاريخ الإنسان حتى تكونت نواة الشعب العبرى بإبراهيم وأسرته، ويحكى هجرات أجداد العبرانيين إلى فلسطين وأخيراً إلى مصر.

الثاني: سفر الخروج: يسوده شخص موسى، ويحكى قصة الفرار من مصر، وإعلان الشريعة من جبل سيناء.

الثالث والرابع: سفر اللاويين وسفر العدد: يحتويان على مزيد من أحكام الشريعة وأغلبها مما يَمتُّ إلى الطقوس، ويواصلان حكاية التجوال فى الصحراء حتى الوصول إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن.

الخامس: سفر التثنية: ويُورد أحكاما أخرى للشريعة على أنها آخر ما فرضه موسي قبل موته وأرض الميعاد على مرأى عينيه[1].

وكانت الأسرة هى النواة الحقيقية للحياة الاجتماعية في الدولة العبرية حيث كانت سلطة الأب هى السلطة العليا فى المجتمع العبرى كما هى العادة، وكان تعدد الأزواج مشروعًا حيث كان يتم عن طريق دفع العريس المهر فتكون له السلطة على العروس، وكانت هناك عقود شكلية، ولكنها غير ضرورية لصحة الزواج.

وهناك قوانين تحرم الزواج بين بعض الأقارب، كما أن هناك مواد أخرى من القانون تحرم الزواج بالأجانب، ولكن بطل هذا التحريم بمرور الوقت، والتاريخ اليهودى مملوء بالزيجات المختلفة، وكان هناك قانون يُوجب على المرأة التى مات عنها زوجها دون ولد أن تتزوج من أخيه، وكان الطلاق حقًّا خاصًّا للمرأة فى حالات مُعيّنة، فكان العبرى يستطيع طلاق زوجته بمجرد نطق العبارة التالية (هذه المرأة ليست زوجتى وأنا لست زوجها)، وجرت العادة بكتابة رسالة طلاق، ويفرض سفر التثنية قيودا معيّنَة على حق الطلاق قاصداً فى وضوح إلى حماية نظام الزواج وتدعيمه، فالرجل الذي يتهم عروسه ظلما بانها ليست عذراء لا يكتفى بتغريمه، ولكن يمنع نهائيا من طلاقها فى أى وقت من الأوقات، وكذلك الرجل الذى يغتصب عذراء لم تتزوج يُجبر على الزواج منها ولا يستطيع طلاقها أبداً وكانت عقوبة الزاني الموت رجمًا، ومعه المرأة التي زنى بها وإن كان الزنى برضاها، وكانت المرأة تُبجّل عظيما ولاسيّما إذا كانت أمّا، وفى الوصايا العشر (أكرم أباك وأكرم أمك) دون تمييز بين الوالدين[2].

هذا بالإضافة إلى بعض القوانين الأخرى التى تحكم المواريث.

---

(١) الحضارة الإسلامية القديمة ص١٥٦ (موسكانى) ترجمة السيد يعقوب بكر.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

يستدل مما تقدم على أن التشريعات اليهودية في مجملها تشريعات وضعية من قول البشر. وهو ما يؤكد تماما على أن التوراة الحقيقية إما حُرِّفَت أو أتلفت عمداً لأنهم كما هو ثابت عنهم يُحرِّفون الكلم من بعد مواضعه بالتبديل والتحوير والحذف والإضافة.

هذا ويرجع نسب العبرانيين إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام. أما الإسرائيليين فيعود نسبهم إلى يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم بن ناحور المنتهى نسبهم إلى سام بن نوح عليه السلام.

وقد كفر بنوُ إسرائيل أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الإعتداء، وعصوا أبشع المعصية، وكان لهم فى كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل[1].

والثابت أن ليس لليهود حضارة خاصة بهم، فما كان لديهم من عادات وحكمة وأقوال تطورت فيما بعد إلى مبادئ وقيم ليست إلا من أصل الحضارة المصرية، حتى الوصايا العشر أصلها مصرى.

ولما أراد اليهود لتلك الحضارة أن لا تكون مصرية ظهر زيفهم وكذبهم وادعائهم، فمن عاش من بنى إسرائيل خارج مصر لم يكونوا إلا رَحْلا رعاةً لا ذكر لهم أو مستضعفين، وقد أبادهم الرومان إبادة كاملة سنة ١٣٥م.

كما سباهم الملك البابلى ونكل بهم أعظم تنكيل وحملهم إلى العراق أسرى يعاملون كعبيد.

وأما (موسى) النبى فأصله مصرى، ومعناه فى اللغة « ابن الماء » أو (الطفل المنتشل من الماء) ، كما أن عالم النفس الشهير فرويد لا يكتفى بأن اسم موسى مصرى بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك إلى أنه مصرى الجنسية[2] حتى قضية التثليث والثالوث التى قالوا بها مصرية الأصل.

ويشهد التاريخ على لسان الجغرافى المؤرخ الفيلسوف (سترابون) أن اليهود أفاقون مغامرون لصوص فُهم لا يُبالون بالقيم، واتخذوا من الدين اسماً وطرحوا فضائله وقيمه وأخلاقياته، فلا يتذكرون ذلك الدين إلاّ إذا أرجعوا إلى القدس والمعبد، لكنهم لا يخجلون من خطاياهم فإنهم لا يُبالون أن تكون مدينة القدس قلعتهم مقر الطاغية، ولكنهم فى نفس الوقت يُكنّون لها احتراما لقدسيتها كمكان مقدس[3].

---

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص ٣٧٢ .

(٢) التاريخ والحضارة فى بلاد الشرق القديم ص ١٢٥ .

(٣) تاريخ اليهود القديم بمصر. ط أولى ص ٢٦ ، ٢٧ . عبدالمحسن الخشاب .

وقد ظهر بين اليهود أنبياء كثيرون أرسلهم الله إليهم من بينهم (موسى، وهارون، يوشع، الياس، اليسع، شعويل، داود، سليمان، زكريا، يحيى) وغيرهم.

ويرجع السبب في إرسال هذا العدد الكبير من الأنبياء إلى كثرة عصيانهم ونقضهم العهود والمواثيق مع أنبياء الله ثم رجوعهم أكثر من مرة إلى الكفر، وقتلهم الأنبياء بأبشع أنواع القتل، فكانت حياتهم مليئة بالأحداث المريرة والتي أخبرنا القرآن الكريم عنها في غير موضع.

كما يرجع السبب في كراهية شعوب العالم للشعب اليهودى. إلى أن اليهود شعب لا يعرف إلا الأنانية الجامحة الجشعة الشرسة، والطموح الضال، والطمع الأثيم، والاستيلاء بغير حق، واستباحة السرقات، والسلب، والقتل، وبث الرعب في الآخرين، وإطلاق يد غير الأمناء المسحورين فينهبون ويستحوذون على كل ما تمتد إليه أيديهم، ثم يستولي عليهم الخوف فيبدأون بالهجوم والإعتداء ويسرقون في أنانيتهم الضالة الشاذة، فتستعر في نفوسهم نشوة الإمتلاك للأرض والمال والرجال يستلذونهم عبيدا أذلاء مما يتيح الفرصة لإنطلاق اللصوص ذوى الضمائر الخربة، والنفوس الوضيعة لخدمة الطغاة، وإرضاء أحلامهم وأطماعهم وشهواتهم، واستيلائهم على ممتلكات الغير، ومنذ القديم يناصبون العداء لأصحاب الأرض الأصليين (الكنعانيين). كما اعتدوا كذلك قديما على سوريا واجتاحوها وقد تكرر ذلك منهم عام ١٩٦٧ .

وتشير معظم الآيات إلى حقيقة تاريخية تؤكد على أنه لم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ بني إسرائيل من قسوة، وجحود، واعتداء، وتنكُّر للهداة فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم، وهى أشنع فِعْلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين.

وقد بين الله تعالى للمسلمين في عهد رسول الله ﷺ أن لا يأملوا في اتباع اليهود طريق الهداية والحق، وذلك لأنهم قد دأبوا منذ القدم على الكذب والتحريف كما قال تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٧٥] .

أى أنه لا أمل في هدايتهم بعد كل ما فعلوه من الذنوب وما اقترفوه من الآثام.

ويُؤكّد المؤرخون أن الطائفة اليهودية عاشت أزهى عصورها في فترة الإحتلال الفرنسي لمصر ١٧٩٨م . وحتى قيام دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨م. حيث ذكر « حابين كوهين » في كتابه (يهود الشرق الأوسط) : أن مستقبلاً مشرقاً بدأ لصالح اليهود عندما استولى (بونابرت) على البلاد عام ١٧٩٨ . حيث أصدر مرسوما يعترف فيه

لجميع السكان بما فيهم اليهود .. بحقوق متساوية . وبذلك كانت الطائفة اليهودية فى مصر من بين الطوائف اليهودية فى الشرق، والتى تمتعت بهذا الحق[1].

ومن الجدير بالذكر أن الأحزاب السياسية تلعب دوراً متميزاً فى التاريخ السياسي للحركة الصهيونية، وفى الحياة السياسية لإسرائيل، إذْ لعبت تلك الأحزاب دوراً بارزاً فى قيام إسرائيل وتبرز أهميتها من عدة جوانب : أهمها :

– أنَها تُعتبر أول المؤسسات فى خلق وإعداد القيادات السياسية، كما أنها تشكل أحد أهم مراكز صنع القرار السياسية فى إسرائيل، وتَنظر تلك الأحزاب لنفسها على أنها مُمثِّلة لأكثر من جانب من جوانب الحياة داخل المجتمع الإسرائيلى، وليست مجرد جماعات تعتنق مذاهب سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية فحسب وهذا يعنى أن أنشطتها تمتد إلى جميع أوجه الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى المجتمع، ويمتد نفوذ هذه الأحزاب ليشمل المؤسسات العسكرية الإسرائيلية أيضاً.

مما تقدم يتضح أهمية وخطورة الدور التربوى الذى تلعبه الأحزاب السياسية بالنسبة للفرد الإسرائيلى سواء فى ذلك الناحيتين المدنية والعسكرية، ويتدرج التقسيم الطبقى للأحزاب السياسية الإسرائيلية إلى أحزاب سياسية، وأحزاب عمالية .

أولاً : الأحزاب السياسية الرأسمالية العلمانية : مثل حركة حيروت وتمثل التيار الإصلاحى فى الحركة الصهيونية ومؤسسها مناحم بيجين، وحزب الأحرار وحركة العمل الرسمية (لعام) ويتلخص دورها فى استعادة الأرض المحتلة – أى – طرد الفلسطينيين وإقامة دولتهم العسكرية للإنطلاق نحو تحرير الأراضى الإسرائيلية الواقعة بين نهرى النيل، والفرات .

٢– الأحزاب الرأسمالية الدينية : وتشمل الحزب « الدينى القومى » الذى تبنى قضية الدين وتشكيله للجزور القومية، ومحاربة العلمانية بين الصهاينة، وحزب « أغودات » يسرائيل، وحزب (بوعالى أغودات) يسرائيل . والذى تبنى قضية الدفاع عن حقوق العمال اليهود المتعصبين وتنظيمهم عن طريق تحقيق تعاليم التوراة والعدالة الدينية .

ثانياً : الأحزاب العمالية :

وتشمل حزب العمل (مباى) ومن أهم مؤسسيه (غولدا مائير، وموشى ديان)،

---

(١) الصحافة الإسرائيلية والدعاية الصهيونية فى مصر ص ١١ سهام نصر .

وظل هذا الحزب هو الحاكم منذ قيام إسرائيل وحتى يونيو ١٩٦٧ ، بالإضافة إلى بعض الأحزاب الأخرى غير المؤثرة.

إلى جانب ما تقدم فهناك بعض القوى السياسية غير الحزبية وهى موجودة بقوة على الساحة السياسية فى الداخل الإسرائيلي وتسمى (جماعات الضغط)، وتنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية هى :

١- المجموعة الأولى : وهى القوى الصهيونية المعتدلة والتى تطلق على نفسها صفة اليسار الصهيونى.

٢- المجموعة الثانية : وهى القوى الصهيونية المتطرفة التى تمارس النشاطات الإرهابية ضد السكان العرب.

٣- المجموعة الثالثة : وهى القوى السياسية الإسرائيلية والتى تعتبر نفسها معادية للصهيونية[١].

* * *

٢ - التربية والتعليم عند الإسرائيليين

بدأ اهتمام الحركة الصهيونية بالتربية والتعليم لأبناء اليهود المهاجرين إلى فلسطين فى مطلع القرن العشرين بعد صدور وعد بلفور فى نوفمبر ١٩١٧ ، حيث تم إنشاء العديد من المدارس المدعومة من المنظمة الصهيونية العالمية، وفى الفترة من (١٩٢٠ : ١٩٢٦) تم تنظيم التعليم اليهودى فى فلسطين بحيث أصبح نظاما مستقلا عن أنظمة الدولة، وفى الفترة ذاتها بدأت الدعوة لإنشاء جامعة عبرية فى فلسطين، وقد تأسست فى القدس عام ١٩٢٥ ، وفى عام ١٩٥٣ صدر أول قانون للتعليم، والذى يخضع التعليم فى إسرائيل إلى الحكومة .

بينما يهدف التعليم فى إسرائيل بموجب القانون الجديد إلى تحقيق مجموعة من الأهداف الاستراتيچية من أهمها :

إرساء الأسس التربوية على قيم الثقافة اليهودية ومنجزات العلم، وعلى محبة الوطن، والولاء للدولة، وللشعب اليهودى، وعلى ممارسة الأعمال الزراعية والحرفية، كما يهدف إلى وجود رواد للقيام بهذه المهام من جانب، ومن جانب آخر للعمل على تشييد مجتمع تسوده مبادئ الحرية والمساواة والتسامح والتعاون ومحبة الجنس البشرى - وقد جاء فى خطاب وزير الثقافة الإسرائيلى [يغتال آلون] أمام الكنيست الإسرائيلى عام ١٩٧٠ بوضوح تام التأكيد على أهمية دور جهاز التعليم بقوله : (إن

---

(١) قراءات فى التأهيل التربوى للمعلم - دراسات منفصلة ص ٨٣ .

جهاز التربية والتعليم فى بناء القيم فى المجتمع الإسرائيلى دور حاسم فى قدرتنا على الثبات، وخاصة قدرة الجيل الشاب على تحمل العبء الكبير الذى ألقاه عليه التاريخ اليهودى المعاصر ... إن تعميق معرفته وتضامنه مع تلك الفترة الجيدة فى أرض إسرائيل التى سبقت قيام الدولة، وعندما يتعمق سيعلم جيداً من أين جئنا، ماذا كان هنا قبلنا، لماذا نحن هنا، وإلى أين نتجه؟!)

أما مضمون البرامج التعليمية التربوية فى الكيان الإسرائيلى فإنه يؤكد على تعميق الوعى اليهودى بين الشباب، وترسيخ جذورهم فى ماضى الشعب اليهودى، وعلى تقوية العلاقات الأخلاقية التى تربط بين هؤلاء الشباب وبين اليهود فى العالم، وعلى اعتناق الأيديولوچية الصهيونية إذ أنها تفرض عليه بشكل مباشر، ثم اختيار أفضل الأساليب لتلقين الشباب هذه المبادئ وأيضا تتضمن البرامج «تربية دينية يهودية» تساعد على تنمية الأهداف السابقة.

* * *

٣- الأنشطة عند الإسرائيليين

تتنوع الأنشطة الشبابية داخل المجتمع الإسرائيلى تنوعا ملحوظًا وتحظى بإهتمام بالغ لما لَهَا من أهمية قُصورى فى تشكيل التركيبة الثقافية والفكرية والعقائدية لدى الشباب الإسرائيلى بوجه عام إيمانا منهم بأن وجود إسرائيل «الوطن القومى» مُرتهن بقوة التمسك بالعقيدة الصهيونية، ومن ثم الدفاع عنها بكل الوسائل والأدوات، ومن هنا فإنها تُعينُ الشباب فى كل المراحل السِّنية، وعند كُلِّ الظروف، وفى مختلف الأماكن والمناسبات لزرع وغرس المفاهيم وتنميتها ورعايتها ومن أهم هذه الأنشطة :

(أ) **النشاطات الشبابية**: تحاول الأحزاب السياسية عن طريق النوادى الثقافية ومعاهد الشباب التحكم فى عقول الطلبة فى أوقات فراغهم بإقامة المحاضرات والندوات الدراسية في مجال التوعية الصهيونية وبخاصة فى المدارس الثانوية فضلا عن دور وسائل الإعلام الحزبية، مما يخضع الشباب منذ حداثتهم لجهاز كبير ومتشعب للتربية والتثقيف الموجه لاستيعاب مبادئ الصهيونية.

(ب) **النشاطات الكشفية والرياضية**: وتعتنى بها الأحزاب عناية فائقة بهدف توثيق علاقات الشباب بها من ناحية وتنمية الروح الشبابية من ناحية أخرى، وتتضمن النشاطات الكشفية تنظيم الرحلات الجماعية لبعض المناطق السياحية والأثرية فى إسرائيل، وكذلك إلى المناطق اليهودية المقدسة بهدف زيادة تعلقهم بالأرض التى يعيشون فيها بالإضافة إلى الأعمال الأخرى.

(جـ) النشاطات الزراعية التطوعية (الكيبوتس) : نشأ الكيبوتس مع موجة الهجرة الثانية إلى فلسطين ١٩٠٤ : ١٩١٨ ، والتى تكونت من يهود روسيا الذين تأثروا بالمبادئ الإشتراكية، وعادة فإن كل « كيبوتس » يتألف من مجموعة سياسية واحدة يضمها اتحاد يتبع لحزب سياسى معين، ولعبت هذه الأحزاب دوراً بارزاً فى تخريج القادة السياسيين العسكريين، وأيضا تقديم العون للمهاجرين وفى المشاركة الإرهابية .

ويضم كل كيبوتس مدرسة إعدادية، ويتعرض النشء الإسرائيلى لتوجيه محدد يبدأ من مرحلة الحضانة حتى نهاية الدراسة الإعدادية مروراً بالمنافسات التى تتم بين أعضاء الكنيست التابعين للأحزاب .

(د) النشاطات شبه العسكرية (الناحال) : أنشىء عام ١٩٤٨ بعد قيام اسرائيل وهى تعنى « طليعة الشباب المقاتلة » وهى إحدى مؤسسات الجيش الإسرائيلى الذى يقوم بإعداد الكوادر للاستيطان الزراعى، فبعد أن يقضى العضو نصف فترة خدمته الإلزامية بالجيش تُتاح له فرصة الإستيطان الدائم على الحدود العربية المشتركة، وعضو « الناحال » هو جندى تحت التمرين يرتدى زيا عكسريا، ولكنه يعمل فى الزراعة .

(هـ) النشاطات الإستيطانية : تعتبر مسألة الإستيطان أبْرز وأهم القوى المحركة للحركة الصهيونية منذ بدايتها حتى اليوم، ويتضمن الاستيطان معانى أبعد من مجر د الاستيلاء على الأراضى الفلسطينية، إنما يحمل فى طياته قيماً مثل الريادة، نكران الذات، العمل الجماعى، الإستعداد للتضحية، الإنتاج . . . إلخ .

وهناك قيم تربوية تسعى إليها الأحزاب عن طريق غرسها فى نفوس المستوطنين الصهاينة منها الإيمان بالملكية القومية للأرض، الإيمان بالتوزيع العادل للمصادر الطبيعية بين جميع المستوطنين لتعميق الأخوة (اليهودية والصهيونية) بينهم، والإيمان بأهمية الاستخدام الذاتى لهم، والإيمان بالتنظيم والعمل التعاونى .

(و) النشاطات الإرهابية : يقترن تاريخ الأحزاب والقوى السياسية الإسرائيلية بالتاريخ السرى والعلنى للإرهاب الصهيونى بعينه، حيث بدأ تاريخ الإرهاب فى الثلاثينيات من القرن الماضى، مروراً بقيام إسرائيل والجيش الإسرائيلى الذى يُعتبر تجمعا لحركات إرهابية محترفة ومختبرة .

وأبرز القيم التربوية التى تعمل الحركات الإرهابية على غرسها فى نُفُوس أتباعها تتمثل فى التعصب الدينى واللامبالاة الأخلاقية، والولاء المطلق للقائد والعنصرية والشوفينية .

* * *

٤- آثار الأفكار الحزبية والقوى السياسية الأخرى على الفرد الإسرائيلى :

إن ما نعنيه بالآثار : هو عرض نتائج الدور المؤثر والمتميز للأحزاب السياسية ومدى مساهمات القوى السياسية الأخرى فى تشكيل العقيدة الإسرائيلية، ومن ثم فإنها تستلزم عرضا للمفاهيم والقيم والإنطباعات الناتجة عن عمل الأحزاب والتربية والتعليم، والأنشطة المتنوعة، والقوى السياسية (جماعات الضغط) فى الداخل الإسرائيلى، والتى تُشكل أنماطًا لفكر وسلوك الأفراد والجماعات فى المجتمع الإسرائيلى على مختلف مستوياته الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية والسياسية والعسكرية : وهى كما يلى :

أولاً : التمسُّك الشديد بالتعاليم التوراتية ، وتتمثل هذه التعليمات فيما يلى :

١- الاعتقاد بأن قيام إسرائيل هو تحقيق للنبوؤة التوراتية وذلك بإقامة مملكة يهوذا فى فلسطين بعد هدم الهيكل (المسجد الأقصى) .

٢- الاعتقاد بأن هدم الهيكل والمذابح النازية كلها تعبيرات عن حقد الإنسَانية للشعب اليهودى كونه شعبا مختاراً.

٣- أنه لا أمل بخلاص اليهود من الحقد والتآمر إلا من خلال عودتهم من الشتات وتجمعهم فى (أرض المعاد) والتى يُعيدون فوقها بناء دولة مزدهرة قوية .

٤- أنه لا يمكن لهذه الدولة أن تبقى على قيد الحياة إلا بتحقيق التفُّوق التام فى المجالات العلمية والتكنولوچية والعسكرية ضد الشعوب العربية المُعادية، وأن بقاء هذه الشعوب فى حالة تخلف يضمن البقاء لإسرائيل.

٥- أن الدين اليهودى هو الرابطة الثقافيّة الأساسية والقويِّة بين مختلف التجمعات الإثنية والاجتماعية اليهودية فى مناطق الشتات، وهو التعبير عن الهوية الذاتية المشتركة لليهود، وبالتالى فإنه لا يمكن لإسرائيل إلا أن تكون دولة دينية قائمة على تعاليم التوراة .

ثانيًا : الإحساس بالهوية والقومية وتتمثل في :

- رَفْض الإندماج التام والنهائى فى أى مجتمع من المجتمعات الأجنبية .
- رفض التخلى عن الجنسية الإسرائيلية، بل الاحتفاظ بها حتى ولو اختار الفرد الإسرائيلى أن يحصل على جنسية دولة أجنبية.

ثالثًا : التعصب للعقيدة اليهودية وتتمثل فى :

– الاعتقاد بأن الصهيونية هى عقيدة إنسانية وهى تعبير عن حركة إحياء وانبعاث حضارى وفكرى للشعب اليهودى.

– أن الحركة الصهيونية هى حركة تحرر وطنى للشعب اليهودى.

– أنه لا يمكن تصور قيام واستمرار وجود اسرائيل « لا صهيونية ».

رابعًا : الولاء المطلق للكيان الإسرائيلى ويتمثل فى :

– رفض مبدأ المساومة على أمن إسرائيل وحدودها تحت كل الظروف والإعتبارات .

– التشكيك فى كل مساعى السلام لتسوية الصراع العربى – الإسرائيلى من أى جهة لأنها تنطوى على عناصر المساومة، والتى سوف تجعل إسرائيل تُقدّم بَعْض التنازلات للأقطار العربية.

– رفض التنازل عن أى جزء من الأرض العربية التى احتلتها اسرائيل فى حربها الخاطفة فى عام ١٩٦٧ واعتبار أن إسرائيل لم تحتل هذه الأراضى بل إستعادتها وحررتها من أيدى العرب.

خامسا : الإيمان المطلق بفكرة التمايزوالتفوق العنصرى: وهو نابع من التعاليم التوراتية والذى يؤكد على ضرورة الإيمان الراسخ بالمقولة التوراتية بأن اليهود هم شعب الله المختار.

سادسًا : الشعورُ بهاجس الإبادة : حيث تحاول الأحزاب الإسرائيلية تصوير تاريخ اليهود بأنه سلسلة من أعمال التضحية والبطولة فى مقاومة محاولات إبادتهم كشعب بدءاً من السبى البابلى مروراً بالعداء للسامية والمذابح النازية، وانتهاءً بالخطر العربى المتمثل بالسعى [لرمى إسرائيل فى البحر] وهذه المقولة تحفل بها مناهج التعليم المختلفة هناك، والغرض من ذلك هو حمل الفرد اليهودى داخل إسرائيل وخارجها على التضامن والتلاحم مع أخيه اليهودى أينما كان طالما أن الجميع مستهدفون فى حياتهم ومصيرهم.

سابعًا : الاستعداد الدائم للحرب ويتمثل فى :

– الإيمان بأن المجتمع الإسرائيلى لا يمكن أن يكون مجتمعا مدنيا خالصا كغيره من المجتمعات بل هو مجتمع عسكرى بالمعنى الكامل للكلمة .

– الإيمان بأن الدفاع عن أمن اسرائيل وبقائها هو واجب مقدس ملقى على عاتق كل يهودى ويهودية من أولئك القادرين على حمل السلاح سواء كانوا داخل اسرائيل أو خارجها.

ثامنًا : الإنجزاب للمارسات الإرهابية وذلك للاعتبارات الآتية :

– الإيمان بأن التطرف الديني والشيفونية – القومية – هي مظاهر صحيحة وسليمة لا تتناقض مع رسالة اليهودية كدين، والصهيونية كعقيدة وحركة .

– أن اللامبالاة الأخلاقية في التعامل مع العرب هو أمر طبيعي بإعتبارهم أعداء، ويندرج تحت هذه اللامبالاة : القتل العمد، الإعتداء بالضرب والتشويه الجسدي، تدنيس الأماكن المقدسة . . . إلخ .

* – النظر إلى كل مواطن عربي في الأرض المحتلة (من شرق النيل إلى غربي الفرات) على أنه مغتصب لجزء من الأرض الإسرائيلية يجب معاقبته وطرده .

– الإيمان بالمحافظة على الكراهية والحقد ضد العرب، كون ذلك أمرًا ضروريًا لإبقاء جزوة الحماس لدى الشباب بوجه خاص في التصدي للأعداء والاستعداد للقضاء عليهم بكل وسيلة ممكنة .

* * *

وأقـــــول

مؤكدا على وجوب ضرورة عقد مقارنة بين مقومات وجود الكيان الوليد في فلسطين المحتلة المسمى (إسرائيل) بما يحمل في يقينه من عقيدة راسخة وإرادة جبارة، واهتماماته في ظل إمكانياته الهائلة على تنشئة أجياله المتعاقبة على محبة الوطن، وولائه، والإنتماء له، والدفاع عنه من منطلق اليقين بأن الدفاع عن أمن إسرائيل واجب وطني وديني وأخلاقي وتربوي مقدس، وكذلك نُعمل مقارنة لدراسة أسلوب عمل الأحزاب السياسية الإسرائيلية وقوى الضغط المحلي، والأنشطة الشبابية والتربوية والتعليمية التي جعلت من المجتمع الإسرائيلي مجتمعا عسكريا فريداً بالمعنى الكامل للكلمة، ومغايراً للمجتمعات المدنية في العالم من مقاومة الخطر العربي الساعي (لرمي اسرائيل في البحر) بل وإجهاضه بالهجوم على دياره وأوطانه أولا بأول، مع تدريس تلك النظرية في مراحل التعليم المختلفة داخل إسرائيل – وهي مقارنة واجبة أن تكون بالمقارنة مع الواقع العربي الذي بات أقل حرصًا على الدفاع عن وجوده، وأضحى عاجزاً تمامًا ومُتشرْذمًا أمام ابتلاع الصهيونية لفلسطين، وإعلان قيام دولة إسرائيل على الأراضي العربية تمهيداً للزحف نحو إقامة إسرائيل الكبرى، وقد استطاعت إسرائيل السيطرة على أرض عربية ما بين مصرية خالصة مثل قرية (أم الرشراش) التي أقامت عليها إسرائيل فيما بعد الميناء الوحيد لها علي خليج العقبة والمعروف حاليا ميناء (إيلات) بالإضافة إلى جزر استراتيجية عند مدخل خليج العقبة .

ثم بدا العرب عاجزين متخاذلين أمام الهجمة الشرسة التى قادتها الولايات المتحدة الأمريكية والصهيونية العالمية بمشاركة بريطانية خالصة على العراق، والتى انتهت بسقوط الأخيرة كما سقطت فلسطين فى ظروف متشابهة تماما من حيث التدخل البريطانى الأمريكى المباشر، وكذلك من حيث استمرار المقاومة الشعبية التى لا ولم ولن يشأ الشعبان العراقى والفلسطينى لها أن تتوقف حتى الغد وكذلك من حيث التآمر والخيانة والموقف العربي العام المزرى، والمتخلف عن إدراك الحقائق والتعامل مع الواقع الذى بات يكيد لنا فى خندق التآمر للإنطلاق نحو ثلاثة عواصم إسلامية هى أولا الرياض ثم طهران ، ودمشق وإن سقطت واحدة فالتالية على إثرها قريب.

وما أظن ذلك كائنا إلا بسبب انغماس المسلمين فى الملذات والشهوانيّة، والانحراف نحو الهوى والإعراض عن حبل الله المتين والميل إلى طرق الفساد والسير فيها على دروب نوادى الفيديو، وصالات البلياردو، والفضائيات (وما أدْراكَ ما هيه). والتخلف عن التجنيد ومحاولا الهروب منه، واندثار الوعى، وزيوع الجهالة الدينية والأمية السياسية ، وإفتقار الصلة بين الحاكم ورعيته ، وتمرد المحكومين على حكامهم. ثم ما يكون من بعض الحكام فى قمع شعوبهم وما يترتب على ذلك من استخدام القوانين الاستثنائية ، وتشديد القيود على الحريات والحقوق العامة.

ومع الرغبات المتنامية فى التطلع إلى الحرية وترسيخ الديمقراطية وحكم الشعب بالشعب وللشعب ومحاربة سلطة الفرد المطلق، ومع استمرار حكم لفرد فى قمع جماهيره يتأجج الصراع الذى لا يستفيدون منه غير أعداء الأمة، والمتربصون بها المريدون بنا السوء والإلقاء فى نار الجحيم.

* * *

ثالثًا : نشأة الدولة الإسلامية

بعد أن هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة عُنى ﷺ بالإتفاق مع اليهود الذين كانوا يقيمون معه فى المدينة المنورة، فعقد معهم وثيقة تاريخية تضمن كفالة الحريات العامة، وحرية الرأى، والعقيدة، وتضمن كذلك وترعى حرمة الحياة الخاصة للرعايا فى النفس والمال، كما تضمنت الوثيقة تحريم الجريمة بكافة أشكالها والوانها وتشريع العقوبات الرادعة للمخالفين، كما أكدت على العدالة والمساواة فى الحقوق والواجبات بين سكان المدينة على اختلاف عقائدهم، ونصت كذلك على أن أى خلاف يُرد إلى الرسول ﷺ شخصيا للفصل فيه وبهذا التزم سكان المدينة بالدفاع عنها والتصدى للمغيرين عليها ودرء الاعتداءات عليها بالنفس والمال.

ومن هنا تَحققت فى المدينة المنورة كل مقومات الدولة التى يحتِّمُهَا القانون من شعب وأرض ذات حدود ونظام يَسُود.

وقد أفسح هذا الاتفاق المجال أمام نشر الدعوة الإسلامية التى وضعَت أساس حضارة عظيمة قدمت للعالم أجل الخدمات، وأعظم الإبداعات وهى: الحضارة الإسلامية التى قامت على دعامتين أساسيتين:

أولاً: القرآن الكريم : الذى أُحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير، شرع الله تعالى فيه الأحكام العامة، وفرق بين الحلال والحرام بما يضمن السعادة للبشرية دينا ودنيا، كما أن فيه هدى للناس، وتطهيراً لما فى قلوبهم، وفيه القواعد الصالحة لقيام المجتمع المتكامل الفاضل، والتذكير الدائم بيوم العرض والحساب، وهو المرجع حين الاختلاف ، وهو الإعجاز الذى يقبله العقل .

وفيه أخبار الغابرين أمثالاً للحاضرين، وقد كُتب له الخلود بخلاف غيره من معجزات الأنبياء والرسل (عليهم جميعا الصلواة وأتم التسليمات) التى باتت فى ذمة التاريخ ولم يبق منها إلا اسمها.

ومبادئ القرآن الكريم عامة وشاملة بحيث تتلاءم دوما فى تطورات الحياة وظروفها التى تتغير بتغير الزمان والمكان. لقوله تعالى: ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ثانيا: السنة النبوية الشريفة

وهى جملة ما صدر عن الرسول ﷺ من أقوال، وما جاء به من أفعال، وقد منح الله تبارك وتعالى للرسول ﷺ حق بيان ما كان مُجْمَلاً وتفسير ما كان مُشْكلاً من القرآن الكريم، وتحقيق ما كان فيه إشكال، أو ما صار محتملا - فصارت بذلك السُّنَّة النبوية بيانا للأصل الوارد فى القرآن، وهو ما يبينه الذى لا ينطق عن الهوى عند قوله ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وقضت الأحكام الشرعية بالنفى المطلق لحق أى حاكم وكذلك نهيه القطعى عن أن يفرض على الناس أيًّا كانت عقيداتهم غير ما فَرَضَ الله تعالى فى شريعته.

كما بين الرسول ﷺ أن المسلمين أمام الله سواء لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى، كما أنه أكد على أن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

وهكذا آخى الدين الإسلامىّ بتعاليمه بين أتباعه من العرب وغيرهم مؤاخاة لم يعرفوا مثلها من قبل، وأعاد تشكيل ثقافاتهم جميعا بما جعلهم يفتدون بالنفس والمال

والأهل والولد، وبكل عزيز فى سبيل نشر الدين الإسلامى فى زوايا العالم الأربع ليصوغ للبشرية حقوقها الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية.

وقد عملت الدولة الإسلامية الأولى فى عصر الخلفاء الراشدين « رضوان الله تعالى عليهم أجمعين » على تحقيق هذه الأبعاد، ووضعها موضع التنفيذ.

وبقيام الدولة الأموية حَدث تحول خطير فى نظام الخلافة الإسلامى، حيث تحولت إلى نظام ملكى استبدادى، بسبب أن بنى أمية لم يتقيدوا بما كان يتقيد به الخلفاء الراشدون، فقد نقل معاوية بن سفيان نظام الخلافة إلى نظام الملك القائم على التوريث كما هو الحال فى الأردن والمغرب والسعودية وأخيراً « البحرين » ودول الخليج وسابقا مصر وليبيا وتونس.

وقد تمتع الخلفاء الأمويون بمظاهر الأبهة والعظمة الذى كان يتمتع بها الملوك والقياصرة[1]، ونقلوا عاصمتهم من المدينة المنورة إلى دمشق فى سوريا. وقد تميزت تلك الدولة بالوحدة ولم تعتمد على أى عناصر غير عربية، وأمسكت بيد من حديد على جميع الأقاليم التابعة لها من الشرق إلى الغرب حتى أسبانيا والبرتغال، وبذلك نمت بذور العصيان والتمرد بسبب عدم المساواة، والتعامل بأسلوب عربى أرستقراطى شامخ الأنف وهو مالا يعنى السلامة فى الحكم على الدوام.

ثم انتقلت الخلافة إلى العباسيين الذين بدأو دورهم الأول سنة ١٠٠ : ١٢٧هـ تقريبًا، وجعلوا لها مركزين أساسيين فى (الكوفة، وخراسان) للإنطلاق بالدعوة إلى هنا وهناك.

ولما بُويع أبوجعفر المنصور بالخلافة عام ١٣٦هـ. وجلس على كرسى الخلافة ٢٢ عاما أخذ يوطد دعائم خلافته ويرفع بُنايَتَها، ويضرب بشدة على أيدى الخارجين أو العابثين بها، ومن تسول له نفسه منافسته فى الحكم، وقد نجح فى مركزية السلطة، والقبض عليها بيد من حديد.

ويعاد إلى الخليفة العباسى (أبوجعفر المنصور) الفضل فى بناء بغداد لتكون حاضرة العباسيين الكبرى حتى صارت مظهر عزهم وفخرهم وحضارتهم، وقد انتقل إليها من الكوفة سنة ١٤٩هـ (٧٦٢م) وقد اكتمل بناؤها فى ١٥٠هـ، ٧٦٣م .

ومات المنصور فى السادس من ذى الحجة سنة ١٥٨ بعد أن خرج إلى مكة للحج، ومرض فى الطريق، وما أن دخل مكة حتى اشتد عليه المرض، ولما مات دُفن

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص ٦٢ .

بثنية (المعلاّة) مكشوف الرأس كونه محرما، وقد حُفر له مائة قبر ودُفن فى غيرها ولهذا فقبره غير معروف حتى الآن[١].

ولم تلبث الدولة العباسية أن تعرضت لحركات تمرد وعوامل ضعف داخلية مثل تمرد الفرق الإسلامية من (العلويين، الخوارج، المعتزلة) ، وعوامل أخرى خارجية مثل تمرد الفُرس والأتراك والصفُاريين، والسلاجقة ، والبويهيين، بالإضافة إلى تدخل العناصر الأجنبية، وما كان لها من آثار خطيرة، أثرت على حياة الدولة سياسيا حتى باتت عاجزة عن التصدى للهجمة المغولية الشرسة الزاحفة من الشرق بقيادة هولاكو الذى تمكن من حشد جيوشه حول بغداد العاصمة فى ٦٥٦هـ. ويُقدّر بعض المؤرخين أن عددهم حوالي ٢٠٠ مائتى ألف بينما بغداد تموج بسكانها.

فى بداية الأمر رأى الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين حتمية اللقاء فخرج بجيش قليل مُدافعا بما تيسّر، وما أُتيح له، ولحقت به الهزيمة ثم سلَّم نفسه، ونساءه، وأولاده، ورجال حاشيته إلى القائد المغولى الذى وضعهم فى السجن ثم قتلهم جميعا، ودخل المغول المدينة يقتلون وينهبون حتى كَادَ يَفنى كل سكانها، وجرت الدماء فى الطرقات، واصطبغت مياه دجلة بالدماء عدة أميال وقد استمرت هذه المعاناة القاسية حوالى أربعين يومًا اندلعت فيها ألسنة النيران فى كل جوانب المدينة حتى أكلت الأخضر واليابس والتهمت كل ما فى طريقها من معالم الحضارة المتعددة، وتم القضاء تماما على التراث الإسلامى، وعصارة الإنتاج الفكرى فى مدى (٥٠٠) عام فى أيام معدودات، وكانت تلك وبحق أفظع مأساة فى الأموال والأنفس والأولاد، وكنوز العلم والمعرفة التى أصيبت بها الإنسانية إلى هذا الزمان[٢].

ثم تعرضت بغداد من جديد وباقى مدن العراق الأخرى لهجمة تتارية جديدة جاءت من الغرب هذه المرة فى ربيع العام الثالث من القرن الأول فى الألفيّة الثالثة عندما جَيَّشَ الرئيس الأمريكى (جورج بوش) جيوشه وهى أعتي وأقْوى قوات العالم بفضل ما حازت من أسلحة حديثة تتمتع بتقنية فائقة، متحالفًا فى ذلك مع رئيس الوزراء البريطانى (تونى بلير) الذى أرسل (٤٠٠٠٠) أربعين ألفا من الجنود الإنجليز.

وقد بدأت قُوات التحالف المكتظة بالمرتزقة من جنسيات أخرى عند فجر الخميس ٢٠ / ٣ / ٢٠٠٣ بالقصف الجوى المركز، وتبعه زحف القوات البرية على

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) نظرات حول العصر العباسى الأول ص٢٠٦ .

العراق من جهة الجنوب، ودارت معارك طاحنة على مشارف المدن العراقية وحولها، وانتهت بمأساة سقوط بغداد[1] في التاسع من إبريل ٢٠٠٣ .

ووقعت العراق أسيرة إلى الآن تضيء ظلام ليلها تلك المقاومة العراقية البطلة التي شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء حتى قال قائد القوات الأمريكية في العراق (لقد أدهشتنا دقة تخابراتهم ورصدهم للأهداف ودقة إصابتها وتفجيرها) .

ولا يزال الاحتلال الأمريكي البريطاني جاسماً على العراق (ولا تزال بطولات المقاومة تسجل أعمالها بأحرف من نور في سماء الشرق شديد الليلاء) .

وقد نتج عن سقوط بغداد في ٦٥٦هـ . انتقال الخلافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة، وقد تميز العصر الذهبي للإسلاميين بأمرين هامين هما :

* * *

(أ) الأحداث العظيمة

يمكن القول بأن أحداثا مهمة حملت تأثيرات خطيرة ولها تداعيات ونتائج خطيرة في عصر الدولة الإسلامية الأولى .

فقد تمكنت جيوش الفتح الإسلامي في سنة ١٤هـ بقيادة سعد بن أبي وقاص من إحراز نصر فلكي الأبعاد على جيش فارسي ضخم بقيادة (رستم) وقد دارت المعركة في وادي الفرات غرب الحيرة، وتواصلت لأربعة أيام قُتل فيها رستم، وأسفرت عن فتح العراق، وفتح أبوعبيدة بن الجراح دمشق بعد حصار دام نصف العام، وفتح قنسرين في الشام، وفي حضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « استسلم بيت المقدس وفتح صُلحاً » في سنة ١٥هـ . ، وفي عام ١٦هـ ألحق المسلمون بالفرس هزيمة ساحقة في معركة « جلولاء » بالعراق، وكذلك فتحت تكريت والموصل- ثم استتب فتح (فارس) بفضل النصر الساحق علي الجيش الفارسي (١٥٠ ألف جندي) في معركة نهاوند (فتح الفتوح) التي استشهد فيها القائد الإسلامي « النعمان بن مقرن »، وفي عام ٢١، ٢٢هـ أعادت الجيوش الإسلامية فتح همذان وفُتحت (الري، قوموس، جرجان، أذربيجان، خراسان) .

وقد تمكن أسطول الفتح الإسلامي بقيادة والي الشام معاوية بن أبي سفيان من فتح « قبرص » في ٢٨هـ، وتمكن سعيد بن العاص من فتح « طبرستان » في ٣٠هـ، وفي عام ٣٠، ٣١هـ فُتحت « هراة وبلخ » وفي ٣٣ هـ أكد معاوية فتح « قبرص » وجعل منها قاعدة بحرية للأسطول العربي في البحر المتوسط، وفي العام ذاته تمكن الأسطول العربي

---

(١) تفصيل ذلك في كتابنا : وحيد القرن ورياح التغيير.

بقيادة (جنادة بن أمية) من فتح جزيرة « رودس » المتحكمة فى الطرق البحرية المتجهة إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية وفى عام ٣٤هـ دارت معركة « ذات الصوارى » التى تمكن فيها الأسطولان المصرى والشامى من إلحاق هزيمة ساحقة بالأسطول البيزنطى، وتحققت السيطرة العربية الكاملة على البحر المتوسط.

وفى الأعوام ٤١ : ٤٣هـ فُتحت أفغانستان، وتوجهت حملات إسلامية إلى آسيا الصُغرى ٤٣هـ: ٤٨هـ، وقد تمكن « المهلب بن أبى صفره » من فتح السند والأراضى الواقعة بين « كابول والملتان » وأضاف بذلك إلى رقعة الدولة الإسلامية مساحة شاسعة من آسيا عام ٤٤هـ.

وفى عام (٥٠هـ) تمكن عقبة بن نافع من فتح تونس وأسس القيروان (كقاعدة عسكرية للجيش الإسلامى، وخلال عشر سنوات هى المدة من ٨٦:٩٦هـ (٧٠٥ : ٧١٥) ميلادية استطاع قُتيبة بن مسلم أن يمضى كالسهم فاتحا (تركستان) وأوزبكستان، وبخارى، وسمرقند، وفرغانة، وخوارزم، قشغر، وقد توقف عند حدود الصين. مدونا اسمه فى سجل أعظم الفاتحين فى تاريخ البشرية، وفى المدة ذاتها وابتداء من عام ٨٩:٩٦هـ تمكن القائد العظيم محمد بن القاسم من فتح (الديبل، وبيرون، والسند، ومُلتان وجزء من البنجاب) وسجل اسمه فى قائمة كبار الفاتحين، بينما طارق ابن زياد يسحق القوات القوطية بقيادة (لدريق، رود ريجو) فى معركة« وادى يكة » ويزحف منتصراً إلى العاصمة « طليطلة » ، وقد استغرق إخضاع إسبانيا سبع سنوات واستمر الحكم العَربى لأسبانيا كلها ٥٠٠ عام وللجزء الجنوبى منها ٢٨١ سنة أخرى.

وفى عام ٩٩هـ وأثناء احتضار الحكم الأموى فى دمشق، وقُبيل انتقال الخلافة إلى العباسيين فى بغداد، قامت فى شمال أسبانيا مملكة (أشتورية) المسيحية وقد صارت فيما بعد قاعدة للأسبان انقضُّوا من خلالها على الدولة الأموية فى الأندلس حتى تمكنوا من استعادة كل أسبانيا عام ١٤٩٢ .

أما والى الأندلس (السمح بن مالك) فقد زحف على « أكيتانيا » واستولى على « نربونة » ، « طرسكونة »، واستشهد فى معركة مع (دوق) أكتيانيا قرب « تولوز » بجنوب فرنسا فى ١٠٢هـ. وفى ١٠٦هـ توغل والى الأندلس (عنبسة بن سحيم الكلبى) فى إقليم « بورجوندى » الفرنسى وتوقف على بعد ١٦٠كم من باريس، وفى عام ١١١هـ تمكن المسلمون الأندلسيون من الإستيلاء على « أفينون » بجنوب شرق فرنسا، وأغاروا على المناطق المجاورة لها.

وفى الشرق سقطت دمشق إيذانا ببداية العصر العباسى وإعلانا بإنتهاء حكم بنى أُمية فى سنة ١٣٢هـ.

* * *

(ب) الممالك والمهالك وعصر التناقضات

حيث موقع دولة «السنغال الحالية» قامت سلطنة «التكرو» الإسلامية فى الفترة ما بين ١٨٣هـ: ٣٨٣هـ (٨٠٠: ١٠٠٠م).

وفى عام ٢١٢ هـ (٨٢٧م) أغالبة تونس تسوق حملة بقيادة القاضى «أسد بن الفرات» للتوجه نحو «صقلية» وسقطت «بالرمو» فى ٢١٦هـ، و«سراقُوسه» (سيراكوزا) عام ٢٦٥هـ واكتمل فتح صقلية فى ٢٩٣هـ والحُكم العربى يدوم بها ٢٦٤ عاما، ثم فتح المسلمون جزيرة كورسيكا وخضعت هذه للحكم العربى مدة مائتى عام بعد فتحها فى عام ٢١٨هـ. وفى ٢٥٦هـ توجه أسطول دولة الأغالبة فى تونس قاصداً مالطة وقد خضعت للحكم العربى ٢٢١ عاما.

وفى عام ٢٥٦هـ تأسست الدولة الفاطمية فى شمال إفريقيا، وفى عام ٣٥٧هـ «جوهر الصقلى» قائد جيش الخليفة الفاطمى «المعز لدين الله» يغزوا مصر ويؤسس مدينة «القاهرة».

وقد بدأت الفتوحات الإسلامية الرئيسية فى الهند انطلاقا من أفغانستان فى سنة ٣٩١هـ وانهارت أمامها الممالك الهندوسية، وفى العام ذاته ظهرت إمبراطورية (الكانم) الإسلامية فى الشمال النيجيرى.

وفى ٤٣٧هـ تأسست دولة (الصليحيين) فى اليمن وكانت موالية للخلافة الفاطمية.

هذا وقد قامت على أنقاض الدولتين العباسية فى الشرق والأموية فى الغرب كثير من الدول مثل دولة الصنهاجيين (بنى زيرى) فى تونس ٩٧١: ١١٦٧م، والدولة «الغزنوية» فى أفغانستان وأسسها التركى (ألب تكين) وعاصمتها «غزنة»، والدولة «البويهية» «الفارسية» ٩٣٢: ١٠٥٥م، و«الحمدانية» فى حلب والموصل من ٨٩٢: ٩٩١م. وقد قضى عليها الفاطميون، و«الطولونية» فى مصر ٨٧٠م بقيادة أحمد بن طولون، و«الأغالبة» من ٨٠٠: ٩٠٩ وأسسها (إبراهيم بن الأغلب) فى شمال إفريقيا وهذه قضى عليها الفاطميون، و«الأدارسة» فى المغرب وأسسها إدريس بن عبدالله بن الحسن ٧٨٩: ٩٨٥، ودولة الرستميين وشملت قسماً كبيراً من الجزائر، ونصف تونس ومعظم ليبيا وعاصمتها (تاهرت) بالجزائر وهى دولة للخوارج الأباضية فى شمال إفريقيا ٧٦١: ٩٠٨م، ودولة «المهديين» فى اليمن ١١٥٩: ١١٧٤م، وقد قضى عليها «توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين»، ودولة «بنى رسول» وأسسها عمر بن على ابن رسول فى تَعِز باليمن وقد اتسعت فيما بعد لتشمل كل اليمن والحجاز ثم قضى

عليها بنوطاهر ١٢٢٩:١٤٥٤م، ودولة «الحفصيين» من ١٢٢٩:١٥٧٤م وموطنها تونس وشرق الجزائر وطرابلس الغرب، ويعود نسب الحفصيين إلى البربر، وقد تمكن العثمانيّون من القضاء عليهم، ودولة «بنى نصر» (بنى الأحمر) ١٢٣٢:١٤٩٢ آخر ممالك الأندلس فى غرناطة وأسسها محمد بن يوسف بن نصر وسقطت فى أيدى الأسبان فى يناير ١٤٩٢م. وكانت قد سقطت قبلها دولتا (بنى عباد، وبنى حماد) كما قامت دولة الموحدين بالمغرب على أنقاض دولة المرابطين.

وهكذا ترامت مساحة الفتح الإسلامى الذى لم يعترف بحدود جغرافية، ولا موانع طبيعية أو عوائق مائية، فدخل أوروبا، وتوغل فى إفريقيا وآسيا، ودانت له معظم الأرض بالتبعية والطاعة، ولولا إغترار الأمويين وضعف العباسيين لما انهارت الخلافة الإسلامية بهذه السرعة، (ولولا حُب السيطرة والتملك، والزعامة، والقيادة، والسلطة، والريادة التى مزقت الجسد الإسلامى إلى دويلات صغيرة متناحرة تتصارع من أجل البقاء أو بسط النفوذ، ما صار بنا الحال إلى ما أصبحنا عليه الآن حيث تداعت علينا الأمم لتنهش فى الجسد الضعيف الذى خارت قواه).

(لقد اتفق علينا الأعداء واجتمعوا تحت راية واحدة أطلقوا عليها (التحالف الدولى) وقد تمكنوا بواسطته من إحراق أفغانستان، ولما لم يتحرك أحد تحركت الولايات المتحدة الأمريكية دون غطاء دولى وفى ظل رفض شعبى شبه إجماعى حتى من الداخل الأمريكى وتوجهت إلى العراق وفعل بها «جورج بوش» ما فعله التتار منذ عدة قرون. واستقرت أقدام وحيد القرن فى العراق ينتظر أن تخفت النيران التى يقف عليها حتى يتمكن من الإنطلاق إلى مناطق عربية وإسلامية أخرى حتى تتكون الإمبراطورية الأمريكية فى الشرق وحتى تقوم إسرائيل العظمي (الكبرى) على أنقاض العالم الإسلامى المتخلف الضعيف وعلى أطلال العروبة والقومية العربية المهلهلة) ولنا الله.

ومن عجائب الأقدار أن يقود الولايات المتحدة فى هذه المرحلة الحرجة فى التاريخ العجيب وهى المرحلة التى وصلت فيها أمريكا إلى وضع السيادة الدولية على أعلى الهيئات الدولية وأهمها على الإطلاق (الأمم المتحدة) كما أنها قد أصبحت وفى يدها ما يمكنها من فرض سياستها وسلامها واقتصادها فى عالم اليوم المسمى عالم (وحيد القرن). العجيب أن يقودها إلى هذه السلطوية والسيادية رجلٌ وصفه أحد بنى جنسه ووطنه وعقيدته بانه (لص، وغبى، وجاهل).

فقد صدر مؤخراً كتاب عنوانه (رجال بيض أغبياء) للكاتب الأمريكى الشهير

(مايكل مور) الذى يقول عن رئيس بلاده (جورج بوش / الإبن) إن الرئيس الأمريكى يحمل لقب (القائد العام) باعتباره قائدا للقوات المسلحة الأمريكية كلها... أما الرئيس (دبليو بوش) فهو يستحق لقب (اللص العام) لأنه سرق الرئاسة.

ويمضى (مور) فى كتابه فيقول أن الرئيس بوش (جاهل وغبى وأن جهله من جهل الذين انتخبوه وتابع قوله فقال :

أجرى معهد علمي أمريكى مرموق دراسة متعمقة إلى استنتاج ملخصه أن (جورج دبليوبوش) هو أغبى رئيس حكَمَ الولايات المتحدة، والمعهد هو : (Lovensteim im stitute of scramtom) ويعتبر أحد المراكز الفكرية المهمة بالولايات المتحدة حيث يضم عدداً كبيراً من علماء الاجتماع، والمتخصصين فى السلوك الإنسانى والمؤرخين.

وقد بدأت هذه الدراسة فى ١٣ /فبراير ٢٠٠١ ، واستمر العمل بها لمدة أربعة أشهر ولم يتم نشر نتائجها إلا مؤخراً.

وتضمنت هذه الدراسة نشر درجات ذكاء الرؤساء الأمريكيين الإثنى عشر الذين حكموا الولايات المتحدة فى الخمسين عاما الأخيرة فجاءت كالتالى : روزفلت ١٤٧ - ترومان ١٣٢ - ايزنهاور ١٢٢، كنيدى ١٧٤، جونسون ١٢٦، نيكسون ١٥٥، فورد ١٢١، كارتر ١٧٥ - ريجان ١٠٥ - بوش الأب ٩٨ - كلينتون ١٨٢ - بوش الإبن ٩١ .....!

وتقول الدراسة إن الرئيس « جورج دبليو بوش » هو الأغبى بلا منازع وبصورة مطلقة فلا أحد من الرؤساء الديمقراطيين أو الجمهوريين اقترب من هذه النسبة المتدنيّة.

وأشارت الدراسة إلى أن هناك عوامل متعددة وراء هذا الترتيب المتأخر للرئيس بوش بين رؤساء أمريكا منها ضعف تمكنه من اللغة الإنجليزية واستخدامه المحدود لمفردات اللغة، حيث يستخدم (٦٥٠٠) كلمة مقابل (١١) ألف كلمة فى المتوسط يستخدمها الرؤساء الآخرون[١].

وفى ذلك القدر الكفاية.

(فاعتبروا يا أولى الأبصار).

* * *

رابعًا : نشأة الحضارة الإسلامية

إن سلمنا بأن جزيرة العرب هى مهد الحضارة الإسلامية التى قادت العالم بأستاذية من الظلمات إلى النور، ومن الغى إلى الرشد، فذلك لأنها هى الأرض التى

---

(١) بتصرف من مقال للأستاذ / اسماعيل منتصر - مجلة اكتوبر ١٨ /٨/ ٢٠٠٢ ع ١٣٤٧ .

شهدت النبت الأول للقاعدة العامة الصلبة التى قادت حركة التنوير البشرية بفضل الشريعة الإسلامية الغرّاء، كما أنها مهبط الروح الأمين (جبريل عليه السلام) الذى نزل بالقرآن الكريم على قلب النبى الأمي [محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ٦١٤م . الذي أرسله الله تبارك وتعالى: ﴿ شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] ، وكما قال تعالى: ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ [التوبة: ٣٣]

ولقد عانى الرسول (ﷺ) من الشدائد أشد ما عاني، وقاسي من المكاره المبالغ، في سبيل إبلاغ ما أمره الله تعالى به: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة: ٦٧] .

وقد صبر الرسول ﷺ على أذى قومه، ومعه فقد تحمّل المسلمون الأوَل المضار الجسام فى سبيل تلك الدعوة الجديدة، فتركوا الديار والأوطان فى الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم تآمر القريشيون على الرسول ﷺ واتفقوا على قتله، حتى أوحى الله تعالى إليه بالهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) - فهاجر مُكْرَهًا على فعلته، وتلك كانت بداية العمل بالتقويم الهجرى لتدوين أحداث الدولة الإسلامية الوليدة.

وقد عاد الرسول ﷺ إلى مكة فاتحا إياها سلما، ودخل أهلها في دين الله أفواجا كما قال تعالى: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ [النصر: ١-٣] .

وكانت تلك الحادثة العظيمة في سنة ثمان من الهجرة[١].

وظل الرسول ﷺ يتلقى الوحى عن الله تعالى من جبريل عليه السلام حتى أتم الله له الأحكام العامة للشريعة الإسلامية من أعلاها حيث الشهادة بالوحدانية إلى أدناها عند إماطة الأذى عن الطريق.

وقد بين الرسول ﷺ من السنة الشريفة ما يصون حقوق الفرد والمجتمع والإنسان والحيوان والطير، وتناول كذلك أثناء حياته الكريمة ما يحقق سلامة الجار وأمنه على نفسه وماله وعرضه كقوله ﷺ: « ليس منا من لم يأمن جواره بوائقه) .

وقد ختم الله تبارك وتعالى على الديانات بالإسلام وعلى الكتب بالقرآن، وكانت خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة إيذانا بالختم على حياته ﷺ كما قال تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص ٧٤٦ .

وبعدها لم تدم حياته ﷺ طويلا، حيث قُبض وهو ابن ثلاث وستين سنة وذلك فى غير رواية[1].

وإذا كانت شبه جزيرة العرب قد شهدت الطور الأول من مولد نجم الحضارة الإسلامية فإنه يتعين علينا بالتالى أن نؤكد أن الحضارة الإسلامية ليست مقصورة على العدنانيين أو المدنيين فى يثرب، لأنها ليست دعوة خاصة بهم مقصورة على أصحابها ومن نزلت بينهم فهى دعوة عامة شاملة تجاوزت حدود الزمان والمكان حتى نهاية الحياة الدنيا وقيام الساعة التى قيامها مشروط برفع القرآن الكريم من الأرض وقبْض العلماء ووفاة المؤمنين[2].

وقد تجاوزت حدود المكان حقيقةً فنشرت بين زوايا العالم الأربع صحيح العقيدة، وهذبت الأخلاق، وأكدت على مساواة الجميع. كما أحاطت تلك الحضارة معاملات الناس بسياج من التشريعات القائمة على الإيمان العميق الذى تَعمُر بها قلوب أتباعها.

كما قررت الشريعة الإسلامية كذلك من الزواجر المادية ما يكفى لتأديب المسلمين وإصلاح حالهم، وعلُوّ شأنهم ليُصبحوا للعالم سادة يقودونه إلى الخير والحق والبر والهداية والعدل وإلى طريق مستقيم.

ويمكن القول أن الحضارة الإسلامية هى حضارة الشرق الأدنى القديم وجزء من إفريقيا، فهى بذلك ليست وليدة مرحلة مُتفردة، أو مرحلة واحدة من مراحل التاريخ. وذلك لأنها تمثل نتاجا لتداخلات الأمم ومزيجا من خبرات الشعوب فى منطقة الشرق الأوسط، كما أنها ثمرة للجهود الشاقة والأعمال العظيمة لأجيال متلاحقة من شعوب هذه المنطقة الذين آخى الإسلام بينهم وجمعهم لأول مرة عبر التاريخ الإنسانى الطويل من دولة لها دستور واحد «هو القرآن الكريم» ومنهج واحد هو منهج الرسول ﷺ ولغة واحدة هى اللغة العربية.

ويطالعنا التاريخ بأن العرب قبل الإسلام كانوا يضربون فى الصحراء دون أن يشعر بهم أحد، كما أن انشغالهم بمعاركهم القبلية الطاحنة أدى إلى إضعاف قواهم وإنهاك اقتصادياتهم القائمة على التجارة بحيث أصبح العرب لا يشكلون أى خطر أو تهديد على غيرهم من الشعوب المجاورة فيخشوا بأسهم.

---

(١) انظر البداية والنهاية ص٣٢٣ : ٣٣٠ .

(٢) انظر: هذا بلاغ للناس / للمؤلف .

وكان لاشتغال العرب بالتجارة البينية فيما بينهم والخارجية مع عرب الجنوب (القحانيين) وعرب الشمال الكنعانيين فى فلسطين. والغساسنة فى سوريا أثراً عظيما فى تتبع العرب لحركة النجوم واتجاهات الريح بما يُؤَمِّن لهم السير فى الصحراء ليلا من غير معاناة ومن دون أن يضلوا الطريق، وهكذا كان للعامل البيئى دوراً هاماً ومؤثراً فى الإبداع والتطور والدراسة والترقب فى أخطر فروع العلم والمعرفة وأهمها علم النجوم.

ومع بعثته ﷺ ونزول القرآن، وجد العرب آيات عظيمة تحثهم على البحث والنظر فى آيات الله، ودلائل قدرته، وقد شجعهم على الخوض فى هذه الأبحاث ما ذكر القرآن الكريم مؤكداً علي وعد الله تعالي لبني البشر عبر سنين الحياة الدنيا ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣].

وقد راح العرب يفتشون ويدرسون ويستوعبون ويبحثون ويستنتجون ويُطبّقون حتى غدوا قبلة أنظار العالم فى شتى فروع العلم والمعرفة.

وإذا كانت الحضارة الغربية متى وُجدت مثل (الروم - والإغريق) تقوم على عماد مادى محض وهو (الإقتصاد)، وإهمال عَمْد للعامل الروحى وطرح لقضايا الدين والعقيدة باعتبار قضية الدين « أمراً شخصيًا مَحْضاً » - أى فى الجملة إسقاط إقامة أى وزن لموضوع الدين فى موازين السعادة البشرية وإستقامة حياتها.

فإن الحضارة الإسلامية فهى على النقيض التام من مبادئ المدنية (الحضارة) الغربية وذلك لأنها تقوم فى الأصل على العامل الروحى الخالص الذى يحض الإنسان ويدفعه إلى حسن إدراك صلته بالوجود، ودراسة طبيعة مكانه منه ومكانته فيه، حتى يبلغ الإيمان، فإذا ما وقع الإيمان فى قلبه هزّب نفسه وطهر فؤاده وذكى عقله وقدم غذاء ثمينا سليما من القيم السامية التى تنظم حياة الفرد والمجتمع على نحو يحقق السعادة والسلام والأمن للجميع .

ومن ثم فإن الجانب الروحى الشفاف فى الحضارة الإسلامية العظيمة قد ساهم بقدر كبير، وإلى حد بعيد فى تنقية الحضارة ذاتها من كل زيف، ونَقّحَها من كل باطل، وطهرها من كل خبث، وأخرج من الصدور ما كان يملؤها من أنانية متطرفة، وجعل أتباع الدين الإسلامى الحنيف على إختلاف أوطانهم وألوانهم وأجناسهم يتعاونون جميعا إلى أقصى ما يمكن فى حدود التعاون بما بثه القرآن الكريم فى نفوس المسلمين، وما أرساه من عقائد راسخة عند أتباعه توجب التقدير للإنسانية وتُلزم احتراما لتشريعات السماء.

وقد أجاد وأوجز (لوثرب ستودارة) في قوله عن الأمة العربية[1]: «ما كان العرب قط أمة تُحب إراقة الدماء، وترغب في الإستلاب والتدمير، وإنما كانوا أمة موهوبة عظيمة الإخلاص والسجايا، توّاقة إلى ارتشاف العلوم، وعن اختلاط الغالبين من العرب بالمغلوبين من غيرهم نشأت حضارة جديدة، وقد سارت الممالك الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى أحسن سيرة فكانت أكثر أصقاع العالم حضارةً، ورُقيّا، وعُمرانا، بها المدن الزاهرة، والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة.

* * *

خامسًا: فضل العرب في الفتوحات الإسلامية

كما تقدم فإن عرب الجنوب في مناطق (اليمن وحضر موت) إشتهروا بأنهم أصحاب تجارة ناجحة عبرت حدود دولتهم وانطلقت إلى آفاق أوسع وحدود أبعد بفضل ما برعوا في استخدام الأساطيل البحرية، واجتياز البحار، حتى وصلوا إلى الهند وجنوب إفريقيا وشمالها، وتقدموا شمالا صوب الغساسنة، والفينيقيين وقد تخطوا الصعاب من أجل تجارتهم التي اتّسعت خاصة مع الساحل الشرقي لإفريقيا (مصر وليبيا) بعد أن تمكنوا من عبور البحر الأحمر من الجنوب إلى الشمال منذ ما قبل الإسلام بمسافات بعيدة.

ولما جاء الإسلام وتمكن المسلمون من الإستيلاء على الشمال الإفريقي بعد أن دحروا الرومان ودولتي البربر (سابقتي الذكر) لم يقنع العرب بالشريط الساحلي كسابقيهم من الرومان، فاقتحموا الصحراء واخترقوها، وتقدموا إلى ما وراءها شجعهم على ذلك ما أجادوا وما برعوا في علوم الفلك والنجوم والرياح، وكذلك لأن الصحراء لم تكن شيئًا غريبًا عنهم.

ولما أتم الله تعالى لعمر بن الخطاب والمسلمين فتح الشام، أنزل عمر جيوشه العربية لفتح مصر سنة عشرين من الهجرة: كما قال [محمد بن إسحاق، والواقدي] الذي أضَاف والاسكندرية إلى قول ابن اسحاق.

وقال أبومعشر: فُتحت مصر والإسكندرية في سنة ست عشرة في ربيع الأول منها، ورجّح ذلك أبو الحسن ابن الأثير في كتابه الكامل[2]، وذلك بعد أن أتم الله للمسلمين فتح بيت المقدس.

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ج١ ص٥٨.

(٢) البداية والنهاية ج٤ ص ١٣٠.

وقد سارت هذه الجيوش مع النيل بعد فتح مصر صوب الجنوب.

ومن ثم يمكن القول بأن الفتح الإسلامى لإفريقيا تم عن طريق ثلاثة منافذ رئيسية هى: عبور صحراء شمال إفريقيا صوب الجنوب، وكذلك عبور النيل باتجاه الجنوب والغرب، وكذلك عن طريق الوافدين عبر البحر الأحمر إلى الصومال، وشرق إفريقيا، ثم انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً فى هذه المناطق، وقد خلق الإسلام فرصا عظيمة وواسعة للرحالة العرب الذين لا يعرفون حدوداً بين البلاد الإسلامية.

* * *

سادساً: الآثار ولغة الحوار

كانت أوروبا خاملة الذكر راكدة رابضة فى قاع التاريخ جاهلة نفسها قبل أن يجهلها الآخرون، ولم يكن لِيُعرف عنها إلا القليل قبل الألفية السابقة على ميلاد المسيح (عليه السلام).

وقد تأثرت المناطق الشرقية تَأَثُّراً مباشراً بفضل ما نَقَلت أو نُقِل إليها من الحضارات المزدهرة الراقيَة القديمة فى وادى النيل، وبين الرافدين.

وعلى الجانب الآخر فقد تأثرت الحضارة الشرقية القديمة بالحضارتَيْن اليونانية والرومانية بفضل الاحتكاك الذى حدث بين الحضارتين الشرقية والغربية. عندما حدث المزج والخلط المباشر بين شعوب الفتح الرومانى لكل من مصر والشام والعراق فى القرن الرابع قبل الميلاد. حيث أمر الإسكندر بترجمة كل ما فى كتب الفُرس إلى اللغة الإغريقية، ولما بلغ ما أراد، أمر بإحراق تلك الكتب، وتأثرت الثقافة الفارسية بهذا العمَل غير أن الفُرس قد استعانوا بمن لجأوا إليهم من مثقفى الرومان الهاربين من الاضطهاد والبطش فى نقل ما فقدوه من المعارف، وعادت الثقافة الفارسية ثانية إلى الإزدهار(١).

والثابت أن ملوك فارس من آل ساسان قد انغمسوا فى الترف وحياة الفساد واستبدوا بالمحكومين. مما باعد بينهم وبين المحكومين فتوالى خلع الملوك، واضطربت الدولة، التى كانت قد فرضت الضرائب الباهظة على المواطنين مما أثر إلى حد كبير فى مستوى معيشة المواطنين، وقد نتج عن ذلك أن أضحت الدولة الفارسية فى أواخر أيامها عرضة للقلاقل والاضطرابات خاصة أن الأكاسرة كانوا ينظرون إلى غير المجوسيين من اليهود، والصابئة، والمسيحيين، والبوذيين نظرة ريبة وتوجس فأنزلوا بهم من الاضطهاد ما أنزلوا، بحيث رأى هؤلاء

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص٥٠.

جميعًا ومعهم الشعب الفارسى الذى أثكلته الضرائب طريق الخلاص والنجاة من أوضاعهم المأساوية في اللجوء إلى الإسلام، واعتناق دين يلتمسون فيه حياة أفضل، ويرجون منه عوضا أجْزى عما عانوا وما قاسوا.

ولما دخل هؤلاء فى الإسلام بعد الفتح أقبل المثقفون والراغبون منهم على دراسة الدين الإسلامى ولغته العربية، وقد ساهم هؤلاء بجهد مشكوز فى دفع عجلة الحضارة الإسلامية وتقدمها من خلال إثرائها بأنواع المعارف الهندية والفارسية.

كما نقل السريانيون وهم بقايا (الكلدانيين، والبابليين) بعض كتب الفلاسفة من أمثال (أرسطو، فيثاغورس، وأفلاطون) حيث كان السريانيون من تلامذة اليونانيين فى العلوم الإغريقية والفلسفية وكانوا يدرسونها فيما يقرب من نحو (٥٠) خمسين مدرسة فى العراق، وقد تخرج من هذه المدارس أكثر المترجمين الذين نقلوا الكثير عن الإغريق إلى السريانيّة، ومن ثم إلى العربية، الأمر الذى مكن العرب من امتلاك ناصية العلوم اليونانية والأقدمين، وبهذا يبدو واضحا ما للحضارتين الفارسية واليونانية من آثار على الحضارة الإسلامية التى حفظت بدورها للعالم تراث الأقدمين والأولين.

ملحوظة:

الصابئة:

قيل أنهم يعتقدون أن الإله الأعظم خلق هذه الكواكب الثابتة والسيارة، وفوض تدبير هذا العالم السفلى إليها، فالبشر عبيد هذه الكواكب، والكواكب عبيد الإله الأعظم، فالبشر يجب عليهم عبادة الكواكب[١].

* * *

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٥ ص ٧٤٧.

الفصل الثالث

آسيا والتاج الملكى

أولاً : الإسلام فى آسيا

كانت منطقة شرق آسيا تسمى وإلى عهد قريب (شبه القارة الهندية) وذلك قبل أن يمزق الاستعمار الحديث أوصالها، وهى تبلغ فى مساحتها (١٫٢٢١٫٠٧٢) ميلا مربعًا أى ما يعادل مساحة أوروبا مجتمعة - غير روسيا.

قال المهتمون والباحثون فيها : أنها بلد مغلقة، وذلك لأنها تقع بين نهرين عظيمين أحدهما نهر السند، والآخر نهر الكنج، ويحدها البحر شرقا وغربًا، ومن الشمال سلاسل جبال الهملايا الشاهقة.

والهند هى بلاد المجتمعات والطبقات والشعوب، ومن ثم فإنها لذلك بلد الأديان، واللغات، واللهجات، والألوان، والأساطير، والأسرار.

ويمكن التأكيد على أن الهند كانت مركزًامن مراكز الحضارة القديمة فى العالم، وهى لا تقل عن الحضارة المصرية، والأشورية، والبابلية، والقرطاجية.

وكان الرحالة العرب من القحانيين (سابقى الذكر) هم أول من وطأت أقدامهم أرض الهند وقد عرفوها مبكرا بعد أن برعوا فى الإستفادة من تغيير حركة الرياح،وصناعة السفن حتى احتكروا تماما الملاحة فى المحيط الهندى.

ولا تختلف العقيدة فى الهند عن مثيلاتها فى إفريقيا حيث تنتشر عبادة أرواح الأجداد، والظواهر الطبيعية والأبقار، والنمور ... إلخ - أى - عبادة (الطاغوت).

وقد تعرضت الهند لغزو سلمى من الآريين فى حوالى ١٥٠٠ق.م، وتتمثل أهمية تلك الحادثة فى أنها قد ارتبط بها التاريخ الواضح للهند القديمة[١].

كما يجدر القول بأن الحضارة الهندية ارتبطت وإلى حد كبير بالحضارة اليونانية بعد غزو الإسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة على كل الهند، وبعد رحيل الإسكندر وضياع امبراطوريته فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ظهرت إمبراطورية (الوريا) الهندية[٢].

---

(١) حضارة الهند ص (١٠٠ ، ١٠١) غوستاف لوبون.

(٢) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج١ ص٢٨ د. أحمد الساداتى.

ثم نجح بعدُ الملك (داهر) في انتزاع إقليم السند من القبائل الآرية التى كانت تحكمه، وقد عرف الإسلام طريقهُ إلى هذه البلاد فى عصر (الملك داهر) متخذاً له طُرقاً عدّةً ومجتازاً لعدة مراحل.

* * *

المرحلة الأولى

• يقول « غوستاف لوبون » فى كتابه حضارة الهند ص٢٣٧ « وُجدت علاقات تجارية بين الهند والعرب قبل أن يظهر الإسلام، فقد كانت الهند من المحطات التجارية المهمة لدى العَرَب، كما كانت فى الطريق لتجارتهم مع ماليزيا وإندونيسيا والصين، وكانت التجارة العربية مع الهند تسير براً من مصر والشام على ساحل البحر الأحمر إلى اليمن ثم تبدأ المرحلة البحرية عن طريق حضرموت وعُمان والبحرين إلى كراتشى، أو عن طريق المحيط الهندى إلى الموانئ المختلفة بالهند.

وأضاف لوبون : إن التجارة كانت تصل مراكز الشرق كسمرقند وبغداد ودمشق بالهند مارة ببلاد فارس وكشمير.

وقد وجدت البضائع والمنتجات الهندية فى الأسواق العربية والإفريقية قبل الإسلام مثل (العنبر، العود، المسك)[1].

وعن طريق هذه الصلات والعلاقات التجارية القويّة. دخل عدد من الهنود الإسلام وبخاصة من الطبقات المقْهورة والمتمردين على النظام الطبقى فى الهند الضائقين به، وقد تمتعوا جميعاً بالمساواة والعدل والإخاء الذى يدعو إليه الإسلام.

ويروى المؤرخون أن مراكز إسلامية أقيمت فى الهند للدعوة إلى الدين الإسلامى، وقد ساهمت فى هذا وإلى حد كبير تلك الزيجات التى تمت بين التجار والنساء الهنديات، وبدأ الإسلام ينتشر على أرض الأساطير والأوهام.

* * *

المرحلة الثانية

ما أن فتح الله بلاد فارس للمسلمين فى عهد الخليفة الفاروق (عمر ابن الخطاب)[2] حتى بدأوا فى التطلع شَرْقًا، فأسلمتهم خراسان من دون قتال، ووضع المسلمون نُصب أعينهم بلاد السند ثأراً من ملكها (داهر) الذى ساند الفرس وأمدهم بالمال والرجال للتصدى للفتح الإسلامى وللحيولة دون زحفه، وقد كان ذلك

---

(١) المسالك والممالك ص٦١ ابن خرداذية.

(٢) البداية والنهاية ج٤ ص١١٣ .

منه عندما إستنجد ملك الفرس بجيرانه، ولكن النصر كان حليفا بالمسلمين، ففتح ذلك الطريقَ لفتح السند رداً على تدخلها فى معركة القادسية.

هذا وقد تطوع (الحارث بن مُرّة) فى عهد أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) بالتوجه إلى بلاد السند بقيادة جيش من المتطوعين بعد أن أذن لهم الخليفة فى ذلك، وكانت تلك أول الغزوات التأديبية الهادفة إلى الردع والتاديب، والتهذيب.

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان أمر القائد الشهير (المهلب بن أبى صفرة) بإرسال « عبدالرحمن بن سمرة » ففتح بلاد السند واستقر بها.

ثم استغل « الحجّاج بن يوسف الثقفى » واقعة اعتداء (داهر) على سفينة عربية بملاحيها، والإيقاع بهم فى الأهر، فأرسل جيشًا بقيادة « صِهرُة » ابن أخيه (محمد بن القاسم الثقفى) لفتح السند وتخليص النساء، وسلكت القوات مسلكًا بحريا بقيادة ابن أخيه، وسلك ابن القاسم الطريق البرى، ودارت معارك عنيفة، انتصر فيها المسلمون وانهزم الجند، وفرَ « داهر » هاربا وخضعت البلاد صُلحًا أو عُنوة، وخضعت السند كلها، وتقدم إبن القاسم حتى كشمير[1].

ومّما يذكُر المؤرخون أن عاملا مهما كان قد ساعد المسلمين على تحقيق النصر السريع على (داهر) وجيوشه هو الدعم الهائل والكبير الذى قدمه رجال قبيلتى (الميد، الجات) السنديتين للجيوش الإسلامية بعد أن تمردوا على ملكهم وانضموا لقوات الفتح الإسلامى، وقد أفادوهم كثيراً بالتعرف على أقصر الطرق وأيسرها، وبذلوا جهداً مشكوراً، وقدموا عملا حميداً فى فترات القتال خاصة لشدة معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى القتال[2].

ويعود السبب فى موقف (الميد، والجات) إلى كون القبلتين هاجرتا إلى خارج السند لفرط ما يعانونه من سوء معاملة الحكومة، إذْ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب، وارتداء غالى الثياب ولم يكن يباح لهم من الحرف إلا أحقرها.

وفى العصر العباسى وأثناء ولاية « هشام بن عمرو التغلبى » سنة ١٥١هـ، تم فتح كشمير وملتان فى البنجاب وكَجَرات وبنى بها مسجداً يعتبر من أهم معالم الهند حتى الآن.

---

(١) فتح البلدان : البلاذرى ص٤٢٤ .

(٢) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ج١ ص٥٩ .

المرحلة الثالثة : الدولة الغزنوية

التى أسسها التركى (ألب تكين) ٩٦٢ : ١١٨٧م . وجعل من غزنة بأفغانستان عاصمة لها، وحكمت امبراطورية واسعة شملت البنجاب، وأفغانستان، وشرق إيران، وقد قضى عليها الغزو المغولى بقيادة « جنكيز خان » .

أما زعيمها شبه الأسطورى فهو بطل الأبطال فى تاريخ أفغانستان (محمود الغزنوى) الذى جلس على عرش غزنه فى ٩٩٣م. وقد تمكن « محمود » من فتح خراسان، وسار شرقًا نحو الهند، وكان عدوه الرئيسى [راجا] البنجاب، وقد هزمه محمود واستولى على « ملتان » فى ١٠٠٠م وتوج نفسه سلطانا عليها.

حاول رؤساء الإقطاع هناك تكوين حلف مناهض للملك الغزنوى الفذ، ولكنه تغلَّب عليهم جميعا بسهولة، وبعد أن سقطت معاقل الهنود غرب نهر « كجرات » حمل « محمود » مشعل الإسلام إلى كشمير فى ١٠٢١م.

وقد خضع شمال شبه القارة الهندية من « غزنة إلى بنارس »، ومن الهملايا إلى الدكن، وقد امتدت مملكة الغزنوى من « فارس غربا إلى بهار شرق الهند ».

كما ساعد انقسام الهند إلى إمارات وممالك متعددة، حيث كان هناك (راجا) دلهى، و(راجا) قنوج فى أودها ووادى الكنج، وآل بال فى « البنغال وبهار » أما الجنوب فكانت تسيطر عليه إمارات هندوسية ثلاث هى (جيرا، راجول، تبيندرا) وكانت كلها متحاربة فى صراع دائم(١) .

وقد عُنى الغزنويون كثيرا بنشر الإسلام فى الهند، واعتَبر محمود الغزنوى نفسه داعية إسلاميا، وكان مما سبب انتشار الإسلام فى الهند أن الغزنويين حزوا حزو التجار العرب المسلمين فتزوجوا من الهنديات فكونوا بذلك أسراً إسلامية بالهند وقربوا إليهم عدداً من الهنود وعينوهم فى وظائف مناسبة مما قرب المسافة بين الفاتحين والبلاد المفتوحة.

ثم تعددت المراحل والأطوار، وتعددت بتعددها الدول فى شبه القارة الهندية ومن أهمها : دولة « الغوريون » وقد أسسها محمد الغورى ٥٩٩هـ وصار ملكًا على أفغانستان والهند، وسار فى الهند يُكمل زحفه ونشاطه حتى أصبح شبيها بالبطل شبه الأسطورى محمود الغزنوى فى نجاح فتوحاته بالهند، وفى تحطيم أصنامها وجذب كثير من سكانها لدين الإسلام، ثم دولة سلاطين دلهى، وجاءت الإمبراطورية المغولية من ٩٣٢هـ: ١٢٧٥ هـ - (١٥٢٦ : ١٨٥٨م) وقد بدأت هذه بدايتها الأولى من

---

(١) حضارة الهند ص ٢١٧ .

كـابول فى عـام ٩٦٠هـ وتلك قـد أقـامـهـا «بابر» حـفـيـد تيـمـو ر لنك على أرض أفغانستان، ومن كابول بدأ يوسع مملكته ويدعم سلطانه حتى مات ودفن فى كابول عام ٩٣٧هـ، وقد خضعت إيران لحكم المغول لفترات طويلة.

تمردت إيران على حكم المغـول الذى دامت فى ظله عـدة قـرون، واسـتطاع الإيرانيّون بقيادة (اسماعيل الصفوى) أن يجتمعوا حتى تكونت الدولة الصفوية فى عام ٩٠٦هـ، ١٥٠٠م تقريباً[١]، وتتابع الحكام الصفيون حتى اتجهت الدولة الصفوية نحو النهاية وانحدرت سريعا بعد أن استطاع «نادر قلى» الإطاحة بالسلطان «أشرف بن ويس» الأفغانى ووضع على كرسى الحكم مكانه (طهما سب الثانى) الذى حكم باسم (الأداة) عـشـرة أعوام، ثـم خلعـه (قلى) ووضع مكانه ابنه عـبـاس الثـالث. ولما توفى بعد فترة وجيزة قبض (نادر قلى) على الأمور باسم نادر شاه وانقرضت بذلك أسرة الصفويين[٢].

وقد اهتم «نادر شاه» اهتماما بليغا بتجديد شباب الدولة الفارسية، وتقوية دعائمها، ثـم زحف من إيران على البلاد المجاورة له، فتوجه إلى الهند فضم فى طريقه إليها «قندهار، وكابول»، ثم دخل لاهور جنوبى (باكستان الحالية)، واحتل البنجاب فى ١٧٣٨م، وقد حاول الإمبراطور المغولى (ناصر الدين محمد شاه) أن يرد نادر شاه عن غـزوه لبـلاده. ولكنه فـشل، ووصل نادر شـاه إلى دلهى، وقـضى على الإمـبـراطور المغولى بعد أن أمَّنَهُ، وقد ثار المسلمون فى الهند ضد نادر شاه لموقفه من إمبراطورهم، ونتيجة لذلك أباح (نادر شاه) مدينة دلهى لجنوده، فعاثوا فيها فساداً، ودمروا وسلبوا ما استطاعوا، وكانت أبرز الأسلاب:

(الجوهرة النادرة) التى كانت فى تاج (شاهجهان) وقد تنقلت هذه الماسة من يد إلى يد حتى استقرت فى تاج ملك إنجلترا، ولازالت السليبة الهندية على رأس تاج الملوك البريطانى حتى الآن[٣].

وقد عاد نادر شاه إلى بلاد فارس بعد أن فَعَل ما فعل فى إمبراطورية المغول فى الهند، وتركها تصارع الموت وتَتَرَنّح من شدة هول ما لاقت على أيدى جنوده، وبذلك أصبحت فريسة سهلة للمتربصين بها من السيخ، والهنادكة، وطلائع الإنجليز التى قد بدأت حديثا فى الوصول إلى الهند.

---

(١) إيران فى ظل الإسلام ص٢١ د.عبد النعيم حسنين.

(٢) بتصرف من التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص١٤٢ : ١٥١ .

(٣) يروى المؤرخـون أن حـادثة تخريب دلهى سنة ١٧٣٩ كـانت نذيرا بسـقـوط الدولة المغولية .

وفى بادرة قوية تؤكد على انحدار الإمبراطورية المغولية وضياع هيبتها وقع قتال ضَارٍ بين المسلمين والهنود، حيث قاد (أحمد) ابن الإمبراطور المغولى (ناصر الدين محمد) الذى أراد أن يوطد سلطانه على دلهى بعد وفاة أبيه، أما الفرقة الثانية فكانت تحت قيادة (أحمد شاه الإبدالى - الأفغانى) الذى استولى على لاهور سنة ١٧٤٨م. وامتد سلطانه إلى دلهى، ساعدته على ذلك الثورات العارمة التى كانت تغمر بلاد الهند، هذا بخلاف النصر الذى تمكن به الإنجليز من احتلال منطقة البنغال.

وقد تدخل الإنجليز بعد هذا النصر تدخلاً صريحا فى شئون الهنود، أدمى نفوس الهنود جميعا مسلمين وغير مسلمين، وعمّت الثورات بلاد الهند بزعامة الملك (بهادور شاه) آخر ملوك المغول، ولم يستطع الثوار الصمود أمام الأسلحة الحديثة الفتاكة فلحقت بهم الهزيمة.

وبدأت الهند أحرج مراحلها فى العصر الجديد تحت حكم الإنجليز الذى بفضله تمكنت شركة الهند الشرقية البريطانية والعاملين فيها من إلحاق الهزيمة بجيش (سراج الدولة) من أثر الخيَانة، وفتحت الطريق لبسط السيطرة البريطانية على الهند التى أتمّها الإنجليز على كل ربُوع الهند فى ١٧٦٣م(١).

* * *

الهنود فى مجال الحضارة الإسلامية

جاء فى كتاب (سيَر الأعلام للذهبى) قوله (ولقد لعب عدد من الهنود أدواراً مهمة فى الحضارة الإسلامية)، ومن هؤلاء (أبوعطاء السندى) الذى نبغ فى الشعر نبوغًا عظيمًا، ومدح به خلفاء بنى أمية، وأوائل الخلفاء العباسيين، ومنهم كذلك « الأعرابى » وكان من أعلام اللغة العربية، وهو مؤلف كتاب « أسماء الخيل »، ومنهم « أبومعشر السندى » صاحب المغازى الذى نبغ فى علوم الفلك، ومنهم « صالح بن بهلة » الهندى - وكان بارعا فى الطب.

وإذا كانت هذه الأسماء قد برعت فى العصر الأول للإسلام فى شبه القارة الهندية، فإن المؤرخين يُجمعون على أن رجالات العصر الغزنوى قد تطورت الأمور فى حياتهم نحو الأفضل، حيث تضاعف الارتباط بين الهنود والمسلمين، وفُتح الباب أمام الهنود ليبرعوا فى الفكر الإسلامى وليكتبوا فى مجالاته المتعددة، حتى كانت المنافسة بين مدرسة الهند والمدارس العملية في القاهرة وبغداد.

---

(١) موجز تاريخ العالم ص١٢٠ .

الهند فى ظل الإسلام

حمل الإسلام إلى الهند حضارة واسعة مختلفة الإتجاهات، عظيمة التكوين، فهى خليط عظيم من حضارة العدنانيين فى مكة، والحضرموتيين والقحانيين فى اليمن والفراعنة فى مصر والفارسية والأشورية والبابلية والرومانية، والفينيقية، بعد أن أثرت الحضارة الإسلامية فى الفكر العالمى كله باستيعابها للحضارات العالمية التى احتضنتها واحتوتها.

وقد أفرزت علوما متوسعة، وحضارة مهذّبة، وأنتجت عقولا تُبدع فى المعارف المتنوعة. فضلا عن رسالة التوحيد التى يُنادى بها الإسلام لعبادة الله الواحد الأحد، وليقرر لهم حق المساواة بين الجميع من دون تمييز لقوله ﷺ (الناس سواسية كأسنان المُشط)، كما يؤكد كذلك على حق الحرية الفكرية حيث كانت الهندوسية لا تسمح للبوذية بالبقاء فى الهند قبل دخول الإسلام.

وقد أوجد الإسلام فى الهند لأول مرة عبر تاريخها الدولة الواحدة التى تمارس عملها بأسلوب ديمقراطية الحكم فى وحدة سياسية واحدة، بعد أن كانت تتكون من إمارات عديدة، وقد ضمت هذه الدولة إلى جانب الهنود عناصر غير هندية كالفارسية التى أضحت لغة معمولا بها بين الحكام وحاشية البلاط، وقد أُسْتُعملت فى كتابة بعض الكتب والمؤلفات المفيدة فى شتى الموضوعات.

كما أدخل المسلمون إلى الهند كتابة التاريخ لأول مرة، وجعلوهم يهتمون بالعلوم والمعارف، واختفى العرى الجسدى، واتحدت الملابس بين الطبقات تقريباً... وعاش الهنود مرحلة جديدة أقامت بين تخلف الماضى سترا وحجاباً، حتى تعرضت للهجمة الأوروبية الشرسة التى حدثت تباعًا بعد ذلك مع العبور الصليبى إلى آسيا.

* * *

ثانيًا : أفغانستان

قطر استراتيچى حيوى فى قلب آسيا، وهى ما تعرف بآسيا الوسطى، وتتشكل من مساحة غير منتظمة الشكل، لا تتصل ببحار من أى جهة، يحدها من الشمال الإتحاد السوفيتى، ومن الغرب إيران، ومن الشرق الهند، ومن الجنوب باكستان.

وتأتى أهمية أفغانستان الجغرافية من كونها تتحكم فى الطرق الاستراتيچية العالمية التى تؤثر بشكل كبير فى ازدهار حضارات، أو اندثار أخرى. كما أنها تقيم اقتصاديات دولة وتصيب بالكساد أخرى، كما أنها تمسك بمفتاح العبور بين الحضارات القديمة (الهندية – الفارسية – البابلية) وكذلك فهى تتحكم بمقدار فى التجَارة الإقليمية فى وسط آسيا والتجارة العالمية على السواء.

يتحدث أكثر أهل أفغانستان الفارسية، وبعضهم يتحدث الأفغانية، ويعود تاريخ ظهور أفغانستان كوحدة جغرافية مستقلة عند أواسط القرن الثامن عشر، أما فيما قبل ذلك فقد تأثرت ظروف أفغانستان تماما بظروف إيران من انتصارات وهزائم، فالغزو الآرى السلمى الوافد من الخليج دخل فارس، وتقدَّم إلى آسيا الوسطى، ونزل أفغانستان، وكذلك زَحْف الإسكندر الأكبر، هذا وقد خضعت إيران وأفغانستان معاً للإخمينيين فى العصر الإخمينى.

وكانت أفغانستان تدين بديانتين محليتين شهيرتين فى آسيا هما (البوذية ، زرادشت).

ويخلص بروفيسور (رومين) تاريخ أفغانستان قبل الاستقلال بقوله: (خضعت أفغانستان خلال قرون طويلة حتى القرن الثامن عشر لحكم الأمراء الهنود، ومرة أخرى لحكم الفرس، وثالثة لمملكة بخارى (تركستان، أوزبكستان، طاجكستان)[1].

وقد قاسى الأفغانيُّون تحت حكم الأمراء، وعانوا من اختلاف الأهواء التى سادت أمزجة ذلك الزمان كنتيجة مباشرة لإختلاف جنسيات الحكام ولغاتهم وأسلوب إدارتهم، مما انعكس تماما بالسلب على حياة الأفغانيين خاصة من شعورهم المستمر بالظلم والإضطهاد الذى دام بهم طويلا نتيجة لاستمراره كأسلوب حكم لرؤساء المناطق الأفغانية متعددة الأعراق والقوميات.

وقد كانت استجابة المناطق الأفغانية سريعة وقوية لدخول الدين الإسلامى الذى دخل بلادهم فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى عام ٢١هـ تقريبا، ثم دخلوا جميعا فى دين الله أفواجا بعد الفتح الإسلامى لكابول عام ٦٦١ : ٦٦٣م – ٤٢هـ فى عهد الحاكم الأُموى معاوية بن أبى سفيان، حيث رحب الأفغان بالدين الجديد وأقبلوا عليه طواعية واختيارا.

وقد تعددت الممالك التى حكمت أفغانستان، وطال حكمها مشيداً إيران والهند ومناطق أخرى، حتى ظهرت أفغانستان الحديثة كدولة مستقلة عام ١٧٤٧م حيث التفَّ الأفغانيون حول زعيم من زعماء القبائل الأفغانية هو (أحمد خان الإبدالى).

وكان « أحمد الإبدالى » قائدا شهيراً فى فرقة قوية من (الإبدالية) وهو يتمتع بمكانة طيبة وقريبه من « نادر شاه » الذى اغتاله الفرس عام ١٧٤٧ ، فسار أحمد إلى قندهار واستولى عليها وجعلها عاصمته، ونادى لنفسه ملكا عليها ثم استولى على

---

(١) نقلا عن موسوعة التاريخ الإسلامى ج٨ ص ٢١٨ .

الجانب الشرقى من امبراطورية نادر شاه حتى نهر السند، وامتد سلطانه إلى ما وراء السند، وضم ولايات كشمير ولاهور وملتان.

وهكذا صارت أفغانستان الحديثة.

حتى مات فى ١٧٧٣فخلفه ابنه تيمور الذى نقل العاصمة إلى كابول، وتعرضت البلاد فى عصره لهزة عنيفة وعوامل ضعف كثيرة هددت وجود الإبداليين من أهمها :

١- الاستعمار الإنجليزى الحديث الذى بسط نفوذه وسيطرته على كل الهند، ثم تحريضه السيخ على الثورة ضد الحكم الإسلامى لإرباك المسلمين ضمن مخطط كبير يهدف إلى القضاء على الوجود الإسلامى فى آسيا ومثيله فى إفريقيا وتحويل أنظار المسلمين بعيداً عن إبادة المسلمين فى جنوب أوروبا.

٢- بداية مرحلة جديدة فى حكم فارس هددت استقلال أفغانستان.

٣- تطلع الروس إلى جارتهم الأفغانية خاصة أنها مطمعا للبريطانيين، مما جعل روسيا تتطلع لبسط نفوذها على أفغانستان قبل بريطانيا.

٤- نشأة العديد من الصراعات الداخلية بين أبناء (تيمور شاه) نفسه من جهة ثم فيما بينهم جميعا وبين منافسيهم من القبائل الأخرى من جانب آخر وهم (الباركزائيون) .

وفى فترة حكم « شاه » ابن تيمور شاه الذى كثرت انحرافاته، وتعددت مساوئه وتراكمت أخطاؤه - فعزله أخوه - وعرفت هذه الإمبراطورية طريق النهاية بهذا المسلك.

آل الأمر إلى الأسرة الباركزائية ١٨٢٦ : ١٩٧٣ بقيادة (دوست محمد) الذى تولى حكم البلاد، بعد أن نجحت المؤامرات فى تقسيم البلاد باستقلال الولايات الخارجية، وقنع حكام هذه الدولة بلقب أمير بدلا من شاه.

على الرغم من ذلك فإن تاريخ هذه الأسرة ملئ بالصراعات بين الأفغان والقوى الغازية من الخارج خاصة بريطانيا، التى لا تألوا جهدا فى استغلال الخلافات الداخلية كوسيلة فعّالة للتدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى. من ذلك مساعدتهم لأسرة « الدّرانية » المخلوعة ضد الحكم الباركزائى القائم، وتذرعت بذلك وأدخلت حاميتها العسكرية، ولكن أفغانستان ألحقَت بهذه الحامية هزيمة ساحقة وأبادتها عن آخرها سنة ١٨٤١م عند ممر (خرد كابول) وقد سُجِّل هذا الحدث فى التاريخ البريطانى الملكى كواحدة من أكبر المحن والمصائب التى ألمت ببريطانيا آنذاك.

حاولت بريطانيا الثأر لكبرياء تاجها، واستعادت مكانتها فقامت بحروب متعددة انتهت آخرها بحرب «١٨٧٨م» والتى استمرت حتى عام «١٨٨١م» وقد أنزل الأفغانيون هزائم متتالية ومروّعة وقاسية بالإنجليز، وقد حققوا انتصارات ساحقة فى معركة (ميوند) بقيادة الأمير (سردار أيوب) حيث فقد الإنجليز جيشا بأكمله.

ثم قدم الإنجليز وقود حروب جديدة ابتداء من ١٩١٩ حتى ١٩٢١ وقد حقق الأفغان ألوانا من النصر على الإنجليز، واعترفت بريطانيا على إثرها باستقلال أفغانستان فى اتفاقية (روالبندى).

ولعل الدور الذى اضطلعت به أفغانستان منذ ما قبل عصر الغزنويين وإصرارها على قيادة الفرس والهند وبعض دول الجوار عبر تاريخ طويل منذ عصر الفتوحات الإسلامية حتى أصبحت عضواً فى هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٦، بالإضافة إلى الإضرار المباشر بالمصالح الاستعمارية فى شبه القارة الهندية خاصة بعد الهزائم القاسية التى تلقتها على أيدى الأفغانيين.

لعل ذلك هو ما جعل أفغانستان مستقرّةً فى بؤرة شعور الإستعمار فى العصرين الحديث والمعاصر، حيث أن قيام حكم إسلامى فى أفغانستان السُّنّية المتحمسة لدينها، المتشددة لصالح أمتها، فضلا عن جوارها الملاصق وارتباطها الاجتماعى والثقافى والجغرافى مع الباكستان مما يجعل إحدى الدولتين بمثابة الفناء الخلفى لأمن الدولة الأخرى - فهذا كله يهدد مصالح الغرب بالكلية لا فى الوسط الأسيوى فحسب بل فى الشرق الأسيوى كله، وسوف تصيب آثارهُ الجوار الإسلامى الفارسى والعراقى بما قد يعيد للأذهان وعلى أرض الواقع أمجاد الأجداد القريب، ومن ثم إحباط محاولات الغرب الصليبى الاستعمارى، وهو ما عبرّ عنه الرئيس الأمريكى الأسبق (ريتشارد نيكسون) صراحة بقوله المشكلة هو الإسلام - قالوا وما الحل؟ قال: أن نأتى بأبناء المسلمين ثم نرسلهم إلى بلادنا كى نحقنهم بثقافاتنا ونعيدهم إلى بلادهم ثم أضاف يجب على روسيا وأمريكا أن تتحدا للحيلولة دون قيام حكم إسلامى فى أفغانستان[١].

ولعلنا بذلك نكون قد قدمنا ما يد حض ما يروجه الإعلام الغربى حاليا وما يقدمه من تصوير الأفغانيين على أنهم مجموعة متخلفة من الجنس البشرى تعيش فى كهوف الجبال وتأكل العُشب والكلأ، وتشرب من الآبار وتعيش على زراعة المخدرات فى سفوح الجبال.

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان.

وما أظنُّ ذلك يُجدى إلا عند من يجهل حقيقة التاريخ ولا يدرى طبيعة الجغرافية. وهذه هى الطامة الكبرى فى وقتنا المعاصر. حيث الترويج الإعلامى الغربى الهادف إلى طمس حقائق التاريخ، وترويج الأباطيل من أجل تبرير الحملات الشّرِسَة على إخوة الدين أبناء الأمة فى الشرق والغرب على السواء.

إن الاستعمار وحده وهو صاحب المصلحة الكبرى، يسانده عملاؤه من بنى جلدنا يروجون بل ويُجَبُرون على إظهار أفغانستان فى هذه الثياب البالية من التخلف والهمجية والغوغائية. وأن الشعب الأفغانى فى مسيس الحاجة إلى قائد يقوده، و(بابا) يرعاه. وما حقيقة ذلك إلا صنيعة استعمارية خالصة – داوم الاستعمار على صُنعها واستمرار وجودها، حتى واتَتْهُ الفرصة على طبق من ذهب بعد أحداث ٢٠٠١/٩/١١ حيث ذهب الأبوان (بوش – بلير) لرعاية الشعب الأفغانى وحمايته من طاعون جديد اسمه (الأصولية الإسلامية) القاتلة .

* * *

ثالثًا : الشرق الأقصى

ويقصد به مجموع الجزر الشمالية (اليابان)، وجزر (الفلبين) فى الوسط، وشبه الجزيرة الكورية والصين، وقد نَجَت هذه المناطق تماما من السيطرة الاستعمارية التى وُجدت بالفعل فى الوسط الأسيوى لمجموعة من الأسباب من أهمها :

١– وجود إمبراطوريتين كبيرتين – قويتين هناك هما (اليابانية – الصينية) .

٢– خلو هذه المناطق من الفتح الإسلامى سواء فى ذلك السلمى منه أو العسكرى بما يجعلها آمنة من التهديدات الاستعمارية الوافدة.

٣– وجود كثافة سكانية هائلة فى الصين تشكل فى ذاتها درعا بشرياً كبيراً ومنيعًا حتى لا تطأ أرض المستعمرين الأراضى الصينية.

٤– بُعد اليابان الجغرافى الذى بلغ الأقاصى بما يجعل من احتلال تلك المناطق مغامرة عديمة الجدوى لانعدام المردود الاقتصادى العاجل منه والآجل أو ندرته.

٥– الحرص الاستعمارى الشديد على التواجد العلنى حيث وُجد الإسلام والمسلمون وذلك لأن الدين الإسلامى واللغة العربية هما الهدف المنشود من كل الحروب التى يشنها الصليبيون على العالم الإسلامى، فأينما وجد صليبيون فإن غايتهم من دون كل غاية هى القضاء على لغة القرآن الكريم، لأجل أن تنتشر مسيحيتهم المحرّفة فى مواجهة الزحف الإسلامى ومقاومته.

وفى ذلك يقول صحفى غربى « إن الشيوعية أفضل من الإسلام لأنها فى الأصل فكرة غربية يمكن الإلتقاء معها أما الإسلام فلا التقاء معه إلا بالحديد والنار »[1].

---

(١) تبصير الأذهان ص ٧ .

وقد أكد على ذات المعنى رئيس الوزراء البريطاني الأسبق (ويليام جلادستون) في المدة من (١٨٨٠ : ١٨٨٥) والذي في عهده احتلت القوات البريطانية مصر عام ١٩٨٢م بحجة إخماد الثورة العرابية، ثم بقيت مصر تحت الاحتلال البريطاني حتى ثورة يوليو ١٩٥٢ وتنفيذ إتفاقية الجلاء في ١٩٥٤ حيث قال: (ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق)[١].

وقد بدأت البرتغال سعيها المبكر نحو جزر اليابان في ١٥٤٢ حيث جلبت إليها أسلحة نارية بدائية تسمى «الغدارات».

وفي عام ١٦٠٠م امتدت الإمبراطورية الأسبانية إلى جزر الهند الشرقية بعد أن بدأت أسبانيا عصر الكشوف الجغرافية وتمكنت من احتلال أيبريا، وأغلب أمريكا الجنوبية وأجزاء من إيطاليا.

وفي عام ١٦٥٥م استولى الهولنديون على جزيرة (جاوا) إحدى جزر أندونيسيا التي دخلها الإسلام عام (١٤٠٠) سلما عن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يجوبون البحار الجنوبية للتجارة مع الشرق وجلب بضائعه.

أما التدخل الأجنبي المباشر في شئون الصين والذي حدث للمرة الأولى فلم يحدث إلا مع دخول البعثات الدينية الكاثوليكية إلى الصين بعد أن سمحت حكومة البلاد لتلك البعثات التبشيرية التي تأتي في طليعة المخططات الصليبية لتنصير الصينيين، وإغلاق كل الأبواب والمنافذ في وجه الدعاة المسلمين الذين عرفوا طريق الصين منذ أمد بعيد.

ولم تلبث هذه البعثات التبشيرية أن مارست أعمالا لا تتفق وطبيعة مهامها الدينية، وذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير، مما أجبر حكومة الصين إلى إصدار قرار يقضي بحظر نشر الديانة المسيحية على أراضيها، وبين مواطنيها بعد بدء انتشارها على أيدي المبشرين الغربيين.

وقد ظل العرب متمتعين منفردين دون غيرهم من التجار الصليبيين بالتجارة مع الموانئ الصينية حتى جاء ١٨٥٦م حيث تآمرت فرنسا وبريطانيا ضد الصين، وأعلنتا عليها (حرب الأفيون) الشهيرة التي استمرّت حتى عام ١٨٦٠م حيث أُرغمت الموانئ الصينية على التجارة مع الغرب في العام ذاته.

وكانت بريطانيا قد هزمت الفرنسيين في موقعة (وند يواش) بجنوب مدراس بالهند عام ١٧٦٠ وقضت على منافستهم تماما، ودانت لهم الهند بالسيطرة وفي العام

(١) المصدر السابق ص٧ .

التالى تمكن البريطانيون من السيطرة على جزر الهند الغربية كلها التى خضعت تماما فى (١٧٦٣م) .

وفى عام ١٨١٥ حصلت بريطانيا على [الكاب ، وموريشيوس ، وجزيرة أسنشن ، وهيليجوالندا ، وسيلان ، وتوباجو ، وسانت لوتشيا] من خلال تسوية ما بعد الحرب مع فرنسا .

توسعت بريطانيا فى سياستها الإستعمارية حتى حدثت الإضطرابات ، ووقعت حروب السيخ فى المدة من ١٨٤٥ : ١٨٤٩م فضمت بريطانيا معقلهم (إقليم البنجاب) إلى مستعمراتها فى الهند .

وعملت بعدُ على إستقطاب جماعات بعينها ، وأفراد بوصفها ، ثم قامت بإعدادهم ، وتدريبهم ، وتأهيلهم ، وحقنهم بثقافتها الغربية الصليبية ، ودست فيهم من يزعمون أنهم مسلمون من بعض ما يسمى بالمذاهب الإسلامية من (الإسماعيلية والأحمدية ، وغيرهم) ممن اطمأنت إليهم . وقد باتوا جميعا على أُهبة الإستعداد للإنطلاق نحو الخطوة القادمة للزحف الكبير إلى إفريقيا بعد أن دانت (شبه القارة الهندية) بالخضوع للإستعمار الإنجليزى وبعض الجنسيات الأخرى الذين تسابقوا جميعا نحو المرحلة الجديدة يدفعهم إليها البحث عن مواطن المعادن والثروات ، والإستيلاء عليها قبل السيطرة الإسلامية القادمة .

فكان العبور إلى القارة الخام (البكر) لنهبها واغتنامها ، وتضييق الخناق على التُجار المسلمين ، ومُحاصرة رجال الدَعوة الإسلامية من أجل محاربة الإسلام ، والتضييق والتشديد عليه ، ولأجل تسهيل عمل جماعات التبشير المسيحى .

* * *

رابعًا : جنوب شرق آسيا

وهى المنطقة التى تقع جغرافيا إلى الشرق من شبه القارة الهندية باتجاه الطرف الجَنُوبى ، وتتكون من مجموعة من الدول هى (بورما – لاوس – فيتنام – كمبوديا – تايلاند (سيام) – الفلبين – ماليزيا – سنغافورة – اندونيسيا) بالإضافة إلى (فطانى) التى تقع بين شبه جزيرة الملايو وبين تايلاند ، ومن المعروف أن (فطانى) كانت سببا إلى الآن فى نزاع مستمر بين تايلاند التى تتبعها فطانى إداريا ، وبين ماليزيا التى ترى أنها امتداد لشعبها وأرضها . وغير كل ذلك فهناك منطقة (برونى) وهى جزيرة صغيرة تقع إلى الشمال من جزيرة (بورينو) .

وقدعانت منطقة جنوب شرق آسيا أشد المعاناة من الاستعمار الذى لم ينج منه إلا تايلاند التى تُركت كمنطقة محايدة لخدمة التسويات الاستعمارية بين الدول الاستعمارية التى كانت تسيطر على المنطقة طبقا للوضع التالى :

فرنسا : سيطرت على لاوس، وكمبوديا .

البرتغال : سيطرت على فيتنام ثم ورثتها فرنسا .

أمريكا : سيطرت على الفلبين .

هولندا : سيطرت على اندونيسيا .

وقد نجحت شعوب تلك المنطقة فى التخلص من الاستعمار الغَرْبى، ولكن النفوذ الشيوعى تسرب حديثا إلى بعض دولها مثل (لاوس - ڤيتنام - كمبوديا) .

وتجدر الإشارة إلى أن ڤيتنام قد تم تقسيمها إلى شمالية موالية للإتحاد السوڤيتى، وجنوبية موالية للولايات المتحدة الأمريكية، وقد نجح الشماليون فى الزحف نحو الجنوب، وتمت وحدة الشطرين تحت النفوذ الشيوعى، كما تمكنت فيتنام من التسلطً على كمبوديا اليسارية الموالية للصين، ومن ثم أصبحت كمبوديا وڤيتنام تدوران فى الفلك السوڤيتى .

واجتهدت الولايات المتحدة على الإبقاء على مصالحها فى المنطقة من جانب ومن آخر للوقوف أمام المد الشيوعى، وتحجيمه، واتخذت لأجل ذلك أساليب متنوعة، انتهت إلى اتجاه بعض دول الجنوب الشرق آسيوى إلى التحالف مع الغرب مثل (تايلاند ، ماليزيا، الفلبين، سنغافورة) أما بورما واندونيسيا فقد انضما إلى مجموعة دول عدم الإنحياز .

أما المجتهد فى قراءة التاريخ فإنه يستخلص وجود عدد من الديانات والملل والنِّحل المتنوعة والمتعددة فى الأقطار التى خضعت للنفوذ الصينى والتى تعتبرها الصين امتدادا لأراضيها، وكذلك فإنه يتحقق من حقيقة فرض الديانة المسيحية قهراً على الفلبين بسبب خضوعها المبكر للاحتلال الأسبانى، بينما يحصل له اليقين فى أن الإسلام أنقذ جزر الملايو قبل أن تذوب فى الزحف الصينى، بحيث يمكن القول أن شعب الملايو اعتنق الإسلام دينا وقومية، وكذلك يمكن التأكيد على أن الإسلام امتد إلى الجزر التى لم تكن امتداداً للأراضى الصينية، أما فيتنام فالمسلمون فيها عدد قليل يؤرقهم الدفاع عن وجودهم بمصارعة الشيوعية .

وتفيد الإحصائيات الواردة عن المصادر غير المقربة [1] أن عدد المسلمين بمنطقة جنوب شرق آسيا على وجه التقريب باعتبارهم أقليات فى بعض البلدان كالآتى :

---

(١) بعض المواقع على شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) .

الفلبين : ٩٠٠٠٠٠٠ تسعة ملايين نسمة.

تايلاند : ٤٠٠٠٠٠٠

بورمـا : ٣٠٠٠٠٠٠

كمبوديا: قرابة المليون مسلم.

لاوس: حوالى ٢٥٠,٠٠٠ مائتين وخمسين ألف نسمة .

أما مأساة الشعب الفلبينى فلابُدّ من إلقاء بعض الضوء عليها حيث أنها تمثل أحد أوجه الهجمة الصليبية الغَربية الشرسة على المسلمين فى ديارهم، والتى لم تفرق فى همجيتها بين سحق المسلمين فى أوروبا والهجوم عليهم فى ديارهم ومواطن دينهم بغرض القضاء عليهم أو تنصريهم حتى فى أقاصى الشرق من العالم.

وقد تعرضت الفلبين فى العصر الحديث لعوامل اضطرابات مختلفة أثرت فى عقيدة أبنائها، وغيرت مجريات الفكر الدينى بها على الرغم من دخول الإسلام أراضيها فى مراحل مبكرة لدرجة كانت من الممكن أن تكون من مجموع الجزر الفلبينية دولة قوية كما فعل بأندونيسيا.

ويرجع السبب فى ذلك لأن الفلبين التى تتكون من مجموعة من الجزر تشكل فى مجموعها دولة واحدة تخضع لسيادة امبراطورية (ماجابيت) التى انهارت مع أواخر القرن الخامس عشر.

وعلى إثر إنهيار الإمبراطورية بدأت بعض الجزر الفلبينية إما فى التفكك وإقامة ممالك مستقلة أو فى التجمع لتكوين مملكة أكبر، وكان الإسلام دين غالبية الشعب الفلبينى .

ولم يستمر بهم الحال هكذا طويلا، ففى عام ١٥٢١ دَهَم تلك الجزر الاستعمار الأوروبى الصليبى الأسبانى الذى كون من هذه الجزر دولة واحدة أسماها الفلبين نسبة إلى الملك الأسبانى (فيليب الثانى).

وقد جاء الأسبان إلى هذه المنطقة وهم يحملون فى رؤوسهم وصدورهم الفكر والحقد الصليبى على الإسلام والمسلمين، فقاوموا الإسلام مقاومة جبارة، وأكرهوا الناس على اعتناق المسيحية كما يذكر المؤرخون (بالحديد والنار) وأسسوا معاهدهم

الكاثوليكية هناك، وحاولوا طمس الهوية الإسلامية، والقضاء على كل مظاهر الحياة الإسلامية وهدم مؤسساتها.

وهذا المسلك يفسر ما للأسبان من تاريخ خاص فى الصراع الصليبى الإسلامى بعد أن حاربوا الإسلام وأبادوا المسلمين فى أسبانيا ثم زحفوا إلى الفلبين وفعلوا بها ما فعلوا حتى باتت الفلبين هى الدولة المسيحية الوحيدة بين دول منطقة جنوب شرق آسيا مجتمعة.

* * *

خامسًا : ردة الفعل الصليبية

بعد أن تغلغل الإسلام فى القارات الثلاث، وبدأ عصر التحولات الكبرى بفضل انتصار الفتوحات الإسلامية التى حققت عظيم النتائج والآثار فى المناطق التى خضعت مباشرة لسلطة المسلمين، خاصة تلك المستعمرات الأوروبية الكثيرة التى اعتنق أهلها الدين الإسلامى بعد أن حررهم المسلمون من تبعية الكنيسة وعقيدتها الضالة وطقوسها البغيضة، تماما كما حدث فى الفرس والروم (القسطنطينية) وفى مصر وشمال إفريقيا منذ فجر الإسلام.

وقد بدأت أوروبا مؤخراً بعد أن أخذت تفيق من غفوتها فى الوقوف فى وجه الإسلام ومصارعته، حيث رأت أن حضارته دماراً لها ورحيلا لدورها ونهاية لوجودها، فنهضت واجتهدت فردته عنها، واقتحمت عليه آسيا وإفريقيا .

وتلك كانت نقطة إنطلاق الغرب فى نشر المسيحية عن طريق التنصير القسرى أو جماعات (إرساليات) التبشير، أو من خلال تجارة الرقيق التى ارتبطت بالأوربيين، ولا يعود السبب فى هذه الرغبة الجامحة إلى وازع دينى يتعلق بنشر المسيحية نفسها، ولكن لإضعاف المسلمين والقضاء على الإسلام، وشغله فى دياره بمعارضين من بيئته، وقد عملت لأجل ذلك فى محاور مختلفة ليتحقق لها ما أرادت، وقد كان لها على مراحل مختلفة من أبرزها :

– الاستغلال الجيد للأحداث، والتوفيق فى توظيفها، فما أن توفى السلطان العثمانى « محمد الثانى » (١٤٨١م / ٨٩٦ هـ) وهو يستعد لغزو إيطاليا، وحدثت بذلك فترة من الهدوء، حتى تمكن أحد قادة الأندلس (مركيز قادش) من الإستيلاء على حصن « الحمه » فى قلب الأندلس، والموقف الإستراتيجى لغرناطة يبدأ فى التدهور من جراء ذلك، ومع مطلع « ١٤٨٣م، ٨٨٨هـ» تم تعيين الكاردينال السفاح « توركيمادا » رئيسا لمحاكم التفتيش فى إسبانيا[١] وقد شرع بدوره فى اضطهاد

(١) سنتحدث عنها لاحقًا إن شاء الله تعالى ضمن كتابنا / اغوار العالم الإسلامى أعاننا الله على إخراجه.

المسلمين، وقد تعاظم دوره بَعد سقوط غرناطه (١٤٩٢م / ٨٩٧هـ) وقد سقط على عقبها حصن (لورة) الإسلامى الاستراتيجى فى أيدى (فرديناند، إيزابيلا) اللذان تزوَّجا فى عام ١٤٦٩م. وقد تم توحيد مملكتى (قشتاله، الأراجون) بما مهد لانتزاع غرناطة من أيدى المسلمين، وازداد الموقف سوءا على المسلمين ثم سقطت مدينة (رُندة) الجبلية القوية التحصين سنة ٨٩٠هـ ١٤٨٥م فى أيدى (فرديناند، وإيزابيلا) وغرناطه تتبدد قواها، وفى ٨٩١هـ سقطت (لوشه) الأندلسية، وظهرت لأول مرة المشاركة الأوروبية فى الحرب حيث ظهر جليا الدعم الهائل الذى تلقاه الأسبان أثناء القضاء على الدولة الإسلامية فى الأندلس، حيث شاركت قوات إنجليزية فى المعركة بقيادة اللورد (اسكليز) بينما حكام العالم الإسلامى (سلاطين الممالك فى مصر، سلاطين السعديين فى المغرب، سلاطين العثمانيين) يتقاعسون عن نجدة الأندلس، (تماما كما حدث فى عام ٢٠٠٣ حيث تقاعس حكام العالم العربى الإسلامى أجمعين عن نجدة بغداد التى سحقتها أمريكا وبريطانيا وبولندا واستراليا، وإذا التمسنا عذراً للسابقين بحجة أن الأندلس تقع فى البطن الأسبانى وفى الأرض الأوروبية، فما هو العذر إذاً للاحقين إذا كانت بغداد تقع فى قلب العالم الإسلامى وهى البوابة الشرقية للأمن القومى العربى الجماعى والإقليمى على السواء والتاريخ شاهد على ذلك.. ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وفى عام ١٤٨٧م / ٨٩٢هـ سقطت « مالقة » بعد حصار قاس، وقَصْف شديد بالمدفعية الذى لم تُجد معه المقاومة الباسلة العنيدة التى أبداها القائد الأندلسى « عبدالله الزغبى »، ولبس على إثر ذلك المسلمون لباس العار، والتصقت بهم الفضيحة الكبرى؛ حيث تمكن الأسبان من الإمساك بخمسة عشر ألفا من سكان « مالقه » المسلمين، وحرائر المسلمات. وباعوهم فى سوق الرقيق لأول مرة فى التاريخ الإسلامى. ثم سقطت « بسطة » فى ٨٩٤هـ ١٤٨٩م بعد مقاومة شديدة لحصار عنيف من قوات فرديناند وإيزابيلا.

ومع تضييق الخناق، وإحكام الحصار الصليبى على غرناطة، ومع استمرار العجز العربى والإسلامى اضطر حكام المدينة إلى توقيع شروط تسليمها للإسبان المسيحيين فى ٢٥ / ١١ / ١٤٩١، ونظراً لقوة العدو الغاشمة المدعومة كثيرا من جانب الأوروبيين، ارتضى هؤلاء الحكام شروطاً مهينة أفضت عليهم استسلاما ندموا عليه فيما بعد فى وقت لم ينفع فيه الندم.

وجاء اليوم الحزين فى تاريخ الأمة الإسلامية، حيث دخلت القوات الأراجونية بقيادة فرديناند، والقشتالية بقيادة إيزابيلا إلى غرناطة آخر المعاقل العربية الإسلامية فى

الأندلس بعد تسليمها لهم فى الثانى من ربيع الأول ٨٩٧ هـ الموافق الثالث من يناير ١٤٩٢م بموجب شروط المعاهدة، وبذلك فقد العرب فردوسهم الزاهر، وخرج أبو عبد الله الصغير (أبو عبدالله محمد) آخر ملوك بنى نصر - يبكى فقالت له أمه « كالنساء ملكا لم يحافظ عليه كالرجال ».

وأُجبر المسلمون على التنصير فى أسبانيا، وقُتل منهم من أَبَى بعد بداية عمليات الإضطهاد الشامل لمسلمى الأندلس الخاضعين للحكم الأسبانى حيث بدأ كردينال غرناطة المجرم (خمينيث) فى ٩٠٣ هـ الموافق ١٤٩٨م مشروعه الحقير فى تنصير المسلمين، ومنحهم مهلة لاعتناق المسيحية، وإلاّ حاق بهم الموت وبرر ذلك برغبته فى إنقاذ أرواحهم الضالة بحسب زعمه.

● تطويق العالم العربى والتضييق عليه: فبعد أن تمكن البرتغالى (فاسكوداجاما) فى ١٤٩٨م من اكتشاف رأس الرجاء الصالح إلى الهند، تأثر العالم العربى تأثُّراً مباشراً بعد أن فقدت مصر والعراق والشام أهميتها التجارية والاقتصادية الناتجة عن تحكمها فى طرق التجارة بين الشرق والغرب (كما سنبين لاحقا تفصيلا لذلك)، ومن ثم انتقل الثراء التجارى إلى بلاد الغرب ومعه كل مُقَوِّمَات القوة والعز والسؤدد، وبعد حوالى عشر سنوات استطاع الصليبيون التواجد على أرض العرب باحتلال مسقط (سلطنة عُمان الحالية) منذ عام ١٥٠٨ : ١٦٤٨م بالقرب من القلعة الإسلامية (بيتَ الله الحرام) فى مكة المكرمة، حتى تمكن الفرس من طردهم فى ١٦٤٨م، وكان البرتغاليون قد أقاموا من قبْل أول حصن دفاعى أوروبى على الشاطىء الإفريقى على الساحل الموريتانى فى سنة ١٤٤٨م، ثم أقاموا قاعدة تجارية على ساحل الذهب (غانا) فى سنة ١٤٨٢ .

● الهجوم على المسلمين فى ديارهم: حيث تمكن الغرب الصليبى بعد تحويل تجارته إلى رأس الرجاء الصالح فى بداية عصر الكشوف الجغرافية، وقد دخلت هولندا وأسبانيا إلى مجال المنافسة لأجل اكتشاف العالم الجديد، على أنقاض ما تعلموه من العرب، وهو ما تمكنت بفضله أوروبا من شدة الثراء والتقدم فى مقومات القوة والعزة والسيادة فى مقابلة العالم الإسلامى المتحلل إلى القطرية والجزئية، فضلا عن الآثار السيئة التى أحاقت بالعالم العربى نتيجة لتولى عناصر غير عربية شئون العالم الإسلامى، والتى ظهرت علنا بدخول السلطان العثمانى « سليم الأول » إلى القاهرة فى يناير ١٥١٧م وأسْرِه للخليفة العباسى، وإعدامه للسلطان المملوكى « طومان باى ».

الأمر الذى جعل الأوروبيين على أعتاب مرحلة جديدة مكنتهم من بسط سيطرتهم على معظم دول العالم بعد الإكتشافات الجغرافية التى بدأها « كريستوفر كولمبس » الذى تمكن من عبور المحيط الأطلسى سنة ١٤٩٢ فى طريقه إلى الهند عن طريق الغرب، واكتشف فى رحلته تلك جزر (البهاما، وكوبا ، وهبانيولا).

وبدأ التنافس الأسبانى البرتغالى فى اكتشاف الأمريكتين ثم اقتسامها بعد، حتى دخلت فرنسا وبريطانيا لاحقا.

● وَضَعَ العالم الإسلامى نفسه طواعية فى مهب الريح العاتية بعد انهيار الدولة العباسية والتى على إثرها انتقلت الخلافة إلى القاهرة، فمنذ ذلك الحين بدأت قيام الدويلات القزمية على أنقاض الخلافة العباسية مترامية الأطراف ومن أشهر هذه الدويلات (اليزيدية فى طبرستان – إيران، الجستانية فى شرق إيران، « الطولونية » فى مصر، « السامانية » فى ما وراء النهر وبخارى وسمر قند، « القرامطة » فى العراق، « الحمدانية » فى حلب، « الفاطمية » فى مصر، « البويهية » فى فارس، « السلجوقية » بشمال إيران، « الغزنوية » بأفغانستان، « الصنهاجيين » فى تونس، « الأغالبة » فى تونس، « الطاهرية » فى خراسان، « وبنى عباد » فى الأندلس، و« بنى حماد » فى الجزائر، و« الصليحية » فى اليمن، « المرابطين » البرابرة فى المغرب الأقصى، « الأدارسة » فى المغرب) وكل هذه التطورات السياسية وما يصحبها من تدهورات اجتماعية واقتصادية وقعت فى المدة بين ٧٨٩ : ١٠٥٦م الموافق ١٢٤ : ٤٤٦هـ تقريبا.

● وقد استغل الأوروبيون طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وبدأوا حملتهم المنظمة لإرباك الشرق والهجوم على الإسلام فى دياره بفضل ما استطاعوا من تحقيق أقصى استفادة ممكنة من المعطيات والمستجدات، وما ملكوا من إدارة جيدة وتخطيط منظم حتى تمكنوا من الهجوم الشرس مباشرة على العالم الإسلامى حتى واتتهم الفرصة لدخول بيت المقدس (كما سيأتى فى حينه بيانه) وقد تكرس الوجود الصليبى فى فلسطين بعد سقوط (عكا) القاعدة البحرية لمصر الفاطمية فى أيدى الصليبيين فى عام ١١٠٤م، ثم استطاعوا السيطرة على طرابلس الشرق لتصبح دولة صليبية رابعة إلى جوار انطاكية فى ١١٠٩ ، والرها وبيت المقدس، ثم سقطت ببروت

وصيدا فى أيدى الصليبيين فى ١١١٠م، وقد استطاعوا بفضل انشغال العرب بقضاياهم الداخلية أن ينتزعوا البرتغال، من أيدى الحكم العربى الإسلامى، وتأسست المملكة البرتغالية عام ١١٣٩م ثم انتزع مَلِكها مدينة لشبونة من أيدى المسلمين عام ١١٤٤م.

● بوازع من الإنتقام ورغبة فى التدمير، بدأت الهجمة الهمجية الأوروبية على الساحل الشمالى لإفريقيا حيث القلاع والحصون الإسلامية التى دخلت أوروبا وحكمت بعض مناطقها ما يربوا على الخمسمائة عام، كما أن تلك الهجمات الشرسة كانت تهدف إلى القضاء على المسلمين فى أوطانهم وبتر بنانهم، للحيلولة دون قيام دولة إسلامية قوية تعود إليهم من جديد وهو ما يجعل الحدود الجنوبية الأوروبية آمنة تماما ضد أى فتح إسلامى جديد.

* * *

الباب الثانى

إفريقيا بين التنصير والتهجير

• الفصل الأول

أولاً: افريقيا قبل الإسلام.

ثانيًا: المسيحية فى إفريقيا.

ثالثًا: الإستعمار فى إفريقيا.

رابعًا: الإستعمار وأدواته.

خامسًا: القلاع الأضادية.

• الفصل الثانى

أولاً : إفريقيا فى المزاد العَلنى.

ثانيًا: الأفارقة فى شباك التنصير.

ثالثًا: الأسلاب الإفريقية أثناء العصر الأسود.

رابعًا: القوى الثورية والخدعة الأمريكية.

خامسًا: الجغرافية الإسلامية فى إفريقيا.

• الفصل الثالث

أولاً: فضل الحضارة الإسلامية فى المدنية الأوروبية .

ثانيًا: خَطر اسمه الإسلام.

ثالثًا: انهيار الخلافة الإسلامية.

رابعًا: الصليبية بين الشرقين – الأقصى، والأوسط.

خامسًا: العبور الصليبى إلى آسيا.

الفصل الأول

أولاً : إفريقيا قبل الإسلام

كانت الوثنية هى الإعتقاد السائد عند الأفارقة قبل دخول الإسلام إلى أراضى الأفارقة الذين فرقتهم القبلية التى تعد بمثابة العدو الظاهر رقم واحد للإستقرار والتجمع والمدنية، وذلك لأن هذه القبائل كانت كثيرة الترحال والإنتقال، ومن ثم كان لا يمكن أن تكون لها مواطن ثابتة.

والملاحظ أنه عندما تسود القبلية - تسود القوة، ويسيطر قانون الغاب بسبب الصراع على مواطن الكلأ وعيون المياه ومناطق النفوذ، ولك أن تتخيل إفريقيا تحت تأثير هذه الظروف، وكيف أنها لم تعرف الطريق نحو التقدم والرقى إلا بفضل الهجرات العربية المبكرة، والهجرات الإسلامية التى وفدت تباعا.

ولذلك فإنه لا يمكن الخوض فى إقتحام الإسلام وآثاره فى إفريقيا إلا من خلال النور الذى يضئ الظلمات، ويأخذ بالناس من قاع التخلف إلى ذروة التحضر، وكذلك من خلال منظور دستورى محض باعتباره التشريع الإلهى الذى يضع القوانين العامة للأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد للفرد والمجتمع والدولة فى إطار الدين والدنيا، وبفضل الدين الإسلامى قامت على الأراضى الإفريقية دول وممالك إسلامية متعددة.

وقد انتشر الإسلام بسرعة كبيرة فى الداخل الإفريقى حتى أن خريطة إفريقيا تغيرت تغيراً كبيرا بفضل الإسلام خلال القرون الماضية، ولا زال الإسلام يلقى بإشعاعاته على الكثير من أوجه الحياة على سطح القارة.

وعمليا فإن إفريقيا هى القارة المسلمة بين قارات العالم حيث يدين معظم سكانها بالدين الإسلامى، وتتروح نسبة المسلمين إلى غيرهم من أتباع الديانات الأخرى حوالى ٧٠ : ٧٥٪ من إجمالى تعداد سكان القارة.

وقد أقر على هذا شاهدٌ كاتب مسيحى حكم بنفسه المستعمرات الفرنسية بإفريقيا مدة طويلة ووقع على عينه انتشار الإسلام فى ربوع القارة السمراء فقال، (ولم يقف حاجز مّا بإفريقيا أمام زحف الإسلام فقد انتشر بالشمال فى وقت مبكر ثم تخطى الصحراء، وزحف خلفها، وعبر من الجزيرة العربية الساحل الشرقى منذ عصره الأول، وتخطى هذا الساحل إلى المناطق الداخلية إلى كينيا، وتنزانيا (تنجانيقا)، واقتحم نطاق الغابات فى قلب إفريقيا، ونفذ إلى هضبة البحيرات، وتدفق إلى الهضبة

الحبشية، وانتشر على طول الساحل الغربى، ودخل جنوب إفريقيا مع المهاجرين والمسلمين من أبناء شبه القارة الهندية وماليزيا، ولا زال ينتشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة(١)).

وأضاف الكاتب فى كتابه في معرض حديثه عن انتشار الإسلام فى إفريقيا فقال:

إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقيا لم تقم على القسر، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم، وكثيرا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطئ من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقه الأرستقراطية، وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة، وقد يسر انتشار الإسلام أمرٌ آخر - هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف، ووسائل الإنتساب إليه أيسر وأيسر، إذْ لا يُطلب من الشخص الإعلان عن إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين وقد حبب الإسلام إلى الإفريقيين مظاهره الجميلة البعيدة عن التكلف، مثل الثوب الفضفاض، والمسبحة، والكتابة بالعربية، والوقار الدينى، وشعائر الصلاة، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة، فالذى يدخل الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية.

ذلك هو الإسلام دين الحق والطريق المستقيم بحيويته المدهشة، وعبقريته الفذة، وحكمته الرائدة الخلاقة، وقد شهد له بنو جلدهم، وإخوة دينهم بأنه الدين الذى انتشر بواسطة الدعوة التى تكتسب إلى قوتها قوةَ أتباعها بحيث إذا هبت حركة الرياح الإسلامية أحدثت بالضرورة تغييرات جوهرية فى الأنظمة القائمة والعقائد الكائنة، ليرحل نظام وثنى أو مسيحى - ويحل محله الدين الإسلامى.

وقد ساعدت مجموعة من العوامل على انتشار الإسلام فى مناطق الجوار الثلاث أفريقيا، وآسيا، وأوروبا. انتشاراً غير مسبوق لديانة أخرى. من أهمها :

١- العقيدة الأخلاقية الصحيحة؛ وهى ما تعتبر تفوقًا تاما فكريا وخُلقيا للمسلمين بحيث صاروا نماذج يُقتدى بها إعمالا لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

[آل عمران: ١١٠]

---

(١) الديانات فى إفريقيا السوداء ص١٥٢، ١٥٣ هو بير ديشان.

٢- اعتدال المنهج الإسلامى ليصبح مقبولاً ثم مرغوبًا من العامة لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣].

٣- صيانة المجتمع والإنسانية بضمان المساواة بينهم فى الحقوق والواجبات لما قال الرسول ﷺ : **(الناس سواسية كأسنان المشط)**.

٤- موقف الإسلام الرافض، والناهى بالكلية عن التجارة فى الجنس البشرى (الرِّق) لقوله ﷺ : « شر الناس من باع الناس »، ومحاربة الإسلام للتمييز العنصرى **(لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسمر ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى)**[1] وهو ما يعنى رفض التمييز العنصري والطبقي بين بنى البشر بسبب اللون أو الجنس أو اللغة، فالكل في حق الحياة سواء. وهو ما أقره القرآن الكريم حين قوله تعالى: ﴿ كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء: ٢٠] .

٥- قدرة الإسلام الخلاقة والقائدة: كونه أصبح فكرًا محليًا يتطابق بالتمام مع الثقافة القومية لمجموع بنى الأمية فى قارات العالم المختلفة.

٦- انحطاط القساوسة، وانحدار الحياة الروحية بالكنائس، وهو ما يرويه الكتاب المسيحيون من أن الحياة الروحية فى أكثر الكنائس كانت قد انحدرت إلى أقصى دركات الإنحطاط، وأن كثيرا من المسيحيين الأفارقة وقعوا فيما وقع فيه رجال الكنيسة من أخطاء، وكانت الكنائس المسيحية المتنافسة مشغولة بالنزاعات البينيّة بما لم يمكنها من مواجهة الإسلام، وانزلق بعض القساوسه (القُسس) فاشتغلوا بتجارة الرقيق أو أخذوا إتاوات من النخاسين وظل الحال هكذا حتى جاء العصر الحديث وفيه جاءت المسيحية إلى إفريقيا.

* * *

ثانيًا: المسيحية فى إفريقيا

اتجه الأوروبيون باتجاه إفريقيا فى العصر الحديث لسببين جوهريين:

الأول: مشاغلة العرب والمسلمين فى ديارهم وداخل أوطانهم بقضاياهم الداخلية، وتهديد أمنهم، وتعريض سلامة أوطانهم للخَطر، وطعنا فى دينهم، ورميهم بالعديد من المؤامرات والمكائد التى تُنهك قواهم، وتدحر إمكانياتهم، وتلتهم

---

(١) ورد الحديث فى غير رواية واحدة .

مواردهم، من خلال إثارة الفتن والمشكلات تحت دعاوى الديمقراطية التى يروجون لها من خلال شعارهم الزائف (الحرية، الإخاء، المساواة) ، ثم يكون التطويع فالتطوير الذى ينتهى بالإحتلال العسكرى السافر للأقطار الإسلامية، بعد أن رفع العرب جميعاً والمسلمون معهم شعار القُطْرية والتحللية، وصاروا دولاً أو دوليات لها قياداتها المحلية، وطموحاتها الخارجية التى تَبنى عليها مصالحها، وتخطط لغدها فى إطار سياسة القُطرية الفردية التى صنعها الإستعمار وذكاها واستعمل لأجلها الكثير من أبناء ديننا وإخوة أوطاننا التى تحكمها الأهواء والأمزجة بعد أن تعطل العمل بالقاعدة الدستورية للحضارة الإسلامية (القرآن الكريم) والسنة النبوية المطهرة.

ذلك التعطيل العمد المردود حدوثه إلى عطب النفس الإنسانية هو أمل كل الغرب فى القضاء على أى أمل يجمع الشعب العربى القائد بطبيعته، والإسلامى المغوار المجاهد بسجيته فى وحدة واحدة تحت قيادة واحدة تعود بالعرب والمسلمين إلى زمن الإزدهار والتقدم والريادة، والسبق إلى السيادة، والقفز على أكتاف التاريخ لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى بأحرف من نور تضئ للعالم ظلماته وتبعث فى لياليه اشعاعات الفكر والمدنيّة والحضارة فى شتى المجالات ومختلف فروع العلم والمعرفة، وذلك لأن الغرب يرى أن فى هذه الصحوة أو النهضة خطرا داهما يحدق على حياتهم، ويطبق على أوطانهم، ويقف على ديارهم فيهدد مدنيتهم الزائفة التى صعدت بهم إلى هاوية الرزيلة، وقد جعلتهم على شفا الإنهيار التام.

وهذا ما عبر عنه رئيس الوزراء البرتغالى الأسبق (سالازار) فى مؤتمر صحفى بقوله: (إن الخطر الحقيقى على حضارتنا هو الذى يمكن أن يحدثه المسلمون حين يغيِّرون العالم)[١].

وها هو فيليب فونداسى يصرح فى كتابه: الإستعمار الفرنسى فى إفريقيا السوداء فيقول (إن من الضرورى لفرنسا أن تقاوم الإسلام فى هذا العالم وأن تُنتج سياسة عدائية للإسلام وأن تُحاول على الأقل إيقاف إنتشاره)[٢].

كما قال كذلك (مورو بيرجر) فى كتابه (العالم العربى المعاصرّ): «إن الخوف من العرب واهتمامنا باللغة العربية ليس ناتجا عن وجود البترول بغزارة عند العرب بل بسبب الإسلام للحيلولة دون وحدة العرب التى تؤدى إلى قوتهم لأن قوة العرب تتصاحب دائماً مع قوة الإسلام وعزته وانتشاره».

---

(١) قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله ص٣٦ .

(٢) المصدر السابق.

وهذا قول لورانس براون في معرض حديثه عن الإسلام وخطره: «لكننا وجدنا أن الخطر الحقيقى علينا موجود فى الإسلام وفى قدرته على التوسع والإخضاع فى حيويته المدهشة»[1].

وقد قال جلادستون رئيس وزراء بريطانيا السابق «ما دام هذا القرآن موجود فى أيدى المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق»[2]:

الثانى: هو أن أوروبا تعتبر نفسها قلعة المسيحية فى العالم، وهى تقع فى مواجهة إفريقيا الشمالية جنوب المتوسط، وجزء كبير من آسيا حيث القلعة الإسلامية، وقد اقتحم المسلمون أوروبا من طرفيها (الغربى) فى العهد الأُموى، حيث ضم أسبانيا وزحف إلى فرنسا، و(الشرقى) حيث سقطت عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية بأيدى العثمانيين) وبسطوا نفوذهم على دول الشرق الأوروبى وأخذوا ينشرون رسالتهم الإسلامية.

ومن هنا اتّجَهَت المسيحية لإقتحام إفريقيا وآسيا للثأر من اقتحام المسلمين لأوروبا، ولعل هذا الاتجاه الفكرى هو مدعاة استجابة البابا (أوربان الثانى) لطلب الإمبراطور البيزنطى بتقديم العون الأوربى فى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وعاصمتها الأناضول، وقد ألقى البابا فى نوفمبر عام ١٠٩٥م خطابه الشهير الذى حث فيه المسيحيين على المسارعة بنجدة الإمبراطور، ودعاهم إلى استخلاص القبر المقدس – أى (القدس) من أيدى المسلمين – وهذه – كانت نقطة البداية لكل تاريخ الحروب الصليبية، وقد وصلت طلائع الصليبيين إلى الديار العربية فى مطلع عام ١٠٩٦م، وفى ٧/٦/١٠٩٩ حاصر أربعون ألفا من الصليبين بقيادة (جود فرى البويونى) بيت المقدس، والحامية المصرية الفاطمية تصمد لمدة خمسة شهور، بينما فى ٥/٧ من العام ذاته تمكن الصليبيون من فتح ثغرة فى السور الشمالى، وأخذوا يتدفقون على بيت المقدس، ويرتكبون واحدة من أبشع مذابح التاريخ فى المسجد الأقصى، حيث قتلوا فى ساحته سبعين ألف مدنى[3].

وفى سنة ١١٠١م ثارت الجيوش الإسلامية (سلاجقة الروم، سلاجقة حلب، الدنشمنديون فى كيادوكيا) حيث سحقوا ثلاث حملات صليبية فى أغسطس وسبتمبر (اللومباردية، الفرنسية، الفرنسية الإلمانيّة) وقتلوا ربع مليون جندى صليبى، واستمرت الأوضاع إلى أجل.

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص ١١ .

(٢) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص ٧ .

(٣) موجز تاريخ العالم ص١٠٢ .

عمومًا فقد اتجهت الكنيسة الأوروبية إلى إفريقيا، وأصبح لها أتباع كثيرين بفضل جمعيات التبشير الأوروبية التى لم تكل عن العمل لاستقطاب أتباع للمسيحية فى القارة السمراء لينوبوا عنهم فى مشاغلة المسلمين وقتلهم واستنزافهم.

إلا أن القساوسة الوافدون إلى إفريقيا كانت لهم اتجاهات غير مرضية وقاسية ضد الوطنيين، وأصابت بالضَرَر عن قصد أو عن غير قصد التقاليد الإفريقية المتأصلة فى أبناء القارة.

وجاء رد الفعْل الإفريقى الرافض لممارسات القساوسة الأوروبيين، حيث قام الزعيم الإفريقى المسيحى (كاچيا) الكينى الأصل بتأسيس كنائس إفريقية تخلصًا مما يعرف بالمسيحية الأوروبية التى أطلق عليها الدين الأجنبى، وقد وضع الرجل لكنائسه الأسس التالية:

١- أن تكون إفريقيا خالصة مستقلة تمامًا من السيطرة الأوروبية.

٢- تطهير الكنيسة من الرجس الأوروبى الذى قدم للإفريقيين على أنه جزء من التعاليم الدينيَة.

٣- إلغاء جميع الأسماء الأجنبية والعودة إلى الأسماء الإفريقية.

٤- احترام التقاليد الإفريقية.

٥- الدعوة إلى انتشار هذه الكنائس فى كل إفريقيا.

وسرعان ما انتشرت هذه الكنائس حيثما وُجد المسيحيون، والتحق بها الأفارقة أفواجا، وهُدِّدت الكنائس الأوروبية التى لم تكن تهتم بنشر المسيحية بمقدار اهتمامها بخدمة الاستعمار، فاستعانت الكنائس الأوروبية بالقوة البريطانية فى كينيا، وراحت هذه القوة تلاحق KAGG IA (كاچيا) وأتباعه، وألقت بالكثيرين منهم فى السجن، وحاربت الكنائس الإفريقية حربًا طويلة - حيث كان فى نظر بريطانيا ضياع المسيحية أيسر من مسيحية تأخذ الطابع الإفريقى أى (مسيحية لا تخدم الاستعمار)(١).

وقد فطنت مصر مبكرا إلى هذا الدور الصليبى الإستعمارى، وعملت على مواجهته بطريقة أو بأخرى حتى انساب الإسلام عبر مصر إلى الجنوب، ولما توجهت الحملات العسكرية لتأكيد السيطرة الإسلامية على مداخل الوسط الإفريقى ابتداء من السودان، وقَع الجنوبيون معاهدة صلح مع المصريين عرفت باسم (معاهدة القبط) وهى معاهدة للتبادل التجارى والاقتصادى بين الشمال والجنوب، وقد ظلت هذه المعاهدة سارية كأساس للتعامل بين شمال الوادى وجنوبه حتى عهد المماليك، إلى أن بدأ ملوك

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤٥ ج٦.

« مقرة » يتمردون على هذه المعاهدة كما قدموا العون والمساعدة للصليبيين أبناء دينهم فى حروبهم ضد مصر، ولهذا اقتحم الظاهر بيبرس مملكة مقرة، وانتصر على ملوكها وأصبح له حق تعيين مَن يراه مِنَ الملوك، ونما سلطان المماليك فى عهد السلاطين بعد بيبرس[1].

وفى هذه الأثناء تدفقت الهجرات العربية فى موجات متتابعة ودون انقطاع على هذه المنطقة، وقوى نفوذ العرب، وتكاثر عددهم، وسقطت بذلك قلاع المسيحيين فى الشرق، وأصبح الدم العربى غالبًا فأقاموا سلطان القبائل على نحو ما عرفوه فى الجزيرة العربية. مما أدى إلى تطوير الصراع من مجرد التبشير بالمسيحية إلى الحملات الإستعمارية المباشرة.

* * *

ثالثًا : الإستعمار فى إفريقيا

ما أن بات الدم العربى غالبًا فى إفريقيا نتيجة لتدفق الهجْرات العربية إليها والتي بفضلها سقطت قلاع المسيحية فى إفريقيا، حتى وقف الإستعمار موقفًا عدائيًا مناهضًا وبشدة للإسلام والمسلمين حين التقيا فى القارة السمراء، تقوده إلى ذلك مجموعة من العوامل المؤثرة من أهمها :

- أن الإسلام يصنَع أمة واحدة، ذات هدف واحد، وقيمة واحدة، وأحكام واحدة، ولغة واحدة. تَسير على درب واحد تَبسُط سلطانها على معظم بقاع الأرض.
- أن الإسلام ينفُث[2] فى نفوس أتباعه وعقولهم كبارا وصغارًا، رجالاً ونساءً روح الأُستاذية والقيادة ويؤهلها بجميع المؤهلات، ويُمَكِّنُها من قيادة العالم بفضل مؤهلات العدل ومحاربة الظلم والجريمة والفساد.
- أن الإسلام يُعدُّ أبناءه من القادة إعدادا مغايرا لما يُريدُه به هؤلاء - فهم القادة الرجال الذين إن مُكّنوا فى الأرض (أقاموا الصلاة، وآتوا الزكوة، ولم يخشوا إلا الله) لذا ترى المجرمين من الغرب وأعوانهم يسعون بلا ملل، ويجدون بلا كلل إلى أن يفرضوا على المسلمين حكاما يكون ولاؤهم كله لهم حتى يجلبوا لأنفسهم وأمتهم العار والخزى والهوان.

---

(١) المواعظ والاعتبار ج١ ص١٩٣ - المقريزى.

(٢) نَفثَ - نُفْثًا، ونَفَثَانا : نَفَخَ. و- نَفثَ الشيءَ من فيه : رمي به. و- نَفثَ فُلانًا سَحَرَه - فهو نَافثٌ، ونَفَّاثٌ. وهى نَافِثَةٌ . وجمع النَّافِثَة : نَوافِث والنَّفَاثَةُ : ما يَنْفُثُه المصدُورُ من فِيه.

● الإسلام يربى فى نفوس أتباعه عقيدة الجهاد، ويحرم عليهم الأخذ بأسباب الراحة، والخلود إلى الركون - فهو بذلك حقًا الدين الذى يوحد أتباعه ويضم صفوفهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، فلا يكونون مطمعا لطامع، ولا منفذاً لعدو، ويجعل منهم أناسًا يتنافسون على الموت فى سبيل الله، ويحرصون عليه كأغلى أمانيّهم وأسمى مطالبهم وأشرف آمالهم.

لذلك بات الإستعمار متأكداً يقينًا من أن الإسلام هو أكبر عقبة فى سبيل استقراره، وضمان سيادته على العالم، لإخضاعه وإذلاله واستعباده، ليَتَيَسَّر له الإستيلاء على ثرواته ونهب خيراته ونسف مقدراته والتجارة فى أقواته، ولضمان إخضاعه وولائه.

وقد بات الكافرون ومن نَحَانحوهم فى حربهم ضد الإسلام مسالك شتى، ونهجوا مناهج عدة[1] تهدف كلها لتحقيق غاية مشتركة هى الحيلولة دون انتشاره، وتنصير أتباعه، وتحويل اهتمامات المسلمين إلى قضايا خلافيَة أخرى أدق تركيبًا وأكثر تعقيداً.

وقد اتخذ الإستعمار خطًا سياسيا واضحًا تجاه الإسلام فى إفريقيا، ولكن الإسلام تجاوز تلك العقبة، وحقق كثيراً من الإنتصارات على الرغم من صعوبة الحرب المعلنة عليه، من ذلك مثلا ما قاله « هوبير ديشان » فى كتاب له « أن من صالح فرنسا استغلال زعماء القبائل الوثنية لأن الإعتماد على الجماعات ينطوى على خطر أكيد على المستعمر »[2].

وهو داته المسلك السياسى الذى سلكه قدامى المستعمرون اعتقادا على أن الذى يعتنق دينا يعزّ على آخر أن يحوله إلى دين آخر، أو أن يصرفه عنه بالكلية أما الذى لا يعتنق دينا يصير من السهولة بمقدار جَذْبه إلى اعتناق دين من الأدْيان.

لذلك اجتهد المستعمرون فى الوصول إلى بؤر التجمعات الإفريقية الوثنية، وتلك التى تؤمن بالخرافات والطواغيت من عبدة الظواهر الطبيعية، وأرواح الأجداد والآباء، والثعابين ... إلخ لإفساح المجال أمام إرساليات التبشير المسيحية فى الداخل الأفريقى، وقد نجح هؤلاء فيما بعد فى إقامة بعض نقاط حيوية لهم خاصة بعد أن أتم [لفنجستون] استكشاف وسط إفريقيا سنة ١٨٥٤م[3].

---

(١) انظر المؤامرة الكبرى على العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ - للمؤلف.

(٢) نقلا عن الإسلام والوثنية فى السودان الفرنسى .

(٣) موجز تاريخ العالم ص ٢١٠.

ومن أجل العمل على إنْجَاح ذلك المخطط الإستعماري ومن أجل استمرار مسيرته في الخطِّ السياسي المرسوم سلفًا تجاه المسلمين قامت الدول الإستعمارية خاصة « بريطانيا » بإدخال أفواج هائلة من المهاجرين المعروفين بأنهم مسلمون، وهم من المذاهب التي رباها الإستعمار في الهند لتقوم على خدمة مصالحه ورعاية شئونه في إفريقيا، فاكتظت المستعمرات البريطانية بالتابعين من جماعات الإسماعيلية والأحمدية، حيث ذهب هؤلاء وهؤلاء يدعون للإسلام كما يطيب لكل فرقة ويحلوا لها، وسجل المؤرخون نشاطًا واسعًا وناجحًا في المستعمرات الإنجليزية الواقعة بالشرق والجنوب والوسط الإفريقي.

بينما جاءت مشيئة الله جل وعلا على خلاف ما تشتهيه السفن الإنجليزية للسير وفق رغباتها وطموحاتها، حيث كانت النتيجة هي انتشار الإسلام في هذه الربوع دون انحرافات، واعتنقه الأفارقة في تلك المناطق، وارتضونه دينا فآمنوا به ودافُعوا عنه.

وقد عمل الإستعمار على نشر الإسلام وزيوعه بين أبناء القارة وإن كان قد وقع ذلك عن غير قصد منه.

حيث رأى الكثيرون من الأفارقة أن الإسلام هو وسيلتهم للجهاد ضد العدوان، وسبيلهم لنُصرة الحق على الباطل، ومن ثم فإن محاربة الإستعمار والكفاح ضده حتى الإستقلال هو واجب ديني مقدس، ومن هنا تَجَمَّع الأفارقة تحت لواء الإسلام، وتدفقوا عليه ليتوحدوا تحت لوائه في مقاومة الإحتلال وطرده، وتطهير البلاد من أدناسه.

* * *

رابعًا : الإستعمار وأدواته

لا يختلف المعنى الدارج لهذه الكلمة عن مضمونها عند أهل اللغة وكذلك عند القانونيين.

فالإستعمار في اللغة : من :

(استعْمَرَهُ) في المكان: جعله يعمُره. وفي القرآن الكريم (هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها).

(استَعْمَر) الأرضَ: أمدها بما يعوذها من الأيدي العاملة.

استعمرت دولةٌ دولة أخرى: فرضت عليها سيادتها واستغلتها[1].

وقد قدّم أهل القانون تفسيراً مبسطًا لمعنى الكلمة في القانون الدولي: موجزه « قيام دولة قوية بضم دولة أخرى لأراضيها بعد قهر شعبها، ومصادرة إرادته ثم تباشر

(١) المعجم الوجيز : ص ٤٣٤ .

الدولة القوية على هذا الشعب صور السيادة والنفوذ والتسلط واستغلال الأرض والموارد والسكان لصالحها».

وقد انفردت إفريقيا بنصيب كبير ومتميز من الإستعمار الأجنبى لأراضيها دون غيرها من القارات الأخرى، وقد ترك لها بعد رحيله ميراثا كبيراً من التخلف والجوع والفقر.

ومن دون استثناء فإن كل الدول الإستعمارية فى العصر الحديث قد توافدت على القارة السليبة، حيث جاءت إليها أم الإستعمار (بريطانيا)، وفرنسا، وبلچيكا، والبرتغال، وأسبانيا، وألمانيا، وإيطاليا.

ومما يذكر المؤرخون ويشهد بصدقه الواقع أن مأساة الرق التى بدأها الإستعمار برعاية رجال الكنيسة؛ والتى بدأت من القرن الخامس عشر هى التى أضعفت الأفارقة، وأحبطت قدراتهم، وحطمت طاقاتهم بحيث لا تقدر على مقاومة أو نضال، الأمر الذى عجّل بسقوط القارة ضَحِّية لأولئك المستعمرين حتى أصبحت إفريقيا كلها فريسة للإستعمار الأوروبى خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر. الذى اتبع فى سبيل استعماره للقارة مجموعة من الأدوات والوسائل يأتى فى مقدمتها التبشير:

وهو السلاح القوى الذى استعمله الكافرون للقضاء على الوحدة الإسلامية التى تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتؤلف بين قلوبهم.

لذلك صار هو الأساس الذى اتّبعه الأوروبيون للتأثير الروحى والفكرى على الأفارقة بتقديم المسيحية لهم، خاصة وأن المبشرين المسيحيين يعرفون الكثير عن الإسلام، وقد قرأوا فيه وتعلموا عنه، لمهاجمته والتطاول عليه من خلال هذا التعرف المنحرف.

وقد اشتركت أكثر الأمم المسيحية فى نشر مسيحيتهم (المُنْحرِفة والمحرَّفَة) فالكاثوليك وفى مقدمتهم (بلچيكا، وفرنسا، والبرتغال، وألمانيا، وإيطاليا، وأسبانيا) والبروتستانت والأرثوذكس : (بريطانيا، سويسرا، ألمانيا، وأمريكا).

جميعهم قد عملوا على نشر المسيحية التى تخدم مصالح دولهم، وعملت كل دولة برؤيتها الخاصة من أجل مصالحها الخاصة، إلاّ أنهم جميعا يحكمهم التعصب الدينى الممقوت الذى لا يتفق وعادات التسامح عند الوثنيين الأفارقة أثناء هذا الزحف الصليبى جنوب المتوسط.

ولقد ترك التعصب الدينى الأعمي بذوره على من اعتنق المسيحية من أبناء القارة، ويتحقق الدارس أو الباحث فى شأن إرساليات التبشير فى إفريقيا أن نجاحًا

لتلك البعثات فى مهامها الدينية لم يحدث، كما أنها لم تتمكن من جذب الأفارقة نحو عبادة الصليب.

الأمر الذى تعين معه بالضرورة التعاون المطلق والمباشر بين البعثات التبشيرية والسلطات الإستعمارية عن طريق الحوار المباشر بين الجانبين، وقد نتج عنه أن تلك البعثات أُنيط بها حق إدارة التعليم والصحة، وهما القطاعان الأساسيان والمؤثران فى جلب واجتذاب ألوانا من البشر يمكن التحكم فيها والسيطرة عليها، وتوجيه عقولها بسهولة ويُسر، يأتى فى مقدمتهم؛ هذا المريض الضعيف المحتاج إلى الإبتسامة والأمل والذاد والدواء، وهذا الطفل فى المدرسة الذى يكتسب بالمران والتعلم مبادئ دين جديد لا يعرفه إلاّ أن طقوس هذا الدين تُمارَسُ على أعينه يوما بعد يوم حتى يعتنقها، وإن أبى يتم استبعاده (فصله) نهائيًا من التعليم.

كما استخدم الإستعمار أدوات أخرى مثل إغراء الأفارقة بالوظائف، وقيادات القبائل والعشائر بالمال والجنس ووسائل التشجيع، فضلاً عن نفوذ الإستعمار وسطوته وقسوته وجبروته.

ومن هنا يتمكّن الدارس أو الباحث أو المحقق من التعرف على الأسباب الجوهرية التى حملت المسيحية لفريق من الأفارقة.

ويأتى التبشير فى طليعة الوسائل والمسالك التى اتبعها أو سلكها الإستعمار لمحاربة الدين الإسلامى وللحيلولة دون قيام امبراطورية إسلامية أو دولة إسلامية عظمى طبقًا لما صرح به قادتهم، وفى مقدمتهم القس « سيمون » الذى قال (إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية من أجل ذلك يجب أن يحوّل بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية)[1].

ويمكن القول أن التبشير من أقوى الأسلحة وأخطرها لما يحتوى عليه من مخاطر جمّة صرفت أنظار المسلمين إلى قضايا خلافية جدلية جعلت فرقا كاملة من علماء المسلمين ومن أبنائهم يرددون ما ذكر الغرب الصليبى طعنا فى القرآن الكريم وإن كان ذلك منهم بطريق غير مباشر. إلا أنه ترديد لما قاله الغرب من أقوال وما أكد عليه من أفعال من ذلك ما قال المبشر تكلا : (يجب أن تستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح فى الإسلام ضد الإسلام نفسه، حتى نقضى عليه تماما، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح فى القرآن ليس جديدا، وأن الجديد فيه ليس صحيحا[2].

(١) الخائفون من الإسلام – لماذا ص١٣ – محمد نعيم ياسين .
(٢) التبشير والإستعمار ط ثانية ص ١٤٠ .

أما صموئيل زويمر رئيس مجلس الكنائس العالمى فقد قال فى كتابه الغارة على العالم الإسلامى على الصفحة الحادية عشرة: «أن للتبشير بالنسبة للحضارة الغربية مزيتان، مزية هدم ومزية بناء، أما الهدم فنعنى به انتزاع المسلم من دينه لو بدفعه إلى الإلحاد، وأما البناء فنعنى به تنصير المسلمين إن أمكن ليقف مع الحضارة الغربية ضد قومه».

ويقول القس سيمون: إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية وتساعد على التملص من السيطرة الأوروبية، والتبشير عامل مهم فى كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن تحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية(١).

وجاء فى كتاب التبشير والإستعمار على الصفحة الثامنة قول مؤلفه المبشر تكلا: شارحًا برنامجه للواجب فعله أو اتّباعه لتحقيق نظريته الخاصة فى محاربة الإسلام والقضاء على القرآن حيث قال (يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربى العلمانى، لأن كثيرا من المسلمين قد زُعزِع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية).

وانسجاما مع هذه الأفكار أو نتاجا لها فيما يُعد تعبيراً صريحا عن أنها تَسير وفق خُطىً متدرجة ومترابطة سواء فى حضور إدراك أو فى غيبة وعى وانتباه خرج من بيننا من إخوة ديننا، بنى أوطاننا من يتبنى نظريات الغَرْب ومستحدثاتهم، وبدعهم ويدافعون عنها، ويزيد من الطين بلة رفض هؤلاء المطلق لغير ما تعلموا عنهم أوقرأوا لهم.

من ذلك مثلا: ما روج له أصحاب نظرية دوران الأرض التى باتت الشغل الشاغل للعالم بعد أن نجح العلمانيون فى وضعها بؤرة الإهتمامات ومركز الأبحاث، والمسلمون وغيرهم منذ أكثر من نصف القرن من الزمان يشتغلون بالبحث فى نظرية دوران الأرض أو ثباتها، وما إذا كانت تدور حول الشمس أم لا؟ وهل هى تدور حول نفسها ... إلخ. وقد اكتظت المناهج الدراسية واهتمت الوسائل التعليمية، وشَمَّرَ أصحاب النظريات والتطبيقيون عن سواعدهم منذ عشرات السنوات للخوض فى هذا المجال على الرغم من أن القرآن الكريم قد حسم هذه القضية الخلافية حين قوله تعالى:

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ

---

(١) قادة الغرب يقولون ص ٥١ .

﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

[يس : ٣٧-٤٠]

وهذه آيات يسوقها الله جل وعلا ليبرهن لأصحاب العقول الضالة على دلائل قدرته، وليزداد الذين آمنوا إيمانا، والإستدلال هنا حادث بذكر أحوال الزمان الكلى (الليل والنهار) لإرتباطه بذكر أحوال المكان الكلى (وهو الأرض) حيث العلاقة طردية بين الزمان والمكان ومناسبة أتم المناسبة كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [فصلت : ٣٧]، وفيه دليل بيّن يوجب الشكر ممّن آمن والتذكر ممن يرتاب لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] .

ولكن ما معنى نسلخ النهار من الليل؟(١)

يقال انسلخ النهار من الليل إذا أتى آخر النهار، ودخل أول الليل، وسلخه الله منه فانسلخ هو منه، وأما إذا إستعمل بغير كلمة [من] فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت فى آخره .

فإن قيل : فالليل فى نفسه آية فأيَّةُ حاجة إلى قوله : ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ نقول : الشىء تتبين بضده منافعه ومحاسنه، ولهذا لم يجعل الله الليل وحدهُ آية فى موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها .

وقوله : فإذا هم مظلمون - أى - داخلون فى الظلام، وإذا للمفاجأة - أى - ليس بيدهم بعد ذلك أمر، ولا بُدَّ لهُم من الدخول فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ .

أقول بأن الواو هنا للعطف - فكل الآيات معطوفة، كما قال تعالى : فى سورة مريم (فنفخنا- .. فحملته - .. فانتبذت ... فأجاءها .. فناداها من تحتها) والفاء ههنا للتعقيب فى كل المواضع .

أما الواو الواردة فى قوله تعالى (والشمس) فهى للعطف كما تحكى الآيات وآية لهم الليل نسلخ منه ... والشمس تجرى ... والقمر قدرناه منازل - فهى بذلك كلها آية، وقد أشار تعالى إلى سبب سلخ النهار بذكر الشمس التى تجرى فى قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي ﴾ .. إذ أن جريان الشمس لمستقر كان لها فهو قدرٌ ليأتى الغروب

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٣ ص١٢١ .

فينسلخ النهار ويدخل الليل فإذا هم كما قال تعالى : ﴿ مُّظْلِمُونَ ﴾، وفي هذا إشارة عظيمة لتدارك نعمة الله تعالى على خَلقه لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ✱ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ : ١٠-١١].

أما اللام في قوله تعالى [لِمُسْتَقَرٌّ](١).

يُحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] وقوله تعالى : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : ١] .

وعندي : المستقر هو يوم القيامة وفيه المستقر والمستودع والسكون فلا يبقى حركة لأن حاصل الحركة ينعدم النفع به يومئذ، فهي على هذا المعنى تجري في فَلَكٍ شاء الله لها أن تجري فيه كيف شاء تعالى لها حتى يأتي يوم تكويرها وطرحها كما قال تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ✱ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير : ١-٢] . والتقدير أنه يوم القيامة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ .

قال الزمخشري(٢) : لابد من تقديم لفظ يتم به معنى الكلام لأن القمر لم يجعل نفسه منازل، فالمعنى أنا قدرنا سيره منازل - أي مسالك - ومدارات حتى عاد كالعرجون القديم - أي - رجع في الدقة إلى حالته التي كان عليها من قبل، والعرجون من الإنعراج : يقال لعود العزق عرجون، والقديم المتقادم الزمان، وقيل إنّ ما غَبَرَ عليه سنة فهو قديم .

لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر .

إشارة إلى أن كل شيء من الأشياء المذكورة خُلق على وفق الحكمة، فالشمس لم تكن تَصْلُح لها سرعة الحركة بحيث تُدرك القمرَ وإلا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تُدرَكُ الثمارُ .

وقولُه تَعَالى ولا الليل سابق النهار : قيل في تفسيره إن سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار .

وقيل معناه ولا الليل سابق النهار - أي الليل لا يدخل وقت النهار - والثاني بعيد لأن ذلك يقع إيضاحاً للواضح، والأول صحيح، وعند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر، كان لها حركة واحدة مع أن الشمس تتأخر عن القمر في ليلة مقداراً ظاهراً في الحس، فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٣ ص ١٢٣ .

(٢) مفاتيح الغيب ج١٣ ص ١٢٥ .

ولا تدركه الشمس، وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر، لأن حركة الشمس كل يوم درجة، فخلق الله تعالى فى جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة، وهى الدورة اليومية، وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكبا أصلا، لأن كل كوكب من الكواكب إذا طلع غَرُب مُقابلُهُ، وكلما تقدم كوكب إلى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة إلينا تقدم ذلك الكوكب فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس.

فتبين أن سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس، فقوله تعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ إشارة إلى حركتها البطيئة التى تتم الدورة فى سنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ إشارة إلى حركتها اليومية التى بها تعود من المشرق إلى المشرق مرة أخرى فى يوم وليلة (وفى هذا مسائل)[1] وقد قُلنا سابقا أن العرب الأُوَل ومنذ زمن الجاهلية، برعوا فى علوم الفلك والنجوم والرياح وعبروا البحار شرقا وشمالا وغربا، وتوصلوا كذلك إلى تحديد ما يُسمى خطأ الكواكب السبعة، وذلك لأن الشمس نجم ضخم يُشع نوراً وناراً وهى جسم ملتهب بذاته، أما القمر على سبيل المثال فهو جسم معتم يعكس أشعة الشمس التى تَصلُه منها – فهو جسم صخرى صلب فثمة فارق بين (الكواكب والنجوم).

حتى وإن اكتشف المحدثون كواكب أخرى فى العصر الحديث فإنها كلها سيارة (سابحة) فى فلك خاص لها.

أما عن حركة الليل والنهار والشمس والقمر، فإن ظاهر الآية يُشير إلى أن الكل يسير فى فلك واحد. وإن كان المعنى الحقيقى غير ذلك تماما. إذ لو كان كل هؤلاء يسبحون بأسلوب منظوم فى فلك واحد فى حركات متتابعة متناسقة لما كان طول الليل وقصر النهار شتاء فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية مع مقابلة ذلك تماما فى النصف الجنوبى وعكس ذلك تماما فى فصل الصيف. ولما حدثت كذلك ظاهرتى الكسوف والخسوف لأن ذلك كله ناتج عن تعارض واختلاف طبقا لقانون محكم أبدعه الذى على العرش استوى – أى – أن كل واحد يسير فى الفلك الذى قُدّر له السيرُ فيه وفق قانونِ الله ومشيئته ومعناه أن حركة الكواكب على هذا الوجه هى كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ أى كل جرم سماوى (نجم أو كوكب) فى فلكه يسبح، ويجد المتدبر لآيات الله والحكمة أن القرآن الكريم تحدث عن حركة الليلَ

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ١٢٧ .

والنهار، والشمس والقمر، وجميعهم يعملون لتأهيل الأرض وإتمام جاهزيتها لاستقامة الحياة البشرية عليها.

وقد خلا القرآن الكريم من أية إشارة صريحة أو ضمنية من قَريب أو من بعيد تشير إلى دوران الأرض وحركتها رغم اشتغال العالم كله، ولهثه وراء هذا السراب المسمى (دوران الأرض) – وما إذا كانت تدور حول نفسها أو حول الشمس، أم الإثنين معًا.

بينما يُفيد خُلو القرآن الكريم من أية إشارة إلى حركة الأرض أو دورانها بأنها ثابتة لا تتحرك – ولو – كان غير ذلك لكان أولى بالذكر فى القرآن الكريم، وفى ذلك تصريح بثبات الأرض وانتفاء حركتها، لأن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس يعنى التأكيد على تعرض قطبي الأرض المتجمِّدين « الشمالى، والجنوبى » لمواجهة الشمس مدة فصل كامل من فصول السنة الأربعة أو نصفه على أدنى تقدير، وهى فترة كافية لذوبان جبال الجليد كله حال ما لو تعامدت الشمس على القطب الشمالي مثلا بدلاً من تعامدها على خط الإستواء.

هذا غير ما لو كانت الأرض هى التى تدور حول الشمس لكان ما كان من تعاقب الليل والنهار أكثر من مرة خلال اليوم الواحد أو أن تطول عدد ساعات طرف على حساب آخر أو أن يتساويا تماما بمقدار.

إن حركة الشمس ودورانها فى فلكها المعلوم، مع انحرافها للتعامد على مدار الجدى ليكون الصيف جنوبا يقابله الشتاء شمالا ثم تتعامد على مدار السرطان ليأتى الصيف شمالا ويقابله الشتاء جنوبا ثم ما يكون فى تعامدها على خط الإستواء ليتبادل الربيع والخريف على نصفى الكرة الشمالى والجنوبى على الضد. إن هذا لهو السبب الرئيسى فى تعاقب الفصول الأربعة، واختلاف حركة الرياح واتجاهاتها ومصادر هبوبها، وتعاقب الليل والنهار، وقِصَر هذا وطول ذاك.

أما الإشتغال بغير ذلك فإنه من أدوات العلمانيين وجمعيات التنصير (التبشير) التى لا تكل ولا تمل عن الطعن فى القرآن الكريم سراً وجهراً، كما يعمل هؤلاء باستماتة لشغل اهتمامات المسلمين بعيدا عن روح الإيمان المطلق والعقيدة الصادقة، ولصرف اهتماماتهم نحو اللهو فى قضايا خلافية جدلية عديمة النفع عاجلا أم آجلا – كأن نبحث مثلا فى (الدجاجة أولاً أم البيضة) والخوض فى قضايا خلافية لا تسمن ولا تُغنى من جوع، وموضوعات العلم بها لا ينفع والجهل بها لا يضر.

لقد نجح هؤلاء في جعل العالم يردد كلمة « جرينتش » للتعبير عن خط الطول الذى ينصف الكرة الأرضية بحسب زعمهم – ماراً بلندن عاصمة الإنجليز – وهو في أصله فكر عربى قرآنى إسلامى لأنه يقسم العالم مروراً بمكة المكرمة لقوله تعالى : ﴿ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] فهى بذلك مركز الأرض ووسطها إن هؤلاء لن ينتهوا عن سعيهم فى تنصير المسلمين، ومغايرة القرآن الكريم بعد أن درسوه وعرفوه وتدبروه، فى وقت أعرض فيه عنه أصحابه وأهله، فانصرفت عنه عقولهم وأفئدتهم فلاتدبر ولا إدراك ولا إبداع. بينما يهمهم الإنتفاع بمنتجاتهم الخبيثة، ونظرياتهم التى تطعن فى القرآن الكريم، وأكرر ما قاله المبشر تكلا (يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح فى القرآن ليس جديدا، وأن الجديد فيه ليس صحيحا).

* * *

خامسًا : القلاع الأضادية

بذل الصليبيون والمستعمرون جهداً جبارا فى القارة السمراء حتى تمكنوا من تحويل الحبشة (إثيوبيا) إلى حصن كبير فى منطقة القرن الإفريقى وتَحَقق للأوروبيين حلمهم الكبير فى إقامة قلعة صليبية فى إفريقيا فى مواجهة قلعة المسلمين فى مكة المكرمة .

ويشهد التاريخ أن مصر كانت قلعة الإسلام فى منطقة القرن الإفريقى كاملة منذ دخل الإسلام تلك المنطقة وحتى العصر الحديث.

وقد لعبت الحبشة دوراً كبيراً ضد الإسلام فى منطقة القرن الإفريقى، وشرق إفريقيا، وأشعل حكامها حروبا أجمع المؤرخون على تسميتها (الحروب الصليبية فى شرق إفريقيا) . إلا أنّها مُنيت بانتكاسة كبيرة وتعقدت أمورها كثيراً بعد أن تغلغل الإسلام فى السودان ومع ظهور دولة « الفونج » الإسلامية التى حَظيت بدعم مصرى كبير حتى أصبحت قوة لا يستهان بها، وباتت تمثل شوكة فى ظهر دعاة الصليبية خاصة مع زيادة كثافة الوجود المصرى فى السودان وإفريقيا، والذى يمثل عمقا أمنيًّا وسياسيا واقتصاديا لمصر منذ عهد الأسر وحتى إجبار مصر على الإنسحاب من السودان.

ويمكن القول أن الإمبراطورية المصرية العظمى فى عصر محمد على باشا هى رائدة حركة التنوير الإسلامى فى القارة السمراء.

وكان محمد على قد انطلق نحو إقامة امبراطوريته العظمى انطلاقًا من زحفه على السودان الذى قصد به متابعة فلول المماليك التى لجأت إلى السودان، والقضاء

عليهم كما كانت لديه رغبة قوية في القضاء على مثيرى الشغب من العسكر الألبانيين، كما يذكر التاريخ أن « محمد على باشا » كان شديد الطمع فى الزحف على السودان للبحث عن الذهب كى يتمكن من الإستمرار فى مشروعاته التوسعية نحو بناء مصر العظمى.

وعلى الرغم من بعض الصعوبات التى لاقاها محمد على فى تحقيق طموحاته الشخصية مثل انعدام فيض الذهب على خلاف ظنه، وتَنَكُّره للجنود السودانيين الذين حلوا محل الجنود الألبان فى الجيش المصرى، إلا أنه ظل يتقدم فى مسيرته نحو الداخل السودانى بعد نجاح إبنه « اسماعيل باشا » فى فتح شمال السودان، وإخضاعه للسيادة المصرية فى المدة من ١٨٢٠ : ١٨٢٢ .

وفى إطار سياسته الرامية لإقامة مصر العظمى نجح « محمد على » فى إخضاع جزيرة كريت اليونانية للحكم المصرى فى الفترة من ١٨٢٤ : ١٨٤٠ بالإضافة للعديد من المدن اليونانية.

وفى العشرين من أكتوبر ١٨٢٧ تلقى « محمد على » ضربة قاصمة من الأساطيل الحربية (الإنجليزية، الروسية، الفرنسية) حيث قصفت تلك الأساطيل غدراً وعمداً الأسطولين المصرى والتركى، وهو انتصار حقير رخيص فيما عُرفت موقعة ناڤارين (نوارين) وهى مدينة ساحلية يونانية، وبعد شهور قليلة اضطر « محمد على » للإذعان لموقف الدول الأوروبية الداعمة للموقف اليونانى الثائر فى سبيل طرد القوات المصرية - فَقَبِلَ « إبراهيم » إبن محمد على مُكْرهًا الإنسحابَ من المدن اليونانية على سفن الأسطول الفرنسى بعد أن تم القضاء على الأسطولين المصرى والتركى تماماً والإستيلاء على ما نجا من القصف والتدمير.

وفى العام التالى مباشرة: شرع محمد على بتأسيس الترسانة البحرية بالإسكندرية فى محاولة مصرية جادة لإعادة بناء الأسطول المصرى من جديد وقد كان ذلك فعلا حيث تم افتتاحه عام ١٨٣١، وهو العام الذى قام فيه « إبراهيم باشا » بقيادة حملة عسكرية على سوريا فى أكتوبر، متذرعا بخلاف بين « محمد على - ووالى صيدا »، أما سببها الحقيقى كما ذكر المؤرخون فهو يعود إلى رغبة محمد على فى ضم سوريا لتأمين مصر ضد الغزو من جهة الشرق، وفى العام التالى تمكن إبراهيم باشا من إنزال هزيمة بالجيش العثمانى، وضم طرابلس الشرق إلى الإمبراطورية المصرية وتقدَّم لحصار عكا.

وقد بدأ الخلاف فى ١٨٣٢ بين محمد على والباب العالى فى تركيا الذى أعلن عصيان محمد على بسبب حملة إبراهيم باشا على سوريا، وفى ٢٧/٥/١٨٣٢ فتح إبراهيم باشا « عكا » بعد حصار برى وبحرى دام مدة ٦ ستة أشهر، ويذكر أن الجيش المصرى لاقى مقاومة عنيفة من حاميتها التى لم تستطع الصمود أمامه طويلاً، وفى السادس عشر من يونيو من العام ذاته استولى على دمشق ثم توجه إلى الشمال فتمكن من احتلال كوتاهية سنة ١٨٣٣ على بعد (٢٠٠) مائتى كيلو متر من الأستانة، واحتل كذلك « مجنيسيا » قرب أزمير التركية على الحدود المتوسطية.

ولما استشعر الأتراك الخطر المصرى القادم توصل السلطان العثمانى (محمود) إلى اتفاق مع محمد على باشا، قطع الطرفان فيه شوطا كبيراً من المفاوضات الشاقة خلال إبريل ومايو ١٨٣٣م ثم عقدا صلحاً بموجبه يتنازل الباب العالى لمحمد على عن « سوريا، وإقليم أضنة » ويثبته على « مصر والحجاز وجزيرة كريت »، مقابل جلاء الجيش المصرى عن باقى بلاد الأناضول فيما عرف صلح (كوتاهية).

وقبل مضى عام دخلت إنجلترا بلاد الشام من الباب الخلفى عن طريق تطبيع العلاقات التى أخذت طابعا سريا، استهدفت منه بريطانيا إضعاف الخلافة التركية[1] ذاتها بالإضافة إلى القضاء على الجيش المصرى، من أجل ذبح أحلام محمد على باشا فى التوسع فى امبراطوريته المصرية.

وسرعان ما ظهرت آثار تطبيع العلاقات « التركية - الإنجليزية » حيث ثار الشام ضد الحكم المصرى بسبب الدسائس التركية الإنجليزية لتقليب الشاميين وإثارة تمردهم، وربما إستثماراً لسياسة محمد على فى نزع أسلحة العشائر، ومحاولته فرض التجربة المصرية فى بلاد الشام بشأن التجنيد الإلزامى.

وقد إستمرت هذه الثورات منذ عام ١٨٣٤ : ١٨٣٨م . إلا أن إبراهيم باشا تمكن من قمعها جميعا، بعد أن وقعت خسائر كبيرة فى الجيش المصرى.

وما أن تمكن الجيش المصرى من إخماد الثورات الإنفصالية فى الشام والتى أكدت على إمكانّيات العسكرية المصرية وقدراتها الجبارة، وقياداتها الواعية، حتى كشفت تركيا عن حقيقة نياتها تجاه مصر، بعد أن استغلت تماما فترة الهدنة التى عقدتها مع مصر بموجب صلح (كوتاهية)، حيث بات الأتراك منذ توقيع تلك المعاهدة فى ١٨٣٣ فى إعداد وتجهيز وتهيؤ تام للمعركة القادمة مع الجيش المصرى حتى جاء ٢٤/٦/١٨٣٩ وفيه تقدم الأتراك محاولين استرداد سوريا من أيدى

---

(١) انظر كتابنا : المؤامرة الكبرى على العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ.

المصريين، والتقى الجيشان عند « نصيبين » وفيها أحرز إبراهيم باشا أكبر انتصاراته على الجيش التركى، وأسر أكثر من ١٢٠٠٠ « أثنى عشر ألفا » من بينهم، وأكد على تفوق العسكرية المصرية على الجيش العثمانى.

وقد توفى السلطان العثمانى قبل إبلاغه نبأ الهزيمة، وقد خلفه السلطان عبدالحميد فى العام ذاته ١٨٣٩م. وبعد ذلك بأيام قام (فوزى باشا) قائد الأسطول العثمانى بتسليم (٢٥) سفينة حربية عثمانية للأسطول المصرى لأسباب شخصية لم يذكرها المؤرخُون..

وبدأت المؤامرات الأوروبية على مصر فى العلن بعد أن تولى السلطان عبدالحميد أمور الخلافة الإسلامية فى تركيا للقضاء على الخلافة ذاتها وعزل الخليفة، ومن ثم تقسيم التركة العثمانية فى العالم العربى إلى مناطق نفوذ الدول الإستعمارية الأوروبية التى حاصرت العالم العربى والإسلامى منذ فترات سابقة، استعداداً للهجمة الشرسة على العالم الإسلامى كله حينما يحين الوقت أو تسمح الظروف.

وفى الخامس عشر من يوليو (١٥ / ٧ / ١٨٤٠) - اجتمعت بريطانيا والنمسا، وروسيا، وبروسيا (ألمانيا) فى بريطانيا وتم التوقيع فيما بينهم على ما يعرف (اتفاقية معاهدة لندن) وفيها فرضوا على محمد علىِ الإنسحاب من الأقاليم المفتوحة لتقتصر حدود دولته على مصر وفلسطين على أن يرضخ لهذه الأوامر خلال عشرة أيام على الأكثر، وإلا تم عزله، غير أن محمد على رفض الإنصياع للإنذار الأوروبى عند أول الأمر، ولم يلبث أن قبل، مُقابِل جعل الحكم وراثيا فى أسرته لمصر فقط، وكانت هذه بداية النهاية.

وفى سبتمبر ١٨٤٠ قصف الأسطول الإنجليزى بيروت بالمدافع لإحراج موقف الجيش المصرى هناك بقيادة إبراهيم باشا، ثم بعد أيام قام الحلفاءُ الغربيون (أطراف معاهدة لندن) بمشاركةٍ تركيةٍ صريحةٍ بالإستيلاء على مدن الساحل الشامى بقوة أساطيلهم المتطوّرة.

أما فرنسا التى لم تحضر ولم توقع على معاهدة لندن سابقة الذكر، والتى كانت قد أبدت تعاطفا وتحالفا مع محمد على سراً، إلا أنها فى العلن امتنعت عن حضور مؤتمر لندن - وما كان ذلك منها إلا لونا من ألوان التآمر والخديعة لتحقيق المصالح الغربية أو لا وأخيراً. وقد خذلت فرنسا « محمد على » وتمنعت عن معاونته فى مواجهة الحلفاء، مما أجبر الجيش المصرى على الإنسحاب من سوريا فى الشهر الأخير من عام (١٨٤٠) وقد أصيب بخسائر فادحة أثناء الإنسحاب من جراء الهجوم الأوروبى، وكذلك من رغبة الشاميين فى الإنتقام.

وكانت تلك هي البداية للتدخل وبقوة في الشئون الداخلية لمصر بصورة مباشرة، وتحميلها مبلغ (٤٠٠,٠٠٠) أربعمائة ألف جنيها مصريا كل عام في سابقة هي الأولى من نوعها عبر تاريخ مصر السحيق أن تدفع مصر « جزية » لدولة أجنبية، وذلك بموجب فرمان فرض الجزية في أول يونيه ١٨٤١م .

جاء ذلك في وقت كانت أوروبا فيه لا تدرى بعد ما النقود!!! ولم تكن كذلك بريطانيا تعلم كلمة « جنيه » كعملة رسمية .

وفي الثالث عشر من فبراير ١٨٤١م صدر فرمان يفرض على محمد على التّبَعية المطلقة وأمرته بتحديد قوات الجيش المصرى بثمانية عشر ألف (١٨٠٠٠) جندى، كما أقر الفرمان الإعتراف بمحمد على حاكما وراثيا على مصر.

أصيب « محمد على » والى مصر بالمرض لدرجة منعته من ممارسة مهام الحكم فتولى إبراهيم باشا أمور الولاية فى إبريل عام ١٨٤٨ لمدة سبعة شهور تقريبًا حيث وافته المنيّة مفاجئة في ٩ / ١١ من نفس العام في حياة أبيه .

وقد تولى (عباس باشا بن طوسون بن محمد على) الملقب (عباس حلمى الأول) حاكم الحجاز أمور الولاية بعد أن عاد من الحجاز إلى مصر في ٢٤ / ١١ في حياة جدهّ محمد على الذى وافته المنيّة في الثانى من أغسطس ١٨٤٩م، بعد أن أرسى قواعد مصر الحديثة التى ترامت أطرافها، وأسس بنيانها، وقد مات حسرة وألمًا علي ضياع هيبتها وانحسارها في حياته .

وبعد سنوات قليلة قُتِل عباس حلمي الأول « والى مصر » في ١٤ / ٧ / ١٨٥٤م . في مؤامرة من مؤامرات القصور، وخلفه سعيد باشا بن محمد على في العام ذاته واستمرار واليًا على مصر حتى وافتهّ المنية في (١٨٦٣م) متأثرًا بمرض عُضال .

وفي عام ١٨٦٣ م أصبح « إسماعيل باشا » بن إبراهيم بن محمد على « واليا » على مصر، إلى أن صدر فرمان الباب العالى في ١٨٦٧م ليصبح أول خديوى على مصر، وقد حصر الفرمان العرش في أولاده فقط .

ومن الجدير بالذكر أنه بعد الهزائم المتتالية والإنتكاسات التى لحقت بالجيش المصرى في اليونان وتركيا ودمشق وساحل الشام وما نتج عنها من آثار سيئة ونتائج سلبية على الإمبراطورية المصرية التى فقدت الكثير من أعمالها ومناطق نُفوذها . فقد عمل الخديوى إسماعيل على توسيع إمبراطورية جده محمد على، كما اجتهد للسير على دربه، غَير أنه اتّجه ناحية الجنوب في فتوحاته، وتمكن الجيش المصرى عام ١٨٦٥م من احتلال (فاشودة) بجنوب شرق السودان، وسط ترحيب كبير وحفاوة

بالغة من أبناء تلك المناطق خاصة مع الإعلان المصرى بالقضاء على تجارة الرقيق فى الوسط الإفريقى كله ومحاربتها من الأصل، واجتثاث جذورها.

وفى عام ١٨٧١ م تمكنت مصر من ضم « غندكور » إلى أملاكها لتصبح عاصمة مديرية خط الإستواء الواقع تحت السيادة المصرية سلفًا.

وفى المدة من ١٨٧٢ : ١٨٧٣ م تمكن الجيش المصرى بقيادة بيكر باشا من احتلال مملكة (أونيورو) الواقعة شرق بحيرت (ألبرت)، وفى العام التالى وبموجب معاهدة سلمية مع ملكها بسطت مصر حمايتها على مملكة (أوغندا) بينما توجه فريق آخر من الجيش المصرى بقيادة اسماعيل باشا أيوب لفتح سلطنة دار فور غرب السودان. ثُمّ توجه الجيش المصرى إلى شرق الحبشة، وتمكن بقيادة « محمد رؤوف باشا » من فتح سلطنة (هرر) سنة ١٨٧٥م ، ثم بدأ الجيش المصرى منذ ذلك التاريخ وحتى مشارفة عام ١٨٧٦م على الانتهاء من عدة محاولات لدخول الحبشة إلا أن جميعها قد فشلت بسبب تولى أموره قيادات أوروبية كان قد عينها الخديوى إسماعيل للعمل فى الجيش المصرى[١] . إلا أنهم تآمروا مع الإنجليز المساندين للحبشة ضد الفتح المصرى، خاصة وأن بريطانيا كان لها وجود فعلى فى الحبشة منذ حملتها فى ١٨٦٧ : ١٨٦٨م وقد انتهت بانتصار الإنجليز، وهزيمة الأحباش، وقتل ملكهم (تيودورس).

وفى عام ١٨٧٥م قامت حملة من الجيش المصرى بقيادة الضابط الأمريكى (شاولونج بك) على الصومال فى محاولة لفتح بقية الشاطىء الصومالى لبسط النفوذ المصرى على ساحل المحيط الهندى، استكمالا لما تم فى عصر محمد على باشا الذى استطاع قبل وفاته أن يستأجر (سواكن، ومصوّع) من السلطان العثمانى لأهميتهما فى تقديم العون، ولربط مصر بفُتوحاته، وقد تنازل العثمانيون نهائيًا لمصر على(سواكن ومصوّع) فى ١٨٦٥م، وفى ١٨٦٦م. تملكت مصر جميع الشاطىء الواقع على خليج عدن الجنوبى من « بربرة إلى رأس غوردا فوى » وفى عام ١٨٧٠م استولى الأسطول المصرى على ساحل البحر الأحمر حتى مضيق باب المندب وعلى بلاد الصومال، حتى مصب نهر جوبا، وفى عام ١٨٧٥ م حصلت مصر على « زيلع » من الباب العالى، وامتد النفوذ المصرى إلى الساحل الجنوبى فشمل « مقدشو » حتى نهر جوبا.

---

(١) بلغ عدد القتلي من الجنود المصريين ٨٥٠٠ قتيلاً فى هذه السلسلة من الحروب الفاشلة.

غير أن الحملة التى قادها الضابط الأمريكى للاستيلاء على ساحل المحيط الهندى أخفقت فى أهدافها بنتيجة تعرضها لبعض الصعوبات خاصة مع الوجود الإنجليزى المكثف فى القرن الإفريقى، إلا أنه نَجَح فى وقت لاحق من نفس العام فى الإستيلاء على (زيلع وبربرة) بشمال الصومال.

غير أن الخديوى إسماعيل غرته فتوحاته وانتصاراته وذهب يطلب أمجاد جده محمد على باشا، لذلك سرعان ما وافق على إرسال (٧٠٠٠) مقاتل مصرى بقيادة الفريق راشد باشا للمشاركة مع الجيش العثمانى فى القتال لإخماد التمرد الصربى، وبعد شهور قليلة وافق الخديوى إسماعيل على إرسال فرقة عسكرية من إثنى عشر (١٢٠٠٠) ألف مقاتل آخرين بقيادة الأمير (حسن باشا) ابن الخديوى نفسه، للمشاركة إلى جانب تركيا ضد روسيا فى حرب البلقان فى المدة من ١٨٧٧ : ١٨٧٨م .

وقد نسى الخديوى إسماعيل أو تناسى أن أوروبا لن يرضيها الخسارة الروسية من الحلف الإسلامى (التركى - المصرى) خاصة أن روسيا هى الحليف القديم للإنجليز فى (معاهدة لندن) المشار إليها سابقا، بالإضافة إلا أن إنجلترا تعتبر أى هزيمة للروس هى انكسار للدور الصليبى الأوروبى، وانتصار يضاف للقوات المصرية. الأمر الذى يعنى تَعريض سلامة الأمن الأوروبى للخطر. وهو ما لَنْ تَسْمح به أوروبا، ثم إن مصر باتت خطرا يهدد الأطماع الأوروبية بالنسف والتدمير، لذلك باتت أوروبا تتآمر فى الخنادق المظلمة لتحجيم دور مصر بتطوير أدواتها ووسائلها لتنفيذ مخطط مرسوم بدقة يرمى إلى عزل مصر مستخدمة لذلك ثلاث وسائل خطيرة نوضحها إيجازاً فيما يلى :

(أ) الضغط بورقة السودان :

لعبت أم الإستعمار (بريطانيا) مبكراً دوراً سريا وخطيراً لعزل مصر عن إفريقيا منذ مطلع حكم إسماعيل، فى محاولة جادة من الإنجليز لإكراه « إسماعيل » على مثل ما أُكره عليه جده « محمد على باشا » من إجباره على التخلى عن الأراضى التى ضمها لإمبراطوريته فى الشام وإخراج جيوشه منها.

وبدأت فى ترتيب الأوراق الخاصة بالإستيلاء على مناطق النفوذ المصرى فى المناطق الإستوائية، والقرن الإفريقى - وقفزت سريعا فوق الأحداث الفعلية والرؤى النظرية، بمحاولة جادة لفصل السودان عن مصر، واتخذت لأجل ذلك سبيلاً خبيثا داخل الجيش المصرى، حيث تحايل الإنجليز على الخديوى إسماعيل الذى لم يستطع رفض مطالبهم والمطالب الأوروبية، خاصة وأن هذه الحيل قد صادفت هوىً فى نفسه،

يتمناه كثيراً ويأمله بشدة كى يتمكن من (تأريب) مصر، والإستمرار فى عصر النهضة. والسعى بشدة لاستكمال المشروعات العملاقة، وبناء مصر الحديثة بعماراتها الفاخرة على الطراز الأوروبى.

وقد أدخل إسماعيل نظام عمل الأجانب بالجيش المصرى استرضاء أو استجداء لأوروبا على أمل تحديث قدراته العسكرية، والإستفادة بهم فى التوسعات المصرية صوب الجنوب.

وكانت تلك أول الأوراق التى لعبت بها أوروبا للتمهيد لعزل مصر، حيث أن الأجانب الذين تولوا مناصب قيادية بالسودان وهم تابعين لحكومة مصر لم يكونوا مخلصين لها، كما أنهم يخادعونها، وباتوا يعملون بجد واجتهاد على تمكين إنجلترا بوجه خاص من تحقيق رغباتها ثم تأتى بعد الرغبات الأوروبية بوجه عام.

ونورد فيما يلى نموذجًا للأجانب الذين استخدمتهم مصر فى السودان، وما قالوه، أو قيل فيهم :

● بيكر : كان كشّافًا ورحّالة، ولا تؤهله هذه الصفات للإدارة والسياسة، وقد أساء السيرة عندما استخدمته حكومة الخديوى فى السودان، وقد اعترف بيكر أنه وهو موظف مصرى فى عهد إسماعيل كان يعمل على تقوية النفوذ البريطانى فى المناطق التى عهدت إليه مصر بإدارتها، وأضاف أنه فخور بأن يخلفه غوردون فى هذا العمل، كما أنه كان يعمل جاهداً كى ينساب النفوذ البريطانى فى مصر، وحتى يتوغل فيما وراءها.

● مالكولم: كانت له السلطة على ممتلكات مصر بسواحل البحر الأحمر، وهناك عمل على بث النفوذ البريطانى فى شرق إفريقية .

● ماليكوب باشا: قائد فى البحرية المصرية، كان بعيداً كل البعد عن الإخلاص لمن أولوه هذه الثقة.

● هكس: عُيِّن على رأس حملة لإخماد ثورة المهدى فى الجنوب والتى اشتعلت فى عام ١٨٨١م : ١٨٩١ ، إلا أنّه قام بتصرفات ضد واجبه الوظيفى، وضد رغبات الحكومة المصرية التى عينته، وكان معه ثمانية من الضباط الإنجليز، واثنان من الخدم الأوروبيين، وقد أخذوا لأنفسهم كل الإمتيازات، وتركوا الأعباء والأعمال ملقاة على كاهل الضباط المصريين الذين أحَسُّوا بالخيانة من القائد ومعاونيه .

---

(١) توفى المهدى عام ١٨٨٥ وخلفه عبدالله التعايشى وقاد أنصاره المعروفين بالدراويش.

وكان « هكس » يُظهر علنا عدم احترامه للمصريين ولا يتحرج من ذلك، فقد كان رجلا حاد المزاج، غير مألوف النفس، لا يتمتع بشخصية سوية، فهو لا يريد الهدوء ولا يرغب فى إخماد الثورة التى أُرسل فى سبيل إخمادها، وإنما لم يتمنى القلق والإضطرابات والمزيد من التوترات فحسب بل كان يعمل على زيادة حدتها.

وقد أصدر هكس بيانا إلى السودانيين تحدث فيه عن العدالة التى عرفت بها إنجلترا، وأنه كواحد من أبنائها يعلن لكل السودانيين أنه إنَما جاء إلى السودان لنشر العدل، والإنصاف بين الناس.

وهذا الـ. . . . هكس قد وقف ضد الدولة التى يعمل فى خدمتها، وخالف بذلك حدود وظيفته الرسمية، ومارس أعمالا لا تتفق وطبيعة دوره العسكرى، وقد نتج عن مسلكه هذا ازدياد حدة الثوار (الدراويش) ضد مصر.

● غوردون: وهو الشخصية الغامضة التى لعبت أكبر أدوار الخيانة فى السودان، وقد عُيِّن أول الأمر لتوسيع دائرة النفوذ المصرى فى منطقة الإستواء والتأكيد عليه.

وقد أساء استغلال وظيفته و انحرف عن طبيعة الدور المنوط به، فأرسي بذلك حجر الزاوية فى الإساءة إلى العلاقة بين مصر والسودان بقسوته وسوء معاملته للسودانيين.

ومن العجيب أن يُعيَّن بعد ذلك حاكما على المنطقة الإستوائية، فحاكما عاما للسودان كله، ومن ثم بلغ الأقاصى فى إساءته وسوء معاملته، للسودانيين، وفرض عليهم الضرائب الباهظة، واستعمل فى جبايتها العصىّ والكرابيج، وأودع كثيرا من المواطنين بسببها فى السجون وشرَّد الكثيرين.

وفى إطار مساعيه الرامية لإحلال الأوروبيين محل السودانيين فى الوظائف القيادية والعامة، أطاح بالقيادات الوطنية وأمر بتعيين (شينترز) حاكما لخط الإستواء، و(رومولو) الإيطالى حاكما فى بحر الغزال، و(چيچلر) الألمانى مفتشاً عاما للتليغراف بالخرطوم، و(سلاطين) النمساوى حاكما عاما على دارفور - بينما يبرز كتابه (السيف والنار) مدى الخيانة التى انغمس فيها.

وقد عبّر « غوردون » عن نفسه أصدق تعبير حين قوله (لا يوجد فى العالم رجلٌ أكثر منى تغيُّراً) ، عنه « نور تبروك » (يا لشذوذ جوردون، ويالسرعة تقلبه فى أرائه).

هذا بخلاف بعض الأشخاص الذين جنّدتهم بريطانيا للقيام على مصالحها، ولرسم استراتيچية مُعيّنَة لتنفيذ المخطط الذى تريده، وهؤلاء لم يتبعوا الحكومة المصرية

ولم يعملوا تحت لوائها ، ولم يأتمروا بأوامرها . وجميعهم من الإنجليز، من أهمهم[1]:

● الميجر / هنتر: مساعد المقيم السياسى فى عدن، وقد ذكر فى برقياته للقاهرة عام ١٨٨٣ التى خاطب بها قيادة الإحتلال البريطانى فى مصر والذى بدأ فى ١٨٨٢م: أن قبائل الجالا تستعد للإستيلاء على هرر، وأن قبائل الصومال أعلنت أنها ستُخرج المصريين من (بربرة، وزيلع) وذهب إلى ما هو أبعد وأخطر عندما اهتم علنا بجمع التوقيعات من الأهالى ضد مصر، وأخذ فى ترتيب تصفية النفوذ المصرى على ساحل البحر الأحمر.

● الكولونيل / ستيوارت : رسول بريطانيا لدراسة الواقع السودانى، والإفادة بالتقارير الواقعة على أرض الأحداث.

ويذكر المؤرخون وشهود العيان أن التقارير والنصائح التى أنيط بستيوارت كتابتها، كان متفقا عليها وموحى إليه بها قبل إرساله للسودان، وعلى ذلك جاءت تقارير الرجل متمشية مع الرغبة البريطانية، متوائمة مع سياستها المعلنة منذ اليوم الأول لإرساله والقيام بمهام دوره هناك .

كما طالب بتخفيض القوات المصرية العاملة فى السودان وأكد على أن الباقى من هذه القوات كفيلة بفرض النظام والسيطرة على الأوضاع حال وضعها تحت قيادة حازمة وجادة، وهو فى الحقيقة يرمى إلى اصطياد عصفورين بحجر واحد (إن صح هذا التعبير) لأنه أولا لا يطالب بدعم إضافى من الجنود المصريين للسيطرة على الموقف، وقمع الثوار . مع علمه التام بأن دفع المزيد من الجنود إلى السودان سيجعل الأمور تحت السيطرة التامة، وسيحقق النظام والأمن، وهو مالا يريدهُ وثانيا: فإن رسائله وتقاريره توصى بوضع القوات الموجودة فى السودان تحت قيادة حازمة – أى – إنجليزية، ومن ثم فإنها ستحقق آمال الإنجليز، وأثنى فى تقاريره على الهدوء الذى يسود دارفور، غير أنه لم يذكر أن هذا الهدوء الذى يسود الإقليم بسبب شراسة السفاح النمساوى (سبلاطين) حاكم الإقليم الذى قمع الأهالى وأذلهم، وألقاهم فى السجون أو شردهم، تماما كما يفعل الآن (بول بريمر) الحاكم المدنى الأمريكى على العراق، ومن سيخْلُفُه.

كما ذكر ستيوارت أن مصر لم تستطع أن توفر الأمن والرفاهية للسكان وتلك حجته التى بنى عليها مَطَالبَهُ بشأن الإسراع فى عودة هذه الأقاليم إلي مشايخ القبائل، والقيادات المحلية.

---

(١) بريطانيون فى السودان ص ١٦٩ وما بعدها بتصرف .

وهكذا فقد جَاهَرَ المهدى زعيم الثورة بصراخه المدوّى بعد التجاوزات والإضطهادات، والمضار التى لحقت بالسودانيين من جراءَ دُخُول الأجانب للسودان، وتوليهم المهام القيادية، كما أعلن أن ما نزل بالسودان من مظالم ومصائب تقع تبعاتها على عاتق الحكومة المصرية لأنها استخدمت الأجانب والدخلاء وولتهم أمور العباد[1].

بذلك الوضع الجديد الذى خلقته سياسة الخديوى إسماعيل، أضحى السودان منطقة محايدة، وفاصلة بين الحدود الجغرافية والسياسية للقطر المصرى، وبين مناطق السيادة المصرية فى القارة السمراء.

* * *

(ب) الصليبية فى وجه الإمبراطورية

مما سبق ذكره يتضح بجلاء أن أوروبا لم تتمكن من الإتجاه نحو إفريقيا بهذه الضراوة والشدة إلا بعد انتصار المسيحيين على المسلمين فى أسبانيا، وإنسحاب المسلمين جنوبا إلى الشمال الإفريقي، وما لازمه من تحول الفاطميين نحو القاهرة.

وقد اتجه الأوروبيون (الصليبيون) المنتصرون إلى الديار العربية ومحيطها باعتبارها الطرف المهزوم والمطلوب سحقه بالكلية خاصة بعد تزاوج أقطاب المملكتين المسيحيتين فى أسبانيا (إيزابيلا، وفرديناند) اللذان قضيا على الوجود الإسلامى فى أسبانيا، ثم توسعا بأسبانيا لتضم إليها البرتغال قسراً، والكثير من دول الجوار الأوروبي، وقد سلّمت أوروبا للمسيحية بعد وقوع تلك الأحداث.

وفي الوقت الذى توجه فيه الصليبيون إلى الديار العربية كانت لهم شطحات أخرى باتجاه الغرب حيث (العالم الجديد) الأمريكتين، منذ أن اكتشف (كولمبس) سواحل أمريكا الوسطى فى ١٥٠٢م، ثم دورة ماجلان حول العالم من ١٥١٩ : ١٥٢٢م وهى ذات الفترة التي وصلت فيها البعثات التبشيرية المسيحية إلى المستعمرات الأسبانية فى الأمريكتين، وهو كذلك عصر إرغام شعوب القارتين على اعتناق المسيحية، وبعد نجاح تلك البعثات فى مهامها بدأ الغزو الأسبانى إلى أمريكا الوسطى يتدفق بوضوح فى المدة من عام ١٥٢٣ : ١٢٣٥ .

ثم شرع البرتغاليون فى استيطان البرازيل سنة ١٥٣٢، وبحلول عام ١٦٠٠م أصبحت الإمبراطورية الأسبانية تضم أغلب مناطق أمريكا اللاتينية، وزحفت فرنسان نحو كندا فى ١٦٠٥، وأسسوا (نوفاسكوشيا)، وفى ١٦٠٧ أسس الإنجليز أول

---

(١) السودان المصرى الإنجليزى ص١٧ / الشيخ محمد القبانى .

مستعمرة مستديمة لهم فى أمريكا الشمالية فى (جيمستاون) بولاية فرچينيا ، وفى ١٦٦٤م تمكن الإنجليز من انتزاع « نيويورك » من أيدى الهولنديين، وفى ١٦٩٩ : ١٧٠٢م تمكنت فَرنسا من الإستيلاء على « لويزيانا » بأمريكا الشمالية، وفى ١٧٦٣م تنازلت فرنسا لبريطانيا عن كندا بموجب صلح « باريس » الذى أنهى حرب السنوات السبع بين الإنجليز وفرنسا .

وفى ١٧٧٥م اندلعت فى « لكسنجتون » شرارة حرب الإستقلال بين الثوار الأمريكيين والجيش البريطانى حتى تم الإعلان عن استقلال الولايات المتحدة فى ١٧٧٦م، وصدر الدستور الدائم للبلاد فى ١٧٨٧م، وقد انتُخِب « جورج واشنطن » كأول رئيس للبلاد بَعْدَ الاستقلال .

وكان الإستقلال الأمريكى بمثابة العصا الغليظة التى حطمت آمال الإستعمار فى القارة التى تحررت مبكرا ونهائيا من الإستعمار الأوروبى .

مما حمل الأوروبيون على التوجه إلى إفريقيا منذ ذلك الحين بعد انحسار أطماعهم عن أمريكا الشمالية، وقد بدأ التدفق الأوروبي المباشر إلى إفريقيا فى حوالى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

بيد أن الأمر لم يكن سهلا للأوروبيين لتحقيق أطماعهم الإستعمارية التوسعية حيث واجههم النفوذ المصرى الكبير الذى تغذيه الإمبراطورية المصرية العملاقة، التى هددت وإلى حد بعيد المصالح الغربية ببعثاتها التبشيرية وأطماعها الإستعمارية .

فلم يجد الأوروبيون بُدا من الأمر إلا تدمير هذه الإمبراطورية، وشرذمتها وتقطيع أوصالها، فاتجهت إلى الخديوى إسماعيل، وحاصرته بالديون التى تثاقلت عليه، حتى تمكن الإنجليز والفرنسيون من الإطاحة به ونفيه خارج البلاد فى ١٨٧٩م بعد انضمام تركيا إلى المؤامرة ضد مصر والخديوى، وقد تم تعيين ابنه محمد توفيق خلفا له .

وسرعان ما دبرت بريطانيا المؤامرة الكبرى بحيلة ومكر لإحتلال مصر، بعد زوال حكم إسماعيل، وسعت بكل ثقلها لانتصار الثورة المهدية علي النفوذ المصرى .

ولما كان لها ما أرادت، اتجهت أوروبا لتجنى ثمار ما زرعته من أجل اقتسام التركة المصرية فى إفريقيا، وكان طبيعيًا أن تنفرد بريطانيا بنصيب الأسد من الوليمة حيث أنها صاحبة اليد العليا فى الإطاحة بالخديوى الذى ترمى من ورائه إلى ما يتخطى ذلك بكثير وهو ما نعرض له فى السطور القادمة .

(جـ) احتلال مصر

من الجدير بالذكر أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم تكن أوروبا متوجهة ومهتمة لخطر الإمبراطورية المصرية الجديدة فى إفريقيا، والتى أسسها الخديوى إسماعيل، وذلك لأن ثورة الإهتمامات الأوروبية منذ وقت سابق كانت « الضغط » على محمد على لإخلاء السعودية، وكريت، وسوريا وهو ما حدث فى النصف الأول من القرن ذاته.

أما أن تحتل إفريقيا مكان الصدارة فى جملة الإهتمامات الأوروبية وتطلعاتها فإن مرد ذلك إلى مجموعة من العوامل من أهمها:

١- تطلع الإستعمار الأوروبى إلى إفريقيا لتعويض ما فقده فى الأرض الجديدة، خاصة بعد ثورة « لكسنجتون » الشهيرة التى أدت إلى وجود الولايات المتحدة الأمريكية .

٢- سرعة التحول الطارئ على الدولة الوليدة الجديدة لتصبح دولة استعمارية من طراز فريد فتتقدم صوب الجنوب لاحتلال دول الجوار وتغيير أنظمتها الشرعية[1].

٣- البحث عن المواد الخام والثروات الطبيعية لتمويل الثورة الصناعية فى أوروبا، ولإيجاد سوق بديلة لترويج المنتجات الأوروبية.

ومن الواضح أن الأطماع الأوروبية ما كانت لتتحقق فى ظل وجود الإمبراطورية المصرية التى توسعت كثيراً، وامتدت حدودها طويلا حتى بلغ نفوذها أعالى النيل، حتى باتت عقبة كؤود فى طريق الإستعمار الأوروبى لإفريقيا وسداً منيعاً أمام زحفه وأطماعه.

فوقفت أوروبا ضد مصر فى نصف القرن الثانى نفس الموقف الذى وقفته ضد محمد على سابقا فزحفت بريطانيا فى العلن نحو مصر، ففى الجمعة ١٩ / ٥ / ١٨٨٢م بدأت بوارج الأسطولين الإنجليزى والفرنسى فى الوصول إلى مياه الإسكندرية بحجة مُعلنَة « هى » إرهاب الضباط الوطنيين بمظاهرة (مناورة) بحرية، وتوجيه الأمور نحو الإستقرار فى مصر. ﴿ **إن يَقُولُونَ إلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف: ٥].

لأن ذلك فى حقيقته لم يكن إلا عملا فعليا لنيّة معقودة على التدخل الفعلى الأجنبى فى الشئون الداخلية لمصر ثم احتلالها فعليا من قبل القوات الإنجليزية .

وقد بدأ الأسطول البريطانى فى قصف الإسكندرية تمهيداً للغزو البريطانى فى ١١ / ٧ / ١٨٨٢م، وقد دمر القصف بعض أحياء الإسكندرية، وتحصينات الميناء، بينما

---

(١) التفاصيل كاملة فى كتابنا: وحيد القرن ورياح التغيير .

توجهت قطع أخرى من تلك الأساطيل باتجاه السويس التى سقطت مبكرًا فى ٢ / ٨ / ١٨٨٢م، وبورسعيد على إثرها فى ٢٠ / ٨ / ١٨٨٢م. أما الإسماعيلية فقد سقطت فى اليوم التالى ٢١ / ٨ / ١٨٨٢م.

تَقَدم البطل المصرى ناظر الجهادية والبحرية « أحمد عرابى » لملاقاة الغزو البريطانى الزاحف باتجاه الداخل، ودارت معْركة عند « تل المسخوطة » فى ٢٥ / ٨ / ١٨٨٢م بين القوات المصرية وجحافل الإنجليز، وفيها أُسِر « محمود باشا فهمى » رئيس أركان الجيش المصرى.

وفى ٩ / ٩ / ١٨٨٢م دارت معركة القصاصين الثانية، وكاد الجيش المصرى أن يحرز نصرًا كبيرًا على الإنجليز، وأن يلحق بهم هزيمة نكراء قاسية لولا وقائع الخيانة المتعددة – التى أدت إلى هزيمة القوات العرابية فى معركة « التل الكبير » فى ١٣ / ٩ / ١٨٨٢م، والتى على إثرها تمكنت بريطانيا من الزحف نحو الداخل ووصلت إلى القاهرة، وفرضت سيادتها فعليا على البلاد، وتم تعيين اللورد « دفرين » مندوبا ساميا بريطانيا على مصر، وقد دخل مصر فعلا نوفمبر ١٨٨٢ م.

ولعل التاريخ يعيد نفسه حيث أن موقعة « التل الكبير » تتطابق تماما مع مقاومة الشعب العراقى البطل الذى أذل قوات التحالف بقيادة « أمريكا وبريطانيا » عند غزو العراق، وما كانت العاصمة بغداد لتسقط إلا بفعل الخيانة العظمى التى فتحت بغداد أمام القوات الأمريكية فجر التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣م، وذلك لقاء حفنة من الدولارات[١]، ووعد بمناصب لم يتحقق منها شئ.

وجاء الضغط الإستعمارى على مصر بالغا الأشد والأقاصى.

ففى اليوم التالى لهزيمة القوات العرابية بفعل الخيانة، أى فى الرابع عشر من سبتمبر. أعلن الخديوى (محمد توفيق) ابن الخديوى إسماعيل الذى تولى الحكم بعد نَفْى والده فى ١٨٧٩م، وحتى أن مات توفيق نفسه فى ١٨٩٢م، أعلن عن إلغاء الجيش المصرى وتسريحه؛ على أن يعهد إلى السير (ڤالنتين بيكر)– الفريق بيكر باشا – بتنظيم جيش جديد – كبار ضباطه وقياداته من الإنجليز، ويحرم على القيادات المصرية العمل فيه، تماما كما تفعل أمريكا الآن فى العراق باستثناء الخائنين من العراقيين.

وبدأت بريطانيا على الفور برنامجا طموحًا يهدف إلى ضياع الممتلكات المصرية على البحر الأحمر، فطلبت من السلطان العثمانى فى تركيا أن يوافق على منح ميناء « مصوع الإريترى » لملك الحبشة، واستولت هى على باقى الموانى.

---

(١) التفاصيل كاملة فى كتابنا: وحيد القرن ورياح التغيير.

واستمرت بريطانيا فى حشد جهودها الرامية إلى تخلى مصر عن امتداداتها فى إفريقيا، وإجبارها على سحب جيوشها من كل المناطق التابعة لنفوذها، ومارست بريطانيا ضغطا هائلا على مجلس النظار المصرى (الوزراء) الذى أصدر أمرا بإجلاء القوات المصرية عن « هرر » وملحقاتها، ونقل السلطة هناك إلى الأسرة التى كانت تحكم قبل الفتح المصرى.

ومن العجيب أن بعض المسيحيين فى الجيش المصرى أرسلوا رسالة سرية إلى ملك الحبشة يخبرونه فيها أن الحاميات المصرية ستخرج من (هرر) فى فترة وجيزة، ونصحوه بالزحف عليها قبل أن تدخلها قوات أخرى.

غير أن مصر قامت بتسليم الإمارة إلى عبدالله بن عبدالشكور حفيد السلاطين السابقين عند دخول مصر، وطلبت منه بريطانيا وضع العلم البريطانى على بلاده للإعلان عن بسط نفوذها على هذه الإمارة باعتبار بريطانيا تحتل مصر ذاتها ، كما أنها الوارث الشرعى لممتلكات الإمبراطورية المصرية السابقة فى إفريقيا . فرفض الأمير ابن عبدالشكور الطلب البريطانى .

وفرض ذلك معطيات جديدة على الساحة، حيث وجدت بريطانيا أن التعاون البريطانى المسيحى أوفر عطاءاً، وأعظم أثراً من التعاون الإنجليزى الإسلامى الذى حتما سوف ينتهى بصدام كبير، وقد نتج عن ذلك أن شجعت بريطانيا الأحباش للعمل بنصيحة المسيحين المصريين (سابقة الذكر) بالزحف على هرر.

فزحفت الحبشة المسيحية على إمارة هرر الإسلامية ما بين عامى ١٨٨٦م، ١٨٨٧م بجيش كبير، واستولت عليها، وراح الأحباش تدفعهم أوروبا المسيحية لمزيد من الزحف على المناطق الإسلامية فاستولت من الصومال على مناطق (جالا، عروسه، أغادين) .

وكان للدعم العسكرى الذى قدمه الأوروبيون للأحباش دوراً هائلاً فى قلب موازين القوى فى المنطقة بالإضافة إلى توقيع بعض الإتفاقيات الدولية بين الطرفين، لتصبح الحبشة قلعة مسيحية فى إفريقيا تقف فى وجه الزحف الإسلامى القادم من الشرق من قبل القلعة الإسلامية، وللتصدى لأى محاول مصرية للعودة إلى السودان، بل وتهديد أمن مصر القومى ذاته عن طريق إثارة الفتن والقلاقل فى الجنوب السودانى فى محاولة لتقسيم السودان، وإقامة دولة مسيحية فى جنوبه، وهو الفكر الأمريكى المحصن حديثا تحت شعار حق الجنوب فى تقرير مصيره.

وبذلك حصلت إثيوبيا (الحبشة) على تفويض غربى رسمى وصكٍّ صريح للعبث فى المنطقة كيف شاءت بعد أن صنعها الإستعمار، وصاغها قلعة مسيحية تنتفع من الإستعمار وينتفع بها.

وتسابق المستعمرون نحو التركة المصرية فى الجنوب على النحو التالي :

- إيطاليا : استولت على إريتريا، والإقليم الشرقى بالصومال عام ١٨٨٥م والذى عُرِف فيما بعد باسم (الصومال الإيطالى).
- فرنسا : منطقة چيبوتى ، وميناء أوبوك (الصومال الفرنسى).
- بلچيكا : سارعت بإجراء تعديلات على حدود الكونغو مع دول جواره، واستولت بذلك على أجزاء من مناطق النفوذ المصرى هناك.
- الإنجليز: وقد تمكنوا من الإستيلاء على زيلع وبربرة فى ١٨٨٤م.

وقد تقاسمت بريطانيا وإيطاليا مناطق النفوذ المصرى فى السودان، وساحل البحر الأحمر فى ١٨٩١م حيث دخلت بريطانيا (زيلع، والإقليم الشمالى من الصومال، ومحمية أوغندة)، ثم استولت على السودان كله فى مراحل لاحقة بعد أن تمكنت من طرد الفرنسيين من غرب السودان.

ونؤكد فى هذا المقام على أن الإحتلال الإنجليزى لمصر مهّد الطريق وإلى حد كبير أمام الثورة المهدية، ويسر لها سبل النجاح خاصة وأن أحمد عرابى ناظر الجهادية آنذاك كان قد أصدر أوامره بسحب بعض الفرق المصرية من السودان للإنضمام إلى القوات المصرية لمواجهة التطورات الجديدة مما ألقى بظلاله على إضعاف الحامية المصرية هناك.

وبعد تنفيذ أوامر أحمد عرابى، اضطربت الأوضاع فى مصر بفضل انضمام بعض الجنود والضباط المصريين إلى ثورة المهدى فراراً من القتال مع الخديوى والإنجليز وأتباعهم.

وقد استطاع الثوار فى السودان محاصرة (الأبيض، وبارة) فى أغسطس ١٨٨٢م ورغم مقاومتهما بعض الوقت إلا أنهما سقطتا فى مطلع عام ١٨٨٣م، وبذلك أصبحت كردفان أغنى مديريات السودان تابع للمهدى ورجال ثورته، وسقطت الخرطوم فى ٢٦ / ١ / ١٨٨٥م، وانضم السودان الشرقى إلى المهدى عقب سقوط الأبيض.

وهكذا ضغطت إنجلترا على مصر وأصرت على ضرورة انسحاب القوات المصرية من السودان، وضغطت بشدة على الخديوى الذى ما كان له أن يفعل غير ما يَراهُ الإنجليز تفاديا لأن يلقى ذات المصير الذى لاقاه والده إسماعيل.

وبهذا انفصل المهدى بالسودان، وضاعت الإمبراطورية الكبيرة فى آسيا وإفريقيا، وتقوقعت فى حدود جغرافيتها المعروفة الآن... ويستمر الصراع محتدما بين القلاع الأضادية وسط خضم حِوَارِ الدبابات فى أشرس صراعٍ للحضارات.

الفصل الثانى

أولاً : إفريقيا فى المزاد العلنى

قلنا أن الحركة الإستعمارية فى إفريقيا التى بدأت فى القرن الخامس عشر، ارتبطت وإلى حد كبير بما تم تحقيقه من اكتشافات جغرافية فى القارة، وتلك هى ما تعرف بالمرحلة الأولى، وقد تزعمت البرتغال هذه المرحلة، حيث اتجهت إلى الساحل الغربى للقارة الإفريقية ومنه إلى الساحل الشرقى، ثم اندفعت إلى عُمان فى طريقها إلى الهند (سيرد بيان فى ذلك فى حينه).

وجاءت المرحلة الثانية فيما قبل مطلع الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتميّزَتْ هذه المرحلة بسباق محدود من دول استعمارية حديثة العهد بالإكتشافات مثل أسبانيا وهولندا وإنجلترا وفرنسا.

أما المرحلة الثالثة: فهى التى كانت خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وأهم ما يميز هذه المرحلة أن دولاً إستعمارية عديدة اندفعَت نحو قلب إفريقيا، وتوغلت فيه.

وكانت بلچيكا أسبق الدول وصولا إلى قلب القارة، واستولت على أوغندة، ثم اندفعت ألمانيا بعد ذلك فاستولت على الجنوب الغربى الإفريقى، وتوجولاند، والكاميرون وشرقى إفريقيا.

ثم زَحفَت دول أوروبية أخرى وتدافعت لإقتسام القارة، شجعها على ذلك الدعم الأمريكى الهائل والمتنوع بكل صفوف العون والمساعدة، الذى ترمى أمريكا من خلاله إلى تحقيق العديد من المكاسب السياسية، والاقتصادية، والمادية، يأتى فى مقدمتها:

● تفتيت القارة السمراء على أيدى وكلائها الأوروبيين من دون تدخل أمريكى مباشر تعامُلاً مع المقتضيات المرحلية فى السياسة الرامية للإنفراد بحكم العالم عندما يحين الوقت المناسب طبقا لبرامج عملية محسوبة ومدروسة وموقوتة.

وقد حلت تلك النكبة الكبرى على إفريقيا، وحاق بها ما دبّر المتآمرون من مخططات فى الوقت الذى تعانى فيه من كثير من المشكلات (السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والثقافية) الأمر الذى يَسّر للأوروبيين التسلل إلى قلب إفريقيا والتغلغل فيها وإقامة مراكز نفوذ وسلطة.

● فمن الناحية السياسية : فإن زعماء القبائل والعشائر فى إفريقيا كانوا يمسكون بزمام السلطة من غير منازع بإعتبارهم حكاما على الإطلاق، مطلقة أيديهم فى التصرف، وقد استغل المستعمرون هذا المدخل، وأحسنوا توظيفه، فلوّحوا لأولئك الحكام بالرفاهية والترف، مع ضمان استمرارهم فى السلطة، فتعاونوا معهم، وعقدوا معهم الإتفاقات والمعاهدات، وابْتَاعَ المستعمرون منهم بعض الموانئ الهامة، والمواقع الحساسة التى أُقيمَت عليها المراكز التجارية والعسكرية بعد ذلك.

● ومن الناحية العسكرية : فإن إفريقيا كانت وإلى عهد قريب تعانى من بدائية سلاحها وأدوات تسليحها، ووسائلها الحربية، التى لم تتمكن من التصدى فى مواجهة الأسلحة الأوروبية الفتاكة، التى أخذها الغرب عن العرب، وقد طوروا صناعتها ثم وجهوها إلى صدور العرب والمسلمين والهجوم عليهم فى ديارهم وعلى جيرانهم من الأفارقة والأسيويين.

● ومن الناحية الاجتماعية : فإن الحاكم المطلق فى إفريقيا كان يَحُول دون وجود ملكية خاصة للأفراد بحيث تدفعهم إلى الدفاع عن ممتلكاتهم، والذود عن ديارهم هذا بخلاف اعتماد الكثيرين من الأفارقة على حياة التنقل الجماعى (البدوى) بحثا عن الكلأ، والقُوت، الذى تلعب حرفة الصيد لتوفيره دوراً كبيراً، ولعل هذا ما مهّد الطريق أمام الإستعمار الذى إذا ما حل بأرض اتّجه الأفارقة إلى أرض سواها وذلك بفضل مساحة القارة الشاسعة.

● ومن الناحية الثقافية : كانت إفريقيا تشبه وإلى حد كبير ما كانت عليه أوروبا قبل عصر النهضة الأوروبية، وما صاحبها من ثورة صناعية، واكتشافات جغرافية فلم تستطع إفريقيا الإنتفاض على حالة الفقر والتخلف، واكتفى الأفارقة بممارسة الحرف البدائية كالرعى والصيد، وأهملوا الزراعة، وباتت القارة عاجزة عن استغلال مواردها وثرواتها الطبيعية حتى الآن.

وقد ساهم ذلك كله فى تهيئة الظروف ومواتاتها تماما أمام المستعمر الأوروبى الذى ساعده على سقوط القارة مبكراً ضحية له - هو - ما فعله مع مطلع القرن الخامس عشر، حينما وطأت أقدامه إفريقيا، حيث كانت مأساة الرق بمثابة السيف الذى انغمس فى ظهر الأفارقة، فأضعف قدرتهم، ونَسَفَ امكانياتهم وحطم مقدرتهم على مقاومة الطوفان الإستعمارى الوافد.

ولما صارت إفريقيا كلها فريسة للإستعمار الأوروبي، راح الأوروبيون يقتسمون القارة، أو بالأحرى يمزقونها بمخالبهم وينهشونها كما تفعل السباع الضارية بفريستها

حتى أوْشك تنافسهم الاستعماری أن يجعلهم على شفا الصراع الحتمى، فتداركوا الموقف، واتفقوا على تقسيم الفريسة بدلاً من التصارع عليها.

ومن هنا شهدت أوروبا سلسلة من المعاهدات والإتفاقات من أشهرها، وأهمها معاهدة برلين (١٨٨٤ : ١٨٨٥) بمشاركة : بريطانيا، فرنسا، إلمانيا، بلچيكا، البرتغال، أسبانيا، وإيطاليا. ويمكن القول أن أوروبا قد اجتمعت ووقعت علي معاهدتين أو هما (اتفاقيتين) الأولى هی معاهدة (لندن) سنة ١٨٤٠م. والتى جمعت الحلفاء فی مواجهة الإمبراطورية المصرية لتقليم أظافرها وإجبارها على الخروج من أوروبا. وتحجيمها فی محيطها الجغرافی، وقدكان ذلك بعد أن تمكنت بريطانيا من احتلال مصر عام ١٨٨٢، وكذلك تمكنها من فصل السودان عن مصر عام ١٨٨٥م وبذلك سقط قلب إفريقيا تحت وطأة الإستعمار.

أما معاهدة (برلين) فی ٨٤ : ١٨٨٥م فقد كانت ثانی اجتماع أوروبی، غير أنها كانت هذه المرة تعد أول عمل دولی يهدف لتقنين وتنظيم السطو على الجسد الإفريقی كله ونهبه وسلبه، ومن أهم ما جاء فيها: المادة ٣٤ والتى تدل على روح المؤتمر، وأن المقصود منه هو حماية الدول المستعمرة، وليس رعاية الفريسة حيث تنص هذه المادة على الآتی:

(تلتزم كل دولة من الدول الأطراف فی هذه الإتفاقية فی حالة قيامها بوضع يدها، أو تقرير حمايتها على أی إقليم من إفريقيا بإبلاغ ذلك إلى الدول الأخرى الموقعة على هذه الإتفاقية).

وواضح من هذا النص أنه يفتح الباب على مصراعيه لسلب أی بقعة من إفريقيا، وليس على السالب من حرج، وكل ما عليه أن يبلغ ذلك إلى الدول الأخرى حتى لا ينافسه سالب آخر[١].

وقد علق أحد الباحثين على هذه المعاهدة بقوله (لقد كان معنى مؤتمر برلين إضفاء الشرعية، والأحقية الدولية على التهام قارة من قارات العالم، وكان معنى نصوص المعاهدة أن التملك بوضع اليد جائز فی الأرض غير التابعة لدولة أخرى من الدول الموقعة على الإتفاقية، سواء أكانت مسكونة بقبائل رحالة أو بأمة من الأمم، ولم يكن يدرك رؤساء القبائل معنى العهود التى تضعهم تحت الحماية الإستعمارية، ومعنى هذا أن الإتفاقية لم تفكر فی حرية الشعوب الإفريقية، ولا فی إرادتها، ولم

---

(١) التاريخ الإسلامی والحضارة الإسلامية ص٤٢٠ .

تلاحظ مشيئة الشعب في مَصير وطنه على الإطلاق، وتجاهلت الدول الأوروبية هذه الشعوب على اعتبار أنهم لا وجود لهم في نظر القانون الدولي العام[1].

وهكذا تدفق الأوروبيون من كل حدب وصوب على القارة السمراء، واقتحموا أعماقها، وعملوا على إزالة الأسماء القديمة للدول أو المناطق التى نزلوا بها وأزالوا الحدود التى وَضَعَهَا أبناء القارة، وأعادوا تقسيم القارة وتسمية أجزائها، وإصباغها بصيغة جديدة لا تتفق وحقيقة التاريخ كما هو الكائن حاليا ونسمع به:

١- إفريقيا الغربية الفرنسية .
٢- إفريقيا الغربية البريطانية .
٣- إفريقيا الإستوائية الفرنسية .
٤- إفريقيا الشرقية الألمانية .
٥- إفريقيا الجنوبية .
٦- إفريقيا البرتغالية ... إلى غير ذلك.

وزادت أوروبا إلى تقسيم البلد الواحد، وتجزئته، كما هو كائن (الصومال الإيطالى، الصومال الفرنسى، الصومال الإنجليزى).

زد على ذلك ما كان من الإستعمار وما ذهب إليه من تسمية بعض المناطق بأسماء الملوك الأوروبيّين، أو مكتشفى تلك المناطق مثل (رودس، سيشل، روديسيا، بحيرة فيكتوريا، بحيرة ألبرت، استانلى فيل،، ليوبولدفيل) ... إلخ.

كما تقاسم الإستعمار كل إفريقيا عدا (أثيوبيا، ليبيريا) وذلك لأنهما تدينان بالمسيحية دين المستعمر الأوروبى، وقد احتلت إنجلترا (مصر، والسودان، وكينيا، وأوغندا، والصومال البريطانى) (أعمال الإمبراطورية المصرية سابقا) ونيچيريا، وغانا، وسيراليون، وبتسواناالاند، واتحاد وسط إفريقيا، وجنوبى إفريقيا.

واحتلت فرنسا: (تونس، والجزائر، مراكش، إفريقية الغربية الفرنسية، وإفريقيا الاستوائية الفرنسية، الكاميرون، مدغشقر، والصومال الفرنسى) .

واحتلت بلچيكا: الكونغو وأوراندى.

واحتلت البرتغال: مناطق على الساحل الشرقى، والغربى لأنجولا، وغينيا البرتغالية.

واحتلت أسبانيا: بعض الجُزر بغربى إفريقيا وبعض المناطق فى شمال إفريقيا وغربها.

---

(١) الجغرافيا السياسية لإفريقيا ص٤٨ د. فيليب رفله.

واحتلت إيطاليا: ليبيا والصومال ثم أثيوبيا لفترة قصيرة إبان عهد موسوليني.

واحتلت ألمانيا: أفريقيا الشرقية الألمانية، وأفريقيا الجنوبية، وتوجولاند، والكاميرون.

ويمكن القول بأن البرتغاليين أول من ابتدع تجارة الرق في التاريخ بحثا عن الثراء السريع، ثم نقل عنهم الهولنديون ممارسة هذه التجارة اللعينة، ثم الفرنسيون، والإنجليز، والدانمركيون، والأمريكيون، وقد تنافسوا جميعا فى سرقة الرجال والنساء والأطفال الأفارقة، وإخراجهم من بلادهم لبيعهم فى العالم الجديد.

ولمدة (٣٠٠) ثلاث مائة سنين ظلت إفريقيا تُنتهك حرماتُها، وتُدمّر مُقدساتُها، وتُفسد أخلاق حكامها وأهليها، وتشوه حياتها الاجتماعية، وتنهار طاقاتها حتى غرق جزء كبير من القارة فى غياهب الظلمات والجهل ولم تفق منها تماماً حتى الآن.

وقد أراد المستعمرون وتجار الرقيق من البيض الإعتماد على قوة ذات تأثير يمكن أن تسهل لهم تجارتهم، وتبررها بحيث لا يحول دونها حائل أو أن يمنعها مانع.

فلم يجد أمامه سوى رجاله من بعثات التبشير التى بَنَت الكنائس، وجذبوا إليها الكثيرين من أبناء القارة تحت مبررات سبق القول فيها.

ومن هنا وقع رجال الدين والكنيسة أسرى للإغراءات المادية الكبيرة التى أغراهم بها الإستعمار، وقد اكتفت الكنيسة بِنَصيب يخصص لها من الأسلاب التى تُسْلَب من القارة.

وهكذا عمل رجال الدين المسيحى فى خدمة الإستعمار، وأعلنت الكنيسة أنها ستُعَمِّد العبيد المرسلين إلى أمريكا بدعوى إنقاذ أرواحهم.

وراح مندوبوا الكنائس يجلسون على مقاعدهم الرخامية على الشواطئ حيث يقوم المندوب فيُعمّد العبيد، ويقبض نصيبه من رسوم التصدير التى أصبحت مورداً هاماً من موارد الكنيسة[١].

وكان هذا الإتجاه من الكنيسة يساير رأى بولس الرسول عن العبيد، فقد جاء فى رسالته إلى أهل إفسيس «أيها العبيد، أطيعوا سادتكم حسب الجسد، بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس، بل كعبيد للمسيح، عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنيَّةٍ صالحة كما للرب ليس للناس، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حُراً».

---

(١) الإستعمار الأوروبى لإفريقيا ص١٣٨ د. زاهر رياض.

هذا وقد أساء التجار إلى المسيحية وجعلوها قناعًا وستاراً لتجارتهم غير المشروعة، وكان من مظاهر التمسح بالمسيحية أن أشهر تجار الرقيق فى ذلك العصر (جون هوكنز) أطلق على سُفُنِه أسماء (المسيح، الملاك، نعمة الرب)، وجعل يطلق على كل رحلة تُبحر بتجارته مَن بنى البشر عبارات مقتبسة من الكتاب المقدس مثل (اخدموا الرب، ليحب بعضكم بعضا)[1].

ويجدر القول أن المسيحية الأوروبية ليست مصدر الإلهام لهذه التجارة إلا أنها كانت العباءة التى يرتدونها هؤلاء التجار.

فقديما قسّم فلاسفة اليونان الجنس البشرى إلى قسمين (حُرٌّ بالطبع، رقيق بالطبع)، كما حدد أفلاطون طبقات المجتمع فى كتابه (جمهورية أفلاطون) وقرر فيه حرمان العبيد من حق المواطنة، وإجبارهم على الطاعة والخضوع لسادتهم، ووافَقَهُ على ذلك أرسطو، وقرر أيضاً أن وظيفة العبيد تحصيل الثروة للأسياد[2].

وامتدت هذه الأفكار المسمومة لتصل إلى مفكرى العصر الحديث ومن أشهرهم (مونتسكيو) ١٦٨٩ : ١٧٥٥م، وهو من أكبر فلاسفة الفكر الفرنسى، وقد ثبت قوله (إن لنا حقا مكتسبا فى اتخاذ الزنوج عبيداً، إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يعد أمامها الآن إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا كى تستخدمها فى استغلال هذه الأقطار الفسيحة، فما هذه الشعوب إلا عناصر سوداء البشرة من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ولا يمكن أن نتصور أن الله جلّت قدرته، وهو ذو الحكمة السّابغة، يضع روحًا طيبة فى هذا الجسم الحالك السواد).

وانطلاقا من هذه المفاهيم السائدة عند البيض ومؤيديهم، ومع وصول أسبانيا إلى العالم الجديد (الأمريكتين) وإقامة مستعمراتها ومزارعها هناك خصوصا فى أمريكا الجنوبية، ذات المساحات الواسعة والمزارع الشاسعة مع ندرة الأيدى العاملة، الأمر الذى أدّى إلى شدة احتياج الأسبان للأيدى العاملة، مما جعل الأسبان يتعاقدون مع التجار البرتغاليين على توريد الأيدى العاملة لإسبانيا.

وهكذا بدأت شحنات العبيد الإفريقية إلى المزارع الأسبانية فى العالم الجديد منذ مطلع القرن السادس عشر، وقد اشتغل بالعمل فى هذه التجارة اللعينة غير البرتغاليين كل من(الهولنديون، الفرنسيون، الدانمركيون، والإنجليز).

ثم تبوأت بريطانيا مكان الصدارة فى هذه التجارة حتى أصبحت عمادها الأساسى للوفاء باحتياجاتها من الأيدى العاملة المجانية للعمل بمزارعها الواسعة خاصة

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤٣٦ .

(٢) انظر مقارنة الأديان – كتاب الإسلام . د. أحمد شلبى .

بعد الضعف الذى حل بالبرتغال، واستيلاء المستعمرات البريطانية فى الهند على الممتلكات البرتغالية هناك.

وقد نقلت بريطانيا وحدها فى المدة من ١٦٨٠ : ١٧٨٦م أكثر من مليونين من الأرقاء الأفارقة، كما وصلت أعداد ضخمة إلى المستعمرات الأخرى عن طريق تجار الرقيق الآخرين، ومن الواضح أن ما كان يصل من الأرقاء لا يزيدون عادة عن نصف العدد الإجمالى الذى تم شحنه من موانئ إفريقيا، وذلك لأن النصف الآخر كان يموت فى الطريق ، ولعل هذا يبين العدد الضخم الذى إسْتُنْزِفَ من القارة، والذى يقدره بعض الباحثين بحوالى ٨٠ ثمانين مليونا من الأفارقة[١].

سوق النخاسة

كانت تقام على سواحل القارة لقرب سفن الشحن، ولسرعة تحميلهم بعد تحصيل أثمانهم، وكان الرقيق يقفون فى هيئة دائرة، بحيث يقف الرجال وحدهم ووجوههم نحو مركز الدائرة لا يتحركون، والكثيرون منهم لا يقدرون على الوقوف من شدة ما عانوه، وهول ما قاسوه وسوء ما شعروا من جوعٍ وعطشٍ، وآلام ما وجدوا من ضرب طوال مدة السير على الأقدام من نقطة إقامتهم ومقارهم حيث تم القبض عليهم من منازلهم ومزارعهم، إلى مكان السوق، بينما يقف التُّجار أو مندوبوهم، أو راغبو الشراء فى وسط الدائرة، ثم يَقُوم الراغب منهم فى الشراء بتحسس السلع البشرية المعروضة.

أما البنات والسيدات، فكن يقفن صفوفًا بينما يتقدم تجار الرقيق نحوهن، فيتحسسوهن بما يعرضهن لألوان شتى من المهانات، بحيث تتعرض للاعتداء الفاضح العلنى التى تُعارِضُ مَنِ يتحسسها ليتعرف عليها.

وقد احتلت مملكة الزنج (زنجبار)، وبلاد السنغال مكان الصدارة فى إقامة هذه الأسواق التى لا تعرف إلا تجارة السلع البشرية على أراضيها.

غير أن هذه المَذَلَّة لا تنتهي بمجرد بيع وابتياع هذه السلعة البشرية، حيث يلقى هؤلاء أشد أنواع القهر والمهانة والعذاب أثناء ترحيلهم من السواحل الإفريقية إلى الأرض الجديدة، حيث تبذل الشركات العاملة فى هذه التجارة أقصى جهد لها لتحقيق أوفر الأرباح وأعلاها، ومن ثم فإن ما يسمونهم العبيد، كانوا يحشرونهم فى السُفُنِ مقيدين بالأغلال الحديدية المثبتة فى جدران السفن أو فى أرضيتها، فى مكان

---

(١) الإستعمار الإفريقى لاوروبا ص٧٠ د. زاهر رياض .

لايسمح للواحد منهم بالجلوس طوال الرحلة من شدة الزحام، مما يتسبب فى موت عدد من الرقيق خلال الرحلة، هذا فضلا عن أن ربان السفينة بعد قيامها كان إذا اكتشف أن عدد أفراد الشحنة يزيد عن طاقة سفينته، فإنه كان يتخلص من بعضهم بإلقائهم فى البحر، وإذا ما احتج بعض العبيد على هذه التصرفات يكون الجلد العلنى، أو إطلاق الرصاص عليهم هو الرد الطبيعى على احتجاجهم .

وقد قدَر بعض المؤرخين نسبة أعداد الموتى إلى الأحياء بنسبة السدس إلى إجمالى العبيد المسافرين فى كل رحلة على حدة، وقد ذكر آخرون أن الناجين لا يزيدون عن نصف عدد الشحنة عند مغادرتها الموانئ الإفريقية.

وهكذا بِيعَ الأفارقة فى أسواق النخاسة، ثم سِيقَ بهم إلى الأرض الجديدة للقاء المجهول حيث ينظر الناس هناك إلى الإنسان الأسمر على أنه سلعة أكثر منه إنسانا وبدأت بذلك أكبرالمآسى الإنسانية التى عرفها التاريخ الإنسانى كله.

* * *

التخلف الإفريقى فى الميزان

سبق قولنا فى أن القارة الإفريقية باتت عاجزة عن استغلال مواردها لعجزها عن الإنتفاضة على حالة الفقر والتخلف، وكذلك لعدم مقدرة أبنائها تصحيح مسار حركة التاريخ الذى ضل طريقه بفضل عوامل الإنحراف المتعددة التى تعرض لها، وقد ضل الأفارقة بالتالى طريقهم إليه حتى الآن غير القليل مثل (مصر، جنوب إفريقيا، نيجيريا)، وقلنا إن ما كان فى إفريقيا ليس إلا نتاجا لمجموعة من العناصر (السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية) .

غير أن الآثار التى نَجَمَتْ عن قضية الرق فاقت كل التصورات، وسبقت أسوأ التوقعات حيث وصل سباق سماسرة الرقيق وأعوانهم إلى حد حرق المنازل، والقيام بالغارات الليلية على السكان ليلا، وعند هروب الناس يؤخذون عبيداً، بعيداً عن ديارهم إلى العالم الجديد، كما أن أوروبا عَرضَت فى إفريقيا كل منتجاتها وصناعاتها مقابل العبيد، هذا فضلا عن الملايين من عمال المعادن، والنساجين، وصانعى الأخشاب، وقد قُتلوا فى الحروب، أو أرسلوا عبيدا ضمن الشحنات التى وصلت إلى العالم الجديد للعمل بالمزارع الواسعة هناك لدى الإنجليز والأسبان والفرنسيين.

ومن هنا لم تكن حاجة لإقامة الصناعات فى إفريقيا، هذا بخلاف اضمحلال وتلاشى الصناعات الإفريقية مثل الأعمال البرونزية، والحفر على الخشب، وبعض الصناعات التعدينية المتاحة آنذاك وبدا الحال وكأنه لا فائدة من التخطيط للمستقبل أو الزراعة أو من التفكير فى أعمال جيدة.

فالحاصل للناس جعلهم يعيشون لِيَوْمِهِم فقط دون أدنى تفكير أو تخطيط للمستقبل.

وهكذا تفسخت المجتمعات الإفريقية، وتقطعت أواصر الصلات بين العشائر والقبائل والأفراد على السواء، وتَركت تجارة الرقيق آثاراً نفسيةً عميقةً تجلت بوضوح فى شك الأفارقة وريبتهم وحَذَرِهم، بل وعدائِهم الكامن فى صدورهم الذى ينطبع على العلاقة بكل أبيض يقابله حتى اليوم.

ومن هنا يمكن التأكيد على أن مأساة تجارة الرقيق هى بحق السبب المباشر فى الإنحدار الإفريقى الشديد وانحراف القارة بسرعة نحو التخلف، والتأخر عن مواكبة الركب، بعد أن كانت للأفارقة حضارات متقدمة، مثل الممالك الإسلامية والحضارات القديمة التى تحدثنا فيها سابقا، وكذلك ممالك « اليوربا، وبنين » فى القرون من الحادى عشر إلى الثالث عشر الميلادى، أى قبل الهجمة الإستعمارية الأوروبية الشرسة على القارة السمراء بحَوَالَىْ ثمانية قرون على الأقل.

ولم تُضمَد إفريقيا جراحها التى سبَّبَها الإستعمار حتى الآن.

* * *

ثانيًا : الأفارقة فى شبَاك التنصير

قلنا سابقا: إن الإستعمار عمل على إقامَة قلعة مسيحية فى إفريقيا تعمل فى خدمته، وتُحصّل له أطماعه، وتنشر له أفكاره، وفى سبيل ذلك ساند المستعمرون الحبشة بكل قوة حتى أصبحت كما تمنوها بحيث ينتفعون بها وينفعونها.

وقد عمِل الأحباش كذلك بكل قوتهم لخدمة الإستعمار الأوروبي فى إفريقيا وبذلوا جهوداً غير مسبوقة على تنصير أو تكفير الشعب المسلم فى المناطق التى سيطرت عليها الحبشة، في أَخَسّ صور التعامل الإنسانى وألوانه وأدواته وهى فى جملتها لا تقل بشاعة وخسّة ونذالة عما فعل المستعمرون بالأفريقيين عند بيعهم كعبيد وبهذا يكون الإستعمار قد نجح فى إبادة الأفارقة بالأفارقة بعد أن منح الحبشة توكيلا خاصا فى التعامل مع المناطق الإسلامية التى استولت عليها، ومعالجة قضاياها بالطريقة التى يَراها الأحباش الذين مارسوا أبشع صور الإجرام والقتل وفعلوا ما تعجز الكلمات عن وصفه، ومن أشهر تلك الحوادث المأساوية .

* * *

(أ) هرر والصومال

بعد أن استولت الحبشة على إمارة هرر الإسلامية وملحقاتها، وبعض مناطق الصومال « التى ذكرناها سابقا »، عند نهاية القرن التاسع عشر.

أصدر ملك الحبشة أوامره التى نُفِّذت على الفور، فأُغْلِقَت المدارس، ومراكز العلم، وهُدمت المساجد، وأُحْرِقت المصاحف، ومُنع المسلمونَ من إقامة شعائرهم الدينية، كما أُلقيِ القبض على أكثر العلماء، فاعتُقِل بعضهم، وقُتل أكثرهم بالطرق الخبيثة.

وكذلك فقد فُتِح الباب على مصراعيه لهجرة المبشرين المسيحيين الوافدين، وأعطاهم الملك الأموال والأراضى التى انتزعها من أيدى المسلمين، وقدم لهم كافة أشكال الدعم المعنوى، والمساعدات المالية الكافية، وعهد إليهم بتكفير الشعب المسلم فى كل المناطق التى دخلتها قواته، وبخاصة الفّلاحين.

وحينما قاوم الفلاحون بالاحتجاجات والدعاوى كانت تقدم إليهم الإجابة على الفور بواحدة من الطرق الثلاث الآتية :

- الضرب الفورى بالرصاص .
- الإيداع فى السجون ومقابلة المجهول .
- الحكم بالإعدام طبقا للقوانين العسكرية المعمول بها آنذاك .

هذا وقد أُرغم الكثيرون على بيع أراضيهم.

وقام المبشرون أعضاء جمعيات التبشير والتنصير إمّا بخطف الأطفال الأيتام، وإما بقتل رب العائلة أمام ذويه، وتَسليم الأطفال إلى جمعيات التنصير، وكان الصليبيون من الفرنسيين يشجعون على هذه المعاملة الوحشية، ويعاونون على الظلم والإعتداء، ولكن كل ذلك لم يحقق أى نجاح ولم يأت بنتيجة تذكر فى تكفير المسلمين(١) .

ولا تزال إلى الآن المناطق التى يسكنها مسلمون، والخَاضعة تحت حكم الأحباش موضع صراع مرير بين الصومال والحبشة.

وقد ذكرنا سابقا أن الأوروبيين قد هيأوا للأحباش دخول تلك المناطق خاصة بعض نفى الخديوى إسماعيل، وتقسيم مناطق النفوذ المصرى فى إفريقيا.

وبهذا وضعت منطقة القرن الإفريقى الحيوية تحت الإستعمار الأجنبى، تعاونه الحبشة المسيحية فى القضاء على الوجود المصرى مبكراً فى تلك المنطقة، أما حديثا فإن الولايات المتحدة الأمريكية وهى (النموذج الإستعمارى المنفرد والخاص) أصبح لها الآن وجودا فعليا كذلك فى الجهة المواجهة على الجانب الآخر حيث تعيش اليمن تحت مظلة الصواريخ الأمريكية، بل وهناك ما يطلق عليهم «الخُبَراء» فى مجال

---

(١) تاريخ الصومال ص٢٠٠ جامع عمر .

ما يسمى مكافحة الإرهاب، موجودن بالفعل على أرض اليمن، وما ذلك إلا بقصد حرمان مصر من قواعدها الأمنية الخلفية عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وهو (البحيرة العربية الخالصة) وقد تحول الآن إلى ممر دولي تتسيدهُ سيدة العالم الأولى (أمريكا) ببوارجها وغواصاتها وعابرات القارات ومطاراتها العائمة بحيث يفقد العرب سيادتهم على أراضيهم، وعلى مياههم الإقليمية، وكذلك لضمان أمن إسرائيل، وحمايتها، وضمان تفوقها ولدرء أى خَطر يهددها.

ونؤكد ههنا على أن القوى الأوروبية هى التى هيأت فيما بعد سنة ١٩٥٠م الإستيلاء على منطقة إسلامية خطيرة هى (إريتريا) تحت دعوى تكوين اتحاد فيدرالى بينها وبين الحبشة، لتزداد قوة الأحباش، وبالتالى يزداد النفع الأوروبى منها خاصة أن الحبشة دولة حبيسة لا ترتبط بحريا بالعالم الخارجى إلا عن طريق الموانئ الإريترية المحتلة وقد خلق هذا الوضع بؤرة جديدة للصراع والتوتر فى منطقة القرن الإفريقى ومازال حتى الآن رغم اعتراف الأمم المتحدة باستقلال إريتريا كونها دولة مستقلة ذات سيادة .

وقد استغلت أوروبا آنذاك الظروف السياسية المضطربة فى منطقة القرن الإفريقى خاصة بعد أن سمحت الأمم المتحدة الإيطالية بالوصاية على هذه المنطقة بينما رفضت مَسألة تأسيس الدولة الصومالية فى ذات العام بدعوى التأجيل.

ومازال الصراع الإريترى الصومال الحبشى (الأثيوبى) متاججًا إلى الآن ولازالت الدبابات تتحاور فى إدارة ذلك الصراع بضراوة وبشدة.

* * *

(ب) زنجبار فى ذمة نيريرى

مملكة زنجبار الإسلامية :

زنجبار معناها : « ساحل الزنج » أو « مملكة الزنج »، ونَسَبُها لزنوج إفريقيا. تاريخها طويل حافل بصور النجاح والفشل وخاتمته مريرة وحزينة، وفد إليها الفرس والعرب، وذابوا جميعا فى المجموع الإسلامى، وقد امتد تاريخها عبر قرون طويلة، واتسعت رُقعتها وكَثُر عدد سكانها، واحتلت مكانا استراتيجيا فى المنطقة والعالم، إلا أن الإستعمار قضى عليها تمامًا ومزقها إلى أشلاء، ووزع هذه الأشلاء على ممالك يتسم الحكم فيها بالمسيحية المتعصبة.

والمسيحية كما يقرر الواقع ويشهد التاريخ وتؤكد الشواهد متعصبة دائمًا إذا ما كانت هى غالبية السكان أو ما إذا صارت لهم الغلبة بفضل ظروف سياسية معينة.

وبعد أن تسلمت الممالك المسيحية أشلاء زنجبار الإسلامية، صَبَّتْ على هذه الأقليات الممزَّقة جام غضبها، وأذاقتها ألوان العذاب حتى ردُّوهم إلى المسيحية قهراً، وقتلوا الكثيرين قهراً، بينما تظاهر آخرون باعتناق المسيحية بعد أن أُكرهوا على ذلك، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان.

وواصل هؤلاء الحكام المهمة التي بدأها الإستعمار ضدّ مواطنى زنجبار، حتى اختفت هذه المملكة من الوجود.

وكانت زنجبار تتبع عُمَان فى عصر الأئمة، ثم أصبحت تابعة لحكم البوسعيديّن سلاطين (الدولة الآسيوية الإفريقية) التى بلغت ذروة مجدها إبان حكم السلطان سعيد بن سلطان الذى خلف والده سنة ١٨٠٦م، وقد دام حكم الدولة الآسيوية الإفريقية حتى عام ١٨٥٦م.

وقد نقل السلطان سعيد العاصمة من مسقط إلى زنجبار سنة ١٨٣٢م، بغرض تقوية نفوذه على الساحل، واستطاع أن يضم إلى سلطته جميع الموانئ الهامة، والجزر الساحلية، وامتد نفوذه من جنوب «مقدشو» شمالا إلى «سفالة، وتونجى» جنوبا، ووصل إلى داخل إفريقيا حتى حدود الكونغو وأوغندة ورروديسيا، وانتشرت فى هذه الأجزاء كلها شبكة من خطوط القوافل، تربط بين الساحل، وشواطئ فيكتوريا وتنجانيقا (تنزانيا الآن)، ونَيَاسَا، وتابع السلطانُ توغُله فى الأجزاء الشرقية من الكونغو، وعلا صيتُه حول البحيرات العظمى حتى كان يقال «إن الناس على شواطئ البحيرات العظمى يرقصون على أنغام زنجبار»[١].

وقد صادف السلطان سعيد نجاحًا كبيرًا على الرغم من أن عصر الإستعمار الأوروبى كان قد بدأ، واتجهت القُوى الأوروبية لمصارعة السلطان المسلم فى مناطق نفوذه[٢] وعقب وفاة السلطان سعيد انقسمت دولته إلى سلطنتين:

الأولى: آسيوية فى عُمان.

الثانية: إفريقية تشمل الساحل الإفريقى، والجزر المواجهة له، وكان يحكمها أبناء السلطان سعيد الذين استمروا فى الحكم حتى مطلع عام ١٩٦٤م.

وبوقوع الهجمة الإستعمارية الأوروبية على إفريقيا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، اتجهت قوى الإستعمار نحو ساحل زنجبار، فظفرت بريطانيا بنصيب الأسد، وتقلصت زنجبار حتى فُرِضَتَ عليها الحماية البريطانية سنة ١٨٩٠م،

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤٠٩.

(٢) قضية كينيا ص٢٢ د.عبدالعزيز كامل.

واستمرت كذلك حتى أعلنت زنجبار انفصالها عن التبعية البريطانية، واستقلالها التام فى ٩/١٢/١٩٦٣م، ثم قُبلت عضواً فى هيئة الأمم المتحدة ١٦/١٢/١٩٦٣م، إلا أن زنجبار أُغتيِلَت فى صِباها، فلم يُقدّر لها أن تهنأ باستقلالها غير ٣٢ يوما فقط هم عمر عرسها.

وكما أوعزت بريطانيا إلى الحبشة بالزحف على هرر الإسلامية فَوْر خروج الجيش المصرى منها وضمها إليها، كذلك أوعزت إلى تنجانيقا (تنزانيا) بالزحف على زنجبار والتهامها.

ففى الثانى عشر من يناير عام ١٩٦٤م أعلن الحزب الإفريقى الشيرازى الثورةَ وعزل آخر السلاطين البوسعيديين (خَليفة بن خرُّوب) وأعلن زنجار جمهورية شعبية، وعَيِّن الشيخ « عبيد كرومى » رئيس مجلس الثورة رئيسا للجمهورية.

وفى اليوم ذاته فوجئ المسلمون بهجوم وحشى سافر على كل عربى ومسلم لا فرق بين صغير وكبير، رجل كان أو امرأة، وسقطت عشرون ألف ضحية خلال ساعات معدودة.

وضُمّت زنجبار بالقوة باتحاد مع تنجانيقا بعد أن نجح ما يسمى بالحزب الإفريقى الشيرازى فى الإطاحة بآخر السلاطين البوسعيديين، وهذا الحزب يتكون من مجموعة من الضباط اليهود والخونة من عملاء الإستعمار والصهيونية العالمية.

وأصبحت تنزانيا تحت حكم نيريرى حقبة من الزمان وبقى الخائن (كرومى) على إذلال ما بقى من المسلمين فى زنجبار حتى السابع من إبريل عام ١٩٧٢م حيث قتله شقيق زوجته الضابط محمد على سيف (من أصل عربى) بينما كان كرومى يجلس فى مقر الحزب الأفروشيرازى، وقد استطاع المهاجمون أن يصيبوا بعض الحاضرين بإصابات مختلفة بعضها خطير[١].

أما سلطان زنجبار فقد هرب بنفسه واستغل سفينة بريطانية كانت بانتظاره لتنقله إلى لندن (مكافأة له على ما فعل ضد المسلمين). وذُكر أن هذا السلطان كان قد فتح الباب على مصراعيه لأعداء الله لبث سمومهم، وجَعَلَ من نفسه لعبة فى يد الإنجليز، دون أن يوثق صلاته بالعالم الإسلامى، ظنا منه أن الإنجليز سيضمنون له بقاء سلطانه[٢].

ومن لا علاقة له بربه فلينتظر ساعة كربه.

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص٤١٣ .

(٢) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص ١٤ ، ١٥ .

زنجبار تلك هى إذًا التى كانت يوما من الأيام تلبس أبهى الحلل، ويرقص الناس عند البحيرات العظمى على مزاميرها بما حباها الله من الغنى والجمال والأمن أصبحت بعد تَعيش فى بؤس وشقاء من شدة الفقر والجهل والمرض بعد أن كانت دولة ذات جاه وصَوْلة، وكان من الممكن أن ينزل بها ما نزل بالدول الإسلامية ثم تفيقُ من كَبْوَتها كما هو الحال فى معظم الدول الإسلامية، ولكن نصيب زنجبار كان قاسيا فقد أناخ الإستعمار عليها بكلكله، ولم يدعها تصحو من جديد، بل مزقها إلى أشلاء، وحوّل أشلائها إلى فتات، ووزع الفتات كما ذكرنا على ممالك يتسم الحكم فيها بالمسيحية المتعصبة .

وحاول الحكام الجدد أن يقضوا على الإسلام، فأصبح المسلم يوارى إسلامه ويتظاهر بتغيير اسمه، وبخاصة فى تنزانيا، وفَقَدَ العالم الإسلامى بذلك قطرا إسلاميا له فى التاريخ مكانا وسلطانا .

* * *

(جـ) المسلمون فى العيون

تنتشر فى القارة السمراء عموما عمليات اضطهاد، وتشريد، وقتل وتخريب، لا يعلمها ولا يعلم مداها إلا الله وحده.

ففى إريتريا التى استولت عليها الحبشة عام ١٩٦٢م حروبٌ متتالية ضد التوجه الإسلامى، ومحن متعاقبة بعد اغتيالها على يد الطاغية هيلاسلاسى، والملقب بسبط يهوذا، وهو اللقب الذى يفتخر به، وعلى الرغم من إستقلال إريتريا عن أثيوبيا واعتراف الأمم المتحدة بها كدولة مستقلة ذات سيادة إلا أن حروبا مدمرة وطاحنة تدور بين الحين والحين بين الدولتين وقد انتهت آخرها منذ قرابة العامين عند (٢٠٠١م) تقريبًا وقد إدعى كل طرف تحقيق نَصْر على الآخر - إلا أنَّهَا كُلها دعاية إعلامية لا تمت للحقيقة بصلة، حيث الطرفان خاسران من كل الجوانب.

ومن العجيب أن يتحول نظام الحكم فى إريتريا إلى النظام العلمانى فى غضون سنوات قليلة، إلاَّ أن الأشد عجبا أن يبادر النظام الإريترى بدعم حركة التمرد فى الجنوب السودانى المطالب بانفصاله عن السودان وإقامة دولة مسيحية فى المناطق الجنوبية بل وتدخلت القوات الإريترية لإثارة القلاقل فى شرق السودان وجنوبيه ضد حكومة السودان الشرعية[١] وتساوت بذلك إريتريا وإسرائيل والفاتيكان وبريطانيا وأمريكا حيث يجاهد الجميع من أجل إخراج دولة مسيحية على أرض الجنوب السودانى (سيرد فى هذا كلام آخر قادما).

---

(١) وكالات الأنباء العالمية - نقلا عن مصادر سودانية رسمية .

وفى رواند : يعلم الله حال رواندا حيث مئات الآلاف من القتلى والجرحى، والمشردين، ولا تزال حروب إبادة المسلمين هناك حتى كتابة هذه السطور، تحت ستار سياسى دولى واجتماع داخلى يروجون بهما هذه الإبادة باسم (الحرب العرقية) وفى أوغندة: التى كانت تتبع السيادة المصرية ذات يوم. وفيها أُسقط عيدى أمين رئيسها الشرعى لأنه اعتنق الإسلام، ثم جئ بحاكم مسلم لذر الرماد فى العيون، ولا عيون ترقب ما يفعله الأعداء، وسرعان ما أدخل السجن بعد إبعاده، وتولى مكانه حاكم نصرانى ليعود الإضطهاد ضد الإسلام والمسلمين، وهذه التغيرات لم تتم فى هدوء، بل انتهزها المتآمرون فرصة لتقتيل المسلمين وتشريدهم حتى اليوم.

وقد أرسل « جوليوس نيريرى » أعْتَى قُواته لإبادة المسلمين المؤيدين لعيدى أمين، ولم تنته محنة أوغندة ولن تنتهى طالما يوجد بها مسلمون كما هو كائن فى كل مكان وفى كينيا: اضطهاد للمسلمين، ونشر للمراكز التبشيرية لإيقاف المد الإسلامى.

إنها كذلك فى جملتها وعلى إطلاقها فتَن وحروب ودسائس وتسلط على الشعب المسلم فى أوطانه، والجمعيات التنصيرية تبارك هذه الفتن وتتلقف ضحاياها والمشردين منهم لتنصيرهم.

وفى الحبشة (أثيوبيا) وبعد تقسيم الصومال تعاقب عليها « منليك الحبشى »، و« هيلاسلاسى »، و« مانجستو ماريام » والخلف أسوأ من السلف، فالكل يعمل على قهر الشعب وسلخه من هويته الإسلامية بتعطيل القرآن الكريم ولغته العربية، وقد تم إلغاء المحاكم الشرعية وهُدِّمت المساجد، وقُتل المسلمون بالجملة وقد توارسُو حقْداً مريراً ضد الإسلام وأتباعه وورثوا كذلك عهوداً تَقْضى بإبادة المسلمين. وقد نفذوها جميعا، واستَمَر الأخير (ماريام) على ذلك إلى أن هرب حيث هلك عند أسياده الحُمْر أو (الحُمُر) إن جَازَ هذا، وتمزق كيانه بفضل الله تعالى.

وانظر إلى ما ارتكبته فرنسا من فظائع وما اقترفته من آثام فى حق الشعب الجزائرى المسلم وقد قُتل منه مليون شهيد أثناء كفاحه المشرّف من أجل الاستقلال والحرية، ولا زالت فرنسا تتعاون تعاونا مفضوحاً مع بعثات التبشير العاملة فى الجزائر حتى الآن، تلك الجماعات هى الفاعل الأصلى والمنظم الفعلى لهجرات الجزائريين والتونسيين فى هجرات غير شرعية إلى أوروبا مستخدمين القوارب المطاطية والشراعية التى تعرضهم جميعاً للهلاك المحقق وتقدمهم طعاما لأسماك البحر (سوف يرد الكلام فى هذا الموضوع) وفى الصومال: تحدٍّ سافر لمشاعر المسلمين، وهدم لمساجدهم، وإحراق علمائهم بالنار، والصوماليون يحصدون الآن ما زرعه (زياد برى) من الفتن

والنزاعات بين القبائل فيعيشون حربا هوجاء لا يَعرف فيَها القاتل لم قَتَل، ولا المقتول فيم قُتِل، واصبحت بلاد بلا حكومة تَعيش حربا لاَ يعلم مداها إلا الله، وعند اى مدى ستنتهى.

وما اظن ذلك إلا حلقة من الحلقات المتّصلة من سلسلة مؤامرات اعداء الله منذ فجر التاريخ ولا يزالون.

* * *

(د) تفتيت إفريقيا

يبدو أن خبراء الإستعمار وأعوانهم بذلوا قُصارى جهدهم بقصد تحقيق أهدافهم المرحلية، والمستقبلية على السواء، فى مقدمة تلك الأهداف إضعاف القارة وتفتيتها.

واتخذوا وسائل عدة واتبعوا سُبلاً متعرجة لافتعال الأزمات، وخلق المشكلات فى عموم إفريقيا حتى بعد خروجهم منها، وقد نتج عن هذا المخطط الكبير أن قُسِّمت القارة إلى نحو (٥٠) خمسين دولة غير الجيوب الإستعمارية، ومن ثم أصبحت إفريقيا أكثر قارات العالم تعددية سياسية، وتقسيمات حدودية، وهى بهذا تمثل النقيض للقارة الدولة « الولايات المتحدة الامريكية ».

وقد خلق الإستعمار العديد من التقسيمات بين الجنس الواحد، وبين المتكلمين بلغة واحدة، والمعتنقين لدين واحد.

وقد أسفرت هذه التقسيمات عن وجود عدد كبير من الدول الإفريقية بدون سواحل يزيد عن الدول التى لا سواحل لها فى العالم كله.

ومن هنا يمكن القول أن إفريقيا هى (قارة الدول الداخلية)، بينما وقعت ثلاث دول إسلامية تحت حصار شديد نتيجة تلك التقسيمات وهى: (تشاد، النيجر، ومالى) وقد أُجبرت هذه الدول على توقيع اتفاقيات اقتصادية لتصريف منتجاتها، وقد تطور هذا إلى نوع من التبعية[(١)]. وهو مقصد من مقاصد الإستعمار.

كذلك فمن المشكلات المُدمِّرة التى نتجت عن تفتيت القارة إلى دول كثيرة ذلك الذى يسمى (تعدد الجيران) حيث جيران – الكونغو – ٩ تسع دول، والسوادن ٨ ثمانى دول، وهى مشكلة تؤثر فى التماسك السياسى والوحدة الداخلية لأبناء الوطن الواحد. وهذا وحده كفيل بتأجيج الصراعات والنزاعات التى لا تخدم إلاَّ مُديرى الصراعات، وقائدى المجنزرات.

---

(١) إفريقيا الجديدة ص٧٦ د. جمال حمدان.

كما نتج عن تلك المشكلات عدم تناسق الحدود، حيث وُجدت دول إفريقية فقيرة، لم تقم لها قائمة حتى الآن، إلا من خلال اعتمادها على دولة أخرى، بما فى ذلك أثيوبيا التى جاهدت طويلا وعملت بجهد جبار لخدمة سادتها، فقد تخلوا عنها وجعلوها دولة حبيسة تبحث عن منفذ لها فلم تجد غير إريتريا - ووقعت حروب مريرة بين الدولتين - وما ذلك إلا بقصد توريط أثيوبيا فى حروب طويلة مع جارتها الشمالية إريتريا، وكذلك لخلق بؤرة ساخنة دائمة فى منطقة القرن الإفريقى عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، وحتى لا يُسمح للأفارقة بإقامة مسيحية إفريقية على النقيض من المسيحية الأوروبية، وكذلك خشية حدوث انطلاقة كبرى فى المنطقة في إطار منظمة الوحدة الإفريقية التى تتخذ من العاصمة الأثيوبية (أديس أبابا) - مقرا لها. خاصة وأن المنظمة هذه تضم فى عضويتها دولة عربية إسلامية قوية هى مصر - كانت تلك المنطقة تخضع لسيادتها حينا من الدهر.

وقد استغلت أوروبا جيدا ما نشأ من دول فقيرة لا تستطيع الاعتماد على نفسها فَخَرجت بفكر جديد يضمن تقديم مساعدات مادية واقتصادية لما يسمى (دول الجنوُب) أى (الفقر) وهذا هو منزلق النفوذ والتأثير والضغط الأوروبى لضمان الولاء والعمالة والتبعية من هذه الدول [الصومال - موريتانيا - ليبيا - (قبل اكتشاف البترول بها-) بتسوانا - روديسيا - زامبيا - أوغندة - أفريقيا الوسطى)[١] وأخريات.

كما جعل الإستعمار عواصم المدن فى الدول الساحلية على السواحل مباشرة ولم يسمح بإقامتها فى أواسط الدول لتظل هذه المدن تحت تهديده المباشر، ولإضعاف صلات العاصمة بأبناء الوطن فى المناطق النائية، فتتعذر الخدمات، وَتَنْدُر الإهتمامات، فيخرج المواطنون على الطاعة، وينعدم الولاء، وتبدأ الإضطرابات، ثم ينادى البعض بالإنقسامات، وتبدأ دعاوى التحللية والقُطرية وتسود الفوضى وتعم المصادمات. فتنطلق من جديد دعاوى العودة بحجة الحفاظ على الأمن والقضاء على الإضطرابات وعودة النظام كما هو كائن فى ساحل العاج وليبيريا وما حاولوا فى الصومال ونيجيريا والجزائر مؤخرا.

* * *

(هـ) البيان فى السودان

ولنا فى انفصال السودان درس مستفاد، حيث اتجهت بريطانيا بكل قوتها العسكرية وإمكانياتها الفكرية إلى تكريس عزل السودان والإتجاه به جهة الشرق بدلا

---

(١) انظر الأطلس العربى .

من الإتجاه الطبيعي نحو الشمال، والشاهد الأول على ذلك هو الخط الحديدى الذى أُنشئ بالسودان إبان حملة الفتح الإنجليزى المصرى للسودان، وكانت بدايتهُ من وادى حلفا بدلا من أن يبدأ من أسوان - من بداية المنطقة الحدودية السودانية مع مصر والمتوغلة قليلا فى أرض السودان، وقد تم تنفيذ هذا الخط الحديدى بحيث يكون عرضه - أى - المسافة بين القضيبين مختلف تماماً عن عرض خطوط السكك الحديدية فى مصر، حتى لا يتحقق يوماً الربط بين الخطوط الحديدية المصرية السودانية.

ثم اتجه هذا الخط إلى الشرق على البحر الأحمر حيث أقام الإنجليز ميناء (بورسودان) ليتجه السودان نحو البحر الأحمر ولا يتجه ثانية إلى الشمال أبداً.

وربطت بريطانيا بين الميناء ومراكز الإنتاج بالسودان ليتم تصريف المنتجات من خلاله، وليتم كذلك إدخال السلع المستوردة أيضا من خلاله من دون الإتصال بالشمال (مصر).

وما فعلت بريطانيا ذلك لنفع السودان وخيره، إنما كان هو أول أهداف الإستعمار لتحقيق مصالحه ونيل مآربه عَبْر آجال طويلة، كما عمل الإنجليز على فصْل أقاليم السودان خاصة الجنوب، واتّخذوا لذلك وسائل العزل الدينى واللغوى، وأشاعوا بين الجنوبيين أنهم زنوج يختلفون عن الشماليين المنحدرين من الجنس السامى، كما قطعت بريطانيا كل أشكال الإتصال وأوقفت كل صنوف التعاون بين الشمال والجنوب، كما أنها لم تربطهما بالسكك الحديدية، ولم تمهد الطرق، ولم تشجع على الملاحة، ومازال السودان يُعانى من مشكلة الجنوب، ولازال الجنوب يلقى الدعم الأجنبى لتمكينه من الإنفصال، وتتبنى الولايات المتحدة الأمريكية حاليًا فكرة قيام هذه الدولة المسيحية الجنوبية تحت غطاء دبلوماسي يُحاط بَهالة إعلامية ضخمة لِمَا تُسميه ومعها بريطانيا وفرنسا والفاتيكان « حق تقرير المصير ».

وتجدر الإشارة إلى أن الإستعمار قد وَضَعَ أمور الدول التى رحل عنها فى أيادى أناس مرتبطين به خاصة أنه هيأ لهم سبل السلطة والنفوذ قبل رحيله. ففى كثير من الدول سواء فى إفريقيا أو فى آسيا حيث توجد أغلبية مسلمة ساحقة تَرَكَ الإسْتعمار زمام الأمور فى أياد غير إسلامية وقد أشاع هذا المسلك القلق والتوتر والإضطرابات وفتح أبواب الصراعات على مصراعيها فى كثير من الدول الإسلامية وفيما بين هذه الدول وغيرها من الدول غير الإسلامية.

وبهذا يمكن القول أن إفريقيا تحملت خسارة كبيرة، ودفعت ثمنا باهظا من وحدتها وسيادتها وثرواتها وأبنائها، ولم تنتفع بمزية واحدة من هذا الاستعمار البغيض على الإطلاق.

غير أنها تضررت كثيراً من الإستعمار الأوروبى الذى أنهكها ونهبها وقتل أبناءها ومن أهم مظاهر تلك المضار، أن اقتصر الإنتاج الإفريقى على الإنتاج الزراعى دون الصناعى، وتصدير الخامات المعدنية (الخام) لتصنيعها فى أوروبا، كما استشرى الفساد السياسى والاجتماعى بإثارة الفتن والقلاقل بين القبائل، وبين الدول المتجاورة تحقيقا لمبدأ (فرق تسُد) ، تشهد على هذا الحروب الطاحنة الدائرة الآن ومنذ فترة وإلى حين قادم فى (وسط وغرب إفريقيا وشرق إفريقيا) فى رواند وبوروندى وأوغندا والسنغال وليبيريا ونيجيريا وساحل العاج (كوت ديفوار) وإريتريا، وفى جنوب السودان، وغربه فى « دارافور » ، بالإضافة إلى مظاهر التوترات ونزيف الدم المستمر فى الجزائر منذ وقت طويل مضى، وبذور الإرهاب التى تم زراعتها فى كل من تونس والرباط والسعودية .

ومن آثاره كذلك إضعاف صحة الأفارقة بإهمال العلاج من جانب، وإدخال الخمور والمخدرات من جانب آخر.

زد على ذلك مجهودات الإستعمار فى نشر الأمراض بين المواطنين لإذلالهم وإضعافهم لتسهيل إبادتهم. بقصد إخضاع الأفارقة وارتباطهم بأوروبا إلى الأبد خاصة بعد أن حاربت أوروبا اللغات الأصلية، وقضت عليها تماماً، وحلت محلها اللغات الأوروبية خاصة الفرنسية والإنجليزية.

وما زالت إفريقيا تصارع وبشدة الإستعمار الأوروبى الحديث - النموذجى - المتطور الذى يحاول العودة إليها تحت شعار (حوار الحضارات) أو كما يُقال أحيانا (حوار الأديان) - وكلها شعارات زائفة لا تتعدى كونها طُعْما يبتلعه المغفّلون وهم كثرٌ فى هذا الزمان - وخير دليل على ذلك ما كان من حوار الأديان المزعوم فى فلسطين والعراق وتركيا وتونس والجزائر وباكستان الشرقية والغربية - واندونيسيا، وفى الهند، وفى استراليا - والفلبين وتايلاند وروسيا، والشيشان، والبوسنة والهرسك .. إلخ.

إنه بحق هو الصراع المحتدم بين الحضارات الذى يجيد الجميع فيه استخدام لغة واحدة هى لغة الدبابات.

* * *

ثالثًا : الأسلاب الإفريقية فى العصر الأسود

كانت بإفريقيا ثروة ضخمة من المواد الخام غير المستغلة، نظراً لإنعدام الخبرات والإمكانيات، والأيدى العاملة المدربة، كما كانت هناك مساحات زراعية واسعة أو تصلح للزراعة، ولم يستثمرها أصحاب الأرض الأصليين.

وعندما جاء الإستعمار الأوروبى إلى إفريقيا كان فى مسيس الحاجة للعنصرين معًا (المواد الخام - الأرض الزراعية) حتى يتمكن من تلبية احتياجات ثورته الصناعية فى عصر النهضة الأوروبية، وكذلك لتتمكن من توفير المواد الغذائية التى تمد بها المستهلك الأوروبى بعد أن هجرت الأيدى العاملة المزارع الأوروبية سعيا وراء بريق الثورة الصناعية التى جذبت إليها أكثر الأيادى العاملة فى المجال الزراعى.

وقد آلت أكثر الأراضى الزراعية، ومناطق الثروات المعدنية التى اكتُشفت فيما بعد إلى ملكية خالصة للإستعمار بعد صدور تشريعات سَنَّها الاستعمار لخدمة أغراضه. حيث قضت هذه القوانين بأن الاعتراف بملكية الأفراد السابقة على الإحتلال يستلزم وجود مستندات ثابتة تؤكد على حق الملكية، ومن الطبيعى عدم وجود مستندات للملكية فى تلك الأوقات، وبذلك سيطر الإستعمار على أكثر أراضى الأفارقة، هذا بخلاف أراضى السلاطين الذين قاوموا الغزو الإستعمارى، وأراضى أُسرهم، وكذلك أراضى الذين فروا أمام القوات الأجنبية، أو هؤلاء الذين ماتوا أثناء عمليات الزحف، وأراضى الغابات والجبال، خاصة أنه قد صَدَرت بشأن هذه الأراضى قوانين مصادرة مباشرة، وقد تمكن المستعمرون بفضلها من السيطرة على أكثر الأراضى.

وقد جعلت فرنسا فى مستعمراتها عمليات التعدين وقفا على بعض الشركات الفرنسية الأخرى، وقد بلغ ما استخرج من الذهب فى إفريقيا الغربية فقط على سبيل المثال سنة ١٩٢٩ (ستون ٦٠ كيلو جراما ثم ارتفع إلى ٢٠٣٩ كيلو فى ١٩٣٤م)[١].

وفى شرق إفريقيا: أباحت قوانين الإستعمار سهولة إستيلاء المواطنين الإنجليز على كل ما أمكنهم الإستيلاء عليه، خاصة أنها ضمنت الإستيلاء على كل الأراضى الخالية أو التى ليس لها ملاك، أو على أى أرض شاءت لأى غرض شاءت، دون أى تعويض يذكر للملاك الأصليين، وتنفيذا لذلك، فقد طُردت قبائل إفريقية بأكملها من أراضيها، واستولت عليها حكومة الإنجليز، وأعطتها للمستغلين البيض، كما قررت التشريعات المذكورة جعل متوسط الأرض التى يملكها الرجل الأبيض عشرة آلاف فدان.

كما تشير الشواهد وتؤكد الإحصائيات على بشاعة الشره الأوروبى فى إفريقيا من ذلك أن الشركات الفرنسية أصبحت تمتلك فى إفريقيا الإستوائية ما يقرب من

---

(١) استعمار إفريقيا ص٢٥٢ د. زاهر رياض.

مليونى هيكتار، أما فى السنغال فلم يكن ما تملكه الشركات الفرنسية أقل من ٩٠,٠٠٠ هيكتار من أجود الأراضى الزراعية[١].

وقد حققت شركة إفريقيا البريطانية ربحًا قدره (٢٩) مليون جنيه عام ١٩٥٠م، وحققت الاحتكارات البريطانية فى غربى إفريقيا وأوغنده ربحا صافيا قدرة ١٣٣ مليون دولار من الكاكاو، وزيت النخيل فقط، فى الفترة ما بين ١٩٤٥ : ١٩٥٢م ، واستخرجت الشركات البريطانية فى السنغال قرابة ٣,٧٦٠,٠٠٠ (ثلاثة ملايين وسبعمائة وستين ألف) أوقية من الذهب[٢].

وعلى هذا فقد استغل الإستعمار الأوروبى اقتصاد المناطق الإسلامية على وجه الخصوص، ووظّفها لصالحه من ناحية السيطرة على الإنتاج ووسائله، واحتكاره كما كان موفقا كذلك فى خلق أسواق استهلاكية لتصريف منتجاته الصناعية.

ومن هنا فإن تَطوراً طرأ على المستعمرات مَرَدُّهُ فى المقام الأول لصالح الإستعمار.

أما الإستعمار الإيطالى، والألمانى فقد دمرا تمامًا وسائل الإنتاج، وقَضَيَا على مقومات الاقتصاد، وخرّبا كل شىء وأفسداه حتى الأراضى الزراعية، بحيث لا تستفيد بريطانيا من المناطق التى كانت تحتلها الدولتان، خاصة بعد هزيمة الدولتين فى الحرب، فلم يستفد منها المستعمر، ولم ينتفع بها صاحبها الأصلى (المواطن الإفريقى).

عمومًا فإن إفريقيا الثرية بمصادرها الطبيعية المتعددة آل بها حالها إلى أن تصبح قارة يقتصر إنتاجها على المواد الخام الأولية فقط، والتى يحدد الإستعمار أثمانها – وهى فى كل الأحوال لا تساوى قيمتها الحقيقية – بينما يبيعها الأفارقة بهذه الأسعار الزهيدة نظرًا لندرة الأيدى العاملة المدربة، والسطو على حقوق ما أتيح منهم. ثم تنقل الدول الإستعمارية تلك المواد الخام إلى أوروبا بواسطة البحر حيث يتم تصنيعها هناك ثم يُعاد تصديرها إلى إفريقيا لبيعها بأسعار مرتفعة حتى تمتص أوروبا القليل من المال الذى دفعته أجورًا للعمال، أو قدمته على شكل عطايا وهدايا للزعماء الأفارقة المتعاونين معهم.

وانظر معى وتعجب من إفريقيا الواسعة ذات الأنهار الجارية، وذات الأرض الخصبة، وهى التى يَتَنوع فيها المناخ ويختلف ويتباين، بحيث يمكن القول بأنها القارة الرائدة فى مجال إنتاج كافة المحاصيل الزراعية خاصة الاستراتيجية منها، فضلا عن

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص ٤٣١ .

(٢) ثورة إفريقيا ص ٦٢ صبرى أبوالمجد .

كونها تمثل أكبر وأغنى حديقة حيوان طبيعية فى العالم إلى جانب مساحتها مترامية الأطراف، التى تشرف على أكبر محيطات العالم وبحاره كما أن بها أطول أنهار العالم بما يؤهلها لإنتاج الأسماك بوفرة مع إمكانية تصنيعه، وقد أصبحت فى ظل الإستعمار فى مسيس الحاجة إلى رغيف الخبز الذى تستورد له الدقيق الجاهز، والقمح من الخارج ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كما حُرِمت إفريقيا من صيد البحر رغم طول سواحلها وتعدد بحارها ومحيطاتها وقد استأثرت به أساطيل الصيد اليابانية، والأوروبية، وحُرمت كذلك من صيد البرِّ الذى استأثر به الأوروبيون فقط.

وهكذا فقد تم تجويع إفريقيا بعد تمزيقها، وإبادة أبنائها، وبيعهم فى سوق الرقيق، وتسخير ما تبقى منهم فى أوطانهم، كما سُلِبَتْ ثرواتها ونُهبت مواردها الخام.

ومن العجيب كذلك أن هذا الإفريقى الجائع فَرَضَت عليه الدول الإستعمارية ألوانا من الضرائب الباهظة، واستُعمل فى جبايتها أساليب قاسية ووحشية.

مثال ذلك: ما كان يحدث عندما تفشل بعض القرى فى تقديم المقدار الكبير من المطاط المستخرج من الغابات فى الموعد المحدد. حيث يتعرض أهلها لأعمال القسوة التى لا يمكن وصفها، حيث جرت عادة البلچيك فى مثل هذه الحالة أن يقتلوا الرجال والأطفال ثم يقطعوا أيديهم لإرسالها إلى المعتمد البلچيكى دليلا على نجاح بعثة العقاب[1].

* * *

رابعًا : القوى الثورية والخدعة الأمريكية

من الواجب الذكر أن إفريقيا قاومت الإستعمار وصارعته مبكرًا صراعا لا يمكن إغفاله، وناهضت الإستعمار الأوروبى منذ مطلعه حتى كبدته قتلى بالآلاف فى منطقة الشرق الإفريقى.

كما يمكن القول أن حركات المقاومة والصراع لم تهدأ يوما من الأيام حتى نهاية القرن الماضى حيث قبيل نهايته، تمكن الثوار فى جمهورية جنوب إفريقيا بقيادة المناضل الأسود (نيلسون مانديلا) من التخلص من نظام بريتوريا العنصرى بقيادة (فريدريك ديكليرك) الذى تسانده بريطانيا.

وإذا كانت إفريقيا قد استطاعت أن تتخلص تماما من السيطرة الإستعمارية الغربية ذات الطابع العسكرى السافر، وانسحبت منها جيوش الإستعمار، ومن ثم فقد

---

(١) التاريخ الإسلامى ص ٤٦٥ .

عادت الحقوق السلبية إلى أصحابها، غير أن الواقع العملى على الأرض يؤكد على أن بعض الدول الإستعمارية لم تقنع بما سرقته أو سلبته من إفريقيا، فراحت تؤسس برنامجا وتخطط له جيداً بقصد مشاغلة الأفارقة، وإفساد أنشطتهم، وتحويل اهتماماتهم عن قضايا التنمية، وإعادة البناء، وقد تمكنت من بناء جيش من المرتزقة البيض ينوب عنهم، ويحل محلهم فى دعم المتمردين، وإثارة القلاقل، والفتن، ومناهضة الوطنيين، ولا يزالون بداخل إفريقيا حتى الآن يتخذون من غينيا البرتغالية، وجنوب السودان، وشرق نيچيريا مراكز لهم حتى الآن.

ويذكر التاريخ على صفحاته أن الإسلام يعد العنصر الأقوى والسلاح الأمضى الذى ساعد على إذكاء حركات التحرر الوطنى مبكرا فى القارتين الآسيوية والإفريقية على السواء، فقد وجد المسلمون جماعات التنصير (إرساليات التبشير) وهى تحارب الإسلام لتقضى عليه قبل كل شىء، فتفجرت روح الإسلام الأبيَة عند أتباعه، فتجمعوا ضدّها، وتكتلوا عليها، فأزعجو المستعمرين وأرقوا مضاجعهم، وكبدوهم خسائر جمّة فى المناطق ذات الأغلبية المسلمة، التى لم يذُق فيها للإستقرار طعما ولم يعلم فيها للأمن سبيلا، وقد تعرضت قواتُه لأخطار جسام وقابلت صعابًا جمة .

هذا بالإضافة إلى الدول الإسلامية فى المحيط الدولى التى تبنَت حركات التحرر التى هبت ثائرة بين مسلمى إفريقيا، وهكذا اجتمع النضال الخارجى والداخلى والتقيا فى فترة هى الأحرج فى تاريخ القارة عبر تاريخها الطويل.

كما ساهم الصراع بين الدول الإستعمارية مساهمة فعالة ومباشرة فى تصاعد الحركات الثورية المطالبة بالاستقلال خاصة مع اتساع نطاق الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٤م لتشمل العالم كله. آنذاك حاول الرئيس الأمريكى (وودرو ويلسون) : (١٩١٣ : ١٩٢١) أن يضع حداً لهذا الصراع، فأعلن فى تصريح له عن مجموعة من المبادئ من أهمها (حق الدول فى تقرير مصيرها) .

وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى هبت الشعوب الواقعة تحت الإحتلال تطالب بالحرية والإستقلال، استناداً على الوعود التى حصلوا عليها من حلفائهم، وتأسيساً على المبدأ الذى أقره رئيس دولة الحريات وزعيمة العالم الحر (أمريكا) .

ولكن خاب سعيهم وتبخرت أحلامهم بعد أن تأكدوا أن تصريح ويلسون لا يتعدى كونه مجرد خدعة ومناورة لجذب المستعمرات، والحصول على تأييدها، وضمان دعمها إلى جانب الحلفاء وقت الحرب، فثار لأجل ذلك الزعماء، وعاقبتهم الدول الإستعمارية بالنفى خارج البلاد فكان ذلك إيذانا باشتعال النار .

واستمرت الأوضاع على حالها حتى وقعت الحرب العالمية الثانية، وادعا طرفا الحرب (الحلفاء، والمحور) أن انتصاره سيكون بمثابة الخلاص، والإنطلاق نحو الحرية، وقد قفزت بعض الدول الإستعمارية فوق الأحداث وأعطت مواثيق بذلك.

وقد كان نداء الرئيس الأمريكي « فرانكين ديلانوروزفلت / ١٩٣٣ : ١٩٤٥م» ذا أثر خطير على قبول هذه الدول إعطاء تلك المواثيق، كما كان له كذلك فعل السحر على الشعوب السمراء التى قاتلت جنبا إلى جنب مع المستعمرين بحيث يمكن القول أن مشاركة الأفارقة أسهمت إلى حد كبير فى انتصار الحلفاء على المحور، بعد أن تلقوا بصدورهم سهام الموت فى حرب لا طائل لهم منها إلا الأمل فى وفاء الدول المتحاربة فيما وعدت به.

وقد اختلف رد الفعل الإفريقى عقب هذه الحرب عن سابقتها، حيث اتسم تصرفهم بالنضج والإرادة، فلم ينتظروا وفاء هؤلاء بمواثيقهم، وعهودهم كما كان عقب الحرب العالمية الأولى، فقد هبت دول القارة تعلن من جانب واحد استقلالها، دون الإنتظار لقرارات أجنبية فى هذا الشان.

وكان رد الفعل الأوروبى يهدف إلى إفساد هذا الإتجاه والقضاء عليه، غير أنها لم تتمكن من نيل مآربها، ولم تستطع التصدى أمام الإرادة الجبارة للثوار المنتفضين فى سبيل حرية بلادهم واستقلالها، فاعترفت مكرهة بالحقيقة الجديدة حتى لا تقع الدول الإستعمارية فى مثل الخطأ التاريخى الذى وقعت فيه هولندا عندما قاومت الحركة الثورية فى أندونيسيا، وحاولت قمع المواطنين ومصادرة تطلعاتهم، ووأد آمالهم، غير أن إرادة الشعب الإندونيسى المسلم دوخ الهولنديين، وأزلهم، وانتصرت أندونيسيا، وخسرت هولندا مستعمراتها (سيرد ذلك لاحقا) ولم يكتب لهولندا حتى الآن أن تكسب صداقة الشعب الإندونيسى الذى خضع لها عدة قرون.

فخضعت أوروبا، ونزلت على إرادة الشعوب الثائرة حتى لا تفقد صلاتها بتلك الدول، ولتضمن دورانها فى فلكها، والمحافظة على مصالحها، من ذلك مثلا ما يُعرف الآن بمنظمة الدول المتحدثة بالفرنسية (الفرانكفونية)، ومجموعة الكومنولث (الناطقة بالإنجليزية) حيث تأسس الكومنولث البريطانى بين بريطانيا ومستعمراتها السابقة عام ١٩٣١م ... وهكذا.

ولا يمكن إغفال الدور الهائل الذى اضطلع به التعليم فى إثراء الفكر الإفريقى، وإذكاء روح الحرية والسيادة، بعد أن اتجهت إفريقيا نحو التعليم مع مطلع القرن العشرين، على الرغم من أن بعضهم قد تربى فى المدارس التبشيرية، إلا أنهم لم

يسيروا فى المخطط الذى رسمه لهم المبشرون، أو المستعمرون، بل صار المتعلّمون الأفارقة يخططون لأنفسهم، ويعملون لصالح بلادهم.

وقد كانت البعثات التعليمية التى أوُفِدت من العديد من دول إفريقيا، خاصة من التحق منهم بالأزهر الشريف بمصر، وبعض الجامعات بالساحل الشمالى الإفريقى، فضلا عمن التحق بالجامعات الأمريكية والأوروبية، وقد كان لذلك كله عظيم الأثر بعد أن عاد هؤلاء الطلاب، وهم يجيدون اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، كما أن بعضهم أجاد اللغات الأجنبية، مما ساعدهم على شرح قضاياهم للرأى العام العالمى، وقد مكنهم من الدفاع عن حقوقهم بقُلوب متفتحة، وآفاق طموحة، وقد أعدوا عُدّتهم لرفع راية الحرية فوق أراضى بلادهم، حتى حققوا أو تحقق لهم نجاح قضايا بلادهم.

كما ساعد التعليم فى تحقيق نجاحات متنوعة على أيدى هذا الجمع المتعلم الذى تمكن من إزاحة القبلية عن طريق العمل العام، وثابروا واجتهدوا حتى قامت الدولة وانتعشت والتقت تحت راية واحدة، بعد أن كانت متناحرة أو متنافرة أو هى كثيراً متحاربة، وكانت هذه قوة زلزلت الأرض تحت أقدام الغزاة المستعمرين الوافدين من شمال المتوسط.

وقد تضافرت جهود الأفارقة وتعانقت طموحاتهم، وتوحدت صفوفهم كثيراً لرد هذا الإعتداء، فصارت للأفارقة مؤتمرات تعقد بصفة دورية أو استثنائية كلها كانت وليدة الأحداث التى استدعتها الحاجة حتى من قبل أن تنال العديد من دول القارة حريتها وتسترد سيادتها.

أفرزت الأحداث المتسارعة والمرتبطة بمثيلاتها فى العالم العربى مترامى الأطراف فى القارتين الإسلاميتين (آسيا، وإفريقيا) عن ميلاد أول نواة لوحدة عربية تجمع بين العرب وتوحد جهودهم وتحقق أهدافهم المشتركة، فخرجت إلى الحياة ما تسمى (جامعة الدول العربية) فى ٢٢ / ٣ / ١٩٤٥م. ثم اجتمعت إفريقيا فى إطار سياسى لأول مرة فى التاريخ فى مايو ١٩٦٣م حيث تأسست منظمة الوحدة الإفريقية خلال إجتماع القادة الأفارقة المنعقد فى العاصمة الأثيوبية (الحبشة).

ثم جاء مؤتمر الدول (الإفريقية – الآسيوية) معبرا عن آمال شعوب القَارَّتَيْنِ عندما انعقد مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥م، وفيه ناقش المجتمعون حقوق الإنسان الأساسية فى الاستقلال ومناهضة الاستعمار.

وفى ١٩٥٧م انعقد فى القاهرة مؤتمر الشعوب (الأفريقية ، الآسيوية) وفيه طالب المؤتمرون بإقرار حق الشعوب فى المستعمرات فى الإستقلال التام، كما أيد مطالب شعوب الكاميرون، وكينيا، وأوغندا، والجزائر، ومدغشقر، والمغرب، والصومال فى التمتع بالحريات، وفى ديسمبر من العام التالى كان مؤتمر (أكرا) العاصمة الغانية، وفيه طالب المجتمعون بعدم الإنضمام إلى كتلة من الكتل، وبضمان سيادة الدول الإفريقية، ومناهضة الإستعمار.

وقد لعبا (الاتحاد السوفييتى، والولايات المتحدة)، وهما القوتان الكبيرتان اللتان أفرزتهما الحرب العالمية الثانية دوراً كبيراً وساهما بعمل كبير فى نجاح الحركات الثورية فى القارتين وذلك عن قصد واضح لتحقيق أغراض استعمارية جديدة.

وذلك لأن القوتين الأعظم ليست لهما مستعمرات فى كل من آسيا وإفريقيا فسال لُعابهما، وتطلعا لمد نفوذهما فى هذه المناطق، سواء بالتواجد المباشر أو غير المباشر عن طريق عقد روابط صداقة أو تجارة أو معاهدات عسكرية.

وقد ناهضت الدول الإستعمارية رغبة الدولتين مناهضة جبارة للحيلولة دون تحقيقها، إلا أن الدب السوفيتى وقف وبقوة فى صف شعوب إفريقيا، وارتفع صوته فى الأمم المتحدة مناصراً ومؤيداً حق الشعوب فى الحرية، كما قدم العديد من أشكال الدعم وألوان العون للدول التى نالت استقلالها حتى لا تعود بسبب الفقر والحاجة إلا الإرتماء فى أحضان الإستعمار الاقتصادى (الجديد)، وخَطَى السوفييت خطوات قوية ومتحررة يدفعهم لذلك انعدام الصلات والمجاملات أو العلاقات المباشرة مع المستعمرين الأوروبيين التى إن وُجِدت فقد تجعله يغض الطرف عن تصرفات الإستعمار، أما أمريكا فقد فعلت غير ما فعل السوفييت لإرتباطها العسكرى والاقتصادى والاستعمارى والعقائدى مع أوروبا إلى الحد الذى جعل (روزفلت) يرسل قواته إلى أوروبا وشمال إفريقيا والمحيط الهادى فى ١٩٤٢م، لتقديم مختلف أُوجه المساعدات لأوروبا، وهو الموقف الذى تمخض عنه لاحقا إعلان تأسيس حلف شمال الأطلنطى (الناتو) فى ١٩٤٩ م – بزعامة أمريكا .

وبغض النظر عن الدوافع التى جعلت الاتحاد السوفييتى يسلك ذات المسلك فإنه يمكن القول بأن النتيجة كانت استقلال الشعوب الإفريقية .

إلا أنه استقلال منقوص، لم يحقق طموحات الأفارقة حتى الآن خاصة بعد أن تقَطّعت أوصال القارة، وأُعيد تشكيل حدودها السياسية بشكل جديد بين دولها، مما جعل صداما كبيرا، واختلافا فى الثقافات التى تباينت بعد فشل القبائل فى تغيير

نَسبها أو الإقتناع بالوضع الجديد وعجزهم عن التعايش السلمى فى المجتمعات الجديدة الغريبة (غير المنسجمة) فاستمرت بذلك الحروب الأهلية الحادة، الطاحنة التى راح ضحيتها مئات الآلاف منذ استقلال إفريقيا وحتى كتابة هذه السطور.

كذلك فقد تعمد الإستعمار تفتيت القارة إلى دول أو (دويلات) ، صغيرة هزيلة، متعددة، وضَعيفة لتظل تتطلع إليه، وتعتمد عليه، بما يؤكد أن عملية تفتيت القارة لم يكن برغبة السكان أو لصالحهم، إنما كانت مخططًا استعماريا يهدف إلى خدمة مصالحه العميقة وإلى أمد طويل.

* * *

خامسًا : الجغرافية الإسلامية فى إفريقيا

هناك ما يدانى الخمسين مليونا من المسلمين أو يزيدون قليلا، يعيشون متناثرين فوق أراضى القارة الإفريقية.

ومن المثير للدهشة أنهم يمثلون أغلبية السكان فى بعض دول القارة مثل: (أثيوبيا، وسيراليون، وداهومي والكاميرون، وساحل العاج، وتنزانيا وإفريقيا الوسطى)، إلا أنهم مغلوبون على أمرهم رغم كونهم أغلبية، والذى يُبطل العجب فى هذا أن الإستعمار الغربى لما أحسّ بنهايته ودُنُوّ أجل رَحيله استجابة للثورات، ومطالب الشعوب فى الحرية والإستقلال، أسلَمَ السلطةَ إلى من ينوبون عنه فى إدارة شئون البلاد ليضمن ولاءهم، وفى طليعتهم أعوانهم الصليبيين من الأفارقة الذين يُصبغون الدول بالصِّبغة الصليبية، ويعملون فى خدمة سادتهم الغربيين، ويتفانون فى القيام على مصالحهم على الوجه الأكمل.

يعود السبب فى ذلك إلى أن الدين الإسلامى دين حرية وكرامة وعزّة بطبعه، كما أنه من أهم أركانه الجهاد الذى يوجب القتال ضد أعداء الدين ويتخذ منه شريعة ومناهجا قولا وعَملا لقوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

من هنا كانت الثورة والجهاد فى كل البلاد التى فيها مسلمون، وتبعا لذلك لم يأمن الإستعمار جانب المسلمين، ولم يطمئن إليهم البتّة، ورأى أن التعاون البناء المثمر سيكون مع سواهم من أتباع الصليبية الذين صاروا تابعين لهُم فى الدين والسياسة.

ونسوق فى هذا السياق أرقاما تمثل تعداد المسلمين بالنسبة المئوية إلى مجموع السكان، وهم فى أوطانهم يمثلون أغلبية إلا أنهم يعيشون تحت حكم لا يحمل الطابع الإسلامى . وتوزيعهم على النحو التالى[1] :

---

(١) مواقع متعددة على شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) .

غينيا البرتغالية	٥٥٪
سيراليون	٦٥٪
ليبيريا	٣٠٪
ساحل العاج	٥٥٪
فولتا العليا	٥٥٪
غانا	٣٠٪
توجو	٥٥٪
داهومى	٦٠٪
الكاميرون	٥٥٪
الجابون	٤٠٪
الكونغو برازافيل	١٥٪
إفريقيا الوسطى	٦٠٪
إثيوبيا (الحبشة)	٦٠٪
أوغنده	٢٠٪
كينيا	١٩٪
تنزانيا (تنجانيقا)	٦١٪
موزمبيق	٢٥٪
ملاجاشى (ملجاش) (جزر القمر)	٢٠٪

ومن الجدير بالذكر أن هذه النسب المذكورة يرجع تاريخها لنحو عقد من الزمان، وعليه فإنه لا حرج إن جانبها الصواب فلم تُعبِّر تعبيراً دقيقًا لتعذر ذلك فى الوقت المعاصر بسبب الحروب الدائرة فى إفريقيا وآخرها ما كانت عند البحيرات العظمى بين الهوسا والتوتسى والتى راح فيها أكثر من مليون قتيل، وإذا افترضنا أن معدل الزيادة السكانية فى إفريقيا هو من ١ :٣٪ سنويا عند مجموع الأفارقة، لثبت بالتالى أن الأرقام سابقة الذكر أقرب إلى الحقيقة خاصة مع حروب الإبادة المنتشرة فى القارة الحزينة التى وقعت بين سندان الصراع ومطرقة الحوار .

وقد ذكرنا سابقا ما ارتكب جوليوس نيريرى ضد زنجبار أثناء صراعه لإبادة الوجود الإسلامى هناك ورأينا كيف أدار حواره ضد الحضارة العظيمة.

أما فى جمهورية إفريقيا الوسطى؛ فالموقف مختلف تماماً، حيث نجد الإمبراطور (جان بيدل بوكاسا) الذى تربى فى مدارس البعثة التنصيرية الكاثوليكية، والذى

تولى رئاسة بلاده عام ١٩٦٦م بعد أن قاد صراعا مريراً وطويلا ضد الإستعمار وضد المتعاونين معه.

وقد اعتنق «بوكاسا» الدين الإسلامى خلال فترة رئاسته للبلاد، ونظراً لأنه كان يؤمن بقيمة التعاون العربى - الإفريقى، وضرورة توظيفه لخدمة القضايا المشتركة خاصة فى مجال مناهضة الإستعمار، وقد برهن الرجل عمليا على مواقفه، وأعلن قطع علاقات بلاده الدبلوماسية مع إسرائيل فور اندلاع حرب التحرير الكبري التى خاضتها مصر وسوريا فى أكتوبر عام ١٩٧٣ م.

وكان لإشهار إسلام بوكاسا أثراً كبيراً فى انصراف حشد كبير من المواطنين عن المسيحية، ودافعا قويا لهم لدخولهم فى دين الله طواعية واختيارا.

لم يهنأ بوكاسا ولم تَطُل به فَترة حكمه، فتآمرت عليه الصليبية وأعوانها، ودبروا انقلابا عسكريا تمكن من الإطاحة به، واقتادهُ القادة الجدد إلى السجن واتَّهمُوه باتهامات خطيرة من بينها :

- انتشار الفساد والمحسوبية، واتهامه بالديكتاتورية .
- إطلاق أيدى غير الأمناء، وتسليطهم على أبناء الشعب.
- الإضرار المباشر بالمصالح العليا للبلاد.

وكانت أخطر تلك الإتهامات أن وجهت إليه تهمة أكل لحوم البشر، وقد تحدثت أنباء عن إسقاط التهم المنسوبة إليه عدا الأخيرة، التى حوكم بسببها، وقد صدر ضده حكم بإعدامه ونُفِّذ فيه بعد فترة.

ومن المثير للدهشة أن تروج المحافل الماسونية المنتشرة فى العالم العربى أكاذيب وأباطيل تتعلق بسيرة الرجل الإمبراطور الذى إعتنق الإسلام، حيث ترددت كثيرا عبر وسائل الإعلام المتعددة جُملة (الإمبراطور آكل لحوم البشر)، وما ذلك إلا تحويلا لإهتمامات المسلمين عن إعدام الإمبراطور الذى اعتنق الإسلام، وما رَميه بأبشع الإتهامات وأعظمها جُرْماً إلا سَكْباً للماء على النار التى تتوارى تحت الرماد. وقد أكلها المغفلون وشربوها.

* * *

ومن أوغندة مثال آخر

يتطابق مع مأساة المرحوم بوكاسا إنه الرئيس الأوغندى (عيدى أمين) الذى اعتنق الإسلام، فَتَمَّ إسقاطه على يد انقلاب عسكرى فى مؤامرة صهيونيَّة - صليبيَّة، علنيَّة ومفضوحة جزاءً له على دخوله الإسلام، وتقربه من العالم العربى خاصة

(مصر) . وكذلك لإعلانه قَطع علاقات بلاده الدبلوماسية مع إسرائيل، وطرد خبرائها وسفيرها، ورعاياها، وتطهير أراضى بلاده من دنس الإسرائيليين وقذارتهم[1] .

وتم تعيين حاكم مسلم لذر الرماد فى العيون، وسرعان ما أُبعد وأدخل السجن، وتولى مكانه حاكم نصرانى ليعود الإضطهاد ضد الإسلام والمسلمين من جديد .

غير أن هذه التطورات لم يشأ لها المتآمرون أن تتم فى هدوء، بل انتهزها المتآمرون فرصة لتقتيل المسلمين، وتشريد الكثيرين منهم، وحتى اليوم.

وقد أرسل السفاح (جوليوس نيريرى) عليه لعنات الله - أعْتى قواته التي تدخلت علنا ومباشرة فى أوغندا لإبادة المسلمين المؤيدين لعيدى أمين، ولم تنته محنة أوغنده، ولن تنته ما دام يوجد بها مسلمون، كما هو الحال فى كينيا، ورواندا التي يعلم الله حالها حيث (مئات الآلاف) من القتلى والجرحى والمشردين، ولا تزال الحرب دامية والصدام على أشده بين المسلمين والمسيحيين المجندين والعملاء لجهات خارجية، هى الأصل الكبير والقاسم المشترك الأعظم فى إدارة الصراع والتخاطب بالحوار .

إنها فى الجملة فتن، وتسلط على هذه الشعوب، والجمعيات التنصيرية تبارك هذه الفتن، وتتلقف المشردين منهم لتنصيرهم كما هو الحال فى بعض دول آسيا مثل (رومانيا - ألبانيا) .

وهذه هى نار الفتنة المشتعلة فى الجزائر منذ سنوات، وقد أشعلها الغرب الصليبى، وقد هددت فرنسا بإرسال ألف مُضلِّى (جُندى) فرنسى لحفظ الأمن كما يزعمون، ولا يُخْفى هذا فى حقيقته غير محاولة إيجاد سقف شرعى لحماية جماعات التبشير التى تعمل كخلية نحل فى الجنوب والشرق الجزائرى، (سيرد ذلك فى حينه لاحقا إن شاء الله تعالى) .

وإذا كانت دولتان مسيحيتان قد نجتا من الاستعمار الأوروبى وآثاره، فإن هناك دولتين أخريتين قد لقيتا عنتا كبيرا وتحملا نصيبا أعظم من المآسى المروعة والتضحيات الجسام، دون غيرهما من دول القارة - كونهما - ضمّا على أرضيهما ممالك إسلامية عظيمة . أثْرَت الحياة العلمية والثقافيّة والحضارية فى الشرق والغرب الإفريقى على السواء، ثم إلى أواسط القارة وجنوبها انطلاقا من هاتين المملكتين (السنغال ، وزنجبار) .

ويذكر المؤرخون أن هول الصدام الناتج عن صراع الحضارات فوق تلك الأراضى الإسلامية كان كبيرا، وأن نتائجه كانت أكثر مرارة، والشاهدُ على ذلك ما صنعه

---

(١) للإستزاده - المؤامرة الكبرى - للمؤلف .

الإستعمار بأبناء هاتين المملكتين، حيث أنشأ فوق أراضيهم أكبر المراكز المتخصصة فى تجارة البشر (سوق النخاسة – الرقيق)، ثم أخذ يجلب الرقيق إلى تلك الأسواق لتبدأ المعاناة، معاناة تعذيب للإنسان وتسخيره وتَحقيره وإذلاله واستعباده.

وإذا كان ذلك هو حال معظم دول القارة السمراء فإنه تجدر بنا الإشارة إلى إثيوبيا الجزيرة المسيحية فى المحيط الإسلامى وهى التى كانت تدين بدين النصرانية قبل قدوم الإستعمار، الأمر الذى تمكنت بواسطته أوروبا من الإنتفاع بها، لتنوب عنها فى صراع مرير ضد المسلمين ولتكون قاعدة انطلاق بعثات التبشير التى تموج بها القارة.

أما ليبيريا فقد أعادت إليها الولايات المتحدّة، بعض العبيد الذين كانوا قد سبق بيعهم فى العالم الجديد، وقد اعتنق هؤلاء المسيحية قهرا وقسراً أثناء رحلة شقائهم وغُربتهم.

بينما يعود الهدف الأمريكي من وراء هذا التصرف أن يكونوا طليعة للفتح الإستعمارى الأمريكى فى إفريقيا فِي الوقت المناسب، ولتضمن لنفسها مبكرا موطئ قدم هناك، وما ذلك كله إلا صَنيعَةً إستعمارية صليبية أمريكية من طراز فريد يقدم بُرهانا أكيدا على أن إفريقيا فى عيون الأمريكيين – وأن أمريكا قادمة إليها لا ريب بعد أن تنتهى من إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط الجديد، وإعادة تشكيل تركيبته السكانية والثقافية بما يتواءم مع مخططاتها الرامية إلى انفراد وحيد القرن بحكم العالم.

* * *

الفصل الثالث

أولاً : فضل الحضارة الإسلامية فى المدنية الأوروبية

عندما امتلك المسلمون ناصية الثقافة فى القرون الوسطى، ونعموا بحرية الفكر والرأى، ونالوا من الحياة الفاضلة الكريمة أوْفَى نَصيب، كان الفقر والتخلف يعم أنحاء أوروبا، التى كان يغطى الكثير من مساحاتها الغَابَات الكثيفة، وتنتشر بها المستنقعات المتناثرة فى أرباض المدن، والتى تنبعث منها الروائح الكريهة، والغازات السامة، والأبْخرة الضارة، كما أنها المصدر الأساسي للأوبئة الفتاكة.

وكانت البيوت فى باريس ولندن تُبنى بالحجر غير المنحوت، والطين المخلوط بالقش، وهى ضيقة النوافذ غير محكمة الإغلاق، وأرضها تغطى بالقش المنثور، لأنهم ما كانوا يدرون بعد ما البُسط!، ولم يكن الناس فى تلك المنازل أحسن مسكنا وأمنا من الحيوانات التى كانوا يؤونها معهم أو يربونها من أجل الحياة على إنتاجها من لحم، ولبن، وما تساهم به فى الزراعة البدائية.

وكان الغربيون فى تلك القرون متوحشين جاهلين، لا أمن فيهم، ولا إدارة، ولا حكام يعرفون واجبهم فى إقامة العدل، وتوطيد الأمن، وهم فى كل أحوالهم إلي حياة البادية أقرب منهم إلى حياة المدن.

وإلى القرن قبل الماضى لم يعرف ملوكهم فضلا عن استخدام المراحيض ولا الحمامات، وكانوا يبصقون على الطنافس[١] والمقاعد حتى فى قصر العظماء.

وكانت الأسرة من الأوروبيين تنام فى حُجرة واحدة، تضم الرجال والنساء والأطفال، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس مملوء بالقش، وفوقه كيس مملوء بالصوف يستخدمونه كوسادة، وكان الواحد منهم ينام وفوق رأسه سلاح لصد هجوم يتوقعون قيام اللصوص به، ولم تعرف شوارعهم المجارى ولا المصابيح.

وقد عمّت الجهالة أوروبا، وسادتها الأوهام، وانحصر التداوى عندهم فى زيارة الأماكن المقدسة، بينما كان رجال الدين منهم يفزعون إلى الصلوة إذا دَاهَمَ البلادَ وباءٌ، أوْ مرض فتّاك، ومع إهمالهم أمر النظافة فتكت الأوبئة بالملايين منهم.

---

(١) الطِّنْفَسَةُ: البساط (ج) طنافس، وتنطق بضم الطاء، أو فتحها أو كسرها مع فتح الفاء أو كسرها أو فتح السين أو كسرها.

واجتمعت الأضداد في أوروبا حيث الغرب الأوروبي يَسْكنه الناس في مدن صغيرة وأكواخ حقيرة، وكانت قلاعهم لا هندسة لها، وسادت ممالكهم الإضطراب لدوام الحروب والمنازعات، ومن ثم انعدم الإحساس بالأمن لإنتشار عمليات السلب والنهب والسطو على المسافرين، بالإضافة إلى عمليات السرقة المنظمة التي يمارسها اللصوص المحترفون،، بينما الجنوب الشرقي لأوروبا شُيِّدَت فيه المدن الضخمة مثل القسطنطينية، وغيرها، على النسق المعماري – العربي والإسلامي – في كل من دمشق وبغداد والقاهرة، وقد حوت كل مدينة من هذه – القصورَ الفخمة، والحدائق الغنّاء، والأسواق والمدارس – وتناثرت حولها القرى والضياع، وقد نعم التُّجارُ والمسافرون بالأمن والسلام وهم في حركة دائبة آمنين مطمئنين[1].

وفي ذات الموضوع ذكر كاتب غربي « لاشك أن العالم الإسلامي، والعالم البيزنطي – كانا أغنى، وأحسن نظاما ونوراً من العالم الغربي، فكان النصارى يشعرون بنقص في التهذيب، ويعجبون باهتين بما شاهدوه من غرائب الشرق، وكان من يحب أن يتعلم منهم يقصد إلى مدارس العرب[2].

بينما كان شارلمان أعظم ملوك أوروبا، وحاكم فرنسا وألمانيا، وشمال إيطاليا. كان أقرب إلى الأمية منه إلى نور العلم، وكان أدبُ عصره في فرنسا يشبه أدب الصبيان في المدارس اليوم، بَيْنما كان الخلفاء والملوك المسلمون يجمعون العلماء في قصورهم ليتناظروا في العلوم المختلفة، وما كان لهم من مجلس يخلو من العلماء الذين يُنْصتُون لهم ويأخذون عنهم، ومن الخلفاء من يستصحبون العلماء في غزواتهم، أو يأخذون أحمالا من الكتب في رحلاتهم[3].

وكان علماء الإسلام يتنافسون في مختلف العلوم العقلية، والأدبية، والمادية، ويُترجمون تراثَ الأقدمين من اليونانية، والسريانية، والفهلوية إلى لغتهم العربية، ولشدّة ولع الخليفة المأمون بذلك طلب من عدوّه قيصر الروم أن يرسل ما عندَه من كُتب الإغريق ليقوم العرب بترجمتها[4].

وقد بدأ العالمان الشرقي والغربي يتعارفان في القرن الحادي عشر الميلادي، ودخل النصارى المتوحشون حمىَ الإسلام والمسلمين المتمدنين عن طريق الحرب والتجارة، خاصة في عصر الفتوحات الإسلامية.

---

(١) التاريخ العام – لأنيس ورامبو – بتصرف.
(٢) تايخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي ط.ث ص٢٠٢.
(٣) تاريخ الحضارة – سينوبوس.
(٤) مروج الذهب – للمسعودي.

أما أوروبا الشرقية الشمالية فلم تكن بأحسن حالا، أو أوفر حظًا من أوروبا الغربية حيث كانت الأولى تعيش في همجية مطلقة، وتاريخ روسيا في القرن التاسع الميلادى لم يكن قد بدأ، وكانت أقطارها الواسعة مسرحًا لقبائل من الصقالبة، يتسلط التتار عليها، ويسومونها سوء العذاب، ودامت أيام الجهالة في روسيا إلى ما بعد ذلك بقرون، ومما يُتعجّب منه أن شبّت فيها حرب أهلية بين السكان، كان سببها الإختلاف في عدد الأصابع التي يجب استعمالها في إشارة الصليب، ولم تتخلص روسيا من قيود الجهل إلا في القرن الثامن عشر على يد مصلحها بطرس الأكبر[١].

وقد طال عهد الجهالة في أوروبا، وتعمقت جذوره فيها حتى لم يعد أهلها يشعرون بما هم فيه من الهمجية والتوحش.

وفي القرن الثاني عشر أحست بعض العقول المستنيرة بوجوب التخلص من الجهل المتراكم، وطرقوا لأجل هذا أبواب العرب، وهم أرباب الفكر في العالم آنذاك .

وقد وصل علم العرب إلى أوروبا عن طريق جزيرة صقلية، وإيطاليا، والأندلس والشام.

ومن الجدير بالذكر أن الأسبان أحبوا العرب لما رأوه من فوارق شاسعة بين المدنية الإسلامية العربية، وما كان عليه حكامهم السابقين من الجهل والتخلف، وقد أخذوا يتأثرون بما كان لدى حكامهم من المسلمين، وقبل إنتهاء قرن واحد من الحكم الإسلامي لإسبانيا، كانت قد أخصبت المزارع في أسبانيا، واتصل العمران، وتزاحم الناس بالمناكب في المدن، وأمست (قرطبة) التي أنشأها المسلمون تُنار بالمصابيح ليلا، ويستضئ الناس بنورها إلى مسافات بعيدة.

وتُعدُ قُرطُبة أول مدينَة في العالم كان لها ذلك، وقد بلغ سكانها المليون من الأسبان المسلمين، وبلغ عدد دورها « مائتى ألف دار » ، وعدد قصورها (ثمانين ألفا، أما مساجدها فقد بلغت ألفا وستمائة[٢].

وقد طبق المسلمون العلم على الصناعة والزراعة حتى أن الأسبان مازالوا يعيشون إلى اليوم على السدود التي أقامها العرب والتي بفضلها جرت المياهُ إلى كل أسبانيا تحمل الخصب والنَماء والخير بما نفع أوروبا بعد ذلك. حتى أصبح من المتعذّر على المرء أن يستقصى جهود العَرَب في تغيير الأندلس، وتنوير أوروبا بفضل عظيم هندَستهم، وإبداعهم فيما شيّدوه من القصور والمدن، وقد أدْخَلَت صناعاتهم إلى

---

(١) أصول الشرائع لبنتام.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية.

أوروبا ما لم يكن معروفا فيها وليس لأهلها عهد بمثله من قبل، مع ما نشروه فيها من العلوم والفنون والآداب.

وقد أنشأ العرب فى (بالرم) عاصمة صقلية أول مدرسة للطب لم يعهد مثلها فى جميع أوروبا، وقد أُنشِئَت جميع مدارس الطب فى الغرب بعد إنشاء مدرسة صقلية بأعوام.

هذا وقد تأثر الصليبيون الأوروبيون بحضارة المسلمين فى بلاد المشرق أثناء وجودهم بالديار الغربية فى فترات الحملات الصليبية، ونقلوا إلى بلادهم الكثير من مظاهر تلك الحضارة.

وأخذت أوروبا عن العرب كل شيء (الطب، العمارة، الهندسة، التاريخ، الجغرافيا، فنون الزراعة، علوم الفلك، الرياح، البحار) ولم تكتفى بمجرد الإقتباس أو الاستنفاع بالمُتاح، بل راحت تطور وتطور، وتبتكر وتعدل، وتضيف وتحذف، حتى نجحت فى تذليل الصعاب فى حياتنا نحن، بل وفى ترفيه الحياة ذاتها، وتَيْسيرها، وجعلها سلسة ممتعة، وجعلت كل شيء قريبًا وسهلاً بحيث أصبح فى متناول الإنسان أن يجد الماء المثلج فى عز الحر، وبضغطة زرّ يمكنه تسخين الهواء فى عز الشتاء، كما أصبح فى متناول يده أن يرفع سماعَةَ التليفون ليتحدث إلى آخر فى أمريكا أو الهند فى البحر أو الجو أو على الأرض سواء فى ذلك، أو بضغطة زر آخر يرسل رسالة مكتوبة عبر الفاكس، ويتلقى الرد عليها فى الحال، وكذلك يمكنه أن يحمل فى جيبه سنترالا كاملاً لا يتعدى حجم إصبعى اليد الواحدة، ليخاطب به أى إنسان فى أى مكان فى العالم، وأن يراه فى التو والحين عبر شاشة تليفونه المحمول (الموبايل) وفيه كذلك إرسال واستقبال الرسائل، والبريد الإليكترونى، بل والجديد من نماذجه الآن (يحدد القبلة للمصلين).

ثم انظر إلى هذا الحاسب الآلى (الكمبيوتر) الذى يحفظ فى ذاكرته كل ما يُملى عليه، حتى كاد أن يلغى السجلات اليدوية فى مختلف المصالح والدواوين، وقفز بعيدا حتى تم استخدامه فى إدارة المصانع، وتوجيه الطائرات والتحكم فى الصواريخ، وإدارة الحروب والعمليات العسكرية، كما يمكن أن يتسع لدوائر معارف كاملة فى كثير من فروع العلم والمعرفة، كما يُغْنى مستخدميه عن أجهزة الفيديو، والمسجلات لإحتوائه على برامج تشغيل تحل محل هذه الأجهزة، فضلا عن إمكانياته الهائلة فى إحضار العالم بين يديك بمجرد نقرة على الفارة (mouse) حيث يمكنك استدعاء أى جريدة أو مجلة لحظة إصدارها، كما يمكنك قراءة الإصدارات السابقة من

تلك المجلات والجرائد من خلال الأرشيف الخاص والمعروض أمامك على الشاشة، ويحمل هذا الإختراع العجيب مفاتيح كل شيء: الحلال والحرام، الأدب وقلة الأدب، المباح والمنكر - كل شيء موجود- كل شيء مباح كل شيء أمامك : المواقع الإسلامية، والعلمية والثقافية، والأدبية، والجنسية بالآلاف. أنت فقط عليك الضغط على الماوس لترى أو تفعل أى شيء، ما يطيب لك أو ما يسئ إليك.

كما أصبح بمقدور الإنسان الضغط على زر آخر ليعرف أخبار العالم، أو أن يأتى بفرقة موسيقية تغنى لك وترقص على شاشات التليفزيون، كما يمكن مشاهدة المسابقات الرياضية مباشرة على الهواء فى كل بقاع الدنيا بواسطة الأقمار الصناعية التى تنقل كذلك الأخبار والأحداث لحظة وقوعها بالصوت والصورة من كل أقطار الدنيا، ومختلف كواكبها.

وهكذا استطاع الإنسان الغربى أن يعيش حياته بطولها وعرضها، كما يعنُّ له ويطيب، وقد استطاع أن يتعمق فى معيشته، وأن يستمتع بملذاتها، واستغلال إمكاناتها، وتكريس ثرواتها.

وعلى الجانب الآخر فقد تخلف الركب العربى والإسلامى عن مواكبة التَّطورات والإبداعات والإختراعات، وباتوا مستهلكين لصناعات الغَرب، ومنتجاته الخبيثة غير قليل من مجموع دول العالم الإسلامى تأتى مصر فى مقدمتهم ثم العراق - قبل الاحتلال - وإيران - والباكستان - وماليزيا .

أما العراق فقد أحرز تقدما هائلاً فى صناعته العلمية والعسكرية، وبذل جهدا حثيثا وجبارا فى مجالات أبحاثه العلمية والتقنية حتى تمكن من إنتاج صاروخ يصل مداه إلى تل أبيب وبإمكانه حمل أسلحة دمار شامل (كيماوية، وبيولوچية) وهو الأمر الذى اعتبرته الولايات المتحدة الأمريكية خطرا على إسرائيل، وبالتالى فإنه يهدد مصالحها الاستراتيچية فى المنطقة والعالم، فتآمر عليه المتآمرون (بريطانيا، أمريكا) وبعض الجنسيات الأخرى حتى سقطت بغداد فى التاسع من إبريل عام ٢٠٠٣م تحت المجنزرات الأمريكية والبريطانية، وتحاك الآن مؤامرات فى الخنادق ضد كل العواصم العربية والإسلامية بلا استثناء[١] .

وكان لسان حال الغرْب ينطق بنيته الجادة وعزمه الأكيد على إفساد، أو وأدِ أى محاولة عربية أو إسلامية للنهوض والتقدم، ونسف كل المحاولات الجادة لإعادة بناء الأطلال.

---

(١) انظر كتابنا وحيد القرن ورياح التغيير .

يأتى هذا فى الوقت الذى فيه يلهث التاريخ، وتهرول فيه الأحداث، ويتقارب معه الزمان فى إيقاع سريع. ولعلنا نلاحظ أن ما بين عصر الفَضَاء والكمبيوتر والهندسة الوراثية غير سنوات قليلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ولعنا نرقب كذلك أن ما بين اختراع وآخر لا يزيد عن أيام قليلة.

والغريب هو استسلام المسلمين المُهين لحال العجز والتخلف، الذى باتوا فيه منذ آمنوا بسياسة التحللية والقطرية والدُولية، على الرغم من مقومات الوحدة (الطبيعية والجغرافية، والثقافية، واللغوية، والتاريخية) هذا بخلاف الأغلبية الدينية بين الكثير من دول العالم الإسلامى خاصة العربى منه، على الرغم من الواقع على رؤوس الأشهاد من وجود دولة قارة فى أقصى الشرق هى (استراليا)، وقارة دولة عند أقصى الغرب هى (أمريكا) التى تتكون من خمسين ولاية تجمعت فى اتحاد فيدرالى، واستطاعت قبل انقضاء القرن الرابع على تأسيسها أن تنفرد بحكم العالم، وأن تتربع على عرشه.

بينما هناك ٤٧ (سبعًا وأربعين) دولة إسلامية، أو هى حُسبت على الإسلام كَمًّا لا كيفًا، اكتفت جميعها بمصمصة الشفاه، واللطم على الخدود، وضرب الفخذين باليدين.

وتقول الإحصاءات أن ٨٥٪[(١)] من المال العربى يذهب فى استثمارات داخل أوروبا، وأمريكا، لإنعاش إقتصاديات هذه الدول، ويبقى ١٥٪ من المال العربي تخطط إسرائيل لاحتوائه فى مشروع شيمون بيريز المعروف (السوق الشرق أوسطية).

تلك هى خريطة لحال القوم الذين ظلموا أنفسهم بعد أن حملوا المشاعل للآخرين.

* * *

ثانيًا: خطر اسمه الإسلام

لقد أصيب الكفار وأعوانهم بالفزع والخوف، وتولد فى قلوبهم الرعب من الوحدة الإسلامية التى جمعت بين المسلمين، والتى حملت إليهم مشاعل الحضارة والنور والفكر والثقافة، فراحوا يتآمرون، ويكيدون كيدا كبارًا لمشاغلة المسلمين وقتالهم، والهجوم عليهم فى ديارهم لأنهم يرون الإسلام خطرًا على وجودهم، وما هذه غير (هوجة) يثيرها الغرب الصليبى مدفوعا من الصهيونية العالمية أو متعاونًا معها، كل يوم عن خطر يسمونه الإسلام والمسلمين.

---

(١) الطريق إلى جهنم ص ٣٨.

وبالنظرة الموضوعية المجردة إلى الواقع الإسلامى، لا نرى خطرا مرتقبا من أى نوع أو من أى حجم، سواء فى الحاضر أو فى المستقبل القريب من تلك الدول الإسلامية المنكوبة.

وما نرى حولنا سوى دول مفككة لا يجمعها رابط، ولا يضمها لواء، بعضها تابع، وبعضها عميل، وبعضها محتل، وبعضها يضرب بعضها، وأكثرها يعيش تحت خط الجوع، ويتسول خُبزَه، وكلها إسلامية بالإسم فقط، عَلمانية الهوى، لم يبق من أصوليتها إلا لحىً مطولة، وجلاليب مرسلة، ومسابح مزوقة، ومصاحف منمقة، وأكثرها شكليات غير ذات موضوع، وتقاليد غير ذات مضمون.

والقابضون على دينهم من هذا الجمع المختلف يمشون فى حالهم إلى جوار الحائط لا ينازعون أحداً ولا يدرى بهم أحد، وهم قلة من الراكعين الساجدين فى الخفاء، لا يرجون من الدنيا إلا وجه ربهم ولا دخل لهم بأمريكا ولا بالمانيا ولا بإيطاليا ولا بأسبانيا - أين هو إذا ذلك الخَطر الوهمى، الذى راحوا يجمعون قواهم له، ويُشمرون عن سواعدهم، ويربطُون جأشهم حتى لا تقوم الوحدة الإسلامية من جديد فتعود كما كانت، فتُخلص العالم من سيطرتهم ورأسماليتهم، وتُطّهر الأرض مِنْ عَلْمانيتهم وتملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً.

ولقد نصّت تقاريرهم السِّرِّية على أقوالهم التى ذكتها أفعَالُهم، منها ما قال لورانس براون «إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم حينئذ يظلون بلا قوة ولا تأثير»(١).

ومن التقريرات السرية التى نشرت أخيرا، والتى كشفت عن عداء الغرب النصرانى للوحدة الإسلامية تقرير وزير المستعمرات البريطانية (أورمس غو) الذى جاء فيه «إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى ينبغى على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليست إنجلترا وحدها هى التى تلتزم بذلك بل فرنسا أيضًا، ومن دواعى فرحتنا أن الخلافة الإسلامية زالت، لقد ذهبت، ونتمنى أن يكون ذلك إلى غير رجعة، إن سياستنا تهدف دائمًا وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية، أو التضامن الإسلامى، ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك(٢)».

لقد نطقت ألسنتهم بالكفر مما امتلأت به صدورهم من حقد مرير، وغلٍّ كامن على الإسلام وأهله، لأنهم يرونه الجدار الوحيد أمام سياستهم الإستعمارية الرامية إلى

---

(١) احذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام ص١٣٥ سعد الدين السيد صالح.

(٢) المرجع السابق.

إحتلال العالم، وفى ذلك قال لورانس براون (إن الإسلام هو الجدار الوحيد فى وجه الإستعمار)[١].

كما يرونه جداراً صَلْباً يحول دون انتشار المسيحية، وتمكين الإستعمار من العالم الإسلامى، وفى هذا السياق قال أحد المبشرين (إن القوة الكامنة فى الإسلام هى التى وقفت سدا منيعا فى وجه انتشار المسيحية، وهى التى أخضعت البلاد التى كانت خاضعَة للنصرانية)[٢].

وجاء فى تقرير لأشعيا بومان نشرته مجلة العالم الإسلامى التبشيرية (إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربى من الإسلام، ولهذا الخوف أسباب، منها أن الإسلام منذ ظهر فى مكة لم يضعف عددياً، بل أتباعه يزدادون بإستمرار، ومن أسباب الخوف أن هذا الدين من أركانه الجهاد)[٣].

إنهم يخافون من العملاق، ويرهبون هذا الدين القيم الذى يخالف عقيدتهم، ويغاير معتقداتهم، ويبطل أفكارهم، ويُفسد طموحاتهم، وذلك لأنه الدين الذى لا يُقرُّ مبدأ السيطرة، ولا فرض الرأى بالقوة على الآخرين. فنبينا ﷺ لم يقاتل إلا من قاتلوه وما حارب إلا من حاربوه واضطهدوه .

كما يحمل ديننا الحنيف هموم الحلال والحرام، ويشرح منهج الدنيا ويبين طريق الآخرة .

ولا حرج إذاً فى التأكيد على أن سرّ هذا العداء المستحكم الذى يناصبونه المسلمين أن يكون دافعه الحقيقى الحقد الكامن والحسد والرغبة فى أن يجرونا إلى هاويتهم، لنكتوى بمصير واحد، حيث يصبح المسلم علمانيا، حسبه للخلاص من المؤامرات والمكائد أن يصير علمانيا ويتمرد على دينه بالتطاول والنكران .

فالمنهج العلمانى يقوم فى الأصل على أن تفعل ما يحلو لك مادمت لا تؤذى غيرك - ليس أمامك إلا هذه الدنيا فخذ منها أقصى ما تستطيع، واستمتع بجسمك، وأشبع رغباتك دون وسواس ما دمت قد فُزت برضا الآخرين - وللشواذ فى هذه الحضارة حقوق مثل الأسوياء، ولهم نواديهم ولهم حق ترويج منكراتهم والدعوة لها، والأقمار الصناعية تذيع تلك المنكرات علانية، وتوصلها إلى كل صاحب «دش» فى بيته وفى غرفة نومه، وتقوم بذلك دول كبرى، وشركات كبرى، وقد أغلقوا على

---

(١) التبشير والإستعمار ص١٨٤ - الخالدى وفروخ - ط الرابعة .

(٢) الإسلام والتنمية الاقتصادية ص٥٦٠ جاك أوسترى.

(٣) التبشير والإستعمار ص١٣١ .

الأديان أبواب الكنائس والمساجد حتى لا تُعكّر صفوهم- أمَّا الله - فهو فكرة غير مطروحة عندهم، والغيب لا وجود له، ومعنى هذا أنهم هم الذين يفرضون منهجهم، وأسلوب حياتهم علينا بالصحيفة والكتاب والسينما والمسرح والتليفزيون والأقمار الصناعية، وهم الذين أعلنوا علينا الحرب ليس فقط بالتصفية الجسدية، والمذابح، وإنما بالتصفيات الفكرية والعقائدية، والغزو الثقافي(١).

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾

[البقرة : ٢١٧]

* * *

ثالثًا : إنهيار الخلافة الإسلامية

عندما انهارت سلطنة (قُونْية) بوفاة سلطانها « علاء الدين كيقابد الثالث » سنة ١٣٠٧ من الميلاد، أخذ عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦م) إبن « أرطغرل » أحد زعماء القبائل التركية الكبيرة التي استقلت في آسيا الصغرى عند خراسان، وقد سُمِّيت الدولة العثمانيّة باسمه.

وقد أخذ عثمان وأتباعه في التوسع في سرعة تَستَرعي الإنتباه على حساب تلك الدولة المنهارة، وبعد وفاته خلفه ابنه الأكبر (أورخان) ٣٣ سنة (١٣٢٦ : ١٣٥٩م) الذي استطاع دخول (نيقْيَة) إسنك الحالية سنة ١٣٢٩م .

ثم قام سليمان الإبن الأكبر للسلطان أورخان بالإستيلاء على شبه جزيرة « جاليبولي » في ١٣٥٤م، وهي أول أرض يستولي عليها العثمانيُّون، ومات سليمان في ١٣٥٨م قبل والده أورخان الذي توفي في العام التالي مباشرة ١٣٥٩م .

ثم آل العرش العثماني للسلطان مراد الأول الذي استولى على (سالونيكا) وأدرنه في ١٣٦١م، ووصل إلى الشمال الآسيوي، وجَرَّهُ ذلك للإشتباك في حروب ضد « بلغاريا والبوسنة والصرب »، ونجح العثمانيون في إخضاعهم، ثم دارت معركة بين الصرب والعثمانيين خرَّ فيها ملك الصرب قتيلاً، ثم قُتِل مراد هو الآخر على يد أحد نبلاء الصرب.

وآل العرش العثماني إلى السلطان سليم الأول الذي كانت لديه الرغبة الملحة في السيادة على العالم الإسلامي، تمثلت هذه الرغبة في التحرُّش ضد الفرس (الشيعة) في عصر الشاه « إسماعيل الصفوي »، ثم أحاك المؤامرات ضد أرض الحجاز لفرض سيطرته على مكة. ودخوله مصر، وقد تحقق له ما أراد.

---

(١) الطريق إلى جهنم ص٦٧ بتصرف .

وتَجدر الإشارة إلى أن مراد الأول عندما تقدم إلى الشمال الآسيوى وتمكن من إخضاع الصرب، وبلغاريا، والبوسنة، بدأ عمليا فى تطبيق الشريعة الإسلامية من غير تدرج على شعوب لم تدرى بعد ما الإسلام، باستثناء شعب البوسنة، ونفّذ أحكام الشريعة كاملة فى تحريم الخمر كما أنه رجم الزناة... إلخ[1].

وعلى جانب آخر - كان تعاون «الشريف حسين بن على» المضطلع بمهام شرافة مكة المكرمة مع الإنجليز ضد تركيا على أمل مساعدته فى الإنفصال عن الخلافة التركية ومعاونته فى تحقيق حلمه الكبير فى إقامة خلافة إسلامية عربية، بينما كان يحظى الشريف حسين بتأيد كبير ودعم مطلق من خديوى مصر «عباس حلمى الثانى» الذى تزعم مبكرا فكرة الصراع ضد الإستعمار، وانحاز الخديوى مع مصطفى كامل، ومحمد فريد فى الثورة على الإستعمار الإنجليزى، وانضمت لهم جموع الشعب.

الأمر الذى اعتبرته بريطانيا خطرا عليها فى مصر والحجاز، فقامت بخلعه فى ١٩/١٢/١٩١٤م، وعينت «حسين كامل» ابن اسماعيل سلطانا على مصر ليصبح ألعوبة فى يدها ليتحقق للإنجليز أمرين هائلين بالضرورة:

أما أحدهما: فهو ضمان توقف مصدر الدعم المتدفق للشريف حسين، وتجفيفه وأما الآخر: فهو إجهاض الثورة فى مصر.

ومن جانب واحد أعلن الشريف حسين بن على الإستقلال العربى عن تركيا فى ٦/١٩١٦م، وبدأت قبائل الحجاز فى مهاجمة الحامية التركية فى مكة بنيران بنادقها فى العاشر من يونيو، وقد تمكن الثوار العرب فى ٩/٧/١٩١٦م من استلام مكة المكرمة من الأتراك بعد أن قدمت بريطانيا دعما لقوات الشريف حسين قوامه سَرِيَّتى مدفعية، وقد سقطت جَدّة بعد أسبوع، وسقطت رابغ، وقُنفده، فى سبتمبر من العام ذاته.

أما ينبع فقد حَاصَرَ البريطانيون القوةَ الألمانية الموجودة بها واضطروها للإستسلام.

وفى إطار المواجهة بين الحلفاء والمحور، وفى حيز الحرب التركية البريطانية المباشرة تمكن الجنرال (أدموند اللنبى) من احتلال القدس فى ٩/٩/١٩١٧م، ثم تمكن من أن يوقع هزيمة ساحقة بالأتراك عندَ (تل المتسلم) بشمال فلسطين، وقد أنهت هذه المعركة الوجود الفعلى للإمبراطورية العثمانية، وقد أعلنت الإمبراطورية العثمانيّة استسلامها فى الحرب العالمية الأولى بعد هزيمتها على كل الجبهات فى ٢٩/١٠/١٩١٨م.

---

(١) مصر فى عهد المماليك والعثمانيين بتصرف /أ.د . عبدالعزيز محمود عبدالدايم.

وقد تقدم عبدالله بن الشريف حسين ليتولى إمارة شرق الأردن، وتمكن أخوه « فيصل الأول » من الجلوس على عرش العراق، وقد حقق الشريف حسين بعض النجاحات مُستغلاً المعطيات التى منحتها إياهُ المستجدات الدولية الراهنة.

استشعرت بريطانيا الخطر العربى المتنامى الرامى إلى إقامة خلافة إسلامية عربية، فتآمر الإنجليز ضد الشريف حسين من خلال تقديم حكومة الهند الإنجليزية كافة أشكال الدعم وأخطر الإمدادات وكل صنوف العون والمؤن للقادم من البادية « عبد العزيز آل سعود » الذى تمكن من بسط نفوذه على الحجاز، ومن الإطاحة بالشريف حسين الذى فرّ إلى الخارج، واعترفت بريطانيا بإبن سعود « مَلِكا » على الحجاز فى اتفاقية جدة سنة ١٩٢٧م.

تلك فى مجموعها العوامل التى أثَّرْت وبشكل كبير ومباشر فى انهيار الخلافة الإسلامية التركية حيث تعرضت لحركات تزمر وتمرد داخلية شديدة قادها الصرب وأعوانهم، وقد ترك ذلك ميراثا هائلا من الحقد المرير داخل صدور الصرب يحملونه ضد كل ما هو إسلامى حتى اليوم ولعل أحداث البوسنة والهرسك تنطق شاهدة على ما نقول، كما أن العنصر العربى لعب دوراً خطيراً فى استدعاء واستعداء الإنجليز ضد تركيا، ناهيك أن الرفض الأوروبي العارم والمطلق لفكرة وجود دولة إسلامية سُنيّة داخل أوروبا كان على أشُدِّه ولم يزل.

وهكذا إنهارت الخلافة الإسلامية العثمانية، وتبخرت أحلام الشريف حسين بن على فى إقامة خلافة إسلامية عربية بعد أن قضى تماما على آخر خلافة إسلامية فى التاريخ.

وبالقضاء على الخلافة الإسلامية التي كانت رغم بُعْدها حقا عن روح الإسلام، إلا أن الأعداء كانوا يخشونها ويخشون أكثر أن تتحول هذه الخلافة من خلافة شكلية إلى خلافة حقيقيّة تهددهم بالخطر.

وكانت فرصتهم الذهبية التى عملوا لها طوال قرن ونصف هى التى جاءتهم على طبق من ذهب بعد أن خرجت تركيا خاسرة مع حليفتها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى، حيث دخلت الجيوش الإنجليزية، واليونانية، والإيطالية، والفرنسية أراضى الدولة العثمانية (الخلافة المنهارة) وسيطرت على جميع أراضيها ومنها العاصمة« استانبول ».

ووقعت الواقعة مع البدء فى مفاوضات مؤتمر (لوزان) لعقد صلح بين المتحاربين، حيث اشترطت إنجلترا على تركيا أنها لن تنسحب من أراضيها إلا بعد تنفيذ الشروط التالية :

١- إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة أمواله.
٢- أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.
٣- أن تقطع تركيا صلتها بالعالم الإسلامى.

وكان لبريطانيًا ما أرادت فى تركيا، وسلّم الأتراك لمطالب الإنجليز.

وانعقد مجلس العموم البريطانى بعد استقلال تركيا، وفيه وقف (كرزون) وزير الخارجية البريطانى يستعرض ما جرى فى تركيا، احتج بعض النواب الإنجليز بعنف عليه، واستغربوا وسألوا متهكمين كيف اعترفت إنجلترا باستقلال تركيا التى يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية مرة أخرى وتهجم على الغرب؟

فاجاب كرزون: لقد قضينا على تركيا التى لن تقوم لها قائمة بعد اليوم لأننا قضينا على قوتها المتمثلة فى أمرين «الإسلام، والخلافة» فَصَفّق النوابُ، وسكتت المعارضة(١).

وهكذا تحقق لهؤلاء على الأرض نصراً جديداً يضاف إلى رصيد إنتصاراتهم فى سجل التاريخ الطويل الحافل بالصِّراع الدائم والمتجددة الذى يحوى كل صنوف الصراع بين الحضارات. ليرُضى أطماعهم المشهودة فى بقاع الأرض بعد أن حقق لهم السفاح اليهودى التركى (مصطفى كمال أتاتورك) أغلى أمانيّهم فى إلغاء الخلافة الإسلامية فى تركيا، وانتهى بذلك الوجود الإسلامى فى هذه الديار التى كانت معقلا للمسلمين بعد حوار دام طويلا أستخدمت فيه كل ألسنة الدبابات.

وما أن تم الإعلان عن إنهاء الخلافة وقيام الجمهورية فى تركيا حتى تسابق الصرب والبلغار فى الخروج من دين الله أفواجاً، ووقعت معارك طاحنة، ومجازر مروعة بين المسلمين من جانب والصرب البلغار من جانب آخر، وقع فيها مئات الآلاف من المسلمين صرعى ومشردين ضحايا لخنازير الدولتين الذين تَدعمهم الرغبة فى الإنتقام من الخلافة الإسلامية التى أكرهتهم على الدخول فى دين الله عن غير فهم لصحيح الدين، وتمولهم الصهيونية العالمية التى لن تتوان فى توظيف كل الأحداث وإن صغرت لمحاربة الإسلام والقضاء على المسلمين.

تزايدت حدة الإنفجار العدائى الصربى البلغارى ضد المسلمين فهدموا المساجد أو أحرقوها، ونكلوا بالمسلمين تنكيلا.

ولازال العداء مستحكما، والشر مستفحلاً فى الوسط الأوروبى بعد المؤامرة الدولية والإقليمية الكبرى والتى مارسها فى العلن كل من (كرواتيا، والجبل الأسود،

---

(١) نقلا عن: كيف هدمت الخلافة ص٩٠، والأرض والشعب ص٤٦ مجلد أول.

والصرب) ضد الدولة البُوسنيّة المسلمة، حتى تهدمت ديارها، وتشرد شعبها وقد لقى الثالوث الصليبى المذكور كافة وسائل الدعم المشروعة وغير المشروعة، المحرمة وغير المحرمة من خلال الدعم الهائل، والمدد الكبير الذى قدمه كل من « ألمانيا، وبريطانيا، واليونان، والفاتيكان، وإيطاليا » بخلاف التدخل الروسى المباشر - الرامون كلهم بسهام من نار فى صدور كل ما هو إسلامى سواء أكان أوروبيا أم غيْر أوروبى.

وقد تعرض المسلمون فى الوسط الأوروبى فى المنطقة التى كانت تخضع لأعمال السيادة الإسلامية فى زمن الخلافة العثمانيّة لعمليات إبادة جماعية منظمة وعلى فترات مختلفة مروراً بمراحل ثلاث، قدمنا لها تفصيلاً دقيقًا وتحليلا وافياً مستوفيا للأحداث الهمجية، والهجمات الشرسة فى مراحلها المختلفة(١).

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل تسابق الغرب الصليبى فى منافسة محمومة للتصارع حول التهام الوليمة العثمانية مترامية الأطراف فى العالم العربى والسطو على التركة (البلاد العربية) كاملة، وسرعان ما اتفق الأعداء فيما بينهم، فتوصلوا إلى صيغة إتّفاق لتقسيم الغنيمة بدلا من التصارع عليها كما سبق أن بينّا وكما سيردُ منه « حين المقام ».

ووقع العالم الإسلامى كله تحت وطأة الإستعمار فى العصر الحديث من السنغال غربا إلى أندونيسيا شرقا.

وهكذا إنهارت آخر خلافة إسلامية فى التاريخ.

* * *

رابعًا : (أ) الصليبية بين الشرقين - الأقصى، والأوسط

يتمتع الشرق الأوسط بموقع جغرافى فريد ومتميز بخصائصه الاستراتيجية التى تحدد ملامحه بين قارات العالم وأبعاده وزواياه، بما مكنّه من التحكم فى التجارة الدولية عامة، والإمساك بنواصى الطرق التجارية ذاتها.

حيث كانت التجارة بين آسيا وأوروبا عبر الشرق الأوسط تَسير انطلاقا من طريقين رئيسيين:

أحدهما: الطريق البرى: حيث الموانئ السورية واللبنانية، والفلسطينية، على الساحل الشرقى للمتوسط، ومنها عبر صحراء سوريا، فالعراق، وإيران، ووسط آسيا، ثم تنطلق إلى وجهات مختلفة، ومنها ما يتجه إلى الخليج الفارسى (آنذاك) حيث يتم تحميل سفن أخرى لنقل تلك التّجارة إلى آسيا الجنوبية، والشرقية والجنوبية الشرقية.

---

(١) انظر - المؤامرة الكبرى على العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ / للمؤلف.

الثانى: وهو ما عُرف بالطريق البحرى لأنه لا يتخلله إلا القليل من اليابسة، حيث كانت التجارة الأوروبية تأتى إلى شمال مصر عند ما تعرف الآن (بورسعيد) ثم يتم نقل تلك التجارة بالعربات إلى البحر الأحمر، لتستأنف رحلاتها البحرية بواسطة بواخر أخرى إلى مناطق آسيا، أما هذه المنطقة القليلة من اليابسة - فهى التى نفذت فيها فرنسا مشروع حفر قناة السويس الحالية للإستعاضة عن الرحلة البرية التى تعترض طريق المرحلة البحرية بعد ربط البحرين (الأحمر، والمتوسط) عن طريق القناة الجديدة التى حفرها المصريون بأظافرهم وقدموا لها أرواحهم الزكية حيث أجبرهم الفرنجة على أعمال الحفر قهراً بنظام السُّخرة ومات منهم عشرات الآلاف لخدمة المشاريع الإستعمارية الأجنبية فى المنطقة.

ومن ثم يمكن القول أن منْطقة الشرق الأوسط تحكمت وإلى حد كبير وبعيد فى التجارة الدولية وممراتها وطرقها، وحصلت منها على فَوَائد عظيمة من أعمال النقل، ورسوم العبور، والضرائب - نتيجة لعبور هذه التجارة عبر أراضيها .

وعندما حدثت الأزمات الصعبة، وبرزت الصعوبات الجسام بين المسلمين فى أوطانهم، وخصوصا منطقة الشرق الأوسط، وبين أوروبا الصليبية من الجانب الآخر بسبب الإجتياح الصليبى لبعض المناطق مثل سوريا، ومصر، والشمال الإفريقى، والذى دارت بسببه صراعات دموية، ومصادمات مسلحة، دامت حوالى القرنين من الزمان، وقد انتهت بكسر شوكة الصليبيين، وانتصار الإرادة الإسلامية، وتَحررت على إثرها معظم البلدان العربية، إلا أن هذا المسلك العدائى الصليبى ترك جراحا عميقة مريرة فى نفوس أبناء الشرق مجتمعين .

وعندما بدأ الإجتياح الصليبى المذكور، كانت البرتغال وأسبانيا تقودان حركة صليبية ضد الإسلام والمسلمين فى كل مكان، وخاصة فيما يحرم أبناء الشرق الأوسط من مواردهم الهائلة عن طريق مرور التجارة من أراضيهم، فضلا عن البحث عن سوق أخرى بديلة وجديدة عن الشرق.

وكانت تلك بداية محاولات التحول الأوروبى الصليبيى الإستعمارى الصريح نحو غرب إفريقيا، والذى بدأه البرتغاليون بالوصول إلى السنغال على ساحل المحيط الهادى، ثم تطورت التطلعات البرتغالية حتى وصلت بتجارتها، وبعثاتها التبشيرية إلى جنوب القارة عند منطقة يقال لها (DIAS) تقع عند رأس الرجاء الصالح.

وقد شجع ذلك الإنجاز (فاسكودى جاما) البحار والمستكشف الجغرافى البرتغالى على مزيد من التطلعات فتقدم شرقا حتى وصل إلى الهند، ومنها انطلق نحو جزر الهند الشرقية.

وبهذا تعرضت مصر لخسارة عظيمة لفقدانها دور الوسيط الذى كانت تلعبه فى التجارة الدولية آنذاك، فاتجهت القيادة المصرية آنذاك نحو عمل جماعىّ بالتعاون مع موانى البحر المتوسط، والهند، بمشاركة بعض الأساطيل الهندية لمحاربة البرتغال وهزيمتها، والتقى الجمعان، ودارت معركة كبيرة بين مصر والبرتغال عند منطقة يقال لها (ديو) وقد انتهت بهزيمة القوات المصرية فيما عُرفت معركة (ديو عام ١٥٠٩م)[١].

وقد تمكنت البرتغال بعد أن كسبت تلك المعركة من السيطرة على هذا الطريق نحو قرن من الزمان، وأصبحت بذلك سيدة التجارة العالمية تقريبا بعد أن احتلت (مسقط، ومطرح) من سلطنة عمان وبعضا من مناطق الخليج العربى وأُخَر من مناطق شرقى آسيا.

وبهذا أصبحت العاصمة البرتغالية (لشبونة) مركزا محوريا للحركة التجارية الأوروبية، وقبلة التجار الأوروبيين الذين وجدوا كل تجارتهم فيها بيسر وسهولة، فى بديل أيسر وأرخص يعوضهم عن شراء أو بيع تجارتهم عبر الشرق الأوسط، وهو كذلك بديل آمن كونه يفادى أعمال القرصنة البحرية وسوء الأحوال الجوية التى كانت تُفقدُهم الكثير من تجارتهم أثناء رحلاتهم البحرية الطويلة، فضلا عن توفير الوقت والنفَقات والجهد وتمنع الأزمات.

* * *

(ب) عبور المتوسط إلى الشام

بعد أن تمزقت الأمة الإسلامية، وسلكت مسالك القُطْرية، والتحللية على نحو ما ذكرنا سابقا، بدأت أوروبا تعمل مباشرة نحو تحرير أراضيها، وطرد الفاتحين الإسلاميين منها، ساعدهم على ذلك تفوقها فى المجالات العسكرية، والصناعات الحربية والمدنية على السواء بفضل قيام عصر النهضة الحديثة الذى تمكنت بفضله أوروبا من حيازة أسباب الرقى، والتقدم، فى العلوم، والفنون. وذلك على حساب النجم الإسلامى الذى أخَذَ فى الأُفول منذ أن تحولت التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى أضَرّ كثيرا بكل من مصر، والشام، والعراق.

وبدأت مع هذه التطورات الهائلة إيجابية النتائج غربا، سلبية الآثار شرقا تَتَابُعَ موجات الحملات الصليبية على المشرق العربى حتى تمكن الصليبيون من تأسيس أربع ممالك صليبية، ودانت لهم الأمور بعض الوقْت، حتى تمكن (إليغازى الأرتقى) صاحب حصن ماردين وحيفا من إبادة جيوش الصليبيين إبادة تامة فى إمارات

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج٨ ص ٤٩٠ .

أنطاكية، والرها، وبيت المقدس. في معركة (سهل الدماء) قرب قنسرين في ٢٨/٦/١١١٩م، ثم تمكن القائد السلجوقي «عماد الدين زنكي» في ١٨/٦/١١٢٨م من إنْقاذ حلب من السقوط في أيدي الصليبيين بسبب ضعف حكامها وأثناء انشغال المسلمين بقيادة زنكي بإنتزاع إمارة الرّها من الصليبيين التي دامت تحت حكمهم (٥٠) خمسين عاما متصلة، والتي كان باستعادتها بشير نصر نهائي على الصليبيين تمكن «ألفونسو» ملك البرتغال من إنتزاع لشبونة من أيدي المسلمين في ١١٤٤م.

وما أن أتم عماد الدين زنكي حتى تآمروا عليه، وقتله أحد غلمانه في ١١٤٦م وخلفه ولده نور الدين، وكان إغتيال عماد الدين زنكي مدعاة لتطورات جديدة، قام بها من تآمروا عليه وقتلوه. إذ سرعان ما انطلقت من أوروبا الحملة الصليبية الثانية بقيادة (كونراد الثالث) ملك ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وقد انتهت بالفشل، وبعد أن أتم الله النصر على الحملة الصليبية الثانية، استطاع نورالدين أن يستولي على «حِمْص» وأن ينزل بالصليبيين هزيمة كبيرة في معركة لقي فيها أمير أنطاكية الصليبي مصرعه، ثم انتزع دمشق من حاكمها الخائن المتعاون مع الصليبيين سنة ١١٥٤م، وفي ١١/٨/١١٦٤م نجح نورالدين في استدراج الصليبيين إلى «ارتاخ» وأوقع بهم هزيمة ساحقة، وأسر الملكين الألماني والفرنسي دفعة واحدة.

وكان نورالدين زنكي قد حاول توسيع دولته فأرسل «أسد الدين شيركوه» نائبه في دمشق الذي قام بمحاولة في ٤/١١٦٤م لانتزاع مصر من أيدي الفاطميين، تمكن خلالها من احتلال بلبيس، والشرقية، إلا أن الوزير الفاطمي الخائن «شاور» استنجد بملك بيت المقدس (عموري) وخَوَّل له حق حماية مصر من «شيركوه»، فتقدم عموري، واستولي على بلبيس في ٤/١١/١١٦٨م وارتكب مجزرة كبرى في حق أهلها، ثم زحف صوب القاهرة، ومارس إجراما غوغائيا جعل الوزير الخائن ينقلب على عموري، واحترقت مدينة الفسطاط في الصراع بينهما وطلب شاور العون من نور الدين الذي وصل في العام ذاته، واخترق الصحراء، وتقدم إلى القاهرة، وضم جيش مصر إلى جيشه، وانسحب عموري عائدا إلى بيت المقدس وهو يجر أذيال الخيبة والفشل سواء في رغبته في حكم مصر مباشرة، أو في إعدادها للحملة الصليبية القادمة إلى مصر، والتي وصلت بالفعل في يوليو عام ١١٦٩م وقد حاول فيها الأسطول البيزنطي حصار دمياط، ولكنه فشل وانسحب.

وبعد وفاة أسد الدين شيركوه إثر فشل الحملة الصليبية سابقة الذكر أمر الخليفة الفاطمي بتعيين (يوسف بن أيوب) المعروف (صلاح الدين) وزيراً له بدلا من (شيركوه) .

وسرعان ما أعاد صلاح الدين الأمور إلى نصابها في عام ١١٧١م، وأسقط الخلافة الفاطمية، وأمر بالدعوة للخليفة العباسى، وأعاد مصر إلى قلب أمتها واستعد للزحف العظيم المظفّر إلى القدس .

وقد تمكن جيش صلاح الدين من فتح النوبة فى ١١٧٢م، ثم فتح اليمن فى ١١٧٤م، وبعد أن توفى نورالدين زنكى فى العام ذاته تقدم صلاح الدين فى العام التالى ١١٧٥م إلى الشام وانتصر على الزنكيين عند قرون حماه، وأعلن نفسه ملكًا على مصر والشام، وأقره الخليفة العباسى على ما فعله .

وبدأت جولات متواصلة من الكر والفر السريعة والمتلاحقة بين الصليبيين وأعوانهم من الخونة من جهة، وجيش صلاح الدين من جهة أخرى، وفى تلك الآونة تمكن الأتراك السلاجقة من إلحاق هزيمة ساحقة بالإمبراطورية البيزنطية التى انتهى عصر ازدهارها منذ ذلك الحين، وفى الوقت ذاته كانت معركة (تل السلطان) التى انتصر فيها صلاح الدين على التحالف الكائن بين الزنكيين والصليبيين بين (حماة، وحلب) .

وفى سنة ١١٨٣م تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبى من ضم حلب إلى مملكته بعد حصارها واستسلام حاكمها، وشرع بعدها فى لم شمل الأمة استعداداً ليوم المعركة الفاصلة مع الغزاة الصليبيين، وأخذ يتجهز ويتهيأ لا يَكلُّ ولا يفتر من الجهد المتواصل، والعمل الدؤوب (ليوم الفصل) حتى جاء الرابع من يوليو عام ١١٨٧م، فانقضّت جيوش صلاح الدين لملاقاة جيوش الصليبيين التى زحفت إليه عند (تلال حطين) بالقرب من بحيرة طبرية، فضربهم ضربة قاسية قاضية تمكن بها من سحق الجيوش الصليبية فى ما تعرف تاريخيا (موقعة حطين الكبرى) .

واستمر فى جهده وجهاده حتى استعاد بيت المقدس فى ٢ / ١٠ / ١١٨٧م وحفظ دمائهم على عكس ما فعلوه هم حين دخلوا المدينة، حيث قتلوا سبعين ألف مَدَنِّى فى واحدة من أبشع مذابح التاريخ .

وقد سقطت المدن اللبنانية والفلسطينية فى أيدى صلاح الدين الواحدة تلو الأخرى عقب انتصاره الكبير فى موقعة حطين، ولم يهْنأ صلاح الدين بانتصاراته، فلم يمض عام ١١٨٩م حتى انطلقت من أوروبا الحملة الصليبية الكبرى الثالثة بقيادة

(ريتشارد قلب الأسد، وفيليب أغسطس) للإستيلاء على بيت المقدس، ودارت معارك عنيفة في محاور مختلفة، ولم تتمكن هذه الحملة إلا من الإستيلاء على عكا بعد حصار دام عامين، حيث استسلمت المدينة في ١٢/٧/١١٩١م، وبعد المقاومة العنيفة، والمعارك الطاحنة التي كبدت الصليبيين كثيراً من الخسائر البشرية جنح الصليبيون للسِّلم، ووقع معهم صلاح الدين (صلح الرملة) في ٩/١١٩٢م الموافق عام ٥٨٨هـ.

وقد توفى البطل الإسلامي الكبير، المجاهد العظيم (صلاح الدين الأيوبي) في الرابع من مارس سنة ١١٩٣م في دمشق بعد خمسة أشهر من إبرام صلح الرملة ودُفن بجوار الجامع الأموي.

ولعل الموقف البطولي للمجاهد الأسطوري صلاح الدين الذي (دوَّخَ) الصليبيين وأزل أنفهم، وكسر شوكتهم، ووضع نهاية حملاتهم على الشرق، هو الذي فسر لنا ذلك التحالف القديم بين الصهيونيّة والصليبية ضد الإسلام وأهله.

فبعد سقوط القدس في أيدي اليهود عام ١٩٦٧م قال (راندولف تشرتشل) رئيس الوزراء البريطاني في الفترة ما بين ١٩٥١ : ١٩٥٥م لقد كان إخراج القدس من سيطرة الإسلام حلم المسيحيين واليهود على السواء، إن سرور المسيحيين لا يقل عن سرور اليهود، إن القدس قد خرجت من أيدي المسلمين، وقد أصدر الكنيست اليهودي ثلاثة قرارات بضمها إلى القدس اليهودية، ولن تعود إلى المسلمين في أية مفاوضات مقبلة ما بين المسلمين واليهود[1].

وها هو الجنرال الفرنسي (جورو) عندما تغلب على جيش « ميسلون » خارج دمشق توجه فوراً إلى قبر صلاح الدين وركله بقدمه وقال (ها قَدْ عدنا يا صلاح الدين)[2].

وتعددت الحملات الصليبية على الشرق حتى عبرّ الأوروبيون علنا عن جهلهم وتخلفهم حيث أرسلوا هذه المرة حملة من نوع خاص هي حملة الأطفال الصليبية الشهيرة في عام ١٢١٢م والتي انطلقت من ألمانيا وفرنسا، قوامها بضع آلاف من الأطفال دون الستة أعوام في مشهد غريب ولخدمة غرض أشد غرابة – هو استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين، بينما الأطفال يتخطفهم الموت داخل أوروبا ذاتها، وأعداد كبيرة منهم تقع في أيدي تجار الرقيق داخل أوروبا لتُباع في أسواق النخاسة

---

(١) حرب الأيام الستة / راندولف تشرشل.

(٢) القومية والغزو الفكري ص٨٣.

دون إثم اقترفوه، أو ذنب ارتكبوه سوى التصديق بقول الدجالين المتاجرين بالدين المسيحى.

وفى ١٢١٧م حتى ١٢١٨م جاءت حملة عسكرية أخرى إلى عكا، وزحفت لغزو مصر عام ١٢١٨م وذلك فى عصر الملك العادل سيف الدين أبو بكر (١٢٠٠ : ١٢١٨م) وقد تولى الحكم بعده الملك ناصر الدين محمد بن العادل (١٢١٨:١٢٣٨م).

* * *

(جـ) واحتدم الصراع

وحدث الخلل حيث أصيب العالم الإسلامى مترامى الأطراف بمجموعة من الإنتكاسات الشديدة، والهزات العنيفة المتتالية، حيث سقطت بخارى، وسمرقند الإسلاميتين فى أيدى جنكيز خان سنة ١٢١٩م وباتت مظاهر حضارتها فى خبر كان، وسقطت دمياط بشمال مصر على البحر المتوسط فى أيدى الحملة الصليبية الخامسة فى العام ذاته بعد حصار دام عدة أشهر، بينما جيوش جنكيز خان المغُولية تغزو الأقاليم الشّرْقية من الإمبراطورية العباسية، وجاءت الحملة الصليبية السادسة بقيادة «فردريك الثاني» امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد تمكن من احتلال بيت المقدس سنة ١٢٢٨م، وقد اتفق الإمبراطور الرومانى مع السلطان الأيوبى (الكامل) ليقوم الأخير بتسليم بيت المقدس للصليبيين مقابل هدنة تعهد فيها الأول بمنع الحملات الصليبية لمدة (١٠) عشرة سنوات.

وتتابعت الإنتكاسات، وتوالت الهزائم، وحلت المصائب فوق رؤوس المسلمين فى دولة الموحدين فى (٦٣٣هـ: ١٢٣٥هـ)، وفى العام التالى سقطت قرطبة فى أيدى الأسبان المسيحيين، وفى المدة من ١٢٣٨ : ١٢٣٩م (٦٣٦هـ) سقطت تباعا مدن (بلنْسيه، مرسيه، قرطبه) سقوطا نهائيا فى أيدى الأسبان الشماليين المسيحيين.

وفى الشرق زحف الملك الأيوبى الناصر حاكم «الكرك» وفلسطين على بيت المقدس فجأة، واحتلها، وهدم تحصيناتها وعاد إلى الكرك فى ١٢٣٩م، ثم تحالف صاحب دمشق «الصالح اسماعيل»، وصاحب حمص «المنصور إبراهيم» مع الصليبيين ضد الصالح أيوب صاحب مصر، وتنازل الثلاثة للصليبين عن المسجد الأقصى، وقبة الصخرة.

وفى الغرْب سقطت مرُسية فى أيدى الإسبان المسيحيين فى ١٢٤٣م، وفى العام التالى ١٢٤٤م تمكنت القوة الخوارزمية العاملة مع الصالح أيوب من استرداد بيت

المقدس من الصليبيين، وفى العام التالى كانت موقعة «غزة» وفيها تمكن الجيش المصرى والخيالة الخوارزمية من سحق الصليبيين، والحلف الثلاثى الخائن الحليف، ثم زحف أيوب نحو دمشق واستولى عليها فى عملية تصحيح لمسار التاريخ الذى ضل الطريق بعد صلاح الدين.

بينما أوروبا تدعم أسبانيا حتى سقطت «أشبيلية» فى يد الأسبان فى ١٢٤٨م، وهو العام الذى قادت فيه فرنسا حملة أوروبية صليبية سادسة بقيادة الملك الفرنسى (لويس التاسع)، وتجمعت فى قبرص لتهاجم مصر فى العام التالى، ونزلت بدمياط، وتمكنت من الإستيلاء عليها عام ١٢٤٩م، وفى العام ذاته طرد حكام البرتغال المسلمين منها.

وفى عام ١٢٥٠م تمكن البطل المملوكى «ركن الدين الظاهر بيبرس» فى معركة المنصورة من أسر الملك الفرنسى لويس التاسع بعد هزيمة حملته عسكريا، وقضى عليها تماما فى فارسكور والمنصورة.

والغريب أن الملك الفرنسى (لويس التاسع) بعد فشله الذريع فى حملته الصليبية العسكرية على مصر، وعلى الرغم من وقوعه أسيراً بأيدى المصريين فى «المنصورة» الغريب أنه بعد أن أفرج المصريون عنه وعاد إلى بلاده أدلى بتصريح لشعبه، وللجماهير الصليبية، ولملوك أوروبا المتحمسين للسيطرة على الشرق، وضع فيه برنامج عمل لحكومات أوروبا، حدّد فيه برنامجه السياسى، وذكر فيه تصوره عن كيفية إنهاء الصراع الإسلامى بما يجعله يميل للصالح الأوروبى الصليبى ويقضى على المقاومة الإسلامية من جذورها من خلال برنامج عمل محدد عبرّ عنه وشرح فى نقاط قائلا:

إنه لا يمكن الإنتصار على المسلمين من خلال الحرب، وإنما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة التالية:

(أ) إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وإذا حدثت فلنعمل على توسيع شقتها ما أمكن حتى يكون هذا الخلاف عاملا فى إضعاف المسلمين.

(ب) عدم تمكين البلاد العربية والإسلامية أن يقوم فيها حكم صالح.

(جـ) إفساد أنظمة الحكم فى البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد، والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة.

(د) الحيلولة دون قيام جيش مؤمن بحق وطنه وعليه يضحى فى سبيل مبادئه.

(هـ) العمل على الحيلولة دون قيام وحدة عربية فى المنطقة، والعمل على قيام دولة غريبة فى المنطقة تمتد من غزة جنوبا إلى أنطاكية شمالا، ثم تتجه شرقا، وتمتد حتى تصل إلى الغرب[1].

ومنه يتضح حقيقة الدور الفرنسى الرائد فى الدعوة لقيام دولة للكيان الإسرائيلى فى قلب العرب، وكذلك فى تحديد حدودها الجغرافية المعروفة بحدود دولة إسرائيل الكبرى التى يحلمون بها (من) النيل إلى الفرات.

وظلوا يعملون لأجلها فى الخفاء حتى جاء الإنتداب البريطانى على فلسطين، وأثناءه صدر وعد بلفور الشهير بإعلان قيام دولة يهودية فى فلسطين.

لقد رسمت فرنسا المخطّط، ووضعت أفكاره ومبادئه، وتبنته بريطانيا ونفذته. وجاءت بإسرائيل إلى الوجود، وضمنت أمريكا سلامتها، وأمنها وتفوقها على جيرانها... ولنا فى التاريخ المواعظ والعبر.

ثم جاءت آنذاك الطامة الكبرى على الشرق لتقضى على الخلافة العباسية فى ١٢٥٩م وتُدمِّر حضارتها الزاهرة، حيث هجم التتار على بغداد، ثم تقدموا نحو الشام يتزعمهم (هولاكو) وقتلوا عشرات الآلاف من المسلمين، وكان نصيب حلب وحدها من القتلى (خمسين ألفا)، ثم تهيأو لغزو مصر فخرج جيش مصر بقيادة « سيف الدين قطز » للقائهم، ومعه قائده اللامع بيبرس، والتقى الجمعان عند « عين جالوت » فى ١٢٦٠م فسحق جيش المماليك المصرى جيشَ المغول، وبدّد جموعه وأحبط مساعيه لاحتلال مصر، وفى الغرب سقطت مدينة قادش فى أيدى الأسبان المسيحيين فى ١٢٦٢م.

وفى المغرب العربى: قصد الصليبيون بحملتهم الجديدة بقيادة الملك الساذج الذى أهمل شئون بلاده، وأقحمها فى حروب لا طائل منها، وشغل نفسه كذلك بأعمال عسكرية، وحملات حربية لم يكن أهْلا لَهَا، فجاء إلى تونس فى ١٢٧٠م حيث الحضارة القرطاجية، ومات هناك الملك الساذج (لويس التاسع)، وفشلت الحملة الثامنة فى ذات العام.

وفى الشرق : تابع بيبرس مطاردة المغول فى العراق وطهر وادى الفرات من دناستهم فى ١٢٧١م، وخلفه بعد وفاته سنة ١٢٧٧م السلطان الأشرف « خليل بن قلاوون » الذى انتزع عكا من أيدى الصليبيين، وأنهى تماما عهد الحملات الصليبية على فلسطين، ولم يتبق إلا بعض المدن الساحلية فى يد الصليبيين، وإلى حين.

* * *

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص٩ .

خامسًا : العبور الصليبى إلى آسيا

اتجهت أوروبا بكل قواها نحو مصارعة المسلمين، والقضاء عليهم، فبدأت بإخراجهم من الأندلس والبرتغال وفرنسا، والمناطق التى فتحوها فى أوروبا ، ثم الهجوم العسكرى المباشر على الشام ومصر، والعبور إلى جنوب المتوسط للتوغل فى إفريقيا، ثم السعى الحثيث للإنطلاق شرقًا نحو آسيا خاصة بعد أن اكتشف « فاسكودى جاما » طريق رأس الرجاء الصالح – أى – قمة الرجاء والأمل الذى يرجونه ويأملونه كطريق آمن وصالح لتحويل التجارة الأوروبية ومسالكها بعيداً عن الشرق الأوسط. فهو إذا الطريق الصالح كبديل عن الطرق العربية لذلك فهو (رأس الرجاء) وصِفَتُه أنه (صالح) للمهام الجديدة ، والآمال المرجُوّة. وخاصة لأنه ربط أوروبا بالهند فعلاً بدون الحاجة إلى البحرين الأحمر والمتوسط، وكان ذلك مؤشراً قويًا على الزحف الأوروبى المحتمل نحو الهند.

ويؤكد التاريخ أن أوروبا كلها قد تحرّكت للقضاء على الإسلام والمسلمين. دليلنا على ذلك الحملات الصليبية التى بدأت فى ١٠٩٥م ولم يشأ لها أصحابها أن تتوقف عنها حتى يومنا هذا، وعبوراً إلى الغد البعيد؛ وما قيام إسرائيل إلا دليلا حيا وقويا على صحة قولنا، وما دعمها ومساندتها وتسليحها إلا برهانا عمليا وفكرًا منطقيا ينطق بأن طريق الصراع لازال طويلا، ولم يزل.

وإذا كانت أوروبا قد فشلت فى حملاتها الصليبية على مصر وسوريا، وفلسطين وتونس، فإن الروح الصليبية لا تزال كما كانت متأججة فى نفوس الصليبيين الذين باتوا يستغلون كل فرصة، وينتهزون كل موقف، ويوظفون كل حدث ويطوعونه كى يشفوا ما فى صدورهم من غل، وحقد، ويفرجوا ما فى أنفسهم من حنَق وتذمر، وهو امتداد لما كانوا فيه، وما يتطلعون إليه من محاولات للصراع ضد الدين الإسلامى الحنيف، وإجهاض فتوحاته، والاجهاز على أتباعه.

فجاء العبور الصليبى إلى آسيا معبراً عن صدق توجهاتهم، واضعا الهند نصب عينيه أولا نظرا للعلاقات القوية والقديمة التى تربط بين العرب والهنود منذ ما قبل الفتح الإسلامى. وبخاصة بعد أن توغل الإسلام فى نفوس الهنود بما قد يسمح عبر قليل من الوقت بقيام امبراطورية إسلامية عظمى تضم شرق آسيا، ووسطها، وآسيا الصغرى، والجنوب الغربي منها حيث (قبلة المسلمين وقلعتهم) مكة المكرمة، وتضم

كذلك الساحل الشمالي الإفريقي، بالإضافة إلى الممالك الإسلامية التي قامت في إفريقيا بحيث تتفوق هذه الخلافة أو الإمبراطورية على العصرين الأُموى، والعباسي بما حازت من قوة، وما أضيف لها من إمكانيات بشرية وإقتصادية، وقتالية، في مجملها تجعل أوروبا الصليبية على شفا جرف هار ينهار بها إلى قاع التاريخ، أو قد يضع مستقبلها في مهب الريح، خاصة مع ثراء الهند الفاحش الذي كان من الممكن أن يقدم دعائم الإقتصاد القوي الذي يقيم إن قُدرٌ له أعتى الإمبراطوريات وأغناها، وأقواها، وأشدها بأسًا وسؤددًا، بحيث تُخضع العالم لمشيئتها وتَجعله رهن إشارتها.

هذا الثراء الذي وصفه الإمبراطور (جهانكيز) في مذكراته قائلاً: «كان ملوك الهند يُوزَنُونَ بالذهب في الأعياد، ويُوزَعُون ما يساويها على الفقراء والمساكين، وكُنتُ أُوزنُ في السنة مرتين: مرة في أول السنة الشمسية، ومرة في أول السنة القمرية، وأُنفق ما يساوي وزني على الفقراء والمساكين، وكان الملوك يخرجون للتنزه مساء كل يوم، فيأخذ كل واحد منهم كيسين من المال، فيهما آلاف الروبيات، وفي الطريق يُوزَعُون هذه الأموال على الفقراء، فكان الشعب ينعم بالخيرات من كل ناحية، وكان كل دخل الهند لأهلها، لا يخرج منه شيء حتى تكدست الأموال عند كل الناس، وصارت الهند مضرب الأمثال في الغنى، وهذا ما أغرى الغرب بالإتجار مع الهند، ولكنه اتجه لسلب الأموال بدل التجارة الحقيقية فانقلب ثراء الهند إلى وإنجلترا، فأصبحت إنجلترا تعيش في رغد من العيش، في حين يموت الهند جوعًا»[(١)].

ويمكن القول بأن البحرية البرتغالية كانت أسبق الدول الصليبية الإستعمارية وصولا إلى الهند، وقد سيطرت القوات البرتغالية على شرقي إفريقيا وعلى مسقط في ١٥٠٨م بقيادة (البوكيرك) أشهر القواد البرتغاليين، وقد عرف عنه شدة تعصبه لدينه وبلاده، وقد استطاع أن يستولي على جزيرة «سقطرة» ليكمل للبرتغال السيطرة على الطريق الموصل إلى الهند، وقد أنشأ البوكيرك قواعد عسكرية برتغالية في الطريق الجديد عند كل من هرمز، وسقطرة، وجُوا، ثم إمتد الطريق إلى ملقا.

وقد تمكنت البرتغال من تكوين جيشها القوي وبناء أسطولها البحري، ثم القيام بحركة الكشوف الجغرافية، بعد تأسيس مملكتها في الفترة من ١١٣٨: ١١٣٩م على أطلال الحكم العربي بعد طرد المسلمين والعرب من البرتغال كما ذكرنا سابقا.

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند ص٣٨٠، ٣٨١ د.عبدالمنعم النمر.

وقد تمكن البرتغاليون من الوقوف على أسباب التقدم الكبير فى فروع العلم، والمعرفة حتى تمكنوا من إنشاء امبراطوريتهم بمعدل سريع وفى زمن قياسى، الأمر الذى جعل البرتغال هى صاحبة السبق والريادة الأوروبية فى سيادة البحار، والقيام بالإكتشافات البرتغالية منذ عام ١٤٩٨م، وكذلك تمكن البرتغاليون من إقامة جيش قوى تمكن فى وقت قصير من إقامة قلاع عسكرية على طول الساحل الإفريقى الغربى حيث تم إنشاء قاعدة تجارية على ساحل الذهب (غانا) سنة ١٤٨٢م، وفى شرق إفريقيا حيث أقامت مراكز تجارية فى موزمبيق سنة ١٥٣١م، ووصولا إلى الهند، وما كان ذلك ليكون إلا بفضل العلوم العربية، والرحالة العرب، والعلماء العرب الذين برعوا فى علوم الفلك والنجوم والصناعات العسكرية والمدنية على السواء، وقد حقق البرتغاليون أقصى استفادة ممكنة مما برع فيه العرب ونبغوا ... وذلك هو الدرب ذاته الذى سار عليه الأسبان الذين تمردوا على الحكم العربى الإسلامى لبلادهم وتمكنوا من القضاء عليه فى ١٤٩٢م وقد استفاد الأسبان جيدا من الحكم العربى الإسلامى لبلادهم التى كانت رمزاً لحضارة الدولة الإسلامية فى أوروبا، ولما وقف الأسبان على علوم العرب فى الطب والبحار والرياضة، والفلك، والفنون، والآداب، ومختلف فنون العلم والمعرفة، بما يسمح لهم بممارسة سياسة الدولة أعلن ملكهم (فيليب الثالث) سنة ١٦١٠م طرد نصف مليون أندلسى ممن أُجبروا فى السابق على اعتناق المسيحية أو تظاهروا بذلك - إلى خارج أسبانيا فهاجروا إلى مصر وتركيا والمغرب، وحتى فرنسا بينما بلغ جملة من هاجروا من الأندلس فى عام ١٤٩٢م وفى عام ١٦١٠م حوالى ثلاثة ملايين مسلم، غير الملايين التى أبيدت والملايين التى هاجرت قبل ١٤٩٢م[١].

عموما، فقد ظلت البرتغال سيدة الموقف بلا منازع لمدة تُقارب المائة عام، ولم يضعفها ويهدد وجودها غير وقوعها تحت الإحتلال الأسبانى عام ١٥٨٠م مما أتاح لدول أوروبية أخرى دخول حلبة المنافسة بالزحف إلى المناطق الأسيوية والإفريقية للإستيلاء عليها أو إقامة امبراطوريات لها، وهذه الدول هى (هولندا ، فرنسا، إنجلترا).

وكان البرتغاليون قد عملوا على أن يضُموا إليهم بعض جماعات الهندوُس التى تمقُت المسلمين، وتكرههم بشدة بقصد اتخاذهم وسيلة داخلية لخلخلة الدولة

(١) موجز تاريخ العالم ص١١٨ ، ١١٩ .

الإسلامية، وإضعاف سلطتها فى البلاد، غير أن البرتغاليين أساءوا معاملتهم للهندوس، ولم يحفظوا لهم عهدهم، وأبخسُوهم حقوقهم، الأمر الذى أجبر هؤلاء إلى حسن استقبال الوافدين الأوروبيين الجدد، وانقسموا إلى أتباع ثلاثة مع كل من الهولنديين، والفرنسيين، والإنجليز الذين تسابقوا للسيطرة على الهند وجزرها الشرقية .

وكانت هولندا صاحبة السبق فى الوصول إلى الهند بعد البرتغاليين، فَسيطرت على بعض المناطق فى جزر الملايو واندونيسيا التى دخلها الإسلام منذ عام ١٤٠٠م وتغلغل فى نفوس أبنائها بفضل نزاهة التجار المسلمين وأمانتهم، وأخلاقهم، كما طردت البرتغاليين من ملقا سنة ١٦٠٦م، وقد أسس الهولنديون عاصمة امبراطوريتهم الإستعمارية فى جزر الهند الشرقية فى جزيرة (جاوا) الإندونيسية وأطلقوا عليها اسم (باتافيا) ، وضمت إليها جزيرة سيلان، كما أنشأت هولندا بعض المراكز التجارية، والإستعمارية فى الهند مع تركيز اهتماماتها بالهند الشرقية وجزرها الشاسعة مما سمح للإنجليز بالتوغل فى الداخل الهندى، أما فرنسا فقد قنعت ببعض المناطق على الساحل عند (كاليكوت) .

ونتيجة لهذا الصراع الأوروبى حدثت بعض المقايضات، وقُدِّمت بعض التنازلات خاصة مع قدوم الأسبان الذين ورثوا البرتغال فى الهند .

وقد تمكنت إنجلترا باستعمال أساليب دبلوماسية ملتوية أن تتخلص نهائيًا من فرنسا، وأن تقضى على نشاطها تماما فى شبه القارة الهندية .

وباتت الهند تحت هذه الظروف مقسمة ثلاثة أقسام :

١- قسم مستقل فى الشمال فى منطقتى (نيبال، وبوتان) وسكانها من الهندوس الأقوياء الشجعان، والأراضى فيها وعرة وغير مستوية، وقد قنع الإنجليز من هذا القسم بأن يكون لهم فيه مستشار فقط .

٢- القسم الثانى : وكان تحت الحماية البريطانية ويشمل مناطق (حيدر أباد، كشمير، ميسور) ويدفع حكام هذه المناطق خراجا للإنجليز نظير حمايتهم لهم .

٣- القسم الثالث : تقوم إنجلترا بإدارته مباشرة، وهو يشمل مناطق (البنغال، البنجاب، مدراس، وبمباى)[1] .

وأعلنت بريطانيا فى ١٨٥٨م عن تبعية الهند للتاج البريطانى (المرصع بالماسة

---

(١) باكستان فى ماضيها وحاضرها ص١٨ د.عبدالحميد البطريق .

المسروقة من شاهجهان دلهى - كما سبق) وبالتالي أصبحت المواجهة الإستعمارية مباشرة وبارزة ضد المسلمين فى كل اتجاهاتها وتوجهاتها، وازداد القمع ضد الهنود، وقد عمل الإنجليز على تغيير اللغة، ومناهج التعليم، فحلت اللغة الإنجليزية مكان الفارسية (لغة البلاط)، وبدأت سياسة الإحلال والإبدال فى الحركة الثقافية ومكونات أفكارها محل اللغة العربية، والثقافة الإسلامية السمحة، وبدأت بناء المدارس، والكنائس لخدمة المفاهيم الجديدة، وبناء الفكر الحديث الذى يسهل طبيعة عمل ومهام الجماعات التبشيرية المسيحية التى كانت قد بدأت بالفعل فى الظهور وفى ممارسة أعمالها حتى من قبل إعلان السيادة البريطانية على الهند.

ويمكن إيجاز التعبير عن الزحف الإنجليزى على الهند فيما قاله واحدٌ من إخوة دينهم، وبنى أوطانهم حيث قال غوستاف لوبون:

توصل الإنجليز لفتح الهند برجال الهند وأموالها، وبعبارة أخرى بجنود غير جنود إنجلترا، ونقودا غير نقودهم، فالحق أن الهند دانت للإنجليز بجيوش مؤلفة من الهندوس، وبأموال أُخذت من خزائن الهند[1].

* * *

---

(١) حضارة الهند ص٢٥٠ .

الباب الثالث
شبه القارة الهندية مأساة متكررة

الفصل الأول
أولاً : استنساخ نماذج القهر
ثانيًا : حلم إقبال
ثالثًا : أفغانستان : أمجاد وحضارة
رابعًا : نماذج من الشرق الأقصى
خامسًا : الأقليات الإسلامية فى آسيا

الفصل الثانى
أولاً : ميلاد حرب جديدة
ثانيًا : نظام اللانظام.
ثالثًا : الحضارة الإسلامية فى النظام العالمى الجديد
رابعًا : بائعو الوهم
خامسًا : العداوة عالمية وجهرية

الفصل الثالث : العصافير فى القفص الأمريكى
أولاً : ألوان الطيف
ثانيًا : العلمانية والزمن الردئ
ثالثًا : اللقيطة والعسل المسموم
رابعًا : إحياء الميت وإماتة الحى
خامسًا : السعى نحو النهاية

الفصل الأول

أولاً : (أ) استنساخ نماذج القهر

هبت الهند فى ثورات عارمة ضد الإستعمار الإنجليزى مبكراً عن إفريقيا نظراً لعوامل الضعف التى تعرضت لها إفريقيا دون سواها.

وكان المسلمون هم قيادات هذه الحركات الثورية، ولذلك أصبح المسلمون هدفًا دائمًا لإنتقام الإنجليز والإيقاع بهم خاصة بعد الإعلان البريطانى بتبعية الهند للتاج البريطانى وما ترتب عليه من آثار (سبق ذكرها) ، فحمل المسلمون عبء الجهاد ومقاومة الإستعمار، وتولد عن ذلك نشوء فرصة ذهبية للإنجليز بالإيقاع بمسلمى الهند ليمتد بذلك تطلعهم للصراع ضد الدين الإسلامى الحنيف، خصوصا أن المسلمين حكموا الهند طيلة ثمان مائة سنين، وهو ما يعنى القضاء على الحكم السابق ودَحْرِ بقاياه، واندثار أخباره على أمل استقرار الأوضاع لصالح الإنجليز، وقد سنّ الإنجليز قوانينًا جديدة تُضعف المسلمين، وعينوا قضاة للحكم بموجب القوانين الجديدة من الهندوس، ومن الإنجليز أنفسهم، واستولوا على أملاك الدولة والأوقاف.

واستبد الإنجليز بالمدارس التى تحمل الطابع التبشيرى الذى يخدم أغراضهم الإستعمارية، وبالتالى فقد عُنيت هذه المدارس عناية خاصة وكاملة بإبعاد الطلاب عن الإسلام أو بجذبهم إلى المسيحية، واستبعد الإنجليز المسلمين من الوظائف القيادية والتحتية فى قوات النظام (الأمن)، والجيش، والمناصب الكبرى، وقد وضع الإنجليز حواجز ضَخْمة بينهم وبين المسلمين فى الهند بوجه خاص.

أما أخطر المساوئ التى نتجت عن استيلائهم على أموال الأوقاف الإسلامية أن أُغلقت المدارس الإسلامية لإنعدام الواردات، والافتقار إلى أى دخل على جملة التعذر والندرة، وامتنع المسلمون عن إلحاق أولادهم بالمدارس التى أنشأها الإستعمار خشية إبعادهم عن الدين أو تنصيرهم وبذلك ابتُلِى المسلمون بأربع يرمينهم من كل جانب (الإنجليز، الجهل، الفقر، والمرض).

هذا غير أنه كانت هناك مدرسة واحدة تعد من أهم مدارس الفكر والجهاد فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإستعمار فى الهند، وهى المدرسة التى عاصرت أحرج الفترات فى تاريخ الإسلام فى الهند، وكان لقائدها (شاه ولى الله الدهلوى) من

(١٧٠٤ : ١٧٦٣) مدة حياته - دوره البارز والهام فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين دفاعًا عظيمًا، حيث أعلن « شاه ولى الله » أن الجهاد أصبح هو الطريق الوحيد للمسلمين وأن الهند « دار حرب، وليست دار سلام »، وأن الواجب على المسلمين أن يهبوا للدفاع عن بلادهم ضد الإستعمار الذى انتقلت إليه السلطة الفعلية فى البلاد بعد أن سلبوها بالقوة، وأوجب كذلك القتال ضد السيخ الذين زادوا من عدوانهم على مسلمى الهند تحت رعاية الإنجليز وبدعمهم.

وقد وضع « شاه ولى الله » النُواة الأولى لمقاومة الإستعمار، وقد ساهم فى ذلك إصدار كتابه الجديد (حجة الله البالغة) الذى يعتبر بحق منارة الفكر للباحثين لإرتكازه على صحيح الدين فى القرآن الكريم، والسنة الصحيحة، هذا بالإضافة إلى العمل البناء فى التقريب بين التصوف من جانب، والفقه والسنّة من جانب آخر، وكانت هذه هى أول مدرسة توفيقية تظهر فى هذا المجال.

وقد تطورت أمال الهنود، وتطلعوا إلى الإستقلال بعد عشرات السنوات من رحيل (ولى الله) فى ١٧٦٣م، حيث ظهرت جماعتان مهمتان كان لهما دور كبير فى استقلال شبه القارة الهندية، وفى قيام باكستان وهما:

المؤتمر الوطنى:

منظمة سياسية هندية أُسست فى ١٨٨٥م من ممثلين للهندوس، والمسلمين الهنود، وأعضائها من المثقفين، وكانت تعمل فى بادئ الأمر من أجل الإستقلال الداخلى للهند، واتخذت الوسائل الدستورية لذلك.

تطور فكر المؤتمر وغير اتجاهه فطالب بالإستقلال التام بضغط من المتشددين المكافحين من أعضائه بقيادة المهاتما غاندى.

واتخذ حزب المؤتمر المقاومة السلبية سياسةً له حتى أعلن إستقلال الهند من طرف واحد فى ١٩٣٠ .م فحاربت حكومة الهند الإنجليزية قادتد، واعتقلت عددًا منهم وألقت فى السُجُون آخرين، وقد حدث تحول كبير فى سياسة منظمة المؤتمر الوطنى بعد ظهور حزب الرابطة الإسلامية.

* * *

ثانيًا: حزب الرابطة الإسلامية:

وهو حزب سياسى تكون فى الهند بزعامة (نواب سليم الله) فى ٣٠/١٢/١٩٠٦م واستجاب له زعماء المسلمين سواء من المنتمين لحزب المؤتمر، أو من المنضمين الجدد، وقد اتّجه الحزب فى مراحله الأولى إلى حماية حقوق المسلمين فى شبه القارة الهندية، سبيلهم إلى ذلك العمل جنبا إلى جنب مع أعضاء حزب

المؤتمر من الهنود للمطالبة معًا بالحكم الذاتى للهند، ثم بالإستقلال التام، على أن يكون للمسلمين حقوقهم الطبيعية فى الهند.

انتشر أعضاء الرابطة الإسلامية، وذاع صيتهم، وعقدوا اجتماعاتهم فى كل أرجاء شبه القارة فى (دكّا - بومباى - كلتكتا - الله آباد - دلهى - لاهور - كراتشى) وكانت قرارات الحزب وتوصياته لخدمة المصالح الإسلامية، ورعاية المجتمع الإسلامى فى الهند.

وفى اجتماع الرابطة سنة ١٩٣٠م فى (الله آباد) ألقى الشاعر الإسلامى الفيلسوف (محمد إقبال) بيانًا أُعتبر آنذاك معبراً عن شعور المسلمين وآمالهم، وطموحاتهم، حيث قال (إن الوسيلة لتحقيق آمال المسلمين لا تكون إلا بتكوين دولة خاصة لهم فى الهند)[١].

ومن أبرز الشخصيات المؤسسة لحزب الرابطة الإسلامى - الشاعر الإسلامى محمد إقبال، ولياقت على خان (أول رئيس وزراء للباكستان) ومولانا محمد على وأخوهُ شوكت على ثم القائد الأعظم [محمد على جناح] الذى كُتب له أن يقود حزب الرابطة الإسلامى نحو تحقيق آمال المسلمين فى الهند.

* * *

(ب) سيد أحمد خان

وُلد فى ١٨١٧م وتوفى سنة ١٨٩٨م، يمكن القول أنه بحق قائد عصر الصحوة والنهضة، والتنوير والتطوير بعد (شاه ولى الله) حيث كان الرُجلان يعملان على رفع شأن المسلمين فى الهند، وإن اختلفا فى أسلوب معالجتهما للمواقف وتطويعهما للظروف، فقد عَلِمْنا أن (ولى الله) اهتم بالعلم والجهاد، أما سيد أحمد خان، فقد اهتم بالعلم وحده، باعتباره ضرورة للقضاء على الجهل والتخلف، وكان يرى أن الجهاد فى سبيل الإستقلال يمكن أن يأتى بعد ذلك. وقال فى ذلك جملة شهيرة (لا استقلال لجاهل أو مخرف).

ربما جاء ذلك منه لأنه كان يرى أن الجهاد أمل بعيد بسبب تمكن السلطة الإنجليزية من البلاد فى عصره، فسلك مسالك متنوعة.

هاجم « السيد أحمد خان » اتجاهات بعض الصوفية بتقديس الأولياء، والأضرحة، وعَدَّ ذلك زندقة لا تمثل الإسلام، خاصة مع نجاح الإنجليز فى استمالة

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ٣٢٧.

بعض العناصر الصوفية، ونجاحه فى حقنها بثقافة غربية لا تتفق مع تعاليم الإسلام جملة وتفصلاً، خاصة إذا سلمنا بأن الصوفية من حيثية الأصل (هى صنيعة استعمارية خالصة)[1]، تعمل فى خدمة الإستعمار، وتدافع عن مصالحه بشكل غير مباشر، فشأن الصوفية منذ نشأتها إخراج الناس من عبادة الله إلى عبادة المشايخ، ومن التوحيد إلى الشرك وعبادة القبور، ومن السنة إلى البدعة، ومن العلم بالكتاب والسنة إلى تلقى البدع والخرافات، ممن يدعون رؤية الله، والملائكة، والرسول، والجنة، وقد كان سيد أحمد خان محقًا بكل الوجوه فيما ذهب إليه، حيث كان قول أهل الصوفية فى الجهاد – «إنكاره» – وقالوا أن التسليم للغاصب المستعمر واجب دينى، لأن المقاومة عندهم اعتراض على قدر الله، وامتناع لحصول مشيئته وعقيدتهم الراسخة تنطق فتقول (إذا سلط الله على قوم ظالمًا فليس لأحد أن يقاوم إرادة الله أو أن يتأفف منها)[2].

وهذه أدعيتهم يقولونها عند حلقات الذكر: (رهيم . رهام)، (هو. هو)، (ياهو ياهو)، (الغوث، والغياث).

وهذه عباداتهم: فقد ذكرت بعض فرقهم أن الصوفى إذا تقدم به السن رُفِعَت عنه التكاليف، كما يزعمون من جميع العبادات كالصلاة وغيرها.

وهذا شعرهم: الذى بلغ ذروة الأسف على التصوف، والمتصوف الغارق فى بحر العشق الإلهى الذى لا يفيق من نشوته التى تشهد بها أشعاره الفاسدة، فيما قال شاعرهم «الحلاج» الصوفى[3]:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا	نحن رُوحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا

كما تجرأ على الله تعالى بقوله:

مزجت روحك فى روحى كما	تمزج الخمرة بالماء الذلال
فإذا مسك شىء منى	فإذًا أنت أنا فى كُلٍّ حلال

وإليك أسوق قولته الشهيرة عندما سأله سائل عن بطن الجُبّة فقال: «ما فى الجبة[4] إلا الله».

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص٤٩.

(٢) المصدر السابق، الصفحة ذاتها.

(٣) تعرف عليه أكثر، وعلى نماذجه الكثيرة فى كتابنا القادم/ أغوار العالم الإسلامى.

(٤) الجُبّة: ثوب سابغ واسع الكُمّين مشقوق المقدم، يُلبس فوق الثياب، كثيرا ما يرتديها علماء الدين والمشايخ، وكانت لباسا رسميا للطلبة إلى عهد قريب.

وعلى الرغم من أن (خان) اهتم بالتعليم، وحارب الصوفية إعمالاً لصحيح الدين إلا أن الكثيرين اعتبروا مهادنته للإنجليز خيانة وطنية.

غير أنه لم يأبه لهؤلاء وسار مُصراً فى طريقه غير متردد، متجهاً بجهد مشكور وعمل عظيم نحو الإصلاح الإجتماعى، والنهضة الثقافية، وأنشأ المدارس التى لا يهابها المسلمون، وتعاظم تفكيره فعمل على إنشاء جامعة تسير على نهج الجامعات الغربية، فأقام كلية فى (عليكرة) بالغرب من دلهى، وقد تحولت بعد إلى جامعة شهيرة، وتوالى بعدها بناء الكليات، والجامعات، فأُنشئت دار العلوم فى أواخر القرن التاسع عشر سنة ١٨٧١م، ثم الجامعة الملّيّة الإسلامية سنة ١٩٢١م، ثم أُسست جمعية علماء الهند خلال الحرب العالمية الأولى، وكانت لها صحف ومجلات وأنشطة دينية وإجتماعية واسعة، كما اهتمت بإنشاء المدارس الإسلامية، والأنشطة التربوية والدينية.

تتابعت الأجيال وتواصلت الأفكار، وتطورت مأساة المسلمين فى الهند حتى وصلت إلى حد إرتكاب الفظائع والمجاذر البشعة بين المسلمين والهندوس وكانت ضحايا المسلمين فيها أكثر بكثير.

حتى تعالت الأصوات بتقسيم الهند، وإقامة دولة إسلامية، حدد ملامحها، وبين حدودها الجغرافية عندما قال (إنى أحب أن أرى البنجاب ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية، والسند، وبلوخستان) قد اتحدت جميعها فى دولة واحدة تحكم حكماً ذاتياً فى داخل الإمبراطورية البريطانية أو خارجها.

وقد علق الرسميون الباكستانيُّون على هذا الخطاب بقولهم (إن حل المشكلات المعقدة المرتبطة بالمسلمين بالهند جاء لا من قبل أحد الساسة، ولكن من قبل أحد الشعراء المفكرين، وهو الفيلسوف « محمد إقبال » .

* * *

ثانياً : حلم إقبال

(أ) قيام دولة باكستان

ظهرت بوضوح حالة الإنقسام التى وقعت بين الحزبين الكبيرين فى الهند خاصة بعد المعارك الدامية بين الهندوس والمسلمين، وأصبحت بالتالى هناك مؤسستان، تعمل إحداهما لصالح الهندوس (المؤتمر) والأخرى لصالح المسلمين (الرابطة).

وازْدَادَ الرابطةُ الإسلامى قُوةً بإنضمام « محمد على جناح » إليه فى ١٩١٢م بعد

انشقاقه على المؤتمر الوطنى لتيقُّنه من صعوبة التوفيق بين الحزبين، الكبيرين، واستحالة العمل معًا لصالح الهند الموحدة خاصة مع نشر بذور الشقاق والخلاف، وبث سموم النزاعات والمصادمات الدامية التى زرعها ورواها الإنجليز فازداد حجم الخلافات وازدادت كذلك اتساع الهوة بين أبناء شبه القارة، وقد بدأ الشاعر الإسلامى (محمد إقبال) يصرح وبشدة بضرورة التقسيم فى عام ١٩٣٠م، بعد وقوع المجاذر المشار إليها، وابتداء من هذا التاريخ بدأ الإتجاه لتقسيم الهند يتصاعد يومًا بعد يوم حتى جاء عام ١٩٣٧.م، وفيه أعلن القائد الأعظم « محمد على جناح » أن الإستقلال التام هو هدف المسلمين بالهند، وصرخَ قائلاً : (إن المسلمين لن ينزعوا عن أعناقهم أغلال الإنجليز، ليلبسوا أغلال عبودية الهندوس).

تلك الصرخَة كانت حجر الزاوية الذى أقامت عليه الرابطة الإسلامية فى إجتماعها بلاهور عام ١٩٤٠.م قرارها بالتقسيم، وأعلن جناح أن المسلمين والهندوس، أمَّتَان مختلفتان فى الثقافة، والحضارة، واللغة، والفن، والتشريع، والتراث، وأن مائة مليون مسلم على الأقل لا يمكن أن ينتقلوا من عناء إلى عناء.

والواجب الذكر ههنا أن كلمة (باكستان)[1] ظهرت لأول مرة عام ١٩٣٢.م، وهى بمعنى (أرض الأطهار، أو دولة الأطهار)، وجاءت على لسان أحد الزعماء المسلمين المناضلين (شودرى رحمة) وفى العام ذاته قام مسلمو كشمير بنضال باسل ضد المظالم التى كان يلحقها بهم المهراجا غير المسلم المعين حاكمًا لبلادهم، وقد أصدر البرلمان البريطانى فى ١٩٣٥.م قانون حكومة الهند، ثم أُجريت الإنتخابات فى ١٩٣٧م، ونال حزب المؤتمر أغلبية كبيرة، وألَّف حكومات فى زوايات الهند كلها، ولم يُشرك فيها الرابطة الإسلامية.

ولم يكتف المؤتمر بهذا بل راح يضيق الخناق على اقتصاديات المسلمين وعمل بنشاط كبير على مَحْو تُراثهم الثقافى.

صار هذا الإتجاه السائد دافعًا قويًا ومدعاة ضرورية إلى التمسك بتقسيم الهند، وقيام دولة باكستان، وعقدت الرابطة الإسلامية سنة ١٩٤٠م مؤتمرها السنوى « بلاهور » وفيه اتُّخذ قرار يقضى بوجوب تقسيم شبه القارة، وتأسيس دولة إسلامية مستقلة ذات سيادة، وهو القرار الذى عُرِف باسم (قرار باكستان).

وفى ١٩٤٤م. عقدت سلسلة من الإجتماعات بين (غاندى، وجناح)، وصرح أحد زعماء الهندوس فى أحد الإجتماعات بأنه يرى منح المسلمين الحق فى تقرير

---

(١) هى – من: باك – بمعنى : طُهْر، (ستان)– ومعناها : أرض – أى دولة الاطهار.

مصيرهم، وأعلن زعيم الهند (غاندى) أن مسلمى الهند لو اتفقوا على تنفيذ مشروع التقسيم فلن تُوجد على هذه الأرض قوة تحول بينهم وبين ذلك.

وفى ١٩٤٦م اتُخذت كل التشكيلات والمجالس لحزب الرابطة بعموم الهند قراراً، عززوا فيه قرار ١٩٤٠م الداعى لوجوب التقسيم، وطالبوا الحكومة البريطانية بإصدار إعلان صريح عن قيام هذه الدولة، إلا أن الإنجليز ماطلوا، وتقاعسوا، وخيبوا آمال المسلمين مجاملة للهندوس الرافضين للتقسيم.

فخرج المسلمون فى عام ١٩٤٦م فى شتى أنحاء الهند فى مظاهرات عارمة ضمّت القيادات، والأفراد، متهمين بريطانيا بالتحيز مع الهندوس.

وفى مطلع عام ١٩٤٧م بدأ المسلمون حملة كبيرة ومنظمة من العصيان المدنى العام، اشترك فيه الشباب والشيوخ، والرجال والنساء.

ومع الإصرار الكبير، والاتجاهات السياسية، والإجتماعية النشطة، وحملات العصيان. أرسلت حكومة لندن [لورد مونتباتن] نائبا عن الملك، وهناك أعلن قرار الحكومة البريطانية الجلاء عن شبه القارة نهائيًا قبل ١٥/٨/١٩٤٧م، وتقسيمها إلى دولتين «هندستان – باكستان».

وبدأت بذلك باكستان الكبرى المسلمة بعَلَمها الخفاق بين أعلام العالم الإسلامى كله وعُيِّن محمد على جناح حاكمًا عامًا لباكستان، وعين مندوب الملك الإنجليزى حاكمًا عامًا على الهند بناء على توصية حزب المؤتمر.

* * *

(ب) مأساة الباكستان

عندما أعلنت حكومة لندن على لسان مندوبها قيام دولة باسكتان، لم يكن ذلك منها بغرض الحفاظ على حياة المسلمين ورعاية مصالحهم، وضمان وحدتهم وقوتهم، لأن الحاكم الهندستانى (اللورد مونتباتن) بالاتفاق مع الهندوس سمح بقيام الباكستان المكونة من قسمين، باكستان الشرقية ومساحتها [٥٤٫٥٠] ميلا مربعًا، وباكستان الغربية ومساحتها (٣١٠٫٢٣٦) ميلا مربعًا.

هذا التقسيم يضمن إنبات بذور الفتن والإضطرابات منذ ولادة باكستان المتعثرة، وذلك لأن الباكستان الشرقية تتمتع بوفرة السهول الخصبة، والأنهار والجداول، وتمتلك كل مقومات الحياة، والإقتصاد، والترف.

أما الباكستان الغربية فهى تقع على مساحات واسعة من الصحراء الوعرة ويكثر بها الجفاف، وهذه هى نقطة تولد الصراع وقوة العزيمة، وشدة البأس للتغلب على الطبيعة.

هذا بالإضافة إلى المسافة بين قسمى الدولة (الشرقية، والغربية) التى تبلغ ١٠٠٠ (ألف) ميل هى مساحة الأراضى الهندية المعادية، والفاصلة بين شطرى الدولة المقسّمة.

وقد كانت باكستان الشرقية غَريبةً على الغَرْبِيَّةِ بسبب اختلاف اللغة، والطبيعة الجغرافية، والعنصر البشرى، ولم يكن هناك رابطة غير الدين زد على ذلك أن باكستان الشرقية إذا نظرت إليها فى الخريطة الصماء تجد أن الهند توشك أن تبتلعها، فهى تحيط بها من الشرق والشمال، والغرب، ولذلك تركتها لتنضم لباكستان، وهى واثقة أنها غنيمة فى يدها، وقريبة لها فى الوقت المناسب، وقد رفضت الحكومة الهندية بإصرار منذ نشأتها فكرة إنضمام منطقة كشمير المسلمة لباكستان الغربية علمًا بأنها جار ملاصق، تضمها حدود، ولغة، وثقافة، وتراث مشترك، وذلك لأن انضمام كشمير للباكستان سيكون إذ ذاك أبديًا، وسينتج عنه قوة للمنطقتين.

وهذه وتلك صناعة استعمارية خالصة ترمى إلى خلق بؤر للتوترات والنزاعات، والمصادمات لفترات طويلة، كى تستنزف خيرات الهند والباكستان معًا، وحتى لا تنهض الحركة الإسلامية بالهند كما كانت قبل التقسيم، وكى لا تعود الحضارة الهندية العظيمة التى لها فضل كبيرة حتى الآن فى مكونات التاج الملكى البريطانى وتجميله بالماسَة الهندية السليبة.

أما المسلمون فى الهند فقد كانوا يعيشون فى بقاع شبه القارة الهندية بتفاوت ملحوظ فى الكثافة، من مكان إلى آخر، وقد ظهرت مشكلة البنغال الذى تم تقسيمه إلى بنْغَال شرقية تتبع باكستان الشرقية، وبنغال غربية تبعت الهند، وهذا ما يتطابق تماما مع إقليم البنجاب – فالبنجاب الغربية تبعت باكستان الغربية، والبنجاب الشرقية تبعت الهند.

وقد تعرض المسلمون فى البنجاب الشرقية، والبنغال الغربية، وكذلك فى العاصمة الهندستانية « دلهى » التى كانت تذخر بالملايين من المسلمين الذين لم يهاجروا إلى أى من القسمين الباكستانيين – تعرضوا لمجازر رهيبة فى تلك المناطق على أيدى الهندوس الأكثر عددًا، والمسلحون تسليحًا جيدًا من لدُن الإنجليز والحكومة – وذلك فى عَقب قرار التقسيم الصادر فى ١٥ / ٨ / ١٩٤٧م.

وبعد جهود مضنية تمت هجرات متبادلة بين الجانبين، إلا أنها تمت فى ظروف أليمة، زيادة على ما لاقاه المسلمون من جور وطغيان، وقهر وقمع، وقتل وتشريد من قِبَلِ الهندوس، والسيخ قبل التقسيم.

ويعاني المسلمون في الهندستان من عدم الحصول على حقهم في الوظائف العامة والرئيسية.

وتجدر الإشارة إلى أن عدد المسلمين الذين آثروا البقاء في الهند على الهجرة إلى باكستان عند التقسيم حوالي (ثمانين ٨٠ مليوناً) وهم يزيدون الآن على المائتي مليون مسلم داخل الهند الهندوسية.

هذا وقد أقبل المنبوذون في الهند على اعتناق الإسلام، والبالغ عددهم حوالي مائة مليون فرد من السيخ والهندوس على السواء، وقد توجهوا إلى الإسلام بقوة، يبتغون فيه العزة بعد الذل والكرامة بعد الهوان، وكذلك بحثاً عن المساواة، والحق والخير، لأنهم في ظل حكومتهم الهندوسية حُرموا من الوظائف المناسبة وعانوا أشد المعاناة من الفقر، والجهل، والتخلف.

* * *

(جـ) مشكلة حيدر آباد

حيدر آباد: هي إحدى المقاطعات الهندية الواقعة على الحدود الباكستانية الجنوبية، وحاكمها هو الأمير (عثمان على خالد)، وقد آثرت تلك المقاطعة الإستقلال عن الهند والباكستان، وقد أغضبت هذه الرغبة الحكومة الهندية، فانتهز حكام الهند وفاة القائد الأعظم محمد على جناح في ١١ / ٩ / ١٩٤٨م، وأثناء انشغال الباكستان بهذا الحدث الجلل - اقتحمت الجيوش الهندية المقاطعة - وقاوم جيش حيدر آباد بضعة أيام غير أنه أعلن استسلامه في النهاية أمام الزحف الهندي الجرار، وحملت الهند ثروة الزعيم (عثمان) الذي يُعد من أغنى أغنياء العالم في وقته، فملأت خمسة قطارات أثْقَلَها الذهب والفضة التي عثروا عليها بقصوره، بالإضافة إلى صناديق مكتظة باللؤلؤ والجواهر.

ولا تزال المنطقة موضع صراع مرير حتى الآن، خاصة إذا علمنا أن نسبة السكان المسلمين إلى الهندوس لا تتعدى ٦٪، ومن ثم فإنهم أقلية في بلاد الزندقة والكفر.

* * *

(د) مشكلة جمُّو وكشمير

لعلك تلاحظ أن إقليم حيدر آباد سابق الذكر ذو الأغلبية الهندوسية تم تعيين حاكم مسلم له كما تقدم ذكره، فتلك إذا هي السياسة الثابتة للإستعمار الذي دأب على مغايرة دين الحاكم لدين الأغلبية المحكومة.

وفى جمُّو وكشمير الواقعة على قمة جبال الهملايا التى كان يسكنها عند التقسيم (٥) خمسة ملايين مواطن، منهم ٨٠٪ من المسلمين، وعلى الرغم من ذلك فقد عين الإستعمار حاكمًا هندوسيًا لهذه المنطقة ذات الأغلبية المسلمة الساحقة، والملاصقة للباكستان الإسلامية.

سُرَّ المسلمون فى الإقليم سرورًا كبيرًا، وفرحوا فرحًا عظيمًا بتنفيذ قرار التقسيم، وعملوا بجهد جبار حتى يتمكنُوا من الإنضمام للباكستان، فهى الدولة الأم بالنسبة لهم، كما أن انضمامهم واندماجهم فى الباكستان يعنى خلاصهم من عسف الحاكم الهندوسى، وجُوره، فقد استبد بهم، وأنزل بهم سوء العذاب، وأذاقهم ألوان الإضطهاد، غير أن الوالى الهندوسى المعين من قبل الحاكم العام الإنجليزى على الهند لم يكن يريد الإنضمام للباكستان، فاستقطب جماعات من السيخ، والهندوس من ولاية البنجاب ذات الأغلبية الهندوسية إلى مقاطعته ليقوى بهم ضد المسلمين، وانفجرت الأوضاع فى جمُّو وكشمير بعد تذمر المسلمين من تصرف المهراجا الوالى، وامتد الصراع حتى طال الوالى ومساعديه من المسلمين - وفر إلى الهند، وهناك أعلن عن رغبته فى الإنضمام إليها، وطلب منها العون والمساعدة، فاتخذت من دعوته ذريعة، واندفعت بقواتها نحو كشمير، واحتلت الجزء الأكبر من كشمير، واستطاعت باكستان الإستيلاء على الجزء الباقى الذى اندفعت إليه لحماية المسلمين من بطش الهندوس من جانب ولتحقيق آمالهم فى الإنضمام إليها من جانب آخر.

وبات شعب جَمُّو وكشمير يستصرخ العالم - والأمم المتحدة لإجراء انتخابات حرة تحت رعاية الأمم المتحدة لتحديد مستقبله، وتقرير مصيره، ولا أحد يزيل صراخ المستصرخين حتى الغد.

وما زال الجيشان الهندى والباكستانى يقف كل منهما فى وجه الآخر وتحدث بينهما مواجهات يقع فيها العديد من القتلى منذ بداية الصراع وحتى كتابة هذه السطور.

* * *

(هـ) مأساة باكستان الشرقية

قلنا أن إقليم البنغال تم تقسيمه بين باكستان، وهندستان، وحقيق بنا فى هذا المقام أن نقول أن المسلمين بدأوا صلاتهم بالبنغال فى أوائل الهجرة وقد استفاد المسلمون من رحلات الجغرافيين، والتجار العرب فى إقامة الصلات القوية والعلاقات المتينة مع البنغاليين، وقد تطورت هذه الصلات عبر السنوات حتى زادت وازدهرت فى عصر الدولة العثمانية.

وقد استولى المسلمون على إقليم البنغال عام ١٢٠٢م ، وقد أصبحت بذلك جزءاً من العالم الإسلامى، وأخذت فى توثيق علاقاتها مع بقية المجتمعات الإسلامية[١].

وعندما تفككت حكومة دلهى الهندوسية المركزية فى القرن الرابع عشر، قامت فى البنغال أسرٌ إسلامية استقلت بالبلاد تقريباً.

وقد لعب (لورد مونتباتن) الحاكم الإنجليزى العام على هندستان بالتواطؤ مع الهندوس دوراً خطيراً فى تقسيم البنغال على الشكل الذى ذكرناه سابقاً.

وكان من الممكن أن تعلن البنغال الشرقية استقلالها عن الدولتين كما فعلت حيدر آباد بما يحقق مصلحتها أولاً وأخيراً، إلا أن الخديعة والمكر والأساليب الإلتوائية فى خداع المسلمين بشأن إمكانية قيام دولة باكستانية تضم إليها إقليم البنغال فى فترات لاحقة.

وفى ١٩٥٤ .م صدر تصريح عن أحد زعماء الباكستان من أعضاء حزب المؤتمر الوطنى أن أعداءهم الذين سعوا فى تقسيمها، وأنه سوف يبذل كل ما فى وسعه لإستقلال باكستان الشرقية[٢].

وفى هذا القول نستشم تلميحاً يدل على أن الزعماء فى الباكستان الشرقية كانوا غير راضين عن التقسيم، وأن ميولهم إلى الهند أقرب، لا إلى عمل باكستانى إسلامى وحدوى، لذلك اتجهت تلك الزعامات – مبكراً نحو الإستقلال عن الباكستان الغربية، وقد تحقق لهم مرادهم عام ١٩٧١ .م، وعندئذ وقعت الكارثة حيث زحفت جيوش الهند بقيادة (صهاينة اسرائيليين) ويهود مرتزقة فى ٤ / ١٢ / ١٩٧١ .م إلى باكستان الشرقية مع ما أسمته الهند (اللاجئين العسكريين) من الباكستان وإقليم البنغال الشرقى، ووقعت بالجيش الباكستانى الشرقى هزيمة قاسية، نتجت عنها آثارٌ مدوية، فقد قتل الجيش الهندى والمرتزقة الإسرائيليين (عشرة آلاف عالم مسلم) فَوْرَ حسْم المعركة مع الجيش الباكستانى لصالحهم، ثم قتلوا مائة ألف من طلبة المعاهد الإسلامية، وموظفى الدولة، وتم إيداع خمسين ألفا من العلماء وأساتذة الجامعات فى السجون، وقتلوا أكثر من ربع مليون (٢٥٠,٠٠٠) من مسلمى الهند ممن هاجروا من الهند إلى باكستان قبل الحرب فراراً من اضطهاد الحكم الهندوسى، وسلب الجيش الهندى ما قيمته (٣٠) ثلاثين مليار روبية هندية من باكستان الشرقية التى سقطت من أموال الناس والدولة[٣].

---

(١) القاموس الإسلامى ص٣٧٣ – ١ – أحمد عبدالله – بتصرف.

(٢) باكستان فى ماضيها وحاضرها ص٨٦ د. عبدالحميد البطريق.

(٣) مأساة بنكلاديش – بتصرف.

وعلى ذلك - لك كل الحق - فى أن تتخيل أشكال التعذيب التى صبها الجيش الهندى على المسلمين العزل فيما دُعى بعد ذلك بنجلاديش بدلاً من الباكستان الشرقية.

(و) إغتصاب المسلمين فى الهند

يمارس الهندوس حق التعبير الجهرى عن أحقادهم ضد الإسلام والمسلمين، بإفتعال الأزمات، وإنزال النكبات، ورميهم بالويلات، تشهد على ذلك مذابح الهندوس للمسلمين فى مساجدهم ومحال أعمالهم وبيوتهم، بما فى ذلك هدم مساجدهم وتدميرها، وإحراقها، ومن أشهر هذه الفظائع ما ارتُكِبَ ضد التحفة المعمارية فى زمانها (مسجد البابرى) الذى بناه « ميرباقى » أحد ضباط الملك بَابر حفيد مؤسس أكبر دولة إسلامية فى الهند فى عام ٩٣٥هـ (١٥٢٨ م) تيمور لنك.

حيث بدأ الهندوس الأزمة ضد المسلمين بمؤامرة قذرة تهدف إلى وضع تماثيل إلههم المزعوم (رام) فى المكان المخصص لوضوء المصلين فى جانب المسجد، بزعم أن إلههم وُلِدَ فى هذا المكان بعينه.

حدثت تلك الواقعة فى عهد الحاكم الشيعى (واجد على شاه) الذى لم يتحرك فيه ساكن، وقد تعاون مع الإنجليز فى كبت المسلمين وقمع ثورتهم، وعندما هبّ العلماء والمجاهدون لتطهير المسجد من الأصنام، قاومهم « شاه » بجنوده، وقضى عليهم. واستُشهدوا جميعًا فى سبيل الله.

صارت تلك الحادثة منذ وقتها ودامت نواة للفتنة، وبذرة للصراع الذى اشتد فيما بعد بين المسلمين والهندوس، فصدرت قرارات الحكومة الهندية بإغلاق المسجد فى عام ١٩٥٢ م، واستجابة لطلب الهندوس، ورضاءً لمطالبهم المتكررة، أو رضوخًا للضغوط الداخلية والخارجية، ومع الإنحياز المفضوح من السلطة هناك صدر فى السبت ٢٠ جماد أول ١٤٠٦هـ الموافق ١ / ٨ / ١٩٨٦م قرارًا رسميًا بإعادة افتتاح المسجد ولكن هذه المرة للهندوس فقط كى يمارسوا فيه عاداتهم الممقوتة، وعباداتهم الضالة وطقوسهم البغيضة الشاذة.

هذا بخلاف ما أقدمت على فعله رئيسة وزراء الهند الأسبق (أنديرا غاندى) فور توليها أمور السلطة عام ٦٦ : ١٩٧٧م، حيث أعلنت عن برنامجها الوطنى الطموح لإقامة مجتمع هندوسى نموذجى يخلو من أى عنصر أجنبى، وأرست لذلك مشروعها الوطنى للقضاء على الجنس المسلم وتطهير البلاد منه، عن طريق حقن

رجال المسلمين بدم البغال، للحد من زيادة النسل المسلم، والقضاء على القدرة الإنجابية عند الرجال - وبذلك يمكن التخلص من صداع المسلمين خلال فترة زمنية غير بعيدة فى مؤامرة دنيئة خسيسة لا تترك أثرا جنائيا يمكن أن يقلب العالم الحر عليها.

وقد ذكرنا فى كتابنا (المؤامرة الكبرى على العروبة والإسلام والإنسانية عبر مراحل التاريخ) ما تيسر لنا ذكره من معاناة المسلمين فى شرق وجنوب آسيا - وفى منطقة البلقان، وفى إفريقيا، وأوروبا، واستراليا، وأمريكا، وفيه كذلك قدمنا عرضا وافيًا للتاريخ التآمرى على المسلمين فى شتى بقاع العالم منذ عصر إسرائيل (يعقوب عليه السلام) حتى وقتنا هذا.

وسنذكر لاحقًا إن شاء الله تعالى فى لقائنا هذا ما تيسر من صراع الحضارات فى بعض مناطق العالم حيث الصدام على أشده بين الأقليات المسلمة التى تدافع عن وجودها أمام قهر عبدة الطاغوت وهو ما يؤكد حقيقة أنه لا حوار إلا للدبابات فهى اللغة الرسمية عندما تتصارع الحضارات.

* * *

ثالثًا: (أ) أفغانستان - أمجاد وحضارة

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن البلاد المعروفة الآن باسم أفغانستان لم تحمل هذا الإسم إلا منذ أواسط القرن الثامن عشر.

وهذا قول حسن يؤكد عليه ما نراه عندما نستعرض تاريخ إيران وجغرافيتها حيث يبين لنا حقيقة أن هذه المنطقة لم تفصلها حدود سياسية عن إيران، كتلك التى تفصل بين الدولتين الآن، فالمقاطعات والأقاليم كانت تحمل أسماء مختلفة وكثيرة، كانت أفغانستان فى طليعتها وأهمها، الأمر الذى يبين أن تلك المقاطعات لم تُكوِّن وحدة سياسية واحدة، أو ترتبط برباط لغوى أو جنسى متفرد، ومن ثم فإن أفغانستان قد تعرضت عبر التاريخ كما تعرضت له إيران من نصر وهزائم، وكانت أكثر الديانات شيوعًا قبل الإسلام (الزرادشتية، والبوذية).

وقد سبق أن بينا كيف دخل الإسلام إلى أفغانستان، وذكرنا كذلك كيف أنها أخضعت إيران بعضًا من الوقت لسلطانها الذى امتد كذلك إلى الهند عبر أُسْرات وممالكَ إسلامية عديدة ولفترات مختلفة.

وقد قامت بريطانيا بمحاولات عديدة لاحتلال أفغانستان، وفشلت جميعها،

ومع شراهة المحاولات البريطانية، واستعار معاركها وحملاتها استعان الأمير (شير علي) بجيرانه الروس ليردّ بهم زحف الإنجليز، فازدادت وتيرة المعارك، وضاعف الإنجليز من قسوتهم باستخدام آلاتهم الحربية الحديثة، واشتعلت النيران في كابول التي استولت عليها بريطانيا، وفر الأمير إلى مزار شريف ومات هناك في ١٨٧٩م وتولى بعده ابنه يعقوب خان الذي أقضّ مضاجع الإنجليز، فأسروه، وأرسلوه إلى الهند، ولكن أخاه « سردار أيوب » قاد الأفغان بفكر منظم، وبمجهود جبار حتى تمكن من تحقيق انتصار جديد على بريطانيا في معركة (ميوند) .

وقد شهدت العلاقات الأفغانية الإنجليزية تحسنًا ملحوظًا بعد أن آلت السلطة الأفغانية إلى « عبدالرحمن بن أفضل » المنتمي لفرع آخر من الأسرة الحاكمة، وقد أيدته بريطانيا نكاية في فرع يعقوب الذي قاد الصراع ضدها .

وتقول المراجع أن عهد عبد الرحمن كان عهد تقوية السلطة المركزية، كما شهدت فترة حكمه هدوءًا نسبيًا في الصراع .

ثم خلفه الأمير « حبيب الله » ١٩٠١م وهو من أصحاب العقول المستنيرة، ومن أصحاب البصيرة، فاهتم بالتعليم، وبتحسين علاقاته بالجوار، غير أنه قُتل في مؤامرة سنة ١٩١٩م، فخلفه ابنه أمان الله الذي لُقِّب (نادرشاه) وتميّز عصره بأنه من أزهى عصور أفغانستان، حيث أعلنت بريطانيا عن إنهاء حمايتها لأفغانستان، بعد أن ذاقت الأمرّين، وتذوقت طعم الهزائم المتتالية على أيدي الأفغانيين، وقد أقامت أفغانستان علاقات دبلوماسية مع العديد من دول العالم، وحققت كذلك إصلاحات كبيرة في مجالات حيوية كالتعليم، والتشريع، والمالية، والإدارة .

ومن أشهر الأحداث التي وقعت في عصره استيلاء الروس على بخاري، واحتلالهم الكامل لها عام ١٩٢٣م بعد أن نقضت روسيا معاهدة الصداقة الموقعة بين البلدين عام ١٩٢١م، وربما ثمنًا لمساعدتهم الأفغان ضد الإنجليز في وقت سابق، وانغمث أمان الله في حياة اللهو والترف، وانصرف بعيدًا عن الحفاظ على استقلال بلاده، وسافر إلى فرنسا، وهناك مارس أعمالاً لا تتفق وتعاليم دينه، وبعد عودته أصدر أوامره بإجبار علماء الدين على ارتداء ملابس الفرنجة، وأجبر النساء على التبرج، فثارت عليه ثورة الثائرين في ١٩٢٩م ففر خارج البلاد، وتنازل عن الحكم لأخيه الذي لم يتمكن من الصمود أمام الثورة فسقطت « كابول » في يد جاهل قاطع طريق هو (باتشه سقا) .

آنئذٍ تمكن « محمد نادر شاه » سفير بلاده في باريس من العودة إلى أفغانستان وقاد جيشًا من أتباعه، استرد به ملكه، ونودي به ملكًا في ١٩٢٩م، ولم يلبس أن أغتيل في ١٩٣٣م فخلفه ابنه « محمد ظاهر شاه » الذي ظل ملكًا على بلاده حتى

أطاح به ابن عمه « محمد داوود » فى ١٧ / ٦ / ١٩٧٣م فى انقلاب رسمى تم فيه إلغاء الملكية، وإعلان الجمهورية، وأعلن داوود نفسه رئيسًا للجمهورية ، وغادر الملك البلاد إلى أوروبا ليعيش فى المنفى.

وبدأت أفغانستان فى دخول مرحلة جديدة من الفوضى السياسية بإعلان الجمهورية والعمالة للشيوعية.

* * *

(ب) الزحف الأحمر صوب الجنوب الأخضر

ارتبط الإقتصاد الأفغانى بالإقتصاد السوفيتى ارتباطًا وثيقًا من عصر الملك « محمد ظاهر شاه » عندما وقع البلدان اتفاقية تجارية سنة ١٩٥٠م، اعتمدت بعدها أفغانستان على الإقتصاد السوفيتى أشد الإعتماد، وكانت هذه هى البذرة الأولى فى تغيير السياسة الأفغانية التى تأثرت كثيرًا بالنفوذ السوفيتى، مما نتج عنه ظهور جماعات فكرية جديدة، صار لها نشاطًا ملحوظًا، وأخذ يقوى شيئًا فشيئًا على يد المجموعات اليسارية (الماركسية) التى أصدرت لها صحيفة يسارية بحتة فى عام ١٩٦٦م، وقد أسسها (نور محمد تراقى) وحفيظ الله أمين لتكون لسان حال حزب (خلق)[1].

وقد دخلت الشيوعية من أوسع الأبواب التى هيأها النظام الجمهورى الذى خلقه محمد داوود ابن الأسرة المالكة، والذى لم يعمق نظام الحكم الديمقراطى ولم يعمل له.

وفى إبريل ١٩٧٨م قاد (نور تراقى، وحفيظ الله أمين) انقلابًا عسكريًا ضد محمد داود فأصبح الأول رئيسًا للدولة، والثانى للوزراء، واتجه قادة الإنقلاب مباشرة إلى تعميق جذور الشيوعية فى هذا البلد الإسلامى السنى شديد التدين الذى حكم شبه القارة الهندية، وخضعت له بلاد الفُرس والهند.

وهكذا تحاورت الدبابات، وتلاسنت المدافع، لا فى حوار للحضارات كما يقولون بل فى واحدة من صدام مروع للديانات، حيث تعانق الأمريكيون، والسوفييت سرًا والتقيا فى حرام لكسر شوكة هذا الشعب المسلم صاحب الحضارة، والتاريخ، والبطولات والأمجاد، ناهيك عما تُضمره الشيوعية من أحقاد ومكاره جمة للإسلام وأتباعه، لأنهم يرونه خطرًا ريدياكيليا يهدد وجودهم، ويحارب معتقداتهم، لذلك قدّم السوفييت كافة أشكال المعونات والإمدادات للقيادة الأفغانية الجديدة

(١) الشعب.

العميلة لتخلصهم من صداع الإسلاميين الذين يقدمون العون للدول الإسلامية المستكينة فى البطن السوفيتى، وجنوبه (البطن الضعيف).

فاتجه تراقى بكل قوته لليسار، وقام بأكبر عملية تصفية فى تاريخ بلاده لأبناء الأسرة الحاكمة، والعاملين معهم من الفنيين، والمثقفين، والعلماء، تماما كما تفعل القوات الأمريكية الآن فى العراق وما تمارسه ضد حزب البعث والجيش والشرطة ورجال الإعلام والمنتمين إلى الرئيس العراقى (صدام حسين) ونظامه – وهم جميعًا ضحايا المؤامرة المعاصرة التى لا تستهدف الإطاحة بالرئيس العراقى فحسب، بل تستهدف الوجود العراقى ذاته[1].

وقد انشق رئيس حزب (بارتشام) – الراية – « بابراك كارمل » المشارك فى الإئتلاف الحاكم، وهاجم سياسة حزب الشعب (خلق) مجاهرة علنية فَنَاصَبَتْهُ الدولة العداء – ففرّ هاربًا إلى أوروبا الشرقية، وجردته الحكومة من جنسيته.

وقد استمر حزب بارتشام فى السير على سياسة زعيمه اللاجئ – فى مواجهة الحكومة – فساعد ذلك فى ظهور تيار آخر أشد معارضة، وأحكم تنظيمًا، وأعظم إيمانًا – وهو – تيار الجماعات الإسلامية التى يطيب لها القتال تحت راية (لا إله إلا الله) فى مواجهة النظام الأحمر ومحاربة الفساد، من أهمها:

- الجمعية الإسلامية : بزعامة الشيخ إبراهيم المجددى
- الثورة الإسلامية: بقيادة الشيخ ابن محمدى
- الجماعة الإسلامية الأفغانية: بزعامة برهان الدين ربانى
- جماعة مجاهدى الثورة الإسلامية: بزعامة سيد أحمد جيلانى[2]

بالإضافة إلى جبهة وطنية اسمها (الجبهة الوطنية لتحرير أفغانستان)، لم يستطع تراقى أن يصمد طويلاً أمام الجماعات الإسلامية، والمنشقين عليه من الإئتلاف الحاكم، وقد وحَّدَ بينهم وحدة الهدف، وإن لم يجتمعوا فى وحدة الصف، فألقى بنفسه فى أحضَان السوفييت. علّهُ – يجدُ بُدًّا أو خلاصًا ممّا يواجهه من الهجوم اليسارى، والإسلامى المتزامن، فوجد نفسه مضطرًا إلى توقيع معاهدة صداقة، ودفاع مشترك مع السوفييت عام ١٩٧٨م، اعتقادًا منه أنها طوق النجاة للخلاص من خضم المعترك المتلاطمة أمواجه، غير أنه كما قال المؤرخون: « وقع على اتفاق يَنُمُّ على استسلام واضح »، وقد طلب المزيد من العون، والإمدادات من أصدقائه الجدد فى

---

(١) انظر كتابنا: وحيد القرن ورياح التغيير.

(٢) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ص ٢٣٧ ج٨.

موسكو لدحر الثوار الذين تطورت أحداثهم إلى ثورات عارمة ومصادمات دامية فى معارك طاحنة خاصة مع انضمام فرق كاملة من الجيش الأفغانى إلى القوى الوطنية التى اجتمعت هذه المرة فى وحدة الهدف، ووحدة الصف.

حاول رئيس الوزراء قمع الحركة الوطنية، وإرهاب الثوار، فاعتقل الآلاف من الأفغانيين، وزج بهم فى السجون، واغتال كثيراً من المناضلين، والقيادات الثورية.

وقد تحدثت أنباء عن خلافات حادة بين رئيس الدولة (تراقى) ورئيس وزرائه (حفيظ الله) انتهى فعليًا بقيام الأخير بانقلاب مسلح فى ٩ / ١٩٧٩.م قُتل خلاله « تراقى »، وبعض وزراءه، وجمعٌ من أنصاره، ونصّب حفيظ الله أمين نفسه رئيسًا للجمهورية.

وقد أكدت الأحداث على أن الإنقلاب الأخير، وقع بتحريض من قوى خارجية لم يتم الكشف عنها حتى الآن، وهى تريد إحراج السوفييت فى أفغانستان، وتفجير أزمة حرب داخلية، بين القيادات الإسلامية التى تقاتل للخلاص من زبانية الغزو الأحمر، وربما خلق قيادة أفغانية عميلة تعمل فى خدمة القوى الخارجية ولمصالحها غير المباشرة، والتى فضحتها الأحداث بعد ذلك وكشفت عنها.

وهكذا ألقت الخلافات بين القيادات اليسارية بظلالها على الحركات الوطنية التى تزايدت بشكل ملحوظ، زلزل الأرض تحت أقدام حفيظ الله أمين، حتى فقد ثقته فيمن حوله وفى مقدمتهم الشيوعيين، فأعدم الآلاف، وسجن عشرات الآلاف من معارضيه، ونجح بعد ذلك إلى حد بعيد فى قمع الحركات الثورية، فازداد بالتّالى النفوذ السوڤيتى فى البلاد، ونقلت الحكومية السوڤيتية إلى أفغانستان خيرة خبرائها وجنودها لمساعدة النظام الماركسى هناك.

إلا أن انقلاب حفيظ الله لم يلبى طموحات السوفييت فى أفغانستان، ولم يف بمطالبهم، لذلك لم يقنعوا به ولا بنتائجه، فَقررُوا النزول مباشرة إلى البلاد، فقاموا بنقل عدد هائل من جنودهم بمعداتهم العسكرية إلى العاصمة كابول، وفى ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٩م، اكتظت قاعدة (باجرام) الجوية بالجنود الروس، وفى اليوم ذاته قام رجال المظلات السوڤيتية وقوات الإنزال الجوى بالهجوم على القصر الرئاسى لحفيظ الله، ومحطة الإذاعة، وأعلنت الإذاعة السوڤيتية فى موسكو أن انقلاباً حدث فى أفغانستان، أطاح بحفيظ الله أمين، وأن قادة الإنقلاب الجدد نفذوا فيه حكمًا بالإعدام.

استدعت موسكو عميلها « بابراك كارميل » الهارب فى أوروبا الشرقية، ونصّبته رئيسًا لأفغانستان.

ثم أعلن السوفييت أنهم دخلوا أفغانستان استجابة لطلب الحكومة الجديدة بزعامة رئيس الدولة كارمل.

ومع نهاية ديسمبر ٧٩م، سيطرت القُوّات السوفيتية على كابول العاصمة وبعض المدن الإستراتيجية الأخرى، وقد عرضنا فى إصدارنا الأسبق (المؤامرة الكبرى) للخروج السوفيتى المهين بعد أن خاض فى الوحل الأفغانى.

ولقد أناب السوفييت أنفسهم عن الأمريكيين فى تدمير أفغانستان وإحراق كابول دون أن يدروا أنهم هم أنفسهم الطُّعم المدسوس للصيد الثمين، وهو الوجود الأمريكى الدائم والصريح فى آسيا الوسطى بعد هذا المدد الهائل والدعم الكبير الذى قدمه الأمريكيون للمسلمين فى حربهم الضروس ضد الروس حتى خرج الدب السوفيتى ذليلاً جريحًا من الوحل الأفغانى، وما هى غير سنوات قليلة حتى بدأ التدفق الأمريكى العلنى على الأراضى الأفغانية باعتبارها الهدف الأول فى الاستراتيجية الأمريكية الاستعمارية الحديثة للسيطرة على العالم، والتى اتخذت لها أمريكا ذريعة اسمها القضاء على الإرهاب، ولعل أهم أهداف الحملة الأمريكية فيما أسْمَتْه وروجت له، وسوقته وابتلعه العالم من الدعاوى والأباطيل والأكاذيب القائلة بالقضاء على الإرهاب الدولى - لا يستهدف سوى المسلمين شعبًا وعقيدة، فالربط بين الإرهاب والمسلمين أصبح الآن (وسيلة وهدفًا)، وسيلة للهيمنة والنفوذ، وهدفًا للقضاء على المسلمين ومحاربة الدين الإسلامى ﴿ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٥٤].

* * *

رابعًا: نماذج من الشرق الأقصى

ذكرنا أن الإسلام دخل إلى هذه المنطقة من العالم، وانتشر هناك عبر رجالات من العرب، ومن أبناء الذين شرح الله لهم صدورهم للإسلام من أبناء تلك المناطق، وكذلك عن طريق التجار الذين اعتنقوا الدين الإسلامى أثناء رحلاتهم إلى البلاد العربية، وقد عادوا إلى بلادهم هادين مهديين.

وخَطا الإسلام خطوات واسعة على تلك الأراضى، خاصة فى المناطق الساحلية الزاخرَة بالحركة الملاحية الواسعة، وبمرور الزمن كثُرت الأُسر الإسلامية، وانتشرت بعد زواج المسلمين العرب من الإندونيسيات، ومن بنات جزر الملايو، الأمر الذى زاد من اعتناق الكثير من أُسَرِ تلك البلدان للإسلام لِمَا وجدوه من صدق، وأمانة وإخلاص من المسلمين.

انتشر الإسلام وتأكد فى نفوس أتباعه الذين زاد إقبالهم عليه حتى أصبح للمسلمين شأن كبير، وأضحوا قوة سياسية إلى جانب قوتهم الروحية، حتى سقطت إمبراطورية «ماجابيت» ذات التقاليد الغريبة على السكان. أمام الزحف الإسلامى وسرعان ما تكونت الممالك الإسلامية عظيمة الشأن، واسعة المدى، ذائعة الصيت فى تلك الجزر من أشهرها:

مملكة ملقا	١٤٠٠	: ١٥١١م
مملكة آتشهْ	١٥١٤	: ١٩٠٤م
مملكة ديماك	١٥١٢	: ١٥٥٢م
مملكة بنتان	١٥٥٢	: ١٦٨٤م
مملكة غـووا	(مكسّر)	: ١٦٦٧م

بالإضافة إلى ممالك شبه جزيرة الملايو عقب سقوط «ملقا».

لم تمهل الصليبية الممالك الإسلامية فى تلك المنطقة الإسلامية من العالم عند مطلع حياتها، وبدايات عهدها، حيث جاء الزحف الصليبى الأوروبى الغاشم ليقتحم عليهم ديارهم، ويقضى على معنوياتهم، ويدمر اقتصادياتهم، ويحطم قواهم، ويطيح بسلطانهم وممالكهم.

وخاض المسلمون فى أندونيسيا والملايو حروباً مريرة ضد الزحف الأوروبى الذى جاء ليسلب وينهب، ويحرق ويدمر، فيحارب الإسلام ويبشر بالصليبية التى عرفت طريقها نحو الشرق، وخاض المسلمون حروباً كبيرة، هى امتداد للحروب الصليبية التى تعددت فى الشرق فى غير واحدة من المرات، وفى غير واحد من الميادين.

ونذكر فيما يلى بعضاً من النتائج والمآسى التى تُبين ببساطة، وتشرح بسلاسة حقيقة صراع الحضارات منذ نشأته الأولى، أو بالأدق تعبيراً صراع الديانات وهى التى تؤكد على أن الصراعات منذ نشأتها وبدايتها، والحروب الهالكة للحرث والنسل منذ فجر التاريخ، إنما هى بسبب العقيدة وبالأحرى اختلاف العقائدية، وتصادم المعتقدين، وما قُدِّر لهذا الإختلاف أن يتآلف أو يتوافق، وما كان له أن يتحاور أو يتعانق لقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ [هود: ١١٨].

إنما شاءت القدرة الإلهية أن تُبقى على الإختلاف لعلة فى علم الله تعالى، أحسبها ما يبينها قوله تعالى: ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وفيه ما يُؤكد على أن الصراعات، والصدامات هى ديناميكية الحياة، وأساس

أيديولوچياتها ، والشاهد أن ولدى آدم (قابيل، هابيل) عندما تنافسا على حب أختهما لأجل الفوز بالزواج منها، فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمَرَهُما أن يُقربا قُرْبانًا، وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السموات على بَنيه فأبَيْن، والأرضين والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك، فلما ذهبا قَرَّبا قُربانهُما، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردئ زرعه، فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنّك حتى لا تنكح أختى، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين. . .

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مُباشرًا لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل فقال قابيل لآدم: إنما تُقبِّل منه لأنك دَعوت له ولم تدعُ لى، وتوعد أخاه فيما بينه وبَيْنَه، فلما كان ذات ليلة أبطأ « هابيل » فى الرعى، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به، فقال له تُقْبِّل منك ولم يُتقَبل منى، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين، فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله، وقيل إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدَختـه، وقيل: بل خنقه خنقًا وعضه عضًا شديدًا كما تفعل السباع، والله أعلم[1].

وقوله لما توعده بالقتل قال: ﴿ **لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٨] دل على خُلُق حسن، وخوف من الله تعالى، وخشية منْه، وتورع أن يُقابل أخاه بالسوء الذى أراد منه أخوه مثله، ودل كذلك على وعى وعلم وحضارة مبكرة لما قال: ﴿ **إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** ﴾ - أى أن تتحمل إثم قتلى مع مالَكَ من الآثام المتقدمة قبل ذلك.

غير أن هابيل لم يعرف لله طريقًا ولا للخلق مسلكًا ولا للدّم حرمة ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ** ﴾ [المائدة: ٣٠] فاصبح وقد باء بخسران وبهتان لما قال تعالى: ﴿ **فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾، وهذا قضاء الله له، وقدره عليه، بعد أن بات أول قاتل على وجه الأرض ليكون الخُسران حُكْمًا عامًا ينسحب على كل القتلة عن غير الحق، وكذلك على عموم المفسدين فى الأرض.

وذلك هو مثال الأعمى والبصير، والراقى والسافل، ﴿ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ**

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص١٠٨.

خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٩] لقد خذل الشيطان هابيل فأضله وأزله، كما أزل أبويه من قبل لقوله تعالى: ﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ** ﴾ [البقرة: ٣٦] غير أن آدم ندم على فعلته وطلب من الله العفو والصفح والمغفرة، فوقع ما قال تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة: ٣٧] أى أن الله تعالى علمه على لسان جبريل عليه السلام؛ كيف تكون التوبة، وشرع منهجها وبين أسلوبها كما بين تعالى: ﴿ **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** ﴾ [التوبة: ١١٨].

ذلك إذا هو السلوك الإنسانى منذ فجر التاريخ، وتلك هى مسالكه (الصدام، الصراع، النزال، اللقاء، القتال، والإقتتال).

وتمثل النجاة من هذه فوزاً وسلامة وهى العقيدة الخالصة التى رأسها الإيمان بالله وهو الحق، أما معايشتها فهى هلاك وبهتان وخسران ومردها إلى زيف العقيدة. وهو الباطل.

وعلى ذلك يكون الصحيح أن صراع الديانات ثابت ثبوت النور والظلام، والحق والباطل، فى كونه صراعاً متجدداً لن يتحاور يوماً مّا على الرغم من الصيحات، والدعوات التى تنطلق من هُنا وهناك مطالبة بما يسمى (حوار الحضارات). وما هى إلاّ صيحات رنانة وجُملٍ معسولة لا تهدف إلا للتسلل إلى بطن الأمة الإسلامية، وعقلها مستغلين فى ذلك حالة الأمة المتحللة التى هى عليها الآن، بل ومنذ قرون سابقة، ومَعيّة ذلك من الفقر، والعجز، والتخلف، والأزمات الاقتصادية الطاحنة، والأزمات الأخلاقية المدمرة، والإعراض عن دين الله - إلا من رحم ربى، سبيلهم إلى ذلك ما حازت أيديهم من إمكانيّات هائلة وطاقات جبارة، ورؤوس أموال فلكية يكفى بعضها للقضاء على مشاكل العالم كله، وجميعها رؤوس أموال منهوبة، أو مسلوبة، أو مهاجرة (سبق ذكره).

ولا يزال الصراع على أشده، والصدام محتدماً على أوُجِّه بين أتباع الديانات وهو ما جعلناه عنواناً لهذا المصنف (صراع الحضارات)، الذى لا يعرف حواراً إلا حوار الدبابات، ولا للتخاطب لغة غير أزيز الطائرات - فهو إذا الصراع الذى لا يعرف طريقاً إلى المهادنة أو الموائمة، أو المسالمة، إلا الاستمرار على درب الحملة المسعورة، والهجمة الشرسة على الإسلام وأهله فى زوايا العالم الأربع.

ونسوق فيما يلى بعضاً من الأحداث الجسام، والمآسى الأليمة التى نزلت بالمسلمين فى الجنوب الشرقى الأسيوى منذ بدايات الزحف الصليبى على تلك البقعة الإسلامية النائية، على سبيل التدليل على ما قدمنا - ومنها:

(أ) مأساة ملقا

بعد هزيمة الأسطول المصرى مع بعض أساطيل البحر المتوسط بالإضافة إلى الأسطول الهندى فى موقعة (ديو) سنة ١٥٠٩ م أمام الأسطول البرتغالى، قام هذا الأسطول بزيارة لموانئ مملكة ملقا بحجة التجارة معها، وسرعان ما كشف البرتغاليون عن نياتهم الحقيقية، وتحرش أسطولهم الحربى بأهل ملقا، ووقعت معارك متقطعة ودامية حتى تمكنت البرتغال من السيطرة على ملقا سنة ١٥١١م.

وقد جاء فى كتاب (GlamPSES of Malaysian-History/ p.377) ما نصه: « وبدأت معارك انتهت بسقوط الدولة المسلمة، وسيطرت البرتغال عليها فى أغسطس ١٥١١م، وفُتح الباب لصراع طويل بين الشرق والغرب فى هذه البقاع ».

« وقد دافع المسلمون عن ملقا بحرارة وحماسة، ضدّ نيران المعتدى، وأبلوا بلاءً حسنًا فى الدفاع الذى ظل رِدحًا طويلاً، ولكن الأسلحة الحديثة، ومؤامرات الكفار والدخلاء من هندوكيين وغيرهم أدت فى النهاية إلى هزيمة الملايويين، وفتح المدينة عُنوة، ثم سمح البرتغاليون لمن ساعدوهم من أهل الكفر أن يخرجوا ببضائعهم، وبثرواتهم فى أمن وسلام، ولما لم يبق بالمدينة إلا أهلها من بنى الإسلام، صدرت الأوامر بإطلاق النار على جميع من فى الشوارع دون استثناء للأطفال والنساء، وأُذن للمعتدين بسلب المدينة ونهبها، وحلت بالمسلمين نكبات، وويلات يعجز القلم عن وصفها، ثم صدرت الأوامر بهدم المساجد، ونبش قُبُور السلاطين لتُبنى من أنقاضها كنائس الفاتحين، وقلاعهم، فكانت حملة صليبية قاسية، وعقب ذلك بدأ إكراه الناس على الدخول فى المسيحية، وإبادة من لا يستجيب لدعوة المستعمر »(١).

ورب ضارة نافعة: فقد كان سقوط ملقا على يد دولة مسيحية دافعًا قويًا للسكان فى الملايو والجزر الإندونيسية نحو اعتناق الدين الإسلامى ، من أجل إقامة ممالك إسلامية متحدة للتصدى للغزو الصليبى، وحَمْلِ أعباء الصراع ضد الغرب وأعوانهم من الهندوكيين.

(ب) مملكة آتشة

وهى المنطقة الواقعة شمال سومطرة، وقد وقفت تلك المملكة بصلابة وتصدت بقوة للدفاع عن نفسها أمام الزحف الهولندى عليها خاصة بعد أن باتت السيادة الأوروبية على أندونيسيا للهولنديين.

---

(١) الملايو وصف وانطباعات ص٨٥ د. محمد عبدالرؤوف.

ويذكر التاريخ أن الجيوش الهولندية لم تتمكن من تحقيق نصر نهائى سريع حاسم على هذه المملكة التى طال كفاحها وتعاظم استبسالها حتى مطلع القرن العشرين، وذلك بفضل العلماء المسلمين الذين نجحوا إلى حد بعيد فى قيادة الجماهير للدفاع عن دينهم وأنفسهم ووطنهم.

وقد لجأت هولندا إلى حيلة ماكرة عن طريق إعادة تشكيل التركيبة الثقافية فى أبناء إندونيسيا، وخاصة أبناء السلاطين، حيث أرسلتهم فى بعثات تعليمية إلى هولندا لتدريبهم على حياة المدنية الغربية الزائفة المنحلة، ولتربيتهم ثقافيًا هناك، ليكونوا سفراء لها ولثقافاتها عند عودتهم إلى ديارهم.

غير أن هذه السياسة كلّفت هولندا كثيرًا ولم تؤت لها من ثمارها القليل، حيث انضمت آتشهْ إلى ركب المجاهدين الذى ناضلوا طويلاً، وكافحوا كثيرًا، وبعناد شديد دام حتى مطلع القرن العشرين حتى تحقق النصر لأندونيسيا.

وقد أفادتنا المخطوطات وطالعتنا الصفحات بأن الغرب قد عانى أشد المعاناة وهو يواجه آتشه، حيث واجه فيها أبطالاً حملوا راية البلاد بعزم وصبر وكفاءة ممتازة، وقد أحس الغرب أن انتصاره على هذه القوة بالوسائل العسكرية عسير، ومن هنا لجأ إلى وسائل أخرى ساعدته فى تحقيق النصر، .. منها إلا جانب إعادة تشكيل التركيبة الثقافية للأندونيسيين، أن عمل على توسيع الهُوّة بين المتنافسين فى الداخل، ونشر الفتن والدسائس التى تثير بعض الجماعات على الأخرى، وبذلك استطاعت هولندا أن تنتصر على آتشه بعد صراع استمر إحدى وثلاثين عامًا منذ عام ١٨٧٣ : ١٩٠٤م[١].

(جـ) الشيوعية فى أندونيسيا

عقد الإندونيسيون عزمهم التام على الإستقلال التام بغض الطرف عن الضحايا فثاروا فى وجه الإستعمار الهولندى ثورة عارمة، نتجت عنها خسائر فادحة من الجانبين، وعلى إثرها بدأت المفاوضات بين الثوار والمستعمرين، وبموجبها تم التوصل إلى بعض الإتفاقات وعقد المعاهدات التى انتهت إلى الاستقلال التام، ودحر الاستعمار الهولندى.

حاولت هولندا التنصل من معاهداتها، والتنكر لاتفاقاتها، ولكنها لم تفلح فى مصادرة إرادة الشعب الإندونيسى الساعى إلى الحرية المتّجه نحو الكرامة، المُدافع عن وطنه بحزم وحسم، فخضعت مُرغَمَةً عند نهاية المطاف خاصة مع اتجاه دول الغرب فى

---

(١) تاريخ الملايو العظمى ج١ ص١٠٥ - عبدالله عباس ناستيوم.

التصدى لمحاولات النفوذ الشيوعى المنتصر بعد الحرب العالمية، الأمر الذى نتج عنه وقوف المستعمر الهولندى وحيداً أمام الثورة الإندونيسية، فاعترفت هولندا باستقلال أندونيسيا فى ٢٩ / ١٠ / ١٩٤٩ م، لكنه كان استقلالاً غير مكتمل نظراً لرفض هولندا الإعتراف باستقلال أندونيسيا إلا فى إطار قيام اتحاد (إندونيسى -- هولندى) وقد قبله الإندونيسيون كخطوة أولى نحو التحرر - رغم إيمانهم بأنه اتحاد غير طبيعى.

ثم أعلن الزعماء الإندونيسيون حل هذا الاتحاد، والإستقلال التام فى ١٠ / ٨ / ١٩٥٤م[1] وقد لعب المسلمون فى هذا البلد متعدد الأعراق، مختلف الأهواء دوراً عظيماً، وقدموا أجلَّ التضحيات عن إيمان ويقين، وضربوا أروع الأمثلة فى التصدى لكل أشكال الإستعمار الأوروبى والأسيوى الذى نزل على أرضهم، فقد وقفوا أمام البرتغال، وهولندا، وإنجلترا، واليابان، ثم الحلفاء، وقدم المسلمون أروع صور البطولات، وأعظم مبالغ التضحيات فى صراعهم ضد الشيوعية أثناء حكم «سوكارنو» فى الزمن القريب إيماناً منهم «بلا إله إلا الله» التى فتَّتت الصخر، ولان بها الحديد، وأذابت الموانع، لأن الإسلام هو محور الإرتكاز الذى يتجمع حوله الراغبون فى التحرر المناضلون فى سبيله حتى يتحقق لهم النصر.

وقد ساهمت الدول الإسلامية مساهمة فعالة فى دعم الثوار المطالبين بالإستقلال، حيث رفضت الباكستان مرور أى قوات هولندية، أو تقديم أية تسهيلات لهولندا عبر الأراضى الباكستانية.

كما قدمت الدول العربية والإسلامية دعماً مادياً ومعنوياً هائلاً للشعب الإندونيسى ذات الأغلبية المسلمة وفى طليعتهم العظيمة «مصر» التى كانت سباقة إلى الإعتراف باستقلال أندونيسيا، وأرسلت مندوبها إلى هناك ليصبح أول سفير تتسلم الدولة الجديدة أوراق اعتماده فى «جوكجا كارتا»[2] عاصمة الجمهورية.

وقد برزت عدة أحزاب على الساحة السياسية فى عهد الاستقلال لتولى مهام الإدارة السياسية، والتنظيمية، والإدارية فى البلاد من أهمها:

* الحزب الإسلامى (الماشومى) الذى يُعد امتداداً لما كان يعرف قَبْل الإستقلال (مجلس شورى مسلمى أندونيسيا) وهو أقوى الأحزاب وأشهرها، والذى اضطلع بدور كبير قبل الإستقلال، واستمر كذلك فيما بعد.

* حزب نهضة العلماء.

---

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج٨ ص٥٣٤.

(٢) تعرف الآن باسم (جاكرتا).

* بعض الأحزاب المسيحية.
* الحزب الشيوعى الإندونيسى.

وجدير بالذكر أن نقرر ههنا أن الحزب الشيوعى الإندونيسى هو فى الحقيقة امتداد لحزب شيوعى بدأ فى عهد الإستعمار الهولندى، بتأييد هولندا وتخطيطها، وسبب ذلك أن الاستعمار الهولندى لاحظ إقبال الناس على الإسلام وحماستهم لهذا الدين، واهتمامهم بالعلماء والدعاة، وناصح المستشارون حكومتهم بأن الوسيلة الوحيدة لتُقابل حماس الإندونيسيين للإسلام هى بذر الشيوعية بينهم، والحديث عن حق الشعوب فى التطور، وإشاعة الحركات الهدامة، والشكوك، وإثارة الجدل حول الخلافات المذهبية، وغير ذلك من الأمور.

ومن أبرز ما قدمه المستشارون الهولنديون إبراز التيار القومى فى مواجهة التيار الدينى الذى قد يقود إلى أن تفقد إندونيسيا هويتها، وحتى لا تندرج وتنصاع فى الخلافة الإسلامية التركية التى كانت موجودة آنذاك.

وتأييداً لذلك لم تقنع السلطات الهولندية بالأفكار، وإنما استقدمت بعض الشيوعيين الهولنديين لتكوين تجمع شيوعى فى إندونيسيا، وقدمت لهم السلطات الهولندية تسهيلات واسعة، وبدأ بذلك الحزب الشيوعى[1]، والذى يعد من أشهر قادته:

الرجل الأحمر

أحمد سوكارنو قائد الكفاح ضد الإستعمار اليابانى فى أندونيسيا، وقد اضطر هذا الإستعمار للرحيل عقب هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية، ومن ثم فقد حاولت هولندا الوقوف من جديد على صدر البلاد بعد رحيل اليابان، وأطماعها فى أندونيسيا بعد تخلى الحلفاء عنها كما ذكرنا من قبل.

وكانت الحكومة اليابانية تعمل على الإبقاء على علاقات جيدة مع أندونيسيا بعد استقلالها حتى لا تقع تارة أخرى تحت النفوذ الأوروبى، وقد دعا الحاكم العسكرى اليابانى العام فى منطقة جنوب شرق أسيا فترة الإمبراطورية اليابانية، كان قد دعا زعيمى أندونيسيا (أحمد سوكارنو، ومحمد حتّى) لمقابلته، وقد هنأهما بإعلان الإستقلال الذى وقعه الزعيمان.

وبإجماع الآراء فى اللجنة التمهيدية لإستقلال إندونيسيا تم الإتفاق على تعيين سوكارنو رئيساً للدولة، ومحمد حتّى نائباً له.

---

(١) صفحات من تاريخ أندونيسيا المعاصرة ص٤٤ . محمد أسد شهاب.

وكالعادة فى الدول الإسلامية التى لديها موروث كبير من صنائع الإستعمار وفتنه ودسائسه، شب خلاف كبير، وصل إلى حد الصراع بين سوكارنو ونائبه، بسبب إصرار سوكارنو على التنكر للحزب الإسلامى الكبير (الماشومى)، ولم يعترف للحزب الكبير بمكانته، وشعر شعوراً خاصاً بأن نجاح الإسلاميين ضياعاً له هو شخصياً، وقد طلب إلى قادة الحزب التنازل عن بعض مبادئه، وأفكاره، وبرامجه، وسياسته.

رفض هؤلاء القادة التسليم لمطالب سوكارنو، وتسليم زمام الأمور إليه، تفادياً لحكم الفرد، والديكتاتورية، والتسلط، وامتد الصراع وتنوع ودام بضعاً من السنين، وانتقاماً من الإسلاميين اجتهد سوكارنو فى سبيل استمالة الحزب الوطنى الإندونيسى وهو الحزب الذى يتبنى الأفكار العَلمانيَة والقومية كتيار مناهض، ومقابل للتيار الإسلامى (حزب الماشومى)، وليسْتَعْمله لضرب الحزب وقياداته، واستمر الخلاف، واحتدم الصراع خاصة أن الحزب الوطنى لم يكن يتمتع بالقوة اللازمة التى تمكن سوكارنو من إقامة الحكم «المطلق» فلجأ إلى الحزب الشيوعى، وأحزاب الأقليات وحقق بهم ولبعض الوقت نصراً مؤقتاً، وقد أسند سوكارنو إلى (أمير شريف الدين) أحد أقطاب الشيوعية فى أندونيسيا تشكيل الوزارة، فألَفها - واحتفظ سوكارنو فيها لنفسه بحقيبة الدفاع ليضمن ولاء الجيش، واستأثر كذلك بمنصب رئيس الوزراء إلى جانب كونه رئيساً للجمهورية، واستمرَّ هذا الوضع من يونيو ١٩٤٧م حتى مطلع يناير ١٩٤٨م، حيث ثارت الجماهير والصحافة، فأصدر نائب رئيس الجمهورية محمد حتَى قراراً بحل هذه الوزارة فوراً، وشكل بنفسه وزارة جديدة تولى هو رئاستها، ورفع « حتَى » توصيات معينة لرئيس الجمهورية الذى بدوره رفضها، وأصدر قرارات جديدة لم يوافق عليها نائبه، وأصبح الصراع على أشُده، وازدادت حدة التوترات بينهما حَتَى وصلت إلى الحد الذى أدى إلى استقالة محمد حتَى من منصبه كرئيس للوزراء، وكنائب لرئيس الجمهورية فى ديسمبر ١٩٥٦م.

وعلى الرغم من هذه الإستقالة الجماعية، ورغم انفراد سوكارنو بالسلطة إلاّ أن الشيوعية فشلت فى نيل مأربها بحكم البلاد، فاتجه قادتها إلى وتيرة الأيديولوچية الشيوعية رأس كل كبيرة (المؤامرات السرية) التى مكنتهم بعد وقت قليل من إثارة المشاكل، وإرهاب الناس، وقتل الأبرياء فى غير مرة.

ففى صبيحة ١٩ / ٩ / ١٩٤٨م، وقعت أحداث جسام فى مدينة (ماديون) - إحدى مدن مقاطعة جاوة الشرقية، وهى المركز الرئيسى للنشاط الشيوعى فى البلاد حيث قام الشيوعيون بعمل مدروس ومنظم، وقد تم إعداده جيداً، واتُخِذَت لأجله

قرارات خطيرة، كان في طليعتها استيلاء الشيوعيين على الإذاعة المحلية بالمدينة، وأعلن مذيعهم القطب الشيوعي الكبير (أمير شرف الدين) عن قيام حكومة شيوعية في أندونيسيا، مقرها ومركزها مدينة ماديون، وحدد أسماء وزراء حكومته التي ترأسَهَا هو، وأعلن على الناس برنامج حكومته الطموح (على حد زعمه) في القضاء على معارضي الإنقلاب الجديد وحكومته، كما أعلن عن القضاء على من أسماهم الإمبرياليين، وأكد على إقامة علاقات قوية مع الإتحاد السوفيتي، وإقامة أتحاد معه.

اتجه أصحاب الإنقلاب الجدد إلى الإحراق والتدمير، والتخريب، والسرقة، والسطو، وهتك الأعراض، وسفك الدماء، من دون مراعاة حرمة ولا قيمة، وقد وقعت أثناء تلك الأحداث أعداد هائلة من الضحايا، أطفال ونساء ورجال، أكثرهم علماء الدين الإسلامي في المنطقة الموبوئة التي أكلت النار آثارها وثراءها.

وقد أصدر نائب رئيس الجمهورية محمد حتى أوامره المباشرة إلى قادة الجيش بالتحرك لقمع الحركة الإنقلابية، وإعادة الأمن والطمأنينة للبلاد، وقد نجح الجيش في القضاء على هذه الثورة الحمراء.

ومما يسجله المؤرخون: أن سوكارنو ألقى بيانًا عقب هذه الأحداث نسبها إلى أسباب اقتصادية، وحاول أن يدافع بشكل غير مباشر عن هؤلاء القتلة والمخربين[1].

بين الرجل الأحمر والجيش

ما أن استقال محمد حتّى من منصبه حتى انفرد سوكارنو بالساحة، وعمل على تأكيد أسلوب حكمه (الفردي - المطلق) فاتجه إلى اليسار بشدة، فقرَّب الشيوعية إليه وتقرب إليها، وعلى الجانب الآخر فإنه قد بدأ مسلسلاً كبيراً ضد القيادات الإسلامية، إما بتحييدهم، أو بإقالتهم، واستبعادهم.

ثارت لذلك ثورة الثائرين بقيادة ضابط يدعى « أحمد حسين » واجتمعوا فيما قيلَ عنه (ديوان الكفاح)، وصدرت توصياتهم، وحددوا مطالبهم بإسناد الوزارة إلى محمد حتّى، وعودة الدستور المعطل.

رفض سوكارنو هذه المطالب، وذهب إلى أبعد من ذلك بكثير عندما أَمَرَ باعتقال قيادات هذه الحركة، فأعلن أحمد حسين ورفاقه الثورة على سوكارنو في ١٥ / ٢ / ١٩٥٨م وقد ألف قائد الثورة حكومة ثورية جديدة أسندها إلى « شفر الدين ».

---

(١) صفحات من تاريخ أندونيسيا ص ٦٢.

وجاء رد سوكارنو عنيفًا ومدمرًا فهاجم معقل الثوار فى مدينة « باداان » بالطائرات، فدمر المدينة وأحرقها وسقط من جراء هذا العمل الإجرامى كثير من المواطنين الأبرياء.

تصاعد الخلاف بين الرجل الأحمر (سوكارنو) وبطانته الشيوعية من جانب والمسلمين من الجانب الآخر.

وقد عبّر العالم الإسلامى الكبير (همكا) خير تعبير عن إحساس سوكارنو بقوله: « إن سوكارنو مستعد للتعاون مع الشياطين ليقهر المسلمين »(١).

وقد تأكد سوكارنو أن الخَطر الذى يواجهه يأتى إليه من جهتين:

الأولى: الحزب الإسلامى الكبير صاحب القاعدة الجماهيرية الكبيرة فى عموم أندونيسيا « الماشومى »، فأصدر قراره بحل الحزب ومصادرة أملاكه وأمواله واعتقال قياداته وتتبُّع قياداته التنظيمية، وتصفيتها.

الثانية: قيادات الجيش، التى تصدت وبحسم أمام النفوذ الشيوعى، وأعاقت انفرادهم بالساحة السياسية بعد حل حزب الماشومى وحْظر نشاطه.

تعاون سوكارنو مع الشيوعيين فى تنفيذ خطة مدروسة للقضاء على جنرالات الجيش والإطاحة بقياداته الوُسطى واتخذ لأجل ذلك بعضًا من الإجراءات من أهمها:

* تعيين الكثيرين من الشيوعيين فى القوات المسلحة.

* إسناد قيادة القوات الجوية الأندونيسية إلى أحد أبرز العسكريين الشيوعيين وهو (عمروانى).

* بدأ الشيوعيون حملة مسعورة ضد القوات المسلحة فى صحفهم التى تعددت فى تلك الآونة، واتهموا قياداتها بالخيانة وعدم الإخلاص للبلاد، ولا لرئيس الجمهورية.

وجاء رد الفريق أول (عبد الحارث ناسوتيون) القائد العام للجيش مناسبًا أتم المناسبة، حيث أصدر أوامره المباشرة بالتصدى لتلك الهجمات الشرسة بإلقاء القبض على زعماء الحركة الشيوعية فى الحزب الشيوعى وفى الصحافة، وفى الجيش، واعتقالهم، وكان ذلك فعلاً فى النصف الأول من عام ١٩٦٠م.

كانت هزيمة الشيوعيين تعنى بالضرورة هزيمة قاسية لسوكارنو شخصيًا فحار فى التعامل مع المستجدات التى أفرزتها الأحداث الأخيرة، إلا أنه جنح كعادته إلى الشيوعيين، فعارض أوامر الجيش ، وظهرت فى العلن الأزمة الحادة بينه وبين قيادات الجيش.

---

(١) التاريخ الإسلامى، والحضارة الإسلامية.

وفى مؤامرة سرية بالغة الخطورة اتفق سوكارنو مع زعماء الشيوعية على تنفيذ أكبر وأشهر عملية اغتيال عبر تاريخ أندونيسيا فى ظل الإستقلال تلك ما عرفت بعد :

خطة الإغتيالات

وقد وُضِعَت هذه الخطة بإحكام للقضاء النهائى على ست من القيادات العسكرية، وهم الجنرالات قادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة الأندونيسية، تضمن هذه الخطة اغتيال تلك القيادات فى بيوتهم بالإضافة إلى عبد الحارث ناسوتيون - القائد العام للجيش، وقد حُدِّدَ لتنفيذها فجر الأول من أكتوبر عام ١٩٦٥م.

حالف التوفيق الشيوعيين فى هذه المرة فقتلوا القيادات الست، كما خططوا وأعدوا سلفًا، غير أن عبد الحارث استطاع النَّجَاة بجلده بعد أن نجح فى التسلل من بينهم، والهروب من الحصار المضروب على بيته بفضل حيلة باهرة، وخبرة عظيمة، وفطانة وكياسة كبيرتين، ولجأ إلى أحد قادة الجيش من المعروفين بمناهضة الشيوعية، واندفعا القائدان مع وحدات من الجيش من المعارضين للشيوعية، وتحقق لهما النصر الكبير.

ولكن سوكارنو كعادته لم يكن على الحياد، وأكد على معاداته للقيادات الوطنية، وموالاته للشيوعية وأذنابها، فحاول عزل سوهارتو من موقعه القيادى داخل الجيش، وأصدر أوامره المباشرة إلى القوات المسلحة بعدم التحرك إلا بأمر شخصى منه.

أعلنت قيادات الجيش رفضها، وعصيانها لأوامر سوكارنو، وتمردت على حكمه، واتخذت مجموعة من الإجراءات الوطنية العملية ضد سوكارنو ونظامه، واتجهوا لتصفية الحزب الشيوعى فى عام ١٩٦٦م، بل وتصفية الشيوعيين أنفسهم تصفية جسدية جزاء خيانتهم، وتم القضاء على معظم الشيوعيين وقادتهم، وأنصارهم من الوزراء، والمسئولين، ومؤيدى سوكارنو، وشيعته، وقد قابلت الجماهير هذه القرارات بسعادة وحفاوة وسرور. وبزوال الشيوعية فى أندونيسيا اتجه نجم سوكارنو للأفول بمعدل سريع، واندفع سهمه يهوى إلى القاع. ليلقى مصيره فى الخندق الذى حفره لنفسه بكلتا يديه، وبئس المصير.

تنازل سوكارنو عن السلطة الفعلية فى البلاد إلى (سوهارتو) الذى كان قد أمر بتعيينه فى ١١ / ٣ / ١٩٦٦م، وزيراً للدفاع، وقائداً عاماً للقوات البرية، وعليه فقد أصبح لسوهارتو الحق فى مباشرة مهام السلطة الفعلية فى البلاد، بينما ظل سوكارنو رئيساً للدولة بلا سلطات، وقد حظى سوهارتو بتأييد واسع من كافة طوائف الشعب فى مختلف الجُزُر الإندونيسية.

ثم أصدر المجلس الإستشارى المؤقت بالأغلبية المطلقة فى ٢٧/٣/١٩٦٨م قراراً هاماً يقضى بإقصاء سوكارنو عن الحكم، وتعيين سوهارتو رئيساً للجمهورية، وقد أدى اليمين الدستورية فى التاريخ المذكور، أما سوكارنو فرحل إلى ثلاجة التاريخ غير مأسوف عليه حتى مات في ٢١/٦/١٩٧٠م[١].

وقف سوهارتو موقفاً وطنياً يستحق الإشادة والتقدير لنزاهته وكفاءته، وقد حظى بأغلبية الناخبين، وأعيد انتخابه رئيساً للجمهورية أكثر من ثلاث فترات متتاليات...

وقد أتاح لإندونيسيا عهداً من الإستقرار لم تعرفه أكثر دول العالم الثالث، وحقق – كما شهد البنك الدولى – منجزات اقتصادية واضحة[٢].

شباك التنصير

منذ أن وطئت أقدام المستعمرين الجزر الإندونيسية، حتى بدأوا فى إقامة مراكز التبشير بالمسيحية خاصة فى الجزر النائية، ومما ساعدهم على ذلك الطبيعة الجغرافية الإندونيسية الخاصة – حيث أنها لا تشكل وحدة واحدة من الأراضى المنبسطة ذات الحدود الواضحة، إن هى إلا مئات من الجزر المتناثرة.

وقد اتخذ الإستعمار من الجزر النائية ستاراً لأغراضه التبشيرية الدنيئة، فاتخذ من جزيرتى تيمور وفلورس، ومن سمبا، ووتّار، وسولا ويزى الشمالية والوسطى قواعد دائمة له، ولم تقنع جماعات التبشير بما حققت من نتائج فى الجزر التى ابتليت بهم، فاقتحمت المدن الكبرى، وأقامت تلك الجماعات مراكز لنشاطه التبشيرى.

وعن النشاطات التبشيرية الخطيرة التى تقوم بها جماعات التنصير فى أندونيسيا يقول الأستاذ الدكتور «أحمد شلبى» رحمه الله – على الصّفحة الثالثة والستين بعد الخَمْس مائة ضمن الجزء الثامن من موسوعته (التاريخ الإسلامى، والحضارة الإسلامية) وفى زيارتى الأخيرة لأندونيسيا (١٩٨١م) أحسست بالألم والحسرة لتبجُّح هذا التبشير، وتكالبه وشراسته، وقد اتخذ من مدينة (صالا تيجا) مسرحاً لنشاطه، وقد زرت هذه المدينة فرأيتها كأنها معقل من معاقل الفاتيكان، كلها كنائس وقباب وأجراس ومسوح، وقد عُنِى القائمون بالتبشير بمعاهد التربية بوجه خاص، لتُخرِّج هذه المعاهد مدرسين مسيحيين متعصبين ينتشرون

---

(١) اقتباسات من صفحات من تاريخ أندونيسيا – بتصرف.

(٢) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج٨ ص٥٥١.

فى البلاد المختلفة، حاملين سُمَّ التبشير فى أعطافهم، وصرختُ صرخةً مزقت الأحشاء قائلاً:

أين ملوك البترول المسلمون؟

أين العلماء المسلمون ....؟

أين الغيرة الإسلامية ....؟

ولا تزال هذه الصرخات تنبعث من قلبى ومن وجدانى ومن قلمى كما تنبعث من صدور الآخرين) ... انتهى.

وأنا بدورى أصرخ من هذا المقام، على هذه الصفحات محزراً من أن ما حدث فى أكبر بلد إسلامى مساحة وسكانًا – وهو الذى تزيد مساحته على مساحة أوروبا مجتمعة، لهو الغاية التى رمى إليها الإستعمار، وهو الهدف الذى لأجله جاء إلى معقل الإسلام فى آسيا وإفريقيا.

وأُنَبِّهُ الجميع أن ما حدث بالأمس فى الأندلس، وفلسطين، وأفغانستان وما يعيشه الشعب المسلم فى العراق وفلسطين والبوسنة والشيشان، هذه الأيام هو بعينه الذى يتعرض له السودان، وتعيشه الجزائر، وتئن به اليمن – هو بعينه الطريق إلى مكة (سيرد ذلك فى حينه).

فلا يجب بحال إغفال العلاج الفورى الذى حدده لنا القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا ﴾ وهو أمر أهملناه، ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ وهو نهى أتيناه، إننا انتهينا عما أُمرنا به، وأتينا ما نُهينا عنه. فكان كما قال تعالى:

﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢٦].

﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص: ١٤].

أيها السادة: إن الاستعمار الغربى اتجه بكل قواه لغرس المسيحية فى الأراضى التى حَلَّ بهَا، مستخدمًا أدواته الكثيرة وإمكانياته الوفيرة، فى طليعتها الدعاية السامة لنشر الفكر الصليبى، ثم إقامة المدارس والمستشفيات فى المناطق المذكورة وفى غيرها. حيث تضلل جماعات التبشير (التنصير) الأطفال الذين لا وعى لهم ولا إدراك على حين غفلة من أسرهم، ويقدمون الرعاية الكاملة للأطفال الأيتام ويقومون بتربيتهم فى معاهد تربوية خاصة ليتخرجوا فيها مدرسين مسيحيين متعصبين، كما يُساوم المبشرون المسيحيون المرضى والفقراء والمطرودين من أبناء الدول المنكوبة على اعتناق المسيحية أو الموت البطىء بالحرمان من العلاج والطرد من المستشفيات وقد أثر استخدام تلك العوامل على ارتباط بعض أبناء الدول المنكوبة بالمسيحية وبالاستعمار

منذ وقت مبكر. خاصة أن إرساليات التنصير غرست مخالبها فى البلدان التى حلت بها مع مطلع الحملات الصليبية على الشرق كله « الأدنى، والأوسط، والأقصى » وكان نصيب أندونيسيا من المأساة وفيراً نوعه، وكبيراً حجمه، بالغًا أثرُه وخطرُه، وخلّف الإستعمار وراءه أيضاً أنصاراً له من بين البلدان المستعْمَرَة، يقومون على مصالحه ويحققون مآربه، خاصة الزعامات غير المسلمة التي تعمل فى المدن الرئيسية والجزر النائية سواء بسواء، وتبذل قصارى جهدها متفانيةً فى الإنابة عن حركات التنصير، باعتبارها أداةً رئيسية لتحركاته، وأنشطته.

وللحديث عن الجهد الجبار لبعثات التبشير بقية سنتعرض لها لاحقًا لبيان أدواتِهَا وفضح نتائجها فى الوقت المعاصر.

* * *

خامسًا : الأقليات الإسلامية فى آسيا

هناك عدد غير قليل من المسلمين يرنح تحت حكم وثنى أو شيوعى أو غيرهما، فى دول غير إسلامية – إنهم هم المقهورن بإعتبارهم أقليات فى بلاد لا تعرف غالبية سكانها غير الإلحاد، ولا تدين بغير الطاغوت.

ويأتى التعبير باستخدام كلمة أقلية مناسبًا أتم المناسبة إذا ما علمنا أن تعداد المسلمين فى الصين مثلاً يبلغ زهاء المائة مليون مسلم، وهذا الرقم يبدو كبيراً إذا ما قُورِن بإجمالى سكان أهل الشام مجتمعين، أو أبناء دول مجلس التعاون الخليجى الستَ بانضمام السعودية، كما أنه رقم يفوق تعداد سكان اتحاد دول المغرب العربى كله، وهو يزيد كذلك بنسبة ٥٠٪ عن تعداد سكان أكبر دولة عربية من حيث الكثافة السكانية (مصر)، ولا عجب أن يكون الشعب المسلم فى الصين هو ثانى أكبر شعب مسلم فى العالم بعد إندونيسيا، أما نسبة المسلمين فى الصين إلى مجموع الشعب الصينى متعدد العقائد والأعراق، لا تتجاوز ١٠٪ من إجمالى السكان الزائدة أعدادهم على المليار نسمة، أما إذا ما صدقت الإحصائيات الجديدة التى ساقها غير مصدر فإن نسبة المسلمين إلى تعداد الصينيين لا يتجاوز [٧,٧٪] مراعاة أن مجموع السكان هناك يدانى المليارين من الأفراد.

ومثل ذلك فى دول الإتحاد السوفيتى، وأوروبا.

ويأتى الحديث عن أحوال المسلمين فى تلك المناطق ليقدم لنا صورة حية، وشرحًا مبسطًا لما سبق وأطلقنا عليه مُسمّى – صراع الحضارات –، كما أنه يقدم كذلك ترجمة صادقة للحوار الدائر عبر القرون والمسمى – حوار الدبابات.

وسوف نعرض فيما يلى موجزاً لبعض من ألوان هذا الصراع، ونقدم ترجمة لجزء وافر من هذا الحوار.

(أ) المسلمون فى البطن السوفيتى

يقول أهل الفكر والبحث، والمهتمون بشئون المسلمين، ودراسة مشكلاتهم والدارسون فى الحضارات المختلفة، والمنشغلون ببيان أوجه الإختلاف أو الإتفاق، ومدى التأثير أو التأثر بين الحضارات، وكذلك رصد نُفُورها أو تجاذبها، ولقائها أو مقابلتها، مع بيان أوجه الإنسجام أو الإنفصام، وهو القول المشهور لجميع المشتغلين بدراسة الحضارات - إذ قالوا:

إن الدين الإسلامى طرق الأبواب فى زوايا العالم الأربع، إلا بقعة واحدة لم يشأ الله لها بالهداية، وهى الأرض الخصبة التى شهدت النبت الأول للشيوعية، وهى أرض الدولة التى وضعت ما عُرف بعد (الإتحاد السوفيتى) - إنها روسيا التى لم يصلها شعاع الإسلام حتى الآن، وهى كذلك الدولة صاحبة الإرث الهائل من تركة الاتحاد السوفيتى المنهار، والتى حملت لواء الشيوعية بأفكارها الهدامة خاصة فى مناهضة الإسلام، وإبادة المسلمين وكانت روسيا لا تعرف ديناً من الديانات الثلاثة، ولا تقر بوجود إله واحد، حيث كانت لا تعرف غير ما كان يسود فى آسيا، وإفريقيا من عبادة أرواح الأجداد، والظواهر الطبيعية، والثعابين، كما وُجدت بها الوثنية والمجوسية (عبادة النار)، ولا تزال هناك شائعة حتى الآن.

وما زال الإسلام ينتشر فى كل قارات العالم - عدا - روسيا - ومرجع ذلك أن الروس ظلو وثنيين حتى نهاية القرن العاشر الميلادى، وكان الأباطرة متمسكين بعبادة الأوثان، ولم يسمحوا للأديان أن تطرق أبوابهم، حتى رأى الإمبراطور (فلاديمير) أنه آن الأوان ليترك عبادة الأوثان، فأخذ يتعرف على أديان عصره ليختار ديناً منها، فرفض اليهودية عندما قال له أتباعها أن منطقة بيت المقدس أرضهم، ولكن الله شتت شملهم، فصاح فيهم قائلاً: لقد بؤتم بلعنة من الله، فابعدوا عنا لأننا لا نريد أن نفقد وطننا، كما فقدتهم أنتم وطنكم، ورفض دين الإسلام لأن الإسلام يحرم الخمر، ويلزم الرجال بالختان، ولم يقبل المسيحية الكاثوليكية، لأن حفلاتها خالية من الأبهة والجلال.

أما الأرثوذكس فقد أعجبته لروعة ملابس القسيسين الكهنوتية، وزخاريف المذابح ورائحة البخور، وارتضى (فلاديمير) الأرثوذكسية ديناً سنة ٩٨٨م، وأصدر مرسوماً يقضى بأن يُذعن الروس كافة للديانة المسيحية، ولكنيسة القسطنطينية[١].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص٢٥٤ : ٢٧٥ - بتصرف / توماس ارنولد.

ومنه يتضح أن اتجاه الروس إلى المسيحية لم يكن نابعًا عن عقيدة خالصة، أو فهم لمتطلباتها، وإن ظل الروس هكذا حتى عام ١٩٠٥م عندما صدر مرسوم يقضي بحرية العقيدة، وبالتسامح بين الأديان فى كل حدود الإمبراطورية الروسية.

وتجدر الإشارة إلى أن العرش العثمانى - عندما آل للسلطان مراد الأول امتد نفوذه ليصل فى عصره إلى سالونيكا، وأدرنه سنة ١٣٦١.م ثم الشمال الأسيوى، وجره ذلك إلى الإشتباك فى حروب ضد بلغاريا والبوسنة، والصرب، ونجح العثمانيون فى إخضاعهم، ثم دارت معركة بين الصرب والعثمانيين خَرّ فيهَا ملك الصرب قتيلاً، ثم قُتل مراد هو الآخر على يد أحد نبلاء الصرب[1]، وامتدت فتوحات مراد قبل وفاته لتشمل البلقان، والقرم، والقوقاز، وأصبحت الدولة العثمانية بالتالى فى مواجهة الإمبراطورية الروسية التى حملت لواء المسيحية بعد انهيار الدولة البيزنطية على أيدى العثمانيين. فالخطر الذى استشعره الروس من المواجهة المباشرة للخلافة الإسلامية جعلهم يعيشون فى رعب هائل من شدة قرب الجوار الإسلامى فى كل من ممالك أسيا الوسطى، التى تحدثنا عنها من قبْل، وإيران، والدولة العثمانية، خاصة فى ظل اعتقادهم بأنهم رعاة المسيحية الجدد، وعليه فإن الروس تعاملوا مع المستجدات على أن الإسلام هو العدو الأول لهم، فلجأت روسيا إلى الهجوم باعتباره خير وسيلة للدفاع فالتهمت دولاً إسلامية كاملة، وضمتها إليها قسراً وقهراً لمشاغلة المسلمين عن الدخول إلى أراضيها ولأخذ زمام المبادرة بالهجوم على الديار الإسلامية فى معاقلها، مستفيدين بذلك من الحملات الصليبية الغربية على الشرق، وزحفت بالتالى إلى المناطق الإسلامية المجاورة لها من جهة الجنوب والتهمتها.

ونعرض فيما يلى لبعض من المناطق التى انتشر الإسلام فيها، وقامت على أرضها مراكز إسلامية أثْرَتْ العلوم والمعارف الإنسانية والإسلامية، سقطت كلها تِباعًا فى يد الروس كما سنعرض فيما يلى:

* مملكة طخارستان: على جانبى نهر جيحون وعاصمتها بلخ.
* مملكة الصغد: وهى تمتد من نهر جيحون إلى سيحون وعاصمتها سمرقند، وأهم مدنها بخارى.
* مملكة صغانيان: وتقع شمال نهر جيجون، وعاصمتها شومان.
* مملكة فرغانة: على جانبى نهر سيحون وعاصمتها جخندة (كاشان): وتقال

---

(١) انظر هذا بلاغ للناس - للمؤلف.

كذلك (اخسيكت)، وكان ملكها يلقب بالإخشيد، وهو اللقب الذى أطلق على الإخشيدى مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر لصلة نَسَبِه إلى هذه البلاد.

* مملكة خوارزم: بالقرب من بحر خوارزم وعاصمتها الجرجانية.

* مملكة أشروسنة: فى الشرق من فرغانة، ولقب ملكها (الأفشين)، ومنها انحدر بعض المماليك الذين آل إليهم السلطان عندما ضعفت الخلافة العباسية بعد « الواثق »، وقصبتها « بنجكث ».

* مملكة الشاش: فى شمال نهر سيحون وعاصمتها الطارنبذ أو (بنكث)(١).

وقد بدأ احتكاك المسلمين بهذه المناطق عقب الإنتهاء من فتح إيران سنة ٣١هـ وأسلم الاحتكاك إلى غزو مباشر منذ عهد معاويه على يد قائده (قيس بن الهيثم) الذى كانت له ولاية خراسان، فقد روى أن أهل [بادغيس، وهراة، وبلخ] قد نقضوا الصلح الذين كان بينهم وبين المسلمين منذ فتحها فى عهد عثمان رضى الله عنه فسار إلى بلخ فخرب معبدها، وعاد أهلها يطلبون الصلح فوافق عليه « قيس »، ولما علم أهل بادغيس وهراة بما نزل بأهل بلخ طلبوا الصلح على الشروط التى نزل عليها أهل بلخ فأجيبوا إلى طلبهم(٢).

وقد تدفق العرب للحياة فى هذه المنطقة، حيث رحل لها خمسُون ألف أسرة من البصرة والكوفة واستوطنوها(٣).

وولى معاوية أيضًا « زياد بن أبيه » بلاد العراق، ومن بعد زياد تولى ابنه عُبيدالله فكان لهما قيادة هذه الجهة، وفى عهد عبيدالله وصل المسلمون فى تقدمهم إلى بخارى وسمرقند(٤).

وقد امتدت الفتوحات الإسلامية لتصل إلى بادغيس سنة ٨٤هـ، وشومان سنة ٨٥.هـ وفى المدة من ٨٦ : ٩٧.هـ وصلت الفتوحات الإسلامية بالقرب من الحدود الصينية أو وصلتها فعلاً(٥).

وقد قدمت تلك المناطق ثروة علمية عظيمة على أيدى مجموعة كبيرة من العلماء الأجلاء أصحاب الفضل والسبق والريادة فى مختلف فروع العلم والمعرفة، التى

---

(١) ممالك ما وراء النهر ص ٦، ٧ د. عبد الهادى شعيرة.

(٢) فتوح البلدان ص٣٩٩ : ٤٠٠ البلاذرى.

(٣) المصدر السابق ص ٤٠١.

(٤) الإسلام والحضارة الإسلامية فى آسيا الوسطى ص١١٩ د. حسين محمود.

(٥) العلاقات بين العرب والصين ص٢٧، ٢٨ بدر الدين الصينى.

لم تتوقف افادتها قصراً على المسلمين، بل أتت أكلها لعموم الناس عبر مراحل التاريخ، وامتداداً إلى قرون أُخرى قادمة إن شاء الله تعالى : من أهمهم :

«الثعالبى» صاحب يتيمَةُ الدهر، و«الإمام البخارى» ٢٥٦هـ. صاحب كتاب (الجامع الصحيح)، والقزوينى، والعالم الكبير المتنوعة علومه وأفكاره (ابن سينا)، والإمام المحدث «الترمذى» أبو عيسى محمد بن عيسى صاحب «الجامع الصحيح» أيضاً ٢٨٩هـ، والفقيه الحنفى «أبو عبد الله محمد بن على» صاحب (توارد الأصول وعلل العبودية) ٢٨٥هـ، كما أنجبت تلك المناطق «الجورجانى» مُؤلف «الذخيرة» أول دائرة معارف طبية فى التاريخ، والبيرونى ٤٤٠هـ وهو الرياضى الفلكى الطبيب الكيماوى المؤرخ الذى يوصف بأنه أكبر عقلية فى تاريخ عصره، ومن علماء تركستان العظماء النسائى، والنسوى، والزمخشرى، وعبدالقاهر الجورجانى صاحب درة «دلائل الإعجاز» والذى نعرفه الآن عبد القاهر الجرجانى، والتفتازانى، والسكاكى، وأبو زيد البلخى، وغيرهم من العلماء والأئمة الذين يقر التاريخ بأفضالهم.

(ب) الزحف الأحمر

كانت روسيا القيصرية قبل بداية النظام الشيوعى، وإعلان الدستور السوفيتى عام ١٩٣٦م لا تختلف كثيراً عما كانت عليه بعد إنهيار الاتحاد السوفيتى : دولة عدوانية من طراز فريد، حيث تركز زحفها العدوانى على جيرانها فقط، ولم تُبحر بعيداً مثلما فعلت الدول الإستعمارية فى العصر الحديث.

فمع مطلع القرن التاسع عشر ضَمَت روسيا إليها (جورجيا) سنة ١٨٠١م قهراً من إيران، وبعد انتصار روسيا على إيران فى حرب ١٨٢٦م ضمت إليها تركستان، ثم الشركس والقوقاز من (البحر الأسود إلى بحر قزوين) سنة ١٨٦٤ .م، كما ضمت كل المناطق التى تقع بين منغوليا وقزوين، وجميعها مناطق إسلامية دخلها الإسلام منذ القرنين «الأول والثانى الهجريين» السادس والسابع الميلاديين.

وقد اتَّجه الزحف الروسى إلى البلاد الإسلامية المجاورة لقلة التكاليف، وللسيطرة على أرض الجيران ومقاديرهم ومقدراتهم فيما يعد متمّماً للحملات الصليبية والعداءات الدولية الرهيبة، غير أن الزحف الأوروبى استلزم رحلات بعيدة المدى، باهظة التكاليف، وحمل معه بذور فشله، أما الزحف الروسى سرعان ما ادعى أن الأرض التى احتلها، ليست إلا جزءاً من دولتهم الكبرى، على عكس الزحف الغربى الذى لم يستطع أن يقول بهذه الإدعاءات على الأرض التى احتلها وراء البحار.

وقد سلك الروس فى سياستهم تجاه المناطق التى سيطروا عليها مسلك

(الترويس) – أى – القضاء على القومية الإقليمية لغة وشريعة، وجعلها جزءاً من روسيا.

ومن أخطر سياسة « الترويس » هذه أن عملت الحكومة المركزية فى روسيا على خلخلة التركيز الإسلامى فى المناطق الإسلامية، فدفعت أعداداً كبيرة من العناصر الروسية إلى المناطق الإسلامية، كما هجّرت أعداداً كبيرة من المسلمين إلى مناطق أخرى بعيداً عن التجمع الإسلامى، ويعتبر هذا المسلك هو أخطر ما قامت به الحكومة الشيوعية فى الإتحاد السوفيتى لإضعاف التجمع الإسلامى فى شتى المناطق الإسلامية التى خضعت لها[1].

وفى الموضوع ذاته تحدث العالم الكبير الشيخ الأستاذ/ محمد الغزالى قائلاً:

لقد قرر الروس الحمر أن يغيروا البلاد الإسلامية، ويحولوا تاريخها كله من مجرى إلى مَجْرَى فكانت الأوامر تصدر بهجرات جماعية واسعة المدى يتحول بها الناس من بلاد إلى بلاد، وتطبيقاً لهذه السياسة نقلت الحكومات الروسية جماهير المسلمين إلى برارى سيبيريا، وأواسط آسيا، كما نقلت الألوف المؤلفة من الروس والسلاجقة، وشحنت بهم أذربيجان وتركستان والقرم، وعند بدايات تنفيذ هذا المخطط الرهيب، قاوم المسلمون دفاعاً عن أرضهم ووطنهم وبيوتهم، فكان الفناء السريع جزاءهم، وأصبح تعداد الهالكين عند تنفيذ هذا البرنامج تعداداً مُخيفاً، وقد لوحظ أن هذا الترويس كان يبعد المسلمين عن أرضهم الخصبة الغنية، ويلقى بهم فى أحضان المجهول والفقر[2].

وهكذا ابتلى المسلمون بالزحف الأحمر على ديارهم فى أوطانهم، واستولى الروس على أوزبكستان، وتركمانستان، تادجيكستان، وأذربيجان – وأرمينيا، وأصبحت الأخيرة إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى فيما بعد.

وكانت روسيا القيصرية شديدة فى تعنتها، قاسية فى معاملاتها مع المسلمين الذين عاشوا سادة للمناطق المذكورة قبل استيلاء الشيوعيين عليها.

ومع قيام الشيوعية فى روسيا عام ١٩١٧م أُعلن هناك عن الصيحة الكاذبة التى أطلقتها المحافل الماسونية فى الشرق وهى ما تعرف (الحرية – الإخاء – المساواة) لجميع الروس مع السماح للمسلمين بتكوين هيئة تشريعية إسلامية، وما كان ذلك فى حقيقته إلا خديعة ومكراً لثنى المجتمع الروسى كله وبخاصة الشعب المسلم عن

---

(١) المسلمون فى العالم ص١١٢ د. عادل طه.

(٢) الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ص١٣٠ : ١٣١ أ. محمد الغزالى.

معارضة الحكومة الشيوعية الجديدة، وقد ابتلعت تلك الشعوب الطعم، وشربت السم المنقوع فى كؤوس العسل.

ومع اندلاع الحرب الأهلية المروعة عام ١٩٢٢.م سارعت روسيا إلى تطييب خاطر المسلمين، وأبطأت من معدل صراعها ضدهم، وما أن وضعت الحرب أوزارها، بانتصار الشيوعيين حتى انطلقت روسيا بقوة ووحشية أكثر من ذى قبل ضد الإسلام والمسلمين.

وفى هذا يقول الدكتور أحمد شلبى على الصفحة ٥٩١ من المجلد الثامن ضمن موسوعته التاريخ الإسلامى نقلاً عن: (Laloile Rouge comlrele croissant) : شن الجيش الأحمر الحرب على المسلمين ، وكان يقبض عليهم ويقتلهم جميعًا، كما صادر المحاصيل، والماشية، وسلب ونهب».

ويحكى «ريمون شارل» أعمال الشدة التى باشرها الحكم السوفيتى ضد المسلمين ودينهم فيقول (إنه فى غضون عدة سنوات حُوِّلت ألوف المساجد إلى نادٍ للملحدين، وأُغلقت المدارس الدينية».

ونقلاً عن العوامل التى تنخر فى الكيان الإسلامى لمجموعة من الأساتذة على الصفحة ٣٨ : «ثُمّ أطلقت يد الشيوعيين القوميين فى مسلمى أسيا الوسطى - فأخذ هؤلاء الشيوعيون فى ذبح المسلمين بالجملة، وإحراق المنازل، وقتل المواشى، وارتكاب المجازر والفظائع، والجرائم التى لم يعرف التاريخ مثيلاً لها، وقد قُتل فى هذه المجازر ما يزيد عن مليون ونصف المليون من رجال الدين، وما يزيد عن أربعة ملايين مسلم من غير رجال الدين، هذا عدا الذين هربوا إلى البلدان المجاورة).

وقد ذكر كثير من الباحثين أن الشيوعية اضطهدت الإسلام أكثر مما اضطهدت غيره من الأديان، لأن كثيرين من أعضاء اللجنة المركزية بالاتحاد السوڤيتى هم من اليهود، وهم بالتالى يجدُون فى القضاء على المسلمين نصراً لليهود فى صراعهم ضد المسلمين، وعندما يبذلون الجهد لنشر الشيوعية فى الشرق الأوسط، فإنهم بذلك يخففون أو يزيلون الضغط عن إسرائيل[١].

وتجدر الإشارة إلى أن الإتحاد السوفيتى كان هو أسبق الدول حرصًا على الإعتراف بالكيان الصهيونى فى ١٥ /٥ /١٩٤٨م عند الإعلان عن قيام إسرائيل حتى قبل بريطانيا ذاتها بل وأمريكا.

---

(١) عالم حر جديد ص٦١، ١٦٢. محمد جميل.

وقد ابتُلِي المسلمون في أوطانهم وديارهم وأموالهم وممتلكاتهم، ومتاعهم، وكان فيهم ما قال تعالى: ﴿ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدا ﴾ [الأحزاب: ١١]

وهذا أمر طبيعي في شأن الأقلية الإسلامية في بلاد تُحارب الأديان خاصة الدين الإسلامي، وهو كذلك أمر طبيعي مع وجود عالم إسلامي انفصل تماماً عن ماضيه، ولم يعمل لغده، وقد أوشك أن ينسى تماماً، ما لم يكن قد نسي فعلاً الملايين من إخوة الدين الذين ما زالوا يجأرون تحت جحيم الإلحاد والقسوة والظلم في البطن السوفيتي، الذين هدم لهم السوفييت « ١٦٠٠ » مسجداً في الجمهوريات الإسلامية التي سقطت تحت أقدام الدب الروسي الذي أبقى على بعض المآذن لذر الرماد في عيون الحكام المسلمين الذين يزورون الإتحاد السوفيتي.

وهذا هو شعب تركستان الذي قهر السوفييت إرادته في الإنفصال ورغبته في الإستقلال، وقد قابلوا نضالهم بالرصاص والقمع، وعلى ذات المسلك سار الروس في تعاملهم مع قضية الشعب الشيشاني المسلم، فقصفته بالطائرات، ونسفته بالصواريخ وهدمت ديارهم بالدبابات، وأهلكت الحرث والنسل بالقنابل والنابالم والأسلحة الكيماوية ولا يزاولون يعانون من الويلات.

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ [البروج: ٨].

وقد حكى الرواة وذكر المؤرخون أن المساجد التي أبقى عليها الروس في بلادهم، ولم يهدموها - إنما يُمنع المسلمون من دخولها وإقامة شعائرهم الدينية فيها، فإن أراد مسلم الصلاة قام بها سراً في بيته.

كذلك فقد تم إلغاء المدارس الدينية، وقتلوا علماء الدين الإسلامي أو اعتقلوهم أو قاموا بنفيهم خارج أوطانهم بحيث لا يجد أبناء المسلمين من يعلمهم أمور دينهم، ومن طلب ذلك وعمل لأجله فليكن سراً في بيته - وهو بذلك عمل مغلول - عديم النفع، قليل النتائج.

أما المدارس السوفيتية فإنها تعلّم النشء الجديد أن الدين خرافة، وما هو سوى وسيلة لتحكم الأغنياء في الفقراء، ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن « ستالين » استخدم أقسى عمليات التطهير العرقي طوال فترة حكمه، وأصدر مرسوماً يقضي بالقوة على استخدام الحروف العربية « نطقاً وكتابة » في الجمهوريات الإسلامية كما قاوم وأجهز على كل الثقافات الدينية الإسلامية في مناطق التجمع الإسلامي.

لقد نَجحت روسيا فالإتحاد السوفيتي ثم روسيا من جديد في الإبقاء على

المناطق الإسلامية التى ضمتها إلى أراضيها بالقوة، ولكنها إلى الآن لم تنجح فى القضاء على القوميات، والثقافات المختلفة، وليس أدل على ذلك من حركة تركستان الغربية الإنفصالية بالأمس القريب ، واليوم هناك قضية الشيشان فى قلب روسيا - وتلك الحركات وهذه الثورات، أزعجت القيادة السوفيتية كثيراً حتى أجبرت الروس على خطبة وُدّ الإدارات الأمريكية فى غير مرة، ومن ذلك ما قاله آخر قادة الإتحاد السوفيتى المنهار (ميخائيل جورباتشوف) : «لقد بدأ المسلمون يتململون وينفضون الغبار عن أنفسهم ويحاولون أن ينطلقوا، وإذا انطلقوا لن يقف فى وجههم شىء، وأن المستفيد الوحيد من اختلاف أمريكا وروسيا هو الإسلام فلا بُدّ من إنهاء مشاكلنا للوقوف فى وجه العدو المشترك - يعنى الإسلام)[١] .

وقال معلق سياسى فى إذاعة إسرائيل من أصل روسى تعليقًا على الأحداث الجارية فى الاتحاد السوفيتى، المتزامنة مع تنامى دور حركات المقاومة الإسلامية فى فلسطين المحتلة، مع قوة حزب الله فى الجنوب اللبنانى الذى أذل إسرائيل : قال الرجل : «إن عودة الروح الدينية بهذا الشكل المفاجئ، دليلٌ على فشل جميع أساليب القمع مما يحتم على جميع الذين يعتبرون الإسلام عدواً تاريخياً لهم أن يعيدوا النظر فى الأمر للتوصل إلى اتفاق على أساليب جديدة وحاسمة لوقف الزحف الإسلامى الجديد، وعلى المحبين لإسرائيل أن يبذلوا جهودهم لإبقاء الروح الإسلامية خامدة لأنها إذا اشتعلت من جديد فلن نكون وحدنا فى خطر» .

لقد وقف الإسلام حجر عثرة أمام تثبيت المفاهيم الإلحادية فى المناطق التى مُورست فيها أعمال الترويس، بحيث لم يتمكن الجيش الأحمر من تثبيت عقيدة الكفر التى يدينون بها، والدليل على ذلك أن جريدة (كيزيل أوزباخستان) اليومية فى افتتاحية عددها الصادر فى ٢٢ آيار (مايو، ١٩٥٢م)، كتب محررها «من المستحيل تثبيت الشيوعية قبل سحق الإسلام نهائيًا»[٢] .

ومع استعار الحملة الشيوعية المجنونة والهجمة الصليبية الصهيونية الشرسة ضد الإسلام والمسلمين، ومع اشتداد وطيس صراع الحضارات الدائر منذ زمن طويل والذى يديره بتخطيط شيطانى ذلك التكتل العالمى (الوثنى - الصهيونى - الصليبى - الشيوعى) وعلى كل الأصعدة السياسية والإقتصادية والثقافية والإجتماعية قد تظهر الصورة قاتمة فى عيون بعض المسلمين ومن ثم يسألون هل إلى مرد من سبيل؟

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص٨ .

(٢) قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام أبيدوا أهله ص ٢٩ .

يا إخوة الدين - إن لنا فى الأحداث لعبرة، وفى التجارب مكامن الخبرة، لقد وجب علينا التدبُّر، والإستفادة من ثوابت التاريخ وحقائقه التى تضمها صفحاته، وفى قلوب من أدمتهم الجراح، وحرقتهم النيران، إن هذه هى المقابر الجماعية التى دفنوا بها إخوة ديننا أحياءً لتشهد على فظائعهم، وتنطق بذلك عظامهم النخرة، كما يشهد عليهم ترحيل المسلمين عن أراضيهم الخصبة، وديارهم إلى المناطق الجليدية فى أقصى الشمال الروسى عند سيبريا حيث درجات الحرارة العظمى فى أغلب فترات العام ١٠ درجات تحت الصفر ليعيش المسلمون (ممن تكتب لهم الحياة) فى هذه البيئة القاسية التى لا حياة فيها إلاَّ الرقاد فى الثلاجة الطبيعية الروسية.

وما كان ذلك واقعاً إلا بسبب توسع الإمبراطورية الروسية وقيام الإتحاد السوفيتى الذى طمس الهوية الإسلامية فى البلاد الإسلامية التى ضمها إليه أو تلك التى فى بطنه.... إنه بسبب الإتحاد الذى صيرهم إلى القوة، فى الوقت الذى عاد فيه المسلمون القهقرى، فحلت عليهم بسبب ذلك النكبات، وتتالت بهم الهزائم، فتلك الخلافة الإسلامية العُثمانية ذهبت وإلى غير رجعة، وتلك هى الإمبراطورية الإسلامية الإيرانية التى توسعت شمالاً ووصلت بالدين الإسلامى حتى حدود روسيا البيضاء ذاتها، فما أن حلّت بها الهزيمة أمام الجيش الروسى حتى أجبرها الروس على التخلى عن الكثير من المناطق الإسلامية التى كانت تحكمها، والتى كثيراً ما قدمت للإسلام والمسلمين علماء عظماء فى ميادين شتى، وباتت تلك البقاع الإسلامية تحت الحكم الأحمر حتى الآن.

ومما يثير الدهشة أن يتقدم الرئيس الروسى (فلاديمير بوتين) فى شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٣م بطلب انضمام بلاده إلى عضوية منظمة المؤتمر الإسلامى.

وأقول لبوتين: إذا كان صادقاً فيما ذهب إليه فعليه أن يقدم أفعالاً حية وصور صادقة وترجمة فورية يؤكد بها على حقيقة نواياه وصدقها. فعليه أن:

* يرفع أيديه فوراً عن الشيشان المسلمة ويأمر بسحب قواته منها ويترك للشيشانيين حق الإختيار المطلق بين الإستقلال التام أو العيش فى إطار اتحاد فيدرالى مع إمبراطوريته المجوسية أو الأرثوذكسية.

* يكفل حرية العبادات ويعيد للمسلمين كرامتهم التى امتهنت فى إمبراطوريته الشيوعية، وأن يعيد المساجد التى حولتها إلى نوادٍ للملحدِين - الحكومات السابقة.

* أن يعيد المسلمين الذين تم تهجيرهم من بلادهم فى البطن الروسى الضعيف

إلى مناطق أخرى بإعادة تهجيرهم إلى مواطنهم الأصلية وأن يعوضهم تعويضًا مناسبًا.

* أن يترك للجمهوريات الإسلامية فى بطنه الضعيف حق الاستقلال التام.

* عليه كذلك أن يسمح للمدارس الدينية بعودة العمل - وإطلاق حرية البعثات الدينية الإسلامية.

إن قائمة المطالبات طويلة ومليئة، ولسوف تكشف لنا الأيام عن غرابة عرض فلاديمير بوتين - بطلب عضوية بلاده إلى منظمة المؤتمر الإسلامى.

الشيشان

الواقعة فى أحشاء الروش - عرضنا لمآسيها المتصلة حتى الغد على صفحات كتابنا (المؤامرة الكبرى) المشار إليه فى غير موضع(1).

* * *

(جـ) إبادة الوجود الإسلامى فى كازخستان المسلمة

وتُكتب قازاقستان: وقد جعلتها الحكومة المركزية السوفيتية ميدانًا لتجاربها النووية مما أدى إلى تحوُّل هذه البلاد إلى شرنُوبل أخرى.

وقد انكشفت هذه الحقيقة عندما عقد بعض أساتذة معهد الطب الشرعى القازاقى مؤتمرًا صحفيًا فى أسطانبول، وكان المتحدث باسم أساتذة المعهد وهو الدكتور (حاتم بالقومان) رئيس المعهد الطبى الإشعاعى فى قازاقستان.

وقد عدد الدكتور «حاتم» بهذا المؤتمر التجارب النووية التى قامت بها روسيا فى «كازخستان» حتى وصلت إلى سبعمائة تجربة نووية حتى مايو ١٩٩٠م ثم قام بذكر المآسى التى يعانيها مسلمو بلاده من جراء قيام روسيا بإجراء تجاربها ومنها:

(أ) وفاة (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف مسلم قازاقستانى نتيجة الإشعاع النووى الناتج عن التجارب الروسية النووية.

(ب) وفاة حوالى ٠٢٩.٪ (فى الألف) من أطفال مسلمى قازاقستان متأثرين بالإشعاعات النووية على الأمهات.

(جـ) إرتفاع نسبة الأمراض النفسية فى بلاده إلى ٤٨٪ من جراء المآسى الكائنة.

(د) إصابة مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) كازاخستانى بمرض السرطان نتيجة للتجارب النووية.

---

(١) الصادر عن الدار العالمية للنشر والتوزيع.

وأنهى الدكتور حاتم كلامه بأن الأحداث التى وقعت فى قازاقستان لم تكن إلا محاولة من الحكومة المركزية فى « موسكو » لإنهاء الوجود الإسلامى فى بلاده.

أما تعليل حكومة موسكو لهذه المآسى التى يعانيها مسلمو كازخستان بأنه نقص فى الفيتامينات وهو السبب فى تأخير صحة المسلمين فى كازخستان وأن الحكومة جادة فى سد النقص فى الفيتامينات.

وقد قام الدكتور حاتم بتكذيب وجهة النظر الرسمية السوفيتية، فقد إضطرت الحكومة السوفيتية إلى الكذب حتى لا تثير الرأى العام العالمى والإسلامى[1].

وما زالت حلقات المسلسل الإجرامى مستمر عرضها، ولا يزال العرض مفتوحاً.

* * *

(د) المسلمون فى البلقان

لا يمكن قبول الحديث عن مشكلة المسلمين فى منطقة البلقان بإعتبارها مشكلة أقلية إسلامية تعيش فى وسط أغلبية ملحدة أو وثنية أو غير ذلك، فيمكن عندئذ الحديث عن أحوالهم وحياتهم وعرض مآسى اضطهادهم أو إبادتهم.

أما مشكلة المسلمين فى منطقة البلقان (البوسنة، والهرسك، وألبانيا) هى مشكلة أعمق بكثير وأشد خطورة وصعوبة من مشاكل الأقليات الإسلامية فى دول أخرى. وذلك لأنها مشكلة دول إسلامية سُنِيَّة تقع فى قلب أعدائها من الصرب والكروات والجبل الأسود وهم أحفاد البيزنطيين الذى يحملون مشاعر عدائية نظراً للموروث العدائى التاريخى بينهم وبين الفتح الإسلامى خاصة فى عصر العثمانيين – بالإضافة إلى روسيا التى ترى نفسها الوارث الشرعى للدولة البيزنطية، لذلك فهى تجتهد أيَّما اجتهاد لِبتْرِبَنَانِ كل ما هو إسلامى (ذكرنا من ذلك الكثير)– وهم جميعاً أنصار إسرائيل.

وتكمن مشكلة شعب البوسنة والهرسك فى أن أوروبا على إطلاقها تقف موقف الرفض القاطع لهذا الوجود الإسلامى على أراضيها. وإذا كانت أوروبا حاربت فكرة قيام دولة إسلامية فى الجزائر العربية شمال أفريقيا لأنها تقع فى مواجهة أوروبا من جهة جنوب المتوسط، حتى لا يزحف المسلمون إلى الشمال ليقيموا أندلساً أخرى فيصبح الغد على ما بات الأمس، وذبحوا الخلافة الإسلامية فى تركيا، وزرعوا مكانها دولة علمانية لا تؤمن بدين، ولا ترعى قيمة.

---

(١) نقلاً عن المختار الإسلامى ع ١٤٩ – فى ١٣ / ٦ / ١٩٩٥م.

كما اتفقت روسيا وأمريكا للحيلولة دون قيام حكم إسلامى فى أفغانستان، وهؤلاء هم جميعًا يفرضُون حصاراً اقتصادياً قويًا على الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وهم يلوحون الآن بعصاهم ضد المملكة العربية السعودية حيث قلعة الإسلام وكعبة المسلمين وقبر الرسول ﷺ وصحابته فى المدينة المنورة (يثرب) التى يدعى اليهود الآن بأن لهم فيها حقوقًا تاريخية – يعملون لاستردادها بكل قواهم.

فهل تسمح أوروبا بقيام دولة إسلامية سُنِّيَّة على أعتابها؟!!

إن مأساة البوسنة والهرسك قد عرضنا لها تفصيلاً على صفحات كتابنَا (المؤامرة الكبرى) وشرحنا أبعاد المؤامرة ضدهم منذ تعرض المسلمون هناك لألوان شتى من التعذيب والتنكيل والقتل، والتخريب والتدمير، والتهجير والتنصير على يد النِّمْسا والمجر، ومنذ وقُوع البوسنة والهرسك تحت حكم صربيا « ١٩١٨ : ١٩٤١م » مروراً بما تجرعوه على أيدى الطاغية « تيتو »، وانتهاء بحكم « سلوبودان ميلوسيفتش »، وذكرنا كذلك بعضًا من أخطر تصريحات أشهر سياسيّ أوروبا ومن أهمها ما قال رئيس الوزراء الفرنسى الذى ذهب إلى البوسنة فيما أُذيع أنه يحمل خطة سلام تقضى على النزاع البوسنوى الصربى المسلح الذى كان يهدف إلى إبادة الوجود الإسلامى فى البلقان، وقد عبر الرجل صراحة عن الوجه الفرنسى كأحد أهم الوجوه المطلة على الأزمة، الساعية لإيجاد حل لها حيث قال متخاطبًا مع الرئيس البوسنوى (على عزت بيجوفيتش) : [ليكن فى علمك بوضوح أن فرنسا لن تسمح مطلقًا بوجود دولة على عتبات أوروبا يحكمها المسلمون].

كذلك فقد فضحنا الدور الإسرائيلى القذر فى تلك الحرب الأشد قذارة، والذى امتد بدعمه من الشرق الأوسط إلى شرق أوروبا ووسطها حقداً على المسلمين، وكراهية فيهم، وربما كان الموقف الإسرائيلى رداً للجميل السابق.. عندما قدم الروس والصرب للإسرائيليين فى حرب ١٩٤٨م كافة أشكال الدعم والذى وصل إلى حد المشاركة الفعلية فى الحرب، حيث تحدثت أنباء مؤكدة عن أن جنوداً شيوعيون كانوا يحملون أسلحة سوفيتية الصنع، وقد اشتركوا فى الحرب ضد العرب إلى جانب العصابات الصهيونية.

ومن هنا يمكن القول بأن الوجود الإسلاميّ فى البلقان يشبه جزيرة إسلامية تموج فى بحر لجيّ فى محيط الكفر الواسع، فجميع دول الجوار مُجْتمعَاتٌ تحارب الأديان وتتشدد عن جهالة وحماقة لعقيدتها الضالة المضللة، وهى فى سبيل ذلك تجند كل طاقاتها، وتحشد كل قواها، وتسخر عظيم إمكانياتها للقضاء على الإسلام والمسلمين فى شتى بقاع الأرض، وليس أدل على ذلك من الحملات الصليبية التى

عبروا لأجلها البحار ليهاجموا الديار الإسلامية فى أوطانها ووصولاً إلى الجنوب الشرقى الأسيوى بعد الإلتفاف حول إفريقيا، ونوعوا وطوروا لأجل هذه الحرب المجنونة وسائلهم وأدواتهم، وابتكروا وأضافوا واجتمعوا واتحدوا وصاروا يعملون فى خندق واحد يُصيبُون من المسلمين ما شاؤوا ضمن إطار زمنى وخطَطى محكم - حتى باتت ممالك إسلامية فى خبر كان ولا أثر لها - وإن الصراع ليحتدم والصدام ليشتد، وإن الأيام حُبلى ببغيهم، وتمضى الأيام نحو الأجل الحتمى المعلوم.

* * *

(هـ) الأقليات الإسلامية فى الصين

هناك علاقة تجارية قوية وروابط مصاهرة بين العرب والصينيين منذ قبل ظهور الإسلام، إذ أن الثابت عمليًا وتاريخيًا أن الصينيين كانوا يتعاملون مع آسيا الوسطى والغربية (شبه جزيرة العرب) وضواحيها قبل الميلاد، وفى القرون الأولى من الميلاد.

وقد كان اتصال العالم العربى والإسلامى بالصين اتصالاً دائمًا ومتجددًا ومباشرًا وغير منقطع، وقد سلك العرب فى رحلاتهم إلى الصين مسلكين:

الأول: بحرى - ويبدأ من الخليج العربى مروراً بسواحل الهند، وسيلان، والملايو انتهاء بالموانى الجنوبية للصين.

الثانى: برى - ويبدأ من سواحل الشام مروراً بالعراق فإيران ومنها إلى كشمير أو سمرقند فالصين.

وقد وصل الإسلام إلى الصين فى وقت مبكر جداً، حمله إلى هناك التجار العرب والمسلمون من مناطق الجوار بالإضافة إلى الرحلات البحرية المتعددة للأساطيل الصينية التى كانت تأتى إلى الخليج العربى.

وقد أقام المسلمون فى منطقة (خانقو) مستوطنة عربية إسلامية جذبت إليها التجار العرب والفُرس.

وفى المدينة «البوابة البحرية» الصينية (كانتون) عاش عدد هائل من المسلمين، وأقاموا مركزًا تجاريًا لهم إلى جانب المركز التجارى فى (خانقو) وأقاموا مسجداً كبيراً أسموه مسجد (ذكر النبى)، وتكوّنت بعد ذلك جاليات إسلامية فى « تْشُو إن تْشُو »، و« هانج تشو »، وامتدوا إلى مناطق أخرى(١).

وفى عام ٧٥١م استولى المسلمون على « طشقند » عقب هزيمة جيش صينى فى

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص١٣ وما بعدها - اقتباس بتصرف.

معركة « طلاس » واستطاع القائد (أبو مسلم الخرسانى) أن يمكن المسلمين من أن يصبح لهم مكانة رفيعة فى هذه المناطق(١).

وفى عهد الخيفة العباسى « أبو جعفر المنصور » رحل المسلمون إلى الصين للقضاء على ثورات داخلية بناء طلب الإمبراطور (سوتشونج)، واستطاع الجيش الإسلامى أن يقضى على الفتنة الداخلية، وأن يرد للإمبراطور هيبته ومكانته وقد طلب الإمبراطور بقاء المسلمين فى « شانغ آن » والإستيطان بها. وسرعان ما تزوج هؤلاء من صينيات، وتكونت منهم جالية كبيرة قوية فى الشمال الغربى للصين، وانتشروا لاحقًا فى أنحاء هذه المنطقة(٢).

وكان من أهم أسباب انتشار الإسلام فى الصين فى عهد المغول أن بعض أباطرة المغول الصينيين المسلمين وضعوا شرطين لتولى أهل الصين الوظائف، هذان الشرطان هما معرفة لغة المغول، واعتناق الدين الإسلامى(٣).

وقد تمتع المسلمون فى الصين بنفوذ واسع وصار لهم سؤددًا كبيرًا حيث وَلى ثمانية ولايات حكام مسلمون من جملة الولايات المغُولية الإثنى عشر، كما نعم المسلمون فى الصين بالحرية والأمن ورغد العيش، ورفه الحياة على الرغم من تضييق الخناق من قبَل أسرة منغ (١٣٦٨ : ١٦٤٢م) حيث وجدوا بعض العنت من الحكم الصينى، ولكن الإمبراطور الصينى لم يلتفت لهذه المحاولات المغرضة.

المسلمون والعهد الشيوعى

منذ عرفت الصين الحكم الشيوعى ١٩٤٩م حتى الآن – هرب بعض المسلمين إلى تايوان وآخرون إلى الهند والباكستان، ومصر، والسعودية، وظلت الغالبية العظمى من المسلمين متمسكين بأرضهم وديارهم، فالصين موطنهم الذى لا يجدون عنه موئلاً، ولا يبغون عنه حولاً.

وعلى الرغم من هجرة بعض المسلمين مبكرًا طلبًا للنجاة من البطش الشيوعى الذى وصل فجأة إلى رأس الحكم فى الصين، إلا أن الرواة والمؤرخين أنصفوا الحياة من غير هوى، وقصوا القصص من دون تسويف أو تزييف، من ذلك ما قاله الأستاذ الدكتور/ أحمد شلبى « وربما جاز لنا أن نقول أن الشيوعية عدوة للإسلام والمسلمين

---

(١) تاريخ المسلمين فى الصين ص١٦، ١٧ بدر الدين الصينى.

(٢) الصين والعرب ص٣٥ محمد محمود زيتون.

(٣) المصدر ذاته ص٢٣.

في كل زمان ومكان، وأن دماء المسلمين استباحها الشيوعيون دائمًا، ولكن ربما جاز لنا أن نقول أن الصين كانت متأثرة بعراقتها الحضارية، وبأمجادها التاريخية، فلم تكن عنيفة مع الأديان، كما كانت روسيا، ولهذا بقيت الكونفوشية في الصين وبقي الإسلام كذلك، ولم ينزل بالمسلمين ذلك الضر الذي نزل بإخوانهم في روسيا».

وأنا بدوري أؤكد على ما ذهب إليه المرحوم الأستاذ الدكتور «أحمد شلبي»، غير أنني أضيف على ذلك أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني كانت لجنة وطنية تضم أعضاء من الوطنيين الصينيين، وكانت خالية تمامًا من أية وجود يهودي على عكس ما كانت تضم مثيلتها في الحزب الشيوعي السوفيتي، وكان ذلك من حسن الطالع للمسلمين الصينيين، بل وللصين ذاتها.

ولما جاءت الثورة الثقافية الصينية عند الستينات أنزلت بعض المتاعب بالمسلمين وحرمتهم من الإمتيازات التي كانت تُمنح للمسلمين، ولكن في يوليو ١٩٧٩م أصدرت حكومة الصين تعليماتها بالسماح للمسلمين بتأدية شعائرهم الدينية، وإعادة فتح المساجد للعبادة، بعد أن كانت قد تحولت إلى متاحف للزيارة، وكان ذلك هو الإتجاه الرسمي لحكومة الصين بعد «ماوتسي تونج» لتخفيف إجراءات ما سُمي بالثورة الثقافية، ولتحسين العلاقات مع الدول العربية والإسلامية بوجه عام[١].

ونتيجة لهذا الإتجاه، الذي تسانده الأخلاق الصينية أصبح للمسلمين مكانة طيبة في الصين، وهم يشغلون الآن وظائف كبيرة، ومواقع مرموقة، بل ويتمتعون بالحكم الذاتي في ولايتي (لينسيا) و(سينكيانج) التي أصبحت دولة تتمتع بالحكم الذاتي اعتبارًا من ١٩٥١م، وقد عُين «السيد سيف الدين» رئيسًا لها[٢].

ويذكر صاحب كتاب الدعوة إلى الإسلام أن ظروفًا معينة، وتحولات محددة جعلت الصينيين يدخلون في الإسلام بأعداد كبيرة مما حدا بكاتب روسي يدعى (فاسيليف) سنة ١٨٦٧م أن يؤلف كتابًا عن الإسلام في الصين يذكر فيه أن الإسلام في الصين مُهيّءٌ تمامًا لأن يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية، وهذا سيقلب تباعًا الأوضاع السياسية في العالم الشرقي رأسًا على عقب[٣].

وفي هدوء تام، ومن غير صدام، وباستخدام الحوار بين العقول، وبإمكانيات التأثير، ووفرة الأدوات أضحت الكونفوشية في الصين هي الدين والقومية بحيث بات

---

(١) المسلمون في العالم ص١٠٥ د. عادل طه.

(٢) القاموس الإسلامي ج٤ ص٣٨٩. أحمد عطية الله - بتصرف.

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٧.

من العسير انصراف أتباعها عنها، والسبب فى ذلك العرض العام المتمثل فى تراخى المسلمين، وإهمالهم فى الدعوة وإعراضهم عن الجهاد، وعجزهم عن التبليغ وندرة المطبوعات الإسلامية التى تصل بصحيح هذا الدين الحنيف إلى المسلمين فى بلادهم بلغتهم المحلية، هذا غير ضعف إمكانيات العالم الإسلامى دعائيًا وإعلاميًا فى عصر السماء المفتوحة (الفضائيات)، وكذلك لجوء أموال البترول العربية والإسلامية إلى بنوك الأعداء والتى دومًا ما تنتهى عند التجميد والمصادرة (والشواهد وفيرة ومتعددة)، وبفضلها تمكن أعداؤنا فى صراعهم المرير ضدنا من توجيه حرابهم، ونبالهم، وصواريخهم، وقنابلهم، وإعلامهم، وثقافتهم ضدنا وعلينا، كما صدروا إلينا أدب الإباحية (قلة الأدب) عبر الشاشات الكبيرة والصغيرة على السواء... إلخ من الأدوات المفضوحة التى تقضى على الشباب من غير إطلاق طلقة نار واحدة. أى - ولادة جيل جديد عند مستوى ثقافى دينى - صفر - حتى يصبح أرضًا خصبة لغرث شتلات ثقافات جديدة تتواءم مع الثقافة الوافدة التى لا تخدم غير الغرب وسياسته ومصالحه وإرساليات تبشيره - كل ذلك بأموال البترول العربى والإسلامى التى تهاجر من بلادها طوعًا أو كرهًا فى ظل ظروف داخلية، وإقليمية، ودولية معينة - لا يعلم إلا الله وحده عند أى مدى، ومتى ستنتهى- ، وكذلك أثمان مشترواتهم من الأسلحة التى تصنعها بلاد الكفر - ليتقاتل بها العرب والعرب، والمسلمون من غير العرب مع العرب؛ ثم أبناء الوطن الواحد.

درس مستفاد

مما يثير العجب، ويحض على الإستغراب أن جمهورية الصين الشعبية ذات الأخلاق السامية، صاحبة الحضارة الطاعنة فى جذور التاريخ، التى يعيش على أرضها ما يدانى ثلث سكان العالم تقريبًا أنها تَتَمتّع بالكفاية الإنتاجية، ووفرة رؤوس الأموال كما أن لديها ثروة عظيمة من الأيدى العاملة الماهرة فى مختلف الميادين (صناعية، وزراعية، وتكنولوچية، وعلمية، وبحثية، وعسكرية، وفضائية) وقد قامت بغزو الفضاء الخارجى لتقتحم على الولايات المتحدة وروسيا وتكسر احتكارهما لهذا المجال من خلال الإعلان عن برنامج طموح لغزو الفضاء فى مجالات عسكرية وبحثية - بما ينبئ عن تحول الصين إلى قوة عظمى خلال سنوات قليلة قادمة.

وإذا كانت إسرائيل قد تخلت عن بريطانيا وهى (أمها الشرعية) وتحولت إلى الولايات المتحدة بمجرد ظهور نَجمها وسطوعه الذى تزامن مع أفول النجم البريطانى الذى تحول إلى قوة من الدرجة الثانية بعد الحرب العالمية الأولى، فإنها - إسرائيل - لن

تتحرج فى التحول عن الولايات المتحدة وأن تولى وجهها صوب شرق العالم إلى النجم الصينى الجديد القادم بقوة، بعد أن ولت وجهها سلفًا إلى الغرب وقبله إلى الشمال، وإنى لأنبّه العالم العربى كله على ضرورة تطوير العلاقات العربية الصينية وتنميتها وازدهارها، خاصة أن لنا فيهم نسبًا وصهراً، وارتباطاً ثقافياً وميراثاً تاريخياً وحضارياً كبيراً - وعلاقات تجارية قوية تسبق الميلاد بعدة قرون، كما يجب أن نغلق الباب تمامًا ومبكراً أمام أية محاولة إسرائيلية للطرق على هذا الباب فى ظل وجود إسرائيلى مكثف فى الهند أسفر عن توقيع اتفاقيات عسكرية وإقتصادية طويلة الأمد بين الجانبين الهندى والإسرائيلى - فقط لنقرأ الأحداث ونستطلع التاريخ، ونستخلص العبر، ولنسبق إسرائيل فى هذا المجال.

أنتبهوا أيها السادة

إن الصين بهذه المقومات والقوة أمرت بالتخفيف عن المسلمين، وعملت على الحد من الإجراءات الإستثنائية التى فَرَضَتْهَا الثورة الثقافية أثناء حكم « ماو » الذى أذاق المسلمين ألوان العذاب، وتجرعوا على يديه كأس المرار - وهو الرجل الذى تَغَنَّى فيه إعلام كبريات الدول العربية، وقد بالغنا فى الثناء عليه والمديح فيه، وكأنه جاء ليخلص البشرية من آلامها ويحقق آمالها وأنه سوف يلقى بإسرائيل فى البحر نيابة عنهم.

أَوَ تدرى لماذا صححت حكومة الصين مسار علاقاتها بالمسلمين الصينيين، وسمحت لهم بتأدية شعائرهم الدينية والقيام بمناسكهم، وفتحت لهم المساجد بعد أن حولتها ثورة (ماوْ) سلفا إلى متاحف.

الجواب: إنها خطوة على طريق تصحيح مسار علاقاتها بالعالم العربى والإسلامى لأجل علة غائية لا أجد تحرجًا فى الكشف عنها، وهى:

إن دولة عربية إسلامية واحدة هى (المملكة العربية السعودية) يمكنها أن تصيب الإقتصاد الصينى فى مقتل، إذا ما اتخذت المملكة السعودية قراراً يقضى بفرض حظر على الواردات الصينية، ومنعها من دخول أراضيها - الأمر الذى يصيب الدخل القومى الصينى بكارثة محققة إذا ما كان واقعًا، لأن دخل الفرد فى الصين « أيا كانت عقيدته » سوف يتأثر سلبًا من جراء عملية الركود.

ولكن لماذا التّدليل بالسعودية وحدها؟

والإجابة تجدها ماثلة عند النظر إلى الحشود الهائلة التى تفد إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مرة كل عام، ثم أتبع النظر مرات إلى مواسم العمرة المختلفة.

إن المنتجين والحرفيين والصناع والتجار الصينيين يستعدون أيّما استعداد للمواسم السياحية المتعددة فى المملكة السعودية باعتبارها أكبر سوق سياحى تجارى عالمى - ينعقد فى مواعيد ثابتة - وهم يبيعون فيه منتجاتهم - كل المنتجات - من الإبرة إلى السيارة - مروراً بالمسبحة والجلباب ومستحضرات التجميل، وجهاز الكاسيت، والراديو، والفيديو، والديكودر، والأجهزة الكهربائية، والأقمشة، والمنسوجات، وأدوات المطبخ، حتى حجّابة الشمس، وزر الكهرباء، حتى القلم الرصاص، وولاعة السجاير والسلع المعمرة، - كل شيء - انتبهوا أيها السادة - إنهم يتاجرون ويصنعون كل شيء حتى تصدير الخادمات، والسائقين والطهاة ولاعبى الأكروبات، ومدربى الحيوانات، والثعابين والحيات والعقرب... ولم يتوقفوا عند الحدود الجغرافية للسعودية - بل دفعتهم شطارتهم إلى اقتحام مجلس التعاون الخليجى - وهم هناك يجلبون تجارتهم من البشر عن طريق السماسرة، والوكلاء من الهند وماليزيا، وسنغافورة، والفلبين، بل ومن إيران للعمل فى أعمال معينة فى هذه البلاد، ولكنك لن تجد صينياً واحداً بين هذه النوعيات، فالصين ترفع شعار «الموت لمن لا يعمل» فالكل يعمل، ويُنتج ويتاجر ويُصدّر أو يستورد مما يحتاجونه وهو القليل - ومن دول الجوار - للإقتصاد فى نفقات النقل والشحن للحفاظ على الحد الأدنى للأسعار مراعاة للخطوط المعينة التى تعين الإقتصاد القومى ولا يمكن تجاوزها.

إنهم «الشطار» الذين ضَرّبوا الإقتصاد الأمريكى فى مقتل على أرضه، ونافست منتجاتهم المنتجات العالمية فى أوطانها، بفضل تقديم منتجات تناسب كل الدخول وفى كل مكان بواسطة المنتجات الأرقى والأقل والأجْوَد، والأدنى حتى عانت بعض الدول من قضايا إغراق أسواقها بالسلع والمنتجات الصينية التى باتت تهدد الصناعات الوطنية فى كثير من دول العالم خاصة العربى منها - لأننا فتحنا أبوابنا (ع البحرى) أمامهم ليصدروا لنا كل شيء، أما هم - فقد وصّدوا أبوابهم أمام إنتاجنا وأحكمواْ غلقها حتى النوافذ.

ويبرز على السطح سؤال بالتالى: وهو:

ما هى القيمة النقدية للمبيعات التى يحققها التجار الصينيون فى أكبر سوق سياحى عالمى فى المملكة السعودية؟

إن حجم المبيعات يفوق الخيال، وأثمانه فوق التصور. وذلك لأن الصينيين يستعدون لمواسم العمرة وموسم الحج أكثر من المسلمين أنفسهم - وهُم أشد حرصاً على ذلك، فليست هناك دولة عربية أو إسلامية بمقدورها الوفاء باحتياجات السوق

السعودى وإن استطاعت الوفاء فإنها لن تستطيع الترويج لتسويق منتجاتها أمام هؤلاء التجار «الشطار». خاصة بعد أن تحولنا جميعاً إلى سوق استهلاكية تنافسية تتباهى فقط باقتناء واستهلاك السلع المستوردة «والعوض على الله».

وليس هذا اتهامًا بالفشل، ولكنه تقرير للواقع، كما أنه يأتى من باب لفت الأنظار إلى ما يمكن أن نحققه نحن العرب من مكاسب مادية، واقتصادية، وخبراتية، ومنافع تبادلية هائلة إذا أمكننا السيطرة على هذه السوق الكبيرة الرائجة، والوفاء بالتزاماتها، وتلبية متطلباتها، وإدارتها بحيث لا تقل الجودة، ولا ترتفع الأسعار، بحيث تظل فى مستوى أسعار مثيلاتها الصينية والإندونيسية والماليزية - الوافدة والمنافسة بقوّة، ومن أجل البقاء والسيادة والتربح، وفرض الوجود بقوة الإقتصاد، ومتانة العلاقات السياسية.

ولنتنبه إلى ما فعل الحزب الشيوعى الصينى هناك - إنهم قد سمحوا بحرية المسلمين من دون قيد أو شرط لا لشىء إلا لأجل رفاهية المجتمع الصينى الذى ينتج، ويطور إنتاجه وأداءه، وتوفر له الحكومة سوقًا أو قل أسواقًا كبيرة لتصريف منتجاتهم حتى ولو كان ذلك على حساب العقيدة السياسية للبلاد والنظام الحاكم، باعتبار أن الإقتصاد أولا - ثم تأتى السياسة فى خدمته ورعايته.

ثم اتبع النظر مرتين إلى أحوال عالمنا العربى والإسلامى، قَطْعًا - سينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير.

فعلى الرغم من المذابح والقتل والتّشْريد والهدم والإغتيالات، ونسف المساجد فى فلسطين فى قلب العالم العربى ومع المأساة المتكرر نموذجها فى العراق الذى يتم التحضير لإقامة دولة يهودية جديدة على أرضه لتمثل الحد الشرقى لإسرائيل الكبرى، وما يقع هناك من خطف للفتيات المسلمات وهتك أعراضهن، وتكرار الإعتداءات الجنسية الفاضحة على رجال العراق فى الشوارع، بالإضافة إلى أطنان الصواريخ والقنابل التى تتساقط على الأفغانيين، فضلاً عن عمليات الإبادة والتطهير العرقى المنظمة ضد المسلمين فى منطقة القوقاز، وما يعانيه المسلمون فى الهند وكشمير التى سيطرت عليها الهند وفى جلال آباد، وما يجدوه فى الفلبين واستراليا - ناهيك عن حصارهم وتجويعهم فى السودان والصومال واليمن، وقريبًا سوريا وإيران، والضغط عليهم فى ليبيا وموريتانيا، وتوريطهم فى حرب حتمية يقودها السُنَّةُ فى الجزائر ضد المرتدين والمتنصرين على أيدى جماعات التنصير . ثم اتهام المسلمين هناك بالإرهابيين إلى غير ذلك وهو كثير.

مع ذلك فإننا نجد العالم العربى كله بإمكانياته الهائلة، وموارده الجبارة، ومن خلفه جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامى - الجميع وقف عاجزاً غير قادر على مجرد الإعلان عن نوايا حسنة لموقف عربى وإسلامى جماعى للتصدى للهجمات المتتالية أو للغارات المتقطعة التى تستهدف المسلمين، وتعمل لاجتثاث الدين الإسلامى، ومحاربة علماء الدين والمشايخ، بينما صفقنا ورقصنا وغنينا كثيراً لكل من (انديرا غاندى)، « جوزيف بروس تيتو »، « ماوتسى تونج »، « جوليوس نيريرى »، الذين حاربوا الإسلام والتهموا دولاً إسلامية كاملة وقد تحللت فى بطونهم وحرقوا أرضهم أو دمروها وزرعوها بالكنائس، وجميعهم أصحاب تاريخ أسود ملعون فى محاربة الإسلام وإبادة المسلمين.

﴿ **أَفَلا يعقلونَ** ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، ﴿ **أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ **أَفَلا يَتدبَّرُونَ** ﴾ [النساء: ٨٢].

كذلك ونحن نملك أخْطَر أسلحة التأثير وأقواها وهو سلاح المقاطعة، أَجدُنَا جميعًا وقفنا عاجزين عن مجرد التلويح باستخدامه فى وجه أهل الكفر والطاغوت الذين اقتحموا علينا حياتنا وبيوتنا ودخلوا غرف نومنا وأفسدوا حياتنا، بل الغريب أن تتسابق بعض الدول العربية والإسلامية إلى إقامة علاقات طبيعية (سياسية واقتصادية وثقافية) مع إسرائيل، هذا بخلاف دول عربية أخرى التزمت الصمت فى ظل حالة غليان وفوران شعبى عام يعانى من ارتفاع شديد فى ضغط الدم نتيجة للضغوط الهائلة الواقعة عليهم جميعا بالتزام الصمت أو ممارسة التعبير كذلك فى صمت.

* * *

(و) صراع الأديان فى الفلبين

الفلبين: هى إحدى دول جنوب شرق آسيا، وتشكل مساحتها سبعة آلاف جزيرة، وهى تقع فى قلب المنطقة الإستوائية، وتعداد سكانها الآن حوالى الثمانين مليون نسمة تقريبا، وتنتشر بها أربع ديانات:

الإسلام: حوالى ٩٪

الكونفوشية: حوالى ٣٪

المسيحية: وهى الديانة الرسمية التى يدين بها معظم السكان.

وتعرف الفلبين بأنها فردوس الشرق الذى فقدها العرب كما فقدوا الفردوس الغربية فى الأندلس.

وقد تحدثنا عن كيفية دخول الإسلام إلى تلك البلاد، وعن الغزو الصليبى الأسبانى إليها، وبينا كيف أنها أصبحت هى الدولة المسيحية الوحيدة بين جيرانها، وقد انتقلت السيادة الإستعمارية إلى الولايات المتحدة خلفًا لأسبانيا فى المدة من ١٨٩٨ : ١٨٩٩م. وكانت أسبانيا طوال فترة وجودها تمارس ضد المسلمين وبقسوة وجور صراعًا مريرًا لم تتمكن به أو أثناءه من القضاء على الإمارات الإسلامية التى ظلت تحكم نفسها حكمًا إسلاميًا على الرغم من خضوعها تحت الإحتلال الأسبانى.

اتبعت الولايات المتحدة نمطًا جديداً فى التعامل مع الفلبينيين، فأعلنت أنها ما جاءت كدولة احتلال، بل جاءت بدافع «نبيل» وهو تحرير الفلبين من الإستعمار الأسبانى، وتلك هى كانت سياستها المعلنة، أما حقيقة الأمور وبواطنها فكانت عكس ذلك تمامًا، فقد استحدثت أمريكا أنماطًا جديدة لإيصال الأذى إلى المسلمين فى خبث ومكر تارة، وعلانية ومجاهرة تارات أخرى لإبعاد المسلمين عن دينهم وتنصيرهم، مما تسبب فى اندلاع صدام دموى وصراع مرير دام نحو ثلاثين عامًا بين المسلمين من جانب، والولايات المتحدة ومسيحىّ الفلبين من الجانب الآخر.

وقد اضطرت الولايات المتحدة إلى توقيع معاهدة ضمنت فيها حقوقًا للمسلمين، فى محاولة لتهدئة الصراع، استعداداً للتعامل مع المتغيرات الدولية التى طرأت على الساحة الدولية، والتى فَرَضَت على العالم بعد ذلك فيما عُرفت بالحرب العالمية الثانية.

ودخلت اليابان إلى حلبة الصراعَ ضد الفلبين فزحفت إليها عام ١٩٤٣م إثر تهاوى الحلفاء أمام الزحف اليابانى المنتصر، وقد قاوم المسلمون اليابانيين بضراوة وقوة، وما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فى ١٩٤٥م. حتى كانت الفلبين أسبق الدول التى حصلت على استقلالها عام ١٩٤٦م.

غير أن الفلبينيين ورثوا ميراثًا هائلاً من الصليبية الأوروبية (الأسبانية) صاحبة العَدَاء التاريخى، ومن الولايات المتحدة الصليبية المتصهينة الجديدة.

وقد تخلت اليابان، والولايات المتحدة عن الفلبين، ونفضوا فى العلن أيديهم منها، وتركوا صراعًا مريرًا بين المسلمين والمسيحيين. يغذى ناره القوى الصليبية الخارجية حتى فرغ المسيحيون فى الفلبين بمشاركة عصابات خارجية وعملوا بكل قواهم للنيل من المسلمين فحرقوا مزارعهم، ودمروا منازلهم، وهدموا المساجد فوق رؤوس المصلين، واستحيوا النساء، وهتكوا أعراضهم، وبقروا بطون الحوامل، بمباركة رسمية من رئيس الفلبين (فرديناند ماركس) الصليبى الذى وقف إلى جانب بنى

دينه ضد أبناء وطنه المغايرين فى الدين، فأصدر أوامره للجيش بمهاجمة المسلمين خاصة فى المناطق الجنوبية حيث الأغلبية المسلمة.

ولكن المسلمين ردُّوا هذا الكيد بكيد مثله خاصة بعد أن اكتشفوا قيام جماعة من المسيحيين الفلبينيين أطلقت على نفسها (إيلاجاس) - أى - الفئران، وكانت هذه الجماعة تمثل تنظيمًا سريًا يمارس صورًا متنوعة لتعذيب المسلمين، والقضاء عليهم، والإستيلاء على أراضيهم.

ويؤكد زعماء المسلمين هناك أن حكومة الفلبين كانت وراء ذلك التنظيم[1].

انتفض الأحرار فى ربوع العالم، بعد أن أثارت الصحافة الإسلامية ضجة هائلة أحدثت دويًا كبيرًا بعد نشر فظائع الحكم الماركسى ومآسيه، وتدارك ماركس وأتباعه من عبدة الصليب أن تحقيق نصر على المسلمين بعيد المنال، وبعد وساطات متعددة قِبَل الطرفان - الإسلامى - بقيادة الزعيم (نورميسوارى) وحكومة الفلبين إجراء مفاوضات عام ١٩٧٦م. وانتهوا فيها إلى صيغة اتفاق ينص على الآتى:

* الوقف الفورى لإطلاق النار وكافة أعمال العنف بين الطرفين.
* منح الولايات الثلاث عشرة الإسلامية الجنوبية حكمًا ذاتيًا.
* العفو الشامل عن جميع الثوار المسلمين.
* إطلاق سراح المسجونين السياسيين.
* إجراء استفتاء عام يحدد مصير المناطق الإسلامية بأكملها.

وقد تجاهلت الحكومة الفلبينية هذا الإتفاق، ولم تضعه موضع التنفيذ الأمر الذى هدد بإشعال النار من جديد.

وقد تدارك الرئيس الفلبينى الموقف وأبعاده فوعد من جديد بتنفيذ الإتفاق المبرم مع المسلمين، وحتى رحيله لم يفى بوعده.

وما زال العالم الإسلامى كله ودول الجوار هناك، والمهتمون يرقبون الأوضاع ومقدرة السُلْطات الفلبينية على الوفاء بالتزاماتها حيال ما تم الاتفاق عليه، وما التزمت به من عهود على الرغم من تغيير أكثر من حكومة منذ توقيع الاتفاق حتى الآن، وما زالت كذلك الأوضاع هناك تشهد حتى الآن حالة من الغليان، والفليبينيون يعيشون على شفا بركان.

* * *

---

(١) المسلمون فى الفلبين ص٤٢ : ٤٣ د. محمد عبدالقادر أحمد.

الفصل الثانى

أولاً : ميلاد حرب جديدة

يحوى التاريخ فى ذاكرته القرن العشرين الذى غربت شمسه منذ شهور قليلة بإعتباره أبرز وأخْطَر القرون التى عاشها بنو البشر فوق ظهرانى الأرض، حيث صنع أولاد آدم ما يزيد عشرات الأضعاف عما ابتكره أو صنعه من سبُقوهم، منذ كان الإدراك، والوعى، والضمير، والفكر الإنسانى، أى منذ ما يُدانى الألف قرن من الزمان، عندما اكتشف الإنسان الزراعة، وعرف معنى الإستقرار، وتلك كانت بدايات الحضارة الإنسانية.

ويتميز القرن العشرين بأن كل حقبة فيه شهدت اندفاعة هائلة نحو آفاق جديدة من الضياء الباهر الذى مكن البشرية من اقتحام الظلمات والمجهول، كما شهد انطلاقة عظيمة مكنتها كذلك من عبور الجهل والتخلف إلى العلم والمعرفة وازدهار الصناعة، والتجارة، وقد أدت تلك الإندفاعة إلى حدوث فائض هائل لأوروبا عن طريق استغلال مستعمراتها حول العالم، خاصة بعد الإعلان الذى أصدرته الجمعية الجغرافية الملكية فى لندن – مايو ١٩٠١م – وجاء فيه «أن عملية الكشوف الجغرافية قد اكتملت وأنه لم تعد فى الكرة الأرضية كلها بقعة غير معروفة وغير مطروقة وغير مرسومة»(١).

وكانت شمس القرن العشرين قد أشرقت على العالمين وسط أفق ممتلئ بالتفاؤل والثقة المتزايدة بالنفس، حيث عاش الإنسان فى غمرة الإغتباط والنشوة لإحساسه بأنه اصبح يعرف عالمه براً وبحراً وجواً ومن القطب إلى القطب، وما وراء البحار بحيث اصبح الإنسان على وشك الوصول إلى حل الغاز المكنونات من أسراره فى أعماق النفس البشرية.

ومع بداية العقد الأول من القرن العشرين اكتسب معدل الإنتاج قوة مضاعفة فى كل المجالات والإتجاهات والمناحى، فعلى سبيل التمثيل لا الحصر دخلت الكشوف العلمية فى سباق مع الزمن لتمكين المجتمعات مما حققته الكشوف الجغرافية من نتائج لتحقيق أقصى استفادة ممكنة من المعطيات الجديدة، فقد استطاع (رذر فورد) أن يحدد الأشعة التى استطاع بها أن يكسر الذرة، وكان (بيير ومارى كونى) قد أمسكا

---

(١) ١٩٦٧ الانفجار – حرب الثلاثين سنة ص ٣٠.

بمادة « الراديوم »، وكان « آينشتين » قد توصل لاكتشاف نظرية النسبية، وكان « ماركونى » يبعث بأول رسالة باللاسلكى عبر المحيط الأطلنطى، وتمكن « لاندشتينر » من التوصل إلى تحليل فصائل الدم، وصنع « إيستمان » أفلام الكوداك - واخترع « إديسون » بَعْدَ الكهرباء شيئًا جديدًا يختزن الكهرباء - وهى - البطارية، وكان الأخوان (رايت) يقومان بتجربة أول طيران عبر الشمال من بريطانيا إلى فرنسا، أما (كورين فى باريس) فكان يجرب أول طائرة عمودية، وظهرت السينما الناطقة لأول مرة فى معرض باريس الدولى.

وقد وضعت بريطانيا أول غواصة فى عُمق البحار سيرًا على درب استكمال الاستعدادات للقوة، وتدشين الترسانات العسكرية، وأحدث المدفع الرشاش انقلابًا جذريًا فى أساليب القتال تبدّت نتائجه المروعة فى المعركة مع الدراويش أثناء حملة إعادة فتح السودان، وفى بريطانيا تم استبدال وقود البوارج والمدمرات ليحل البترول محل البُخار، وبذلك اختلفت مطالب السيطرة على المحيطات، أما الدبابة فقد تم ترجمة تصورها إلى رسوم على الورق، وبدأ الطيران عصر الإمكانيات الهائلة لقلب نظريات القتال رأسًا على عقب.

وفى القرن ذاته أضحت أساليب الحياة العادية للناس تتطور وتتغير يومًا تلو الآخر، حيث قدم « جيليت » « مُوسْ الحلاقة » السهل المريح، وظهر فى العالم لأول مرة دواء الإسبرين، وقد تم تسجيل أول أسطوانة صوتية فى أمريكا بصوت « كارزوم » وظهرت السيارة فى لندن من صنع الصديقين (رولز، و-رويس) وفى ألمانيا ظهرت السيارة من صنع « ديملر » و« بنز » التى اشتهرت باسم الشهيرة « مرسيدس » ابنة ديملر، كما شهد العقد ذاته تواصُلاً لحركات التحرر الإنسانى الزاحفة لتتهاوى أمام ضغط ثورات الجماهير التى زحفت على قصور « آل مانشو » فى بكين، وعلى قصور آل « رومانوف » فى سان بيترسبورج، وعلى آل هانسبورج فى فيينا[1].

وفى ذات الوقت كان غاندى يقود حركة ضد التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا، قُدِّر لها أن تكون تجربة تمهيدية لما فعله بعد ذلك فى الهند، وكانت السيدة (بانكهرست) تقود حركة لتحرير المرأة فى إنجلترا مبتدئة بحق المشاركة فى التصويت والترشيح لانتخابات مجلس العموم، وكان أول حزب للعمال يجرى تأسيسه فى بريطانيا بمشاركة بين طلائع المثقفين، ونقابات العمال، وكان العالم العربى يتنبه بتأثير أجواء عصر إسماعيل، وحركة عرابى، ودعوات الأفغانى ومحمد عبده.

---

(١) ١٩٦٧ الإنفجار ص ٣٢.

وتنازل عالم الفكر (الكتاب) عن دوره بحكم الثورة التكنولوچية لعَالَم الإعلام (التليفزيون والإذاعة)، ثم الفضائيات والكمبيوتر.

وهكذا لاح القرن الجديد (العشرون) منذ بداياته قرنًا للعلم وللحرية وللوفرة والغنى، وجاء يحمل معه نوعًا جديدًا أو أسلوبًا مختلفًا من الحياة السهلة فى تناولها، السريعة فى إيقاعها، ليؤكد مبكرًا أنه جاء تصاحبه بشارات السلام والرخاء والعدل للجميع.

ويبدو أن أحلام السلام والرخاء والعدل كانت سابقة لأوانها، لأنها جاءت مبكرًا، حيث جاء العقد الثانى من القرن العشرين ليقود العالم إلى حرب عالمية هى الأولى فى التاريخ لتتفجر منها شلالات الدم، ودخلتها أمريكا متأخرة بعد أن استنفد الجميع واستنزفوا قواهم، وقد استطاعت الولايات المتحدة حسم هذه الحرب بعد عام واحد من اشتراكها فيها.

وقد نتج عن هذه الحرب ظهور أمريكى علنى وصريح فى أوروبا، وتمكين البلاشفة من القضاء على عصر القياصرة والاستيلاء على السلطة فى روسيا، وقد اندفعوا لبناء الدولة الشيوعية الأولى فى التاريخ بقيادة « لينين ».

وظهرت أمريكا بعد تلك الأحداث وكأنها سيدة الكون فى العقود القادمة.

وفى العشرينات من القرن ذاته أثبتت الحقائق أن كل التوقُّعَات سابقة لأوانها خاصة ما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، فما أن وضعت الحرب أوزارها حتى وجدت أمريكا نفسها غير قادرة على ترأس مجلس إدارة العالم، أو إدارته منفردة، وذلك لأن القوى الأوروبية لا تزال تملك بقايا رصيدها، وزخرها، وظلت الموازين الدولية تتأرجح حائرة بين ضفتى الأطلس.

وما جاء السلام   وما جاء الرخاء   وما جاء العدل

ووقع إنهيار اقتصادى عالمى كبير كانت بداياته عام ١٩٢٩ .م فى بورصة نيويورك، وجاءت الثلاثينات من القرن ذاته تحمل بوادر انفراجة للأزمة الإقتصادية الطاحنة، والتى أصبحت حقيقة قُبَيل العقد الرابع بمزيج من التعاون المثمر والبناء بين أراء الخبير الإقتصادى البريطانى (ماينارد كينز) وهمة السياسى الأمريكى (فرانكلين روزفلت)، وعاش البعض حلمًا كبيرًا بإمكانيات عودة الزمن الجميل « ما قبل الحرب العالمية الأولى » ولكن هيهات هيهات، فقد ظهرت النازية فى ألمانيا بقيادة (أدولف هيتلر) وقد تحالفت هذه مع الفاشية الإيطالية بقيادة (موسولينى) تعززها العسكرية اليابانية، وهؤلاء قد أشعلوا حربًا عالمية ثانية، وقفت فيها بريطانيا بشجاعة تحت قيادة

تشرشل، ثم رجحت موازين القوى مع دخول الإتحاد السوفيتى تحت قيادة « ستالين » بمدد من البشر ليست له نهاية، وكثافة نيرانيّة لم يستشعرها العالم من قبل.

وطال أمد الحرب ولم يحسمها غير التفجير الذرى الأمريكى فوق أرض جزيرتى « نجازاكى » و« هوروشيما » اليابانيتين، وتوقفت بذلك واحدة من أكبر مذابح التاريخ الإنسانى كله عند منتصف الأربعينات ما لم تكن أكبره على الإطلاق.

ويأتى التفجير الذرى الأمريكى فى اليابان بمثابة التأكيد على الشخصية الأمريكية القوية التى ستفرض كلمتها ولو باستخدام يدها خاصة بعد أن نزفت أوروبا التى صنعت اليقظة، والنهّضة، والإمبراطورية ما تبقّى فيهَا من عزيمة، وإنهارت ما بها من قوة، وأصبحت عاجزة عن حمَاية أى قيمة أو احتضان أى فكرة أو رعاية أو اختراع.

وفتح النجم الجديد فى العالم الجديد بقائده الجديد ذراعيه بسرعة كبيرة يستقبل حضارة وعلوم وفنون وتكنولوچيا الغرب الهاربة إلى الولايات المتحدة، أو المهاجرة إليها، والتى كانت قد بدأت فى الهجرة فعلاً حتى قبل أن تتوقف الحرب، وذلك لأن أمريكا البعيدة عن ميادين الحرب وساحاتها باتت وهى الملاذ الآمن وراء المحيط الأطلسى لكل ما يستحق الحرص عليه فعلاً أو أملاً مما تبقى فى أوروبا، ومن هنا لجأت إلى العالم الجديد (أمريكا)، ولاذت به كل الأسرار العلمية للعالم القديم (أوروبا) من الذرة إلى الرادار ومن الكمبيوتر إلى المحرك النفاث، ومن البنسلين إلى الليزر، ثم أصبحت أمريكا مستودعًا لذهب العالم حتى أن وزارة الخزانة الأمريكية كدست فى مخزن ذهب واحد فى قلعة « فورت نوكس » ما قيمته أربعين بليون دولار من السبائك الذهبية ثم إنها أيضًا أصبحت مسرحًا لعبقريات الفكر والفن التى قصدت إليها وتوطنت فى مراكزها الفوارة من الجامعات والمعاهد إلى استيودهات السينما فى هوليود.

ورمزًا لكل هذا وربما إشهارًا له - فقد أصبحت نيويورك هى المقر الرسمى لمنظمة الأمم المتحدة التى أقيم مبناها على شاطئ النهر الشرقى فوق أرض قدمتها أسرة (روكفللر) منحة وهدية للمجتمع الدولى الجديد[1].

وجاءت الخمسينات بالغة التعقيد والغرابة، لأن السلاح الذى حسم الحرب العالمية الثانية قد ختم بها عصر الصراعات الدولية المسلحة، وذلك لأن الإحتكار الأمريكى للتسليح النووى قد كسرته الإرادة السوفيتية عمليًا، أما من الناحية

---

(١) ١٩٦٧ الانفجار ص٣٤.

السياسية فإن الولايات المتحدة كانت ما تستطيع استخدام السلاح النووى مرة أخرى لدواعى إنسانية بحتة بعد أن تجلت بوضوح آثاره المدمرة للجنس البشرى ومقومات وجوده وبيئة حياته.

وقد تأكد ظن الإتحاد السوفيتى من أنه نجح فعلاً فى صنع شكل المستقبل وتثبيت دعائمه لما بقى من هذا القرن وما بعده.

ولم تُؤد استحالة الحرب إلى إحلال السلام أو حتى مجىء تباشيره، لأن هناك صراعًا جديداً قد بدأ بين العقائدية والمصالح التى تصادمت بين الولايات المتحدة الأمريكية التى تَحْمل فى رأسها (النظام الرأسمالى، والاتحاد السوفيتى) الذى بات يؤكد على النظام المغاير (الإشتراكى)، ولكن النار لا تصلح لإدارة هذا الصراع المتأجج بحمى المنافسة ولا تصلح كذلك كبديل عن نار القنابل التقليدية والنووية.

واحتدم الصراع الذى لم يكن هناك بُداً من تجربة أدوات جديدة لإدارته بعد أن ثبت فشل اللعب بالنار، وكانت تلك بدايةً لميلاد ونشوء حرب جديدة لا استخدام فيها للنيران ولا للأذرع المفتولة، تلك هى ما عرفت باسم « الحرب الباردة ».

وكما شهد النصف الأول من القرن العشرين فترات ساخنة، وقعت فيها حروب طاحنة سالت فيها شلالات الدماء (كما تقدم) فإن النصف الأخير من القرن ذاته قد شهد أحداثًا جسامًا وحروبًا طاحنة ذات آثار مدمرة على المستوى الإقليمى فى شتى بقاع العالم خاصة فى القارتين الإسلاميتين (الضعيفتين).

وما ذلك غير نتاج أولى لما يسمى بالحرب الباردة، وهى الأسوء فى نتائجها على دول العالم الثالث (حقل الأبحاث وميدان التجارب ومقابر النفايات). واسترجع ما دار على أرضه منذ العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م إلى إبادة المسلمين فى منطقة البلقان حتى مطلع القرن الجديد الحادى والعشرين. وانظر إلى سباق غزو الفضاء الذى بدأته الروسية « فالنتينا تريشكوفا » فى المدة من ١٦ : ١٩ مارس ١٩٦٣م، والذى انتهى بما يسمى بحرب النجوم الذى بدأه رونالد ريجان عند منتصف الثمانينات من القرن الماضى، وهو المشروع الجوى الصاروخى المتقدم ويبدو أن الخبراء السوفيت كانوا قد أعدوه سلفًا.

تأزمت العلاقات الأمريكية السوفيتية وفاجأ جورباتشوف العالم بقراره تجميد التجارب النووية السوفيتية من جانب واحد عند نهاية عام ١٩٨٥م.

وفى ٧ / ١٢ / ١٩٨٧م وقع الزعيم السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » مع نظيره

الأمريكي « رونالد ريجان » اتفاقية للحد من سباق التسلح وإزالة الصواريخ بعيدة ومتوسطة المدى ضمن إتفاقية عرفت باسم (ريكافيك)[1].

لقد أدت الحرب الباردة إلى تقليص احتمالات الحروب العالمية، غير أنها أدت إلى نشوء نزاعات ومصادمات مسلحة بين دول كلها من العالم الثالث التى انقسمت على نفسها بين شيوعية أو امبريالية، وعلى الرغم من نشر الاتحاد السوفيتي لصواريخه على الحدود الأمريكية عند « كوبا »، ونشر الولايات المتحدة لصواريخها على الحدود الشرقية لأوروبا فى تهديد مباشر لموسكو، فإن تهديداً حقيقياً بإمكانية نشوب حرب فعلية بين الدولتين بات غير وارد بالمرة حتى انتهت الأحداث بإعلان تفكيك الإتحاد السوڤيتي الذى انهار بإعلان جورباتشوف فى ٢٤ / ٨ / ١٩٩١م تجميد نشاط الحزب الشيوعى السوڤيتي الفيدرالى واستقالته من منصبه، وتفككت يوغوسلافيا الاتحادية فى ١٥ / ١ / ١٩٩٢، ثم حل نفسه تماماً فى ١ / ٧ / ١٩٩٢م وبات فى ذمة التاريخ، وكان البرلمان التشيكوسلوفاكى قد أنهى فى ٣٠ / ١١ / ٨٩م سيطرة الشيوعيين على البلاد إلى غير رجعة، ثم انفصلت سلوڤينيا والتشيك فى هدوء تام.

حاولت الولايات المتحدة لعب دور رجل الشرطة فى العالم منذ وقت مبكر حتى قبل أن ينهار الإتحاد السوفيتى، فذهبت قواتها إلى لبنان ولكنها رحلت خاسرة، بعد أن أزلتهم ميليشيات حزب الله، كما ذهبت تلك القوات إلى الصومال وقد خابت وخسرت وانسحبت، كما عربدت فى دول جوارها وغيرت أنظمة الحكم فى بعضها، حيث تقدمت القوات الأمريكية لغزو بنما من أجل أسر رئيسها « مانويل نوريجا » الذى استسلم لها فى ٣ / ١ / ١٩٩٠ وتم اعتقاله.

تلك هى بعض من ملامح الحرب الباردة التى سادت العلاقات الدولية المباشرة والتى تأثرت مباشرة بالتبعية بشكل وحجم العلاقة بين القطبين الكبيرين.

* * *

ثانياً : نظام اللانظام

شهد النصف الأول من القرن العشرين أحداثاً جساماً على المسرح الدولى كله، أدت تلك الأحداث فى مجملها إلى إحداث متغيرات جوهرية لا على سطح الكرة الأرضيّة وحدها، بل طالت كل شيء حتى الفضاء الخارجى، وأعماق البحار، فبدلت أوضاعاً وغيّرت مفاهيم، ورفعت أقواماً وخفضت آخرين.

---

(١) معلومات أساسية عن الدولة والقانون السوفيتيين ص٢٩ – كوتافين.

ففى الوقت الذى رحلت فيه الخلافة الإسلامية التركية، اتفقت أوروبا على تقسيم التركة العثمانية فى العالم العربى كله وتقسيم الفريسة بدلاً من التصارع عليها ضمن إتفاقية « سايكس – بيكو » سنة ١٩١٦م.

وعندما جاهد « الشريف حسين » شَريف مكة وأعلن الجهاد ضد الأتراك وانضم إلى بريطانيا فى حربها ضد تركيا على أمل ضمان مساعدتها له فى إقامة دولة عربية عظمى يتولى هو فيها الخلافة فى معزل عن الأتراك، وهو يحظى بتأييد خديوى مصر « عباس حلمى الثانى » حتى سقطت الخلافة الإسلامية التركية فى ١٩٠٨م، وكانت بريطانيا تُعد فى الخفاء القائد العربى الجديد الذى جاء من الشرق تدعمه حكومة الهند الإنجليزية ليصير ملكًا على الحجاز فيما بعد ١٩٢٦م – وقد غادر الشريف حسين أراضى الحجاز إلى غير رجعة عقب هذه الأحداث، وأثناء المواجهات بين قوات الشريف حسين والقادم الجديد (عبد العزيز آل سعود) تمكنت بريطانيا من إقالة « عباس حلمى الثانى » فى ١٩١٤م.

وعندما اتفق الأوربيون على المصالحة التاريخية والعمل معًا نحو قيام الإتحاد الأوروبى، والسوق الأوروبية المشتركة. صدّروا إلينا فى أوطاننا ما كان يؤرقهم من صراع القوميات والأممية التى مزقتهم، وأوقعت بينهم حروبًا طاحنة دامت لسنوات طويلة، وقد نتج عن هذا التصرف أن حلت القومية محل الدين – فظهرت على السطح دعوات المطالبة بالقومية العربية، والقومية الكردية، وقومية البربر وقومية الزنوج فى جنوب السودان، ودخلت الدولة الواحدة فى صراعات الأحزاب السياسية بين شيوعية وعمالية وليبرالية ووطنية... إلخ وكلها أدوات للّهو والعبث السياسى بعيداً عن الفكر الإسلامى الذى اتُّهم أصحابه بالإرهاب والأصولية واتجهت الكثير من الدول الإسلامية إلى فصل الدين عن السياسة والسياسة عن الدين واتجهت معظم الحكومات نحو العلمانية والعولمة بتأن وحكمة وبهدوء، حتى لا تصطدم بالشعوب المتحمسة وبشدة لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

وهكذا تحللت الأمة وتعالت صيحات النزاعات القبلية والفتن الداخلية مما أدى إلى مصادمات مسلحة وحروب دموية طويلة بينية بين بلدان العالم العربى بعضه فى بعض وبين بعض بلدان العرب ودول جواره المسلم وغير المسلم على السواء.

وفى القرن ذاته انهارت أكبر الإمبراطوريات التى عرفها العالم (الإمبراطورية البريطانية العظمى التى لا تغيب عنها الشمس) كناية عن اتساع سلطانها وترامى أطرافها، وعلى أنقاضها ظهرت قوتان جديدتان قفزتا فوق العالم وأمسكتا بزمام الأمور الدولية وتوجيهها وتسييرها والتحكم فيها وإدارتها بأسلوبين مختلفين – الأول

اشتراكى شيوعى ملحد بقيادة النجم الجديد الذى ظهر فجأة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية (الاتحاد السوفيتى)، والثانى رأسمالى إمبريالى صليبى متصهين، (الولايات المتحدة الأمريكية). وانقسم العالم العربى والإسلامى بإنقسام العالم وتحول الجميع إلى توابع تدور إما فى فلك المعسكر الشرقى أو الغربى.

وسرعان ما ذاب القطب السوفيتى فجأة كما ظهر فجأة، وانفردت الولايات المتحدة بالتحكم فى مقاليد العالم الذى أضحى وحيد القطب لتبدو معه أمريكا وهى البلد (وحيد القرن) الجديد من الألفية الجديدة التى تَتَرأس مجلس إدارة العالم من غير منافس أو منازع وإلى حين قادم من الدهر.

وقد سجل القرن العشرون على صفحات سجلاته، وفى ذاكرة تاريخه انتصار رغبة الألمان فى إعادة توحيد شطرى ألمانيا (سلمًا) وقد حطم الألمان سور برلين العظيم بأظافرهم، ونُقلت العاصمة من بون إلى برلين لتعويض شعب الأخيرة عن سنوات القهر والحرمان فى ظل النظام الشيوعى المحتل السابق.

وقد شاهد العالم العربى فى المقابل هجومًا يمنيًا شماليًا بقيادة (على عبدالله صالح) الرئيس اليمنى على اليمن الجنوبى برئاسة نائبه على سالم البيض، وتراشق هؤلاء وهؤلاء بالدبابات ومات أكثر من (٥٠,٠٠٠) خمسين ألف يمنى هم ضحايا عمليات إعادة توحيد شطرى اليمن.

أما أوروبا فقد توحدت وألغت الحدود السياسية بين دولها، وارتبط الجميع فى رباط اقتصادى واحد وخرج إلى الوجود الاتحاد الأوروبى، والسوق الأوروبية المشتركة، وصارت لهم عملة واحدة مُوحدة هى (اليورو). بينما عجز العرب عن ترجمة آمالهم فى إقامة السوق العربية المشتركة المنصوص عليها فى ميثاق الجامعة العربية عند تأسيسها عند منتصف أربعينات القرن الماضى وحتى الآن.

وفيه كذلك أصبح لأوروبا جيشًا واحداً يعمل تحت رئاسة أركان واحدة، ويخضع لبرامج تدريبية مشتركة ضمن خطط مدروسة تم إعدادها بدقة، ثم يأتوا إلى الشرق بين حين وآخر للإستفادة من خبراتنا القتالية العظيمة وللتعرف على مدى استيعابنا على الحديث من الأسلحة المتقدمة التى تعتمد على التكنولوچيا الراقية التى هى من إنتاجهم، وقد انطلقت مؤخراً دعوة جديدة لقيام الولايات المتحدة الأوروبية، وعقدت لأجلها المؤتمرات – وإن الغد لقريب.

أما العرب فإنهم حتى الآن عاجزون عن فهم حقيقة نظرية الأمن القومى العربى فى مجمله – وقد فشلوا فى تفعيل اتفاقية الدفاع العربى المشترك التى لا تتعدى

كونها نوايا حسنة بين دول الجوار العربى - حتى فى المرة الوحيدة التى خرجت فيها إلى النور فى عام ١٩٤٨م حاق بها الخسران المبين والتصقت بها الهزيمة النكراء، حيث تمكنت العصابات الصهيونية المنظمة من هزيمة الجيوش العربية التى دخلت فلسطين.

أما ما حدث عند حرب العاشر من رمضان السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م إنما كان من وجهة نظرى - هو الإنفعال العاطفى التلقائى والواجب الأخلاقى المبدئى الذى يوجب على كل لبيب وصاحب مبدأ أن يفعل ما فعل العرب فى وقفتهم مع مصر، فما كان إنما كان من باب الواجب الدينى والإجتماعى والأخلاقى ولم يكن عودة للحياة وجريانًا للدماء فى إتفاقية تم تجميدها فى ثلاجة التاريخ العربى الحديث.

وعندما أعلن الرئيس السادات عن استعداده للذهاب إلى القدس بحثًا عن السلام مع إسرائيل لأنه قرأ الأحداث مبكرًا، وفهمها جيدًا، وتعامل معها بخبرة وحنكة وكياسة، حدث الإنقسام فى الجدار العربى الذى كان قد أُصيب سلفًا بشرخ بالغ، وكال العرب الإتهامات للرئيس «السادات» واتهموه ببيع القضية الفلسطينية والتخلى عن القضايا العربية خاصة بعد أن وقعت مصر اتفاق سلام منفرد مع إسرائيل - بعد أن خذلها العرب فى الحضور إلى مفاوضات السلام المتعددة التى دعاهم إليها السادات فى القاهرة وعقب توقيع الإتفاقية فى ٢٦ / ٣ / ٧٩م انتقلت الجامعة العربية من بيتها الدائم فى القاهرة إلى مقر بديل فى تونس، وظل التأزم العربى مستمرًا حتى بعد مقتل الرئيس السادات فى ٦ / ١٠ / ١٩٨١م - أو - قل يوم استشهاده.

وما أن تولى الرئيس «محمد حسنى مبارك» مهام السلطة فى مصر حتى عمل بكل قوته لإصلاح ما أتلفه الزمن، وما أفسدته العقول، فاستجابت الدول العربية لدعوة «مبارك» وبدأت عودة العلاقات الطبيعية مع مصر تباعًا، وقبيل منتصف الثمانينات شهدت القاهرة المصالحة العربية الكبرى - وعادت الجامعة العربية إلى القاهرة.

ثم حدثت فيما بعد متغيرات دولية وإقليمية خطيرة حددت ملامح القرن الجديد (الواحد والعشرين) وهيأت لقدومه.

وقد أشارت الدلائل، وأكدت القرائن أن هذا القرن سوف يكون قرنًا أمريكيًا خالصًا ليصبح العالم فيه تابعًا لأول مرة فى ظاهرة لم تأت من قبل، وهى بروز كيان أقوى من الدولة وأكبر من الإمبراطورية وهى كيان القوة الأعظم الذى تتوافر له زوايا ثلاثية الأبعاد الإستراتيجية (القدرة الشاملة بالقوة والفكرة، والمعسكر الذى يقف ورائها مقتنعًا أو مضطرًا، والنموذج العالمى الذى تقدمه هذه القوة دعوة ومثالاً) تلك هى القوةُ التى أطلقت عليها مُسمّى (وحيد القرن) فى كتابنا السابق «وحيد القرن ورياح التغيير».

وعليه فإن القرن الجديد (٢١) سيكون قرنًا أمريكيًا خالصًا بمقدار ما كان القرن الثامن عشر « من لويس الرابع عشر إلى نابليون الأول قرنًا فرنسيًا خالصًا » وبمقدار ما كان القرن التاسع عشر « بعصر فيكتوريا وأبهته قرنًا بريطانيا » .

وأقبل القرن الجديد محملاً بأريج الزهور الأمريكية، مكتظًا بوعود « الرخاء والسلام والعدل » للجميع ولكنه:

الرخاء: بالمفهوم الأمريكي .

السلام: بالمعنى الأمريكي .

العدل: بالكيل الأمريكي .

الذى يتعين على العالم إدراكه، وقبوله، والإقتناع به، أو – فليفرض عليه بأم القنابل كما حدث فى بنما، وأفغانستان، والعراق .

تلك هى ملامح النظام العالمى الجديد – نظام اللانظام – الذى سيسود فى إمبراطورية وحيد القرن . التى لا تعرف حدوداً جغرافية فهى فى الحقيقة إطار لا مقر له، ولا عاصمة، ولا شعب، فقد رأينا إمبراطورية البترول كيف صعدت إلى الأعالى، ثم إمبراطورية السلاح، ثم امبراطوريات البنوك والتأمين فالطيران، فالاليكترونيات ثم امبراطورية الفضاء فإمبراطورية الأقمار الصناعية، فالتليفونات فالتليفزيون ... وهكذا ...

وكلها وغيرها إمبراطوريات جديدة قوتها كبيرة، وفعلها غير مرئى، سيطرتها محسوسة ولكنها لا تقاوم على ساحة أو فى شارع أو من على منبر فى الأمم المتحدة، وفى بعض الأحيان تتجلى هذه الإمبراطوريات من بعيد مثل ظواهر الطبيعة، لكن أحداً لا يستطيع أن يستوقفها وإلا فهى محاولة أشبه ما تكون بدق المسامير فى سحابة حتى يتيسر وقف ارتحالها ومساءلتها من أين؟ ولماذا؟ [١]؟

ومع بداية ملامح المرحلة الجديدة فى التطبيق الفعلى، بدأت بها مرحلة جديدة من العقود التى ستتواصل إلى حين... من صراع الحضارات، وحوار الدبابات، وهو صراع متجدد، وحوار لا ينقطع فى ظل انعدام كل بشارات الوعد الحضارى المتعلقة بالقرن العشرين التى لن تأتى مطلقًا ما لم يأتى قبلها السلام والرخاء والعدل الذى ينشده الجميع. خاصة بعد أن بدأ العالم يعيش تفاعلات وتقلصات وصراعات لم يسبق لها مثيل مع انفراد وحيد القرن بالجلوس منفرداً على مقعد رئاسة مجلس إدارة العالم بل والإنفراد بإدارته، وقيادته إلى المجهول المطلق.

* * *

---

(١) ١٩٦٧ الانفجار ص٤٤ .

ثالثًا: الحضارة الإسلامية فى النظام العالمى الجديد

١ - بين الأوغاد والأمجاد

(أ) المقارنة

عندما أخذت الحضارة الرومانية فى التلاشى إثر انهيار الإمبراطورية الغربية الرومانية الغربية فى القرن الخامس الميلادى فى ظلال الحكومات التى أقامتها القبائل المتبربرة فى أوروبا، وساد أوروبا بسبب ذلك سحابة كئيبة من التأخر والإنحطاط.

وقد عُنيت الكنيسة بتلقين رجالها ما يتصل بالناحية الدينية عندما كانت تعدهم للقيام بمهامهم خاصة فيما يتعلق بتلك المهام من الخرافات مع الحرص على غلق كل باب أمام الدراسات العلمية، وذلك لأن العقيدة المسيحية فى رأى الكنيسة تقوم على أساس من الإيمان فى حين يعتمد العلم على التعقل.

وقد نُقل عن القديس (أوجستين) وهو مسئول من رجال الكنيسة (٣٥٤-٤٣٠م) أنه أبدى دهشته ممن يفكرون فى ارتفاع الجبال، ومدارات الكواكب، ويهملون التأمل فى أنفسهم، وأنه كان يهزأ ممن يقولون بكروية الأرض[١].

كان هذا فى الوقت الذى كان المسلمون فيه قد بنوا حضارة شامخة تمتع الناس فى ظلالها بحرية الفكر، ونعموا بسرعة التطور، وقد قال المؤرخ فيليب حتّى فى ذلك: «إن العصر الذى أطلع فيه الرشيد والمأمون الشرق على خبايا الفلسفة اليونانية والفارسية هو العصر الذى كان شارلمان ونبلاؤه يحاولون أن يتعلموا فيه كيف يكتبون أسماءهم»[٢].

وقد تحدثنا عن الحياة الإجتماعية والبيئية فى أوروبا زمن العصور الوسطى، ونضيف ههنا أن وسط أوروبا وغربها كان مكسواً بالأحراش والمستنقعات، وتنتشر فيها الأمراض والأوبئة، أما السواد الأعظم من سكانها فإنهم الأقنان والعبيد، أما الأقلية المترفة فهم الأمراء والنُبَلاء ورجال الدين.

ولم يَفق الأوربيون من ثُباتهم إلا فى القرن الحادى عشر الميلادى ليجدوا أنفسهم أمام حضارة إسلامية شامخة لم تترك علماً ولا أدباً، ولا فناً إلا وأسهمت فيه، وأضافت إليه بنصيب وافر من الإبداع والتطوير والتَحديث.

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص١٧٦.

(٢) المصدر ذاته - والصفحة ذاتها.

وقد هرع طلاب العلم والمعرفة من الأوروبيين إلى مراكز الحضارة الإسلامية ينهلون من معينها الفيّاض، ويترجمون ما استطاعوا ترجمته من مؤلفات المسلمين ويحاكون ما أمكنهم محاكاته من الفنون والإبداعات العربية.

أما الحضارة الإسلامية العظيمة فى تلك العصور فقد شكلت معالمها مجموعة من العناصر المتداخلة المركبة والتى كان من أهمها:

* عُنى المسلمون باستخراج الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص والكبريت والزئبق والنفط من باطن الأرض، وبرعوا في صناعة تلك المعادن، بالإضافة إلى إنتاج المصانع العربية أجود أنواع الأقمشة، والمنسوجات، والزجاج، والورق، والخزف، والحلىّ.

ومع الإهتمام الواضح باستخراج المواد الخام وصناعتها إلا أن المسلمين لم يُهملوا الزراعة، فقد اهتموا بشق الترع، والقنوات، والمصارف، وأقاموا الجسور، وبفضل هذا - جادت أرض العراق، والشام، ومصر، والأندلس بالمحاصيل الوفيرة المتنوعة بعد أن نقلوا من الهند أشجار البرتقال وقصب السكر وتعلموا فنون تصنيعه، ويذكر المؤرخون أن العرب هم أول من أدخلوا زراعة القطن إلى أوروبا.

* أدى التقدم الصناعى فى البلاد العربية وجودة الزراعة إلى ازدهار النشاط التجارى وقام المسلمون بدور الوسيط بين القارات الثلاث أسيا وأوروبا وأفريقيا، هذا إلى جانب ما قام به المسلمون من نشاط بحرى سيطروا به تمامًا على البحرين الأحمر والمتوسط والمحيط الهندى، حيث وصلت سفنهم إلى الحبشة، والهند ، والصين، وجذر الهند الشرقية، وأصبحت بغداد ودمشق ودمياط وغيرها من المدن الإسلامية مقصد التجارة من كل صوب.

يدل على هذا النشاط التجارى تلك العملات العربية التى عُثر على الكثير منها في مراكز متعددة تمتد من بحر قزوين و« كييف » عاصمة أوكرانيا حتى بحر البلطيق شمالاً خاصة فى شبه جزيرة اسكندناوة(١).

* ازدهرت العلوم، وتقدمت الفنون والآداب بفضل ذلك الرخاء الإقتصادى وما صاحبه من الاستقرار والأمن، وكان المسلمون إذا نزلوا بأرض واستقروا بها أقاموا عليها المساجد، والمدارس، والجامعات الإسلامية، من ذلك ما هو كائن فى بغداد، ودمشق، والقاهرة، وقرطبة، كما أنشأوا المكتبات العامة التى تضم بين جنباتها آلاف الكتب، وقد بلغ عدد المكتبات العامة فى الأندلس وحدها « سبعين مكتبة ».

وقد قامت نهضة شاملة أثْرت جوانب النشاط الفكرى فى جميع أرجاء الدولة

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى ص١٧٨.

الإسلامية بفضل السياسة العظيمة التى اتبعها الخلفاء من بنى العباس، والتى تمثلت فى إرسال العلماء إلى مختلف الأنحاء الإسلامية وغيرها، للبحث عن المخطوطات لحملها، أو ترجمتها، وعكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من اللغات اليونانية، والسريانيّة، والفهلوية الفارسية، والسنسكريتية الهندية إلى اللغة العربية.

ولم يقف المسلمون عند مجرد النقل بل جاوزوه إلى الدرس والتمحيص، وقد تمكنوا من الوصول إلى اكتشافات علمية مبتكرة، أكملوا بها ما كان مبتوراً من الأبحاث، وصححوا أخطاء السابقين من العلماء.

وقد تجلى سبق العرب لغيرهم فى الرياضيات، والطب، والكيمياء، والفلك، والفلسفة، والجغرافيا، وهكذا قام المسلمون بدورهم الثقافى والتربوى الرائد فى خدمة الحضارة البشرية على وجه العموم.

* * *

(ب) الإبـداع

ما أن إنحسرت السلطة المركزية فى الدولة الإسلامية حتّى تعدّدت الأقاليم، واستقل كل إقليم بأميره، وقد تنافس هؤلاء الأمراء فى كل ما من شأنه تجميل دولهم وإماراتهم بالحرف الدقيقة، والفنون الجميلة، والعلماء، والشعراء، والفلاسفة.

وقد حظيت المكتبات بمكانة عظيمة يُعتز بها ويُسعى لتنميتها، ووجد فى كل قطر طائفة من المكتبات يغشاها الناس، ويتعلمون منها، وكان لا بد من أن تنشأ بكل جامع كبير مكتبة كبيرة.

وحتى نتدارك الجهد الجبار، والعمل الجاد الذى كان يُصاحب إنشاء المكتبات من الجهد والأموال. لا بد أن نتذكر حقيقة أكيدة صاحبت عصور الإبداع كلها، وهى انعدام الطباعة التى كانت لم تُخترع بعد، وعلى الرغم من ذلك فإن الإبداع العربى لم يعرف للنهاية حدوداً فظهرت فكرة جديدة وجادة تُعبّر وبحق عن عظمة العمل العربى، والفكر العربى، وقدرته الإبداعية الخلاقة فكانت تلك هى فكرة استحداث « دكاكين بيع الكتب » - أو هى - دكاكين « الورّاقين ».

وقد أُنشئت هذه الفكرة فى الأصل لأعمال تجارية، ثم تحولت سريعًا إلى صالونات ثقافية، ومسارح للأدب والجدل العلمى، بعد أن قصدها المثقفون، والأدباء، واتخذوا منها مكاناً لإجتماعاتهم وأبحاثهم اليومية الإنعقاد، وقد شهدت دكاكين الوراقين أول نشأتها مع فجر الدولة العباسية، ومنها انتقلت إلى البلدان الإسلامية.

ولم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح أو التربح، وإنما كان سَوَادُهُم أدباء يبتغون اللذّة العقلية، والسعادة الفكرية، من حرفتهم التى أتاحت لهم القراءة والاضطلاع، وقد جذب هؤلاء إلى دكاكين الوراقين العلماء، والفقهاء، والأدباء.

وقد وُجد من بين الوراقين شخصيات علمية بارزة أثْرت الفكر الإنسانى بالعديد من مختلف فروع العلوم، والفنون، والمعرفة، والآداب – من أشهرهم « ابن النديم » « صاحب كتاب الفهرست »، و« على بن عيسى » الذى قال عنه ياقوت الحموى إنه كان وراقًا وأديبًا فاضلاً، له عدد من الكتب، بالإضافة إلى صاحب الكتابين المعروفين « معجم البلدان »، و« معجم الأدباء ».

وقد اهتم الوراقون بنسخ الكتب الهامة، وعرضها للراغبين فيها نظير أجر متواضع، وقد ذُكر أن العالم والأديب الكبير الملقب بالجاحظ كان يكترى دكاكين الوراقين، ويبيت فيها ليستوعب ما كانت تحتويه من الكتب، كما كانت تلك الدكاكين بمثابة قبلة يقصدها العلماء والطلاب للمناقشة والإضطلاع، ولم يقتصر النشاط العلمى على الوّراقين وحدهم بل امتد إلى غيرها من المحلات التجارية حتى المتواضع منها، ومن أمثلتها ذلك الحانوت المتواضع الذى كان أبو العتاهية يبيع فيه الجرار والفخار، حيث كان يتوافد عليه الأحداث والمتأدبون، وكان أبو العتاهية ينشدهم أشعاره فيكتُبُها هؤلاء على ما تَكَسَّر من الخزف.

وكان أبو بكر الصبغى المتوفى سنة ٣٤٤هـ يعمل الصبغ بنفسه، ويبيعه فى حانوته، وهو من أعيان فقهاء الشافعية، وكان حانوته مجمع الفقهاء والمحدثين[(١)].

مما تقدم يتضح ما كان لدكاكين الوراقين ومانحوها من أهمية قصوى فى إثراء الحياة الفكرية والعلمية، وقد نجحت تلك الدكاكين باعتبارها مكانًا يقصده الراغبون والمريدون بعيداً عن المنازل التى لم تكن تصلح لهذا الغرض بسبب صعوبة التوفيق بين ما يطْلب فيها من سكن، وما يراد منها من الهدوء، وبين ما يكون فى حلقات الدرس وحلقات التعليم من ضجيج ومناقشات، أما ما كان من حلقات التعليم فى المنازل الخاصة فما كان إلا لضرورة دعت إلى ذلك.

وقد حوت كتب التاريخ والأدب ما يؤكد على أن منازل العلماء قد أسهمت بنصيب كبير فى نشر الثقافات فى المجتمعات الإسلامية.

وقد حرص كثير من الخلفاء على أن تصبح بيوتهم مراكز إشعاع لألوان مختلفة من العلوم والآداب، ففتحوا أبوابها للعلماء فى مواعيد محددة مع السماح لفئة معينة من الناس بحضور تلك الندوات العلمية.

وقد اتسع ذلك النشاط من سنة (١٧٠هـ: ١٩٣هـ) أيام خلافة هارون الرشيد، الذى حوت مجالسه العلمية شخصيات عظيمة ولامعة فى علوم اللغة العربية

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى – بتصرف.

(الكسائى – أبو عبيدة – الأصمعى) ، وفـى الفقه صاحب كتاب « الخراج » تلميذ أبو حنيفة المسمى « أبو يوسف » الملقب « قاضى القضاة »، وفى الشعر « أبو العتاهية – و أبو نواس » وفى التاريخ « الواقدى » وفى الموسيقى والغناء « إبراهيم الموصلى – وولده إسحق »، وقد اكتسبت تلك الصالونات الأدبية أهميتها من ذلك بينما كان المجتمعون ينصرفون بعد إشارة خاصة يُشير بها الخليفة.

أما مصر فقد دخَلتها الصالونات الأدبية فى عصر الدولة الطولونية، وقد روى غير واحد من المؤرخين أنه لم يكن فى مصر مدارس، وأن حلقات العلم ودروس التعليم كانت تتم فى قصور الأمراء والوزراء وفى منازل العلماء أثناء عصر الطولونيين والإخشيديين وعندما تولى – كافور الإخشيدى – أمور السلطة فى مصر اعتبر نفسه راعيًا للعلم والعلماء، وقرّب إليه الشعراء، و« أجَازَهُم ».

أمّا المساجد فقد اضطلعت بدور عظيم فى مجال الدعوة والتعليم والإعلام بعد أن كثرت أعدادها باتساع سلطان الدولة العباسية، ودخول الأمصار المفتوحة فى حوزة المسلمين، وقد كثرت بالتالى المجالس العلمية فى المساجد، وكانت أصوات المدرسين والطلبة أثناء مباشرة العملية التعليمية فى أركان المساجد تُحدث نوعًا من الضجيج يتنافى تمامًا مع ما أُعدت المساجد له من الصلاة وغيرها من العبادات بما يهدد بافساد تلك العبادات، فوجب أن تُنزّه المساجد بفصلها عن دور العلم، لذلك فقد فكر المسلمون فى أبنية تُنقل إليها الأنشطة التعليمية فكانت « المدارس » التى اشتغلت أول الأمر بالعلوم الدينية، وتدريس الفقه الإسلامى على المذاهب الأربعة لتواكب روح العصر ومتطلباته، وقد روى الحاكم النيسابورى أن تلك المدارس قد بُنيت فى عهد « أبى إسحق الأسفراييني » بنيسابور بعد القرن الرابع الهجرى، وذكروا فى غير كتاب أن « أبا بكر البستى » المتوفى فى ٤٢٩هـ بَنَى لأهل العلم مدرسة على باب داره، وكذلك فقد أقام السلطان « ملكشاه » ابن السلطان « ألب أرسلان » عدداً من المدارس نُسبَت إليه، وعرفت بالمدارس النظامية ببغداد.

وقد أقام نور الدين زنكى أول مدرسة بدمشق على نصف ميل من المسجد الأموى، وقد قال الرحالة ابن جُبير عن تلك المدرسة أنها أحسن مدارس الدنْيَا، وإنّها تشتمل على كل ما يحتاجه المدرسون والطلبة، وقد خُصِّصت تلك المدرسة لتدريس الفقه الحنفى، واختير للتدريس فيها نُخبة من علماء هذا المذهب.

أما أشهر مدارس القاهرة فكانت المدرسة الناصرية التى أقامها الناصر « صلاح الدين الأيوبى » وقت أن كان وزيراً لآخر الخلفاء الفاطميين، وقد أُعدت لتدريس الفقه

الشافعى، وبعد أن ثار صلاح الدين على الفاطميين واستولى على السلطة – من فوره دعا للخليفة العباسى، وقد أيده الخليفة على ذلك، وعينه سلطانا على مصر، وعلى الفور قام السلطان الجديد (صلاح الدين) بمناهضة المذهب الشيعى فى مصر وقضى عليه تماما، وأصبحت مصر سنية منذ ذلك الحين، ثم أقام مدرسة ثانية لتدريس فقه المالكية.

وفى أيام المماليك أقام الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية، وأمر بأن لا يعمل فيها أحد بغير أجر، وكان لأهل كل طائفة (إيوان)[1] للمحاضرات، وألحق بها مكتبة كبيرة اشتملت على أمهات الكتب فى العلوم المختلفة، وبنى بجوارها مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم لأبناء المسلمين[2]، ثم بدأت المدارس تباعًا وتتطورت خدماتها وتنوعت أهدافها حتى وصلت إلى ما نحن عليه الآن.

* * *

(جـ) الحـــوار

رأينا كيف كان الإختلاف البَيِّن بين التقدم والتخلف – أى – كيف تَبْعُد المسافات بين الظلمات والجهل والرذيلة وبين العلم والنور والفضيلة، وبذلك نُدرك يقينا كيف نبغ العرب والمسلمون، وكيف أبدعوا فى شتى مناحى الحياة من دون تفريط فى الجانب الروحى – أى – «العقيدة» باعتبارها ذروة الإيمان – وذلك لأن الإسلام دين يدعو إلى العلم والتطوير والعمل المخلص، وهو الأمر الذى جعل المسلمين مبكرًا يركبون رياح التقدم ويرتقون إلى أسمى مراتب الرقى بما حازوا من أدواته من علم ومعرفة وإبداع وتطوير وإجادة، فى وقت كانت فيه أوروبا على نحو ما ذكرنا فى غير مناسبة.

ولما قامت فى أوروبا النهضة العلمية والثورة الصناعية الهائلة التى جعلت أوروبا فى ما هى عليه الآن – وقع على الجانب المآخر تخليًا من العرب والمسلمين عن كثير من أهدافهم وطموحاتهم وأدواتهم حتى صاروا على ما هم فيه من بيات وانحدار.

ولما كانت ردّة الفعل الصليبية عنيفة على نحو يفوق كثيرًا ما تيسر ذكره، فإن الحديث منها فى إدارة الحوار الدائر الآن بين أتباع المدنيّة والتطوير، وبين أصحاب الحضارة الطاعنة فى التاريخ لهو حديث ناعم الملمس نجس المعنى، يحمل فى ظاهره دعاوى السلام والحوار والمؤاخاة، وباطنه يحوى صور العذاب، من أهم هذه الصور ما نورد تمثيلاً لا حصرًا.

---

(١) قاعة.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى – بتصرف.

الأول : أن العالم الإسلامى على إطلاقه خاصة العربى منه قد خسر كثيراً بعد أن وقع تحت الإحتلال الأوروبى الذى فَصل القاعدة عن القمة، وحارب العلماء وقتلهم أو نفاهم، فعم الجهل، وساد الفقر، وانتشر التخلف، وفشت الأمراض والأوبئة، وسُرِقت المواد الخام، واستولى المستعمرون على الأراضى الزراعية، وسخّروا لزراعتها المزارعين لصالح الشركات الزراعية الأجنبية أو الملاك الجُدُد للأراضى، وصار المسلمون من بعد مجرد مستهلكين للسلع الغربية الواردة إليهم بعد أن كانوا سادة التصنيع والتجارة.

وفى ذلك يقول مسئوول فى وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢م [ليست الشيوعية خَطرًا على أوروبا فيما يبدو لى، إن الخطر الحقيقى الذى يهددنا تهديداً مباشراً وعنيفًا هو الخَطَر الإسلامى، فالمسلمون عالم مستقل كل الإستقلال عن عالمنا الغربى، فهم يملكون تراثهم الروحى الخاص بهم، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة، فهم جديرون أن يقيموا قواعد عالم جديد، دون حاجة إلى إذابة شخصيتهم الحضارية والروحية فى الحضارة الغربية.

فإذا تهيأت لهم أسباب الإنتاج الصناعى فى نطاقه الواسع انطلقوا فى العالم يحملون تراثهم الحضارى الثمين، وانتشروا فى الأرض ، يزيلون منه قواعد الحضارة الغربية، ويقذفون برسالتها إلى متاحف التاريخ.

وقد حاولنا نحن الفرنسيون خلال حكمنا الطويل للجزائر أن نتغلب على شخصية الشعب المسلمة فكان الإخفاق الكامل نتيجة مجهوداتنا الكبيرة الضخمة.

إن العالم الإسلامى عملاق مقيد، عملاق لم يكشف نفسه حتى الآن اكتشافًا تامّا، فهو حائر، وهو قلق، وهو كاره لانحطَاطه وتخلفه، وراغب رغْبَة يُخالطها الكسل والفوضى فى مستقبل أحسن، وحرية أوفر.

فلنعط هذا العالم الإسلامى ما يشاء، ولَنْقوِّ فى نفسه الرغْبَة فى عدم الإنتاج الصناعى والفَنّى، حتى لا ينهض، فإذا عجزنا عن تحقيق هذا الهدف بإبقاء المسلم متخلفًا، وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه، فقد بؤنا بإخفاق خطير، وأصبح خطر العالم العربى وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطراً داهمًا ينتهى به الغرب، وتنتهى معه وظيفته الحضارية كقائد للعالم[1]].

الثانى : قتل مملكة الفكر (الكتاب) بإفساد الوقت، وتفكيك تماسك المجتمعات، وإرخاء روابطها عن طريق إجبار عالم الفكر وقهره على التنازل إلى عالم

---

(١) جند الله ص ٢٢، وقادة الغرب ص٣٨ .

الإعلام خاصة الوسائل الحديثة منه وأولها التليفزيون - ذلك أن من خواص التليفزيون أن من يجلس أمامه مستغرقًا فيه يجد نفسه تمامًا « وحدهُ » أمام عالم من الصور، فإذا أثبتت الإحصائيات أن كل فرد يقضى أمام التليفزيون ما متوسطه (٥) خَمْسَ ساعات فى اليوم - فإنَّ كل فراغه إذن يكون عزلة عن مجتمعه، وانسياقًا تامًا وتوهانًا كاملاً فى عالم الصور.

زد على ذلك الثورة الهائلة فى عالم الأجهزة الإليكترونية حيث يضع الفرد سماعة على أذنه ليصغى لصوت الموسيقى ويُرَسِّخُ بذلك عزلته عما حوله ومن حوله حتى وإن كان سائرًا فى شارع شديد الزحام[١].

وقد كسب هؤلاء هذه الجولة أيضًا، وانصرف الكثيرون عن الكتاب فاندثرت المكتبات وخمد توهجها حتى توارت الإبداعات بالحجاب، بينما يقضى الناس أوقاتهم مع السباحة فى عالم الصور على الشاشات داخل البيوت وفى الأندية، وداخل ما يسمى بالمكتبات الحديثة (الإليكترونية)، وفى كثير من البيوت الأخرى تجد موسيقى الروك والجاز تهز جدران الغرف، وأحيانًا تزلزل الأرض تحت عجلات السيارات، حتى أصبحت الموسيقى هى أداة التعبير عن دخائل العصور والمجتمعات، وباتت وهى المقياس المباشر للحالة النفسية والفكرية، وأداة التعبير عن المزاج العام. إلى الحد الذى استخدم البعض فيه خطأ وقد شاع بين مختلف الثقافات والأوساط والأعمار أن الموسيقى هى غذاء الروح - وهو ما يجعلنا نقول أن رحمة الله على الكتاب وزمن الكتاب، وعلى قارئ الكتاب.

الثالث : وهو حلول الصراع ضد العلماء لإيصال الشرور والمكاره إليهم فى خُبث وتورية لتنزل بهم الويلات وتحل عليهم اللعنات، فى مختلف الميادين والإتجاهات، وذلك لقناعة الغرب كله بأن العداء الماثل فى العلاقة بين المسلمين من جانب والصليبية واليهودية والعلمانيّة وأذنابهم من الجانب الآخر - لهو شعور يغذيه رجال الدين والمشايخ، وقد أثمر عن مقاومة مخططاتهم وفضحها، وإبطالها ما أمكن، ومناهضتها ودحرها، وكثيرًا ما ترتد النتائج العكسية إلى نُحور مُفعّلى الصراع ومؤيديه بفضل مجهودات هؤلاء العلماء والمشايخ، وفى ذلك ثبت قولهم « وقد عُنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين فى أعين الناس، وبذلك نجحنا فى الإضرار برسالتهم التى كان يمكن أن تكون عقبة كؤود فى طريقنا »[٢].

---

(١) ١٩٦٧ الإنفجار - بتصرف.

(٢) تبصير الأذهان ص١٠.

وبمقارنة شواهد الأقوال بحقائق الأفعال يمكن التأكيد على أن ما قالوه صار على أرض الواقع حقيقة يترجمه الإعلام وينطق به، شاهدُنا على هذا، ما يكون عندما يُسخر الإعلام إمكانياته ، ويحشد طاقاته للاحتفال مثلاً بأحد المشاهير كأن يقال عيد ميلاد الموسيقار، وذكرى رحيل ذات الموسيقار، أو المغنّى، أو المثال، وعلى ذات الدرب يسير الصراع ليشتغل الصناع - إنما هذه المرة لصناعة المشاهير (مشاهير الموسيقى والغناء، ومشاهير كرة القدم، والمنافسات الرياضية وعلى صدرها تقف السباحة الإيقاعية بخلقها الكريم وأدائها الجميل الذى يتجلى تماما عندما تتخلى السيدة السبّاحة عن لباسها لتمارس هوايتها ورياضتها وهى حافية عارية لتحظى بالورود وبالقبلات من المعجبين المفتونين، ثم تأتى صناعة النجوم والمثالين والرواد المشخصاتية[1]، وزنادقة الشعر الردئ المذرى أصحاب (السح الدح أمبو إدى الواد لأبوه) « وتحت الشجر يا وهيبة ».

أما مشايخنا الأفاضل الأجلاء، وعلماؤنا العظماء فقد رحلوا، ولم يتركوا غير ذكرى عن خيال الراغبين لا تغيب، وقد تركوا أذقانهم على الشجرة، كما ترك الباشا ذقنه على الشجرة - ولكنها شجرة عجيب طلعها، طيب عبقها، عظيم ظلها، ثابت أصلها (شجرة ذقن الباشا) عميقة الجذور التى تروى نفسها لبعد جذورها، وتنفع الناس بظلها، وتقدم لمن جاءها طيب العبق الأعلى من ريح المسك، وهى شجرة خضراء يانعة تنفع ولا تنتفع، تُفيد ولا تستفيد، إنهم كمثلها (العلماء والمشايخ أطال الله بقائهم ورحم من مات منهُم).

واحتدم الصراع ضد دكاكين الوراقين التى كانت السبب المباشر فى قيام النهضة العلمية وفى إثرائها، كما أنها السبب الجوْهرى فى قيام الثورة الثقافية، وولادة العظماء فى اللغة، والفقه، والأدب، والطب، والعمارة، وصناعة البارود والمدافع، وعلوم البحار والفلك، والنجوم والهندسة والكيمياء . . . إلخ .

وقد تطورت تلك الدكاكين حتى تحولت إلى مكتبات عظيمة، ولو استمر بها الحال لأصبح للمسلمين شأن آخر على النقيض تماما مّما هُم فيه، وما هم رابضون عليه من الخزى والتحلل، والجهل والتخلف، فتطور الصراع بهدوء فى هذه المرة، فتحولت اجتماعات الصالونات الأدبية وهى (ملتقى العلماء والفقهاء) إلى نواد اجتماعية تختلف فى رسالتها ووظيفتها على الإطلاق مما قامت عليه دكاكين الوراقين،

---

(٢) الممثلين والممثلات.

وما انبثقت عنها من صالونات ومجامع علمية عظيمة، فجاءت إلى الشرق الماسونية التى تعمل على اصطياد ضحاياها من المفكرين والمشاهير وتستقطبهم للإنضمام إلى محافلها بواسطة التعريف عن نفسها مستخدمة شعارات براقة، مدعية أنها جمعيات لا تتدخل فى الدين والسياسة، من بين هذه الشعارات:

* الماسونيّة مؤسسة حرة للبناء والعمل، ثم البناء الفكرى حققت خيراً، وحررت شعوباً.

* الماسونية العربية مستقلة بل تُوجه الماسونية العالمية لإنقاذ فلسطين[1].

وتحت شعار الحرية، الإخاء، المساواة نجح الماسونيون العرب فى استقطاب العديد من مشاهير الفكر والأدب والدين والسياسة، وقد اعتنق مذهب الماسونية قادة بارزون من أمثالهم «ضياء كوكب ألب» فى تركيا، وبعده «كمال أتاتورك» الماسونى الملحد، ثم بطرس البستانى فى العالم العربى، وميشيل عفلق وآخرون، وقد تغنّى البستانى ذلك النصرانى الذى بنى وأسس مدرسة خاصة على أساس وطنى تدرس فيها فكرة القوميات الغربية، وراح يشيد بالقومية العربية، فكان بذلك أول نصرانى يدعو إلى العروبة ويتكلم باعتزاز عن الدم العربى الذى يجرى فى عروقه[2].

وما أن تم افتضاح دور الماسونية، وانكشاف حيلها التآمرية فى تدبير الإنقلابات والثورات والحروب والإضطرابات فى كثير من دول العالم حتى اتخذت لنفسها أسماء مختلفة مضللة مثل (الأليانس – الروتارى – الليونز – وجمعية بناى بريث) وما أدراك ما تلك الأندية أو هذه الجماعات، إنها جمعيات بديلة عن المحافل الماسونية الرسمية المعلنة أو معاونة لها حسب نظرة المجتمع والظروف السائدة، وعلى ذلك تكون الماسونية قد لعبت كما أنها تلعب الآن الدور الأهم والأخطر، كما أنها نفّذت ولا زالت تنفذ الأعمال العظمى المسندة إليها، حيث أنها سبقت الإعلان عن بروتوكولات حكماء صهيون، وعملت فى قناع وغفلة، لخدمة الصهيونية خاصة والصليبية عامة الصريحة منها وغير الصريحة، المعلنة وغير المعلنة.

ثم انتشرت تباعاً المقاهى السياحية فى البلدان الإسلامية خاصة فى المدن ذات الطابع الدينى، والصبغة الروحية ابتداء من طهران وبغداد وانتهاءً بالجزائر والرباط، ولعلك تضم صوتك إلى صوتى فى أن انتشار مثل هذه المقاهى وهى مصدر الأدخنة

---

(١) تغطية كاملة للماسونية – دورها – وسائلها – أهدافها – ضمن كتابنا – المؤامرة الكبرى.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية ص٦٢ أ. محمد حسين.

والتبغ، والخمور، والكحوليات، وروادها هم عجاج الرجال وعاريات النساء، المختلطون بشكل مفضوح فاضح للعورات، ناشر للرذيلة، وعليها يَنْتهي لهيب النظرات بالحرام عند اللقاءات وسط أجواء الصخب والموسيقى والطبل والزمر والرقص – حين يخْتلط الحابل بالنابل – ما ذلك فى حقيقته غير تحقير لدور المساجد، وأمكنة العبادات حتى فى أكبر العواصم الإسلامية وفى أشهر ميادينها على الإطلاق.

* ومع الثورة الهائلة التى يعيشها العالم الآن فى نظم المعلومات ومع انتشار الحاسب الآلى (الكمبيوتر) الذى أصبح فى حوزة ١٥ : ٢٠٪ تقريبا من دول العالم الثالث (النامى) جاءت شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) وهى تحمل بين طياتها ملايين المواقع التى تذيع على مدار الساعة أفلامًا للزنى واللواط والشواذ والنُشُوذ (الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء) والعاهرة يباشرها رجلان أو ثلاثة فى آن واحد، وانتشرت سريعًا من نوع جديد ما تعرف بأندية (الإنترنت) ومقاهى الإنترنت التى حلت الآن محل ما كان يعرف بصالونات العلماء والفقهاء الأدبية، ودكاكين الوراقين.

وإن كانت هناك إستخدامات نافعة للإنترنت إلا أن ضررها أكبر من نفعها لشيوع استخدامها، وسهولة تأثيرها على الشباب فى ظل التركيبات النفسية والعقد المزاجية فى ظل الأوضاع السائدة (اقتصاديًا – وعمليًا – وتعليميًا – واجتماعيًا) الأمر الذى يحتم تضافر الجهود بين علماء الدين والمؤسسات الحكومية والأهلية، والأسرة، وتحقيق انسجام تام بين هؤلاء جميعًا ضمن برنامج عمل وطنى جاد يرمى إلى تقنين تشريع خاص لهذه الظاهرة المعاصرة المدمرة التى سحبت البُساط من تحت أقدام علماء الدين الإسلامى، ورجال الدين المسيحى فى عالمنا العربى . وقد حلت بالجهالة محل العلم وبالظلمات محل النور، وبالرذيلة محل الفضيلة، مع مراعاة أنه لا شىء يخدم الإسلام مثل انتشار وسائل الاتصال السريع وفى مقدمتها الإنترنت، والعلم الحديث وعلى رأسه معامل الترجمة الفورية، والتكنولوچيا وتتقدمها الفضائيات، ثم الإنفتاح الإعلامى الهائل بين بنى البشر فى ظل ما توفره وسائل الإعلام الجديدة والتكنولوچيا الحديثة من تقريب بين الثقافات والشعوب.

فرسالة الإسلام سوف تصل بسرعة البرق وبوضوح الصور الحديثة وبقوة صواريخ الفضاء – إذا ما أحسنا توظيف المتاح لدينا من هذه الثورة الإعلامية الخطيرة والغزيرة، فكلما كانت هناك جامعات أنتجت بحثًا علميًا من أجل الحقيقة فسوف يكون الإسلام وحده هو الحقيقة الأكيدة فى عالم يموج بالأباطيل والأساطير والأكاذيب.

وإذا كان الإسلام قد ساد العالم خلال القرن الأول الهجرى عندما طبق المسلمون الأُوّل الإسلام النظرى على الحياة العملية فإن ذات الشيء من الممكن حدوثه تارة أخرى بنفس السرعة أو أشد بحيث يصير من الممكن القول بأن الإسلام هو مفاجأة السنوات القادمة التى من الممكن أن لا نرى فيها عَالمًا من العُلماء سبقته (عَالْمَه) من العوالم التى حققت أمجاداً وجمعت أموالاً وسحبت أضواء حتى صارت نجمًا يتلألأ فيما يُسمّى « سماء الفن » وسوف لا نرى فيها كذلك شيخًا وقوراً وفقيهًا نافعًا لم يستطع الحياة بعلمه ولا بفقهه وخفتت أضوائه كمثل ما كان - فيتحول حينئذ الشيخ الجليل قارئ القرآن الكريم عن علمه النافع وعمله الصالح إلى باحث عن الأموال والأضواء والشهرة، وكأن القرآن الكريم لا يُطعم جائعًا، ولا يستر عريانًا فتحول « بقدرة قادر » بين عَشيّة وضُحاها ليغنى للناس (يا حلو صبح يا حلو طل - يا حلو صبح نهارنا فُل) وصبّح يا جميل - يا جميل صبّح ﴿ **وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ [الإسراء: ١٥].

* ثم تأتى المدرسة البذرة الأولى لحركة المجتمع وتطوره، والمقياس الشرعى لتطوره أو تخلفه لتشهد حجمًا من الصراع كبيراً وليُمارس ضدها دورٌ سياسى كبير ذو أثر عظيم خطره، بالغ ضررُه، وذلك لأننا علمنا متى وأين وكيف نشأت المدرسة، وعلمنا كذلك دورها الهائل ونفعها العظيم، ولمسناه حقيقة تاريخية فى أنفسنا وآبائنا وأجدادنا ثم نُوَرِّثْهُ أثرًا عظيمًا لأبنائنا من بعدنا.

وتتمتع المدرسة باستقرارها فى قلوب المسلمين لأنهم الرواد فى نشأتها وتحديد مناهجها وتوظيف أبنائها، وتدبير موارد الإنفاق عليها وعلى طلابها حتى تخرج فيها أبطالٌ أفذاذٌ وعلماء نوابغ، وصناع مهرة، وأطباء، ومهندسون، وكيميائيون، وحرفيون، سادوا العالم بعلمهم وعملهم وبأخلاقهم وفنونهم وإخلاصهم، وابتكاراتهم، وتحديثهم.... إلخ.

ولو قُدر للمدرسة الإضطلاع بدورها على النحو السّلفى لانتفض أبناؤها فى وجه المخططات الإستعمارية، والهجمات الصليبية الشرسة التى تستهدف قارتى الإسلامى (آسيا وإفريقيا).

فلم يكن أمام النصرانية والموسوية إلا حَل واحد هو تدمير الإسلام، فكَانت صيحتهم « ها قد هبت النصرانية والموسوية لمقاتلة المحمدية، وهما تأملان أن تتمكنا من تدمير عدوتهما »[١].

فكانت طلائع المعركة فى المراحل الأولى للتعليم بغرض تشكيل ثقافة جديدة

(١) استعباد الإسلام ص٤٤ .

عند الأطفال أصحاب العقول البيضاء فى هذه السن المبكرة، فعمل الإستعمار فَوْر نزوله بالأرض التى تدنست بوجوده على إهانة علماء الدين، والفقهاء، والمعلمين والحط من كرامتهم، وقطع أرزاقهم، كما اجتهد الإستعمار مبكرًا لتغيير التعليم وتطويعه منهجًا وأسلوبًا، فحلت المدارس التى أقامتها بعثات التبشير محل المدارس الإسلامية، من أجل مساومة الطلاب على التنصير مقابل توفير مكان فى المدارس، وأقام فى كبريات الدول العربية الإسلامية مدارس مسيحية لتعليم الدين المسيحى، والدعوة إلى التنصير. كرغبة أولى وضرورة ملحة لتنصير المجتمع الإسلامى بخطى حنين، ولإحداث خلخلة فى عقيدته الراسخة، وإصابة كيانه بفيروسات العَتَه والعتل والمجون لإصابة وجوده فى مقتل.

غير أن هذه المدارس لم تجد إقبالاً فى العالم الإسلامى على عكس ما كان فى بعض دول إفريقيا شمالاً وجنوبًا.

لذلك اجتمع مجلس الكنائس العالمى، وتحدث فى المؤتمر «صمويل زويمر» رئيس المجلس فقال (ما دام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية فلا بد أن ننشئ لهم المدارس العَلْمانيّة، ونسهل التحاقهم بها، هذه المدارس التى تساعدنا على القضاء على الروح الإسلامية عند الطلاب)(١).

وتلك هى المدارس التى جعلت العالم كله يشتغل بنظرية دوران الأرض وهل هى بيضاوية أم كُروية، ثم تدريس س + ص = - صفر مثلاً ... وهكذا.

وقد شهدت منطقتنا العديد من المدارس العلمانية التى أنشأها هؤلاء لمناهضة الإسلام ومحاربة المدارس الإسلامية والجامعات العالمية الإسلامية فى كل من مصر والعراق وسوريا والسعودية، والباكستان، وتونس، والجزائر، والمغرب - وهى البلدان التى تخرج فيها رواد حركات التنوير فى شتى الميادين وحملوا بأيديهم مشاعل الحضارة فى العالم كله، ولم يقتصر منهج الإستعمار على محاولات إلغاء المدارس الإسلامية فحسب، أو تقييد حركتها - إنما أخذ يتوسع فى إقامة المدارس والجامعات العلمانيّة التى لن تحوى مناهجها أحكام الشريعة من صلاة وزكاة وجهاد وقتال الأعداء - وصلات الأرحام وحقوق الجار وحرية الوطن والمواطن وكرامتهم - لكنها ملأت المناهج الدراسية بعلوم لا ينفع العلم معها ولا يضر الجهل بها - وتلك هى أهم الأدوات لإفساد نظم التعليم.

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص٨٢.

ولما آتت الفكرة أكلها وطابت ثمارها فى تحويل اهتمامات الطلاب والدارسين لإستيعاب وتدارك تلك النظريات العلمانية قال أحد المبشرين المهتمين بتنصير المسلمين، ويدعى المبشر تكلى « يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربى العلماني، لأن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية »[1].

ثم تأكدت تلك الحقيقة عندما قالوا « أن أهم الأساليب للوصول إلى تدمير أخلاق المسلم وشخصيته يمكن أن يتم بنشر التعليم العلمانى »، كما أكدت المبشرة « آن ميليغان » تلك الحقيقة عندما نسجت على ذات المنوال بقولها « لقد استطعنا أن نجمع فى صفوف كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات، ولا يوجد مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى، وبالتالى ليس هناك من طريق أقرب إلى تقويض حصن الإسلام من هذه المدرسة[2].

* ومؤخراً سادت مفاهيم باطلة ومزاعم كاذبة عن أن الإسلام دين قَهَرَ المرأةَ وسَلَبَها حُريَتها وجَعَلَها رهنَ القيد والتخلف بمرافقة الدار - وانطلقت بذلك دعاوى المضللين والكافرين المنادين بحرية المرأة، ثم انصاف المرأة، ثم مساواة المرأة بالرجل، وأخيراً كانت الدعوة إلى تسييد المرأة، لا لشيء إلا لأنهم يرون أن إخراج المرأة المسلمة من دينها يعنى خروج جميع الجيل الذى تربيه، ويخرج معها زوجها وأخوها، وتصبح بذلك أداة تدمير قوية لجميع قيم المجتمع الإسلامى الذى يُحاولون تدميرَهُ، وإلغاء دوره الحضارى القائد فى العالمين.

ولا يزال الصراع متأججًا وإن اختلفت أدواته، والحوار مسترسلاً وإن تعددت ألسنته.

* * *

رابعًا : بائعو الوهم

(أ) الغارة

يسلك الكافرون ومن نحا نحوهم وسار على دربهم فى حربهم الضروس ضد الإسلام والمسلمين مسالك شتى وممرات متنوعة لا نستطيع أن نوجزها الآن حصراً لأنها تتنوع وتتطور وتتحور، غير أننى أؤكد على أنهم قد استطاعوا تمزيق أمتنا الإسلامية

---

(١) قادة الغرب ص٥٠ نقلاً عن التبشير والاستعمار ص٨.

(٢) التبشير والإستعمار ص ٨١.

بقوتهم العسكرية التى مكنتهم من إصابة أمتنا فى جسدها الهزيل، وقد عمل هؤلاء على إقامة أنظمة حكم ديكتاتورية متضاربة الوسائل، والأهداف، وترتبط بسياستهم أولاً وأخيراً.

كما تم تقسيم تلك الأنظمة إلى تقدمية ورجعية، رأسمالية واشتراكية بعضها تبع للشرق، وبعضها تبع للغرب، وحاربوا جميعاً كل معارضة لمسيرة الذل، ووقفوا أحجار عثرة أمام كل صحوة خير تصحح المسار، وتعيد للأمة قوتها وعزتها.

ونحن ههنا نشير إشارات موجزة إلى ما طرأ على بعض وسائلهم القديمة علّنا أن نوقظ ثُبات القرون والنائمين فى القبور، ونحن نُنبّه الغافلين إلى حقيقة الدور الذى يلعبه بائعو الوهم (المبشرون) وهم الأداة التى استخدمها الغرب للقضاء على الوحدة الإسلامية التى تجمع آمال الشعوب المسلمة وتؤلف القلوب فيما بينها.. ذلك لأن الوحدة الإسلامية باتت وهى الخطر الداهم الذى يحدق بهم ويؤرق حياتهم ويقض مضاجعهم، وفى ذلك يقول القس سيمون «إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد على التخلص من السيطرة الأوروبية، من أجل ذلك يجب أن نحول بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية[1].

نعم لقد عرفوا ذلك تماماً، ورأوا أن الوحدة الإسلامية التى تجمع آمال المسلمين فى مصب واحد، هو خدمة الإسلام ونصرته وعزته، وهى بذلك تشكل جداراً صَلْباً تتحطم عليه خططهم الهادفة إلى تدميره، ويفسد عليهم مساعيهم نحو تحقيق سيطرتهم على العالم.

نعم، لقد عرفوه حقاً بالتجربة العلمية والعملية وبالدراسة المستفيضة التحليلية والميدانية، عرفوه تماماً يوم حاولوا السيطرة على الأمة فى الحروب الصليبية فهب إليهم الإسلام بارزاً فى شخص صلاح الدين الأيوبى - رحمه الله - وقد حطم البطل كبرياءهم، وأرغمهم على التراجع الذليل، كما وجدوا فى الجزائر فُرساناً، وواجهوا أبطالاً رجالاً كباراً وصغاراً، وقد لقّنوا الفرنسيين درساً لن يُنسى مهما طال الزمان.

وقد لاقوا كثيراً ممن خيبوا سعيهم، ودحروا كيدهم، وأبطلوا بغيهم - وهم كثيرون من بينهم عمر المختار، وعز الدين القسام، وعبدالله عزام، وعمر مكرم، والوهابيون فى الحجاز، وقد برزوا لهم جميعاً كل فى زمنه يحمل راية الإسلام بإيمان وصدق وحق.

---

(١) الخائفون من الإسلام ... لماذا؟ ص ١٣ محمد نعيم ياسين.

ولما كانت فرنسا صاحبة أكبر المواريث فى الحقد والكراهية ضد العرب خاصة، والمسلمين عامة بعد ما نزل بها من هزائم كبيرة ومتتالية، وانتكاسات مُدْمية على أيدى الإسلاميين الذى كسروا شوكتها في مصر، وسوريا، ولبنان، والجزائر؛ فإنها قد وجدت نفسها مكرهة لإظهار التعقل علنًا، وادعت صداقتها للعرب، أمَّا سرًا فإن لها شأناً آخر.

فها هو وزير المستعمرات الفرنسية «فيليب فونداسى» يصرح فى كتابه «الإستعمار الفرنسى فى إفريقيا السوداء» على الصفحة الثانية - «إن من الضرورى لفرنسا أن تقاوم الإسلام فى هذا العالم، وأن تنتهج سياسة عدائية للإسلام وأن تحاول على الأقل إيقاف إنتشاره».

ذلك هو الدور الفرنسى الصليبى الرائد الذى عبّر عنه نابليون بونابرت حينما دعا إلى قيام دولة غريبة فى المنطقة للحيلولة دون قيام وحدة عربية، كما أنها هى ذاتها فرنسا التى قدمت لإسرائيل هدية عمرها التى ما كانت لتخطر على بال قادتها حينما قامت فرنسا ببناء مفاعل «ديمونة» الذرى فى صحراء النقب فى المسافة بين الأردن ومصر - كمكافأة لإسرائيل نظير اشتراكها فى العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م(١).

عمومًا، فإن التبشير يظهر كأحد الأسهم المارقة التى تُطلقها إرساليات التبشير عندما يلوح أمامها الجهل أو الفقر أو التخلف أو ترف الحياة ولين العيش.

ولما كانت الجزائر صاحبة اللطمة الأكبر على جباه الفرنسيين طوال تاريخهم فإنها تعرضت ولا تزال لهجمة تنصيرية شرسة، سنعرض لها فى حدود ما تيسر لدينا وما وفرته لنا بعض المصادر لنقف معًا على حقيقة تفاقم ظاهرة التنصير فى الجزائر:-

تتعرض الجزائر ومنذ فترة طويلة إلى غارة تنصيرية مُنسَّقة فى أساليبها، منظمة فى برامجها، تضطلع للقيام بمهامها عشرات المنظمات والجمعيات التنصيرية المسمّاة (إرساليات - أو - بعثات التبشير) التى تتحرك بكل حرية فى الأوساط الشعبية، والجماهيرية - ومن دون إزعاج من السلطات أو المؤسسات الرسمية الجزائرية.

وعلى الرغم من الضجة الهائلة والصرخة المدوية التى أحدثتها وسائل الإعلام الجزائرية الناطقة باللغة العربية من أجْلِ فضح ظاهرة التنصير التى تفشّت وبشدة فى الجزائر، إلا أنها لم تُحرك ساكنًا، وقد استغلت تلك المنظمات والجمعيات الأوضاع الأمنية المتدهورة، والإقتصادية الخانقة، والجبهة الداخلية المنهارة، فنفذت إلى الشباب

---

(١) تفصيل الموضوع كاملاً فى - المؤامرة الكبرى - للمؤلف.

تحديداً، كما أكدت الأرقام التى وُضعت أمام الجهات المعنية فى الجزائر وتلك التى بحوزة هذه المنظمات التنصيرية أن «عشرة آلاف» (١٠٠٠٠) شاب جزائرى قد اعتنقوا المسيحية، وقد أفادت الجهات المختصة برصد ظاهرة التنصير، ومن يدعمها أن الكنيسة الكاثوليكية تعتبر أنشط الجمعيات التنصيرية برئاسة القس (هنرى تسيى) تليها البروتستانتية برئاسة الأمريكى الأصل – الجزائرى الإقامة (هوج جونسون) – رئيس الجمعية البروتستانتية، بالإضافة إلى جمعية أخرى أشد نشاطاً هى جمعية القلب المقدس برئاسة (كاميف بيار) المولود فى « وجدة » بالمغرب، ويقع مكتب جمعيته فى حى [ديدوش مراد] العريق بوسط الجزائر العاصمة.

وقد أرجعت بعض القوى السياسية، وبعض البرلمانيين الجزائريين أن هذه الغارة التنصيرية على البلاد إنما مردها إلى الفقر المدقع الذى يعيشه ما يربو على ٨٠٪ من الجزائريين – وهم أصحاب ثانى أكبر احتياطى بترولى عالمى بعد السعودية إلى عهد قريب – وقد استغل المنصرون حالة الفقر هذه أحسن استغلال، فبادرو إلى تنصير الشباب الجزائـــرى المُحْبَط – التائه – الفقير – الجائع – لمساومتـــه علناً على توفير أو تسهيل مهمة الحصول على تأشيرة وإقامة وفرصة عمل فى إحدى دول الغرب التى يرغب الشباب فى السفر إليها.

وقد طالب بعض النواب البرلمانيين الحكومة بالتحرك الفورى والجاد لوقف الغارة التنصيرية على الجزائر، فيما أرجع وزير الشئون الدينية الجزائرى أن بعضاً من هذه الطروحات التنصيرية مرتبطة بالحركة الإستعمارية العامة.

ويجدر القول أن القس « هوج جونسون » جاء إلى الجزائر مُوفَداً من قبل كنيسته الأمريكية إلى الجزائر عام ١٩٦٣م، وقد أقيمت على يديه أول كنيسة فى مدينة (تيزى وزو) القبائلية فى العام ذاته، بعد أن تمكن من الحصول على اعتمادات رسمية من قبل الحكومة الجزائرية، وقد بدأ هوج مهامة التنصيرية بأسلوب استراتيجى، حيث ينصر المسلمين (الذين نعتناهم سلفاً) ويكلفهم بمهام الإشراف على الكنائس، ساعده على ذلك نائبه الجزائرى المولد والجنسيّة الذى تنصّر عام ١٩٧٠م.

وقد أكد المراقبون لهذه العملية أن المنصّرين الغربيين والجزائريين يترددون على مرجعياتهم الكنسيّة فى فرنسا، وأمريكا، وسويسرا، كما أنهم يتلقون مساعدات مالية جبارة يتم تخصيصها لإعالة عشرات الآلاف من العائلات الفقيرة، وتحديداً فى المناطق القروية خاصة تلك التى تقع فى المناطق القبائلية.

وعلى الرغم من أن الصحافة الجزائرية قد سلطت الأضواء على القس الأمريكى

(هوج جونسون) ونشاطاته التنصيرية المكثفة فى مختلف الولايات الجزائرية إلا أنه ما زال يصول ويجول كما يحلو له كما قال بعض النواب الجزائريين - ويحدث بشكل مطرد مع نشاطات « هوج » انتشاراً واسعًا لنُسخ الإنجيل وأشرطة الكاسيت، وأشرطة الفيديو باللغة العربية، وباللهجات القبائلية فى العديد من الولايات، وكلها يتم طباعتها ونسخها فى بعض الدول الغربية الرائدة فى عمليات التنصير والداعمة لها، الأمر الذى يوحى بأن مشروعًا متكاملاً لتنصير الجزائر قد أعدّ سلفًا، وسوف يقع حقيقة من بعد أن يأتى المساس مستقبلاً بوحدة الجزائر الوطنية والترابية خاصة إذا ما علمنا أن تلك النشاطات التنصيرية أفضت إلى إيجاد أقلية مسيحية حقيقية فى الجزائر.

وقد برز على ساحة التنصير مؤخراً قسّ فرنسى ظهر على الساحة بقوة هو « فيليب مارتيناز »، وكان هذا ضابطًا فى الفرقة العسكرية الفرنسية الخاصة حتى ١٩٨٠م، وبعد أن اعتزل وظيفته، أو أحيل إلى التقاعد قرر أن ينضم إلى جمعية إنجيلية نَفّذت العديد من النشاطات فى إفريقيا وتحديداً فى تشاد، وقد زار هذا القس الجزائر عام ١٩٩٩م، وكان يخطط لفتح كنيسة فى (تيزى وزو) القبائلية وقد تمكن بالفعل من إقامة فرع للكنيسة الإنجيلية فى هذه المنطقة لتكون أول نتاج للجمعية الإنجيلية الجزائرية، وذلك بعد الحصول على اعتماد رسمى من الحكومة الجزائرية.

وحقيق بنا القول بأن السلطات الجزائرية ما لم تُحرّك ساكنًا، وتنتفض لأجل دينها وسلامة مواطنيها، ووحدة أراضيهَا، بوضع حد لهذه الغارة التنصيرية فى الجزائر فإن الزحف التنصيرى سيقض مضجع الجزائر، ويضيف إليها أعباء جديدة ومتاعب جسام، وصعاب جمة.

وهذه هى إحدى صور ما يُسمّى بحوار الديانات الذى يبغونه ويعملون لأجله، ويسعون لإقامة جسور العلاقات مع كبريات الدول الإسلامية لفتح أبواب تلك الدول أمام إرساليات التبشير المسيحى، وإذا رفضت فإنها بلاد الاضطهاد الدينى الواجب عقابها.

ولعلنا نكون قد قدمنا تفسيراً لأحوال الجزائر الآن - ونكون قد أجبنا فيه عن أسئلة السائلين عن حقيقة الإرهاب فى الجزائر - إنه الفعل التنصيرى من قبل عشرة آلاف جزائرى تنصروا وهم يلقون دَعْمًا كبيراً من جهات خارجية مُعيَنَة، ورد فعل إسلامى أصولى يقضى بقتل المرتدين - وهو حكم شرعى لا حرج فيه. بينما يدور هذا الصراع فى ظل غيبة للدولة والنظام الحائر بين استئصال شأفة الإسلاميين وهو أمر

بعيد المنال، وبين مناهضة جماعات التبشير ومن ثم التعرض لويلات خارجية ستفتح على الجزائريين نار جهنم، وما زال الصراع مستمرا بين المنصرين والمتنصرين من جانب وحركة الجهاد الإسلامية، وجبهة الانقاذ الوطنى الإسلامية من جانب آخر.

* * *

(ب) اقتراحات نهائية

تفردت إحدى القنوات الفضائية العربية فى موقعها على شبكة الإنترنت بنشر تقرير أصدرته لجنة التنصير بكنيسة كليفلاند البروتستانتية فى أمريكا، يتكون التقرير من أربع وتسعين صفحة، يتناول تجربة التنصير فى عدد من قرى دولة الجزائر ومدنها على مدى خمس سنوات متتالية، واختتمت اللجنة تقريرها بإصدار مُلخّص يحتوى على أهم ما توصلت إليه اللجنة من توصيات ونصائح تحت عنوان (إقتراحات نهائية) تدور كلها حول أسلوب التنصير وعمل المنصرين بين عوام الجزائر بين الذين أسمتهم الدراسة « المسلمين الشعبيين ».

اعترف التقرير فى صفحاته الأولى بصعوبة التنصير بين المسلمين إلا إذا كانوا طائفة من ثلاث على وجه التحديد :

(أ) أن يكونوا من جماعات صوفية.

(ب) أن يكونوا تابعين لمذهب شيعى.

(جـ) أو تابعين لطائفة القاديانية.

وذلك لأن هذه الطوائف الثلاث تشترك مع عقيدة النصارى فى قبول ما يدّعون بالحلول الإلهى فى الإنسان، وهو ما يمهد الطريق أمام المنصر لقبول عيسى المسيح إبنا لله ﴿ **سبحان الله عمَّا يصفون** ﴾ [الصافات : ١٥٩].

ولكن ماذا عن عوام المسلمين فى الجزائر (المسلمين الشعبيين)؟

وإلى أى مدى استطاعت الإرساليات التنصيرية تحقيق أهدافها؟

وقد جاء فى التقرير الذى تناولَته بالعرض والتحليل فى مراحل لاحقة أكثر من وسيلة إعلامية من المهتمين بهذه القضية، أن التقرير المتحدّث عنه أكد أن ثوابت المسلم الجزائرى حتى الشعبى منه كما يقولون – ليس من السهل تحريكها أو قبول المساومة عليها أو حولها، أو التنازل عنها، ولذلك لم تكن هذه النتيجة المفجعة للإرسالية مع رجل الشارع الجزائرى هى نهاية المطاف، ولم تكن هذه هى الصخرة الوحيدة التى تحطمت عليها طموحات الإرسالية، واستطرد التقرير قائلاً :

أما المسلم الجزائرى العلمانى الذى تأثر بالأفكار الأوروبية، وموجة الإلحاد التى تجتاح الشارع الغربى اليوم فإنه لم يتخلص بعد من تأثيرات الجانب الإيمانى فى الإسلام إلى الحد الذى يمكن وصفه أحيانا بالخصم الروحانى.

وتابعوا: «لقد سلّموا أنفسهم جميعًا للغيب، لعدالة الله التى وعدتهم آيات القرآن، فجعلت الواحد منهم مطمئنا وراضيًا بما هو فيه، ومؤمنًا تمام الإيمان بما أُخبر به».

لقد وقعت تلك الإرساليات فى حيرة وحرج شديدين أمام الثوابت الراسخة فى حياة المسلمين وهم فيها سواء الخاصة والعامة، فكانت التوصيات والإشارات واضحة لتلك البعثات التنصيرية بضرورة الإنتباه الشديد، وأخذ الحذر التام، والحيطة الكبيرة عند مواجهة مسلمى الجزائر على اختلاف أعمارهم خاصة عند استمالتهم إلى النصرانية، وبخاصة عند التأكيد على أن يسوع ابن الله، أو أنه المنقذ المخلِّص، وذلك لأن المسلم الجزائرى لا يقل تمسكًا فى عقيدته عن الأصوليين المصريين، والوهابيين السعوديين - بحسب تعبير التقرير - وذلك لأن أهل الأصولية هم أصحاب الوعى والإدراك وهم بالتالى لا يعرفون غير عيسى المسيح وأنه نبى له أم صديقة هى «مريم إبنة عمران» - وقد كانا كما قال تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] وهو بذلك على الضد من اليسوع الآخر الذى عند النصارى - وهو (المنقذ) كما يقولون.

وقد انتهت التجربة التنصيرية فى الجزائر التى استمرت مدة خمس سنوات متتالية إلى ست وثلاثين نصيحة تحدد طبيعة العمل، وتسهل مأمورية أفراد تلك الإرساليات التبشيرية، وقد ذكروها على النحو التالى:

١ - غالبًا ما تكون الملابس الغربية التى يرتديها المنصرون موضع انتقاد ونفور من المسلمين، ولذا فمن الأفضل للمنصر أن يرتدى زى المنطقة التى يعمل بها، وكذلك زوجته أو العلامات اللائى يساعدنهُ فى الإرسالية، كما يجب على المبشر أن لا يرتدى شورتًا فى زيارته للمسلمين، ومن الخطأ جدًا على البنات أو النساء المشاركات فى البعثة أن يرتدين ألبسة قصيرة، تسبب لهن الحرج عند جلوسهن على حصائر مع النساء المسلمات.

٢ - عند جلوسك بين المستمعين لدعوتك - يجب أن تختار مقعدك وموقعك بعناية شديدة، فيكون الجميع أمامك، تراهم وتنظرهم بعينيك، فلا تسمح لأحد أن يحدثك من مستوى أعلى أو من نافذة علوية أو طابق علوى، كما عليك أن تَحْذَر من أن يجلس واحد خلفك لئلا يسمح له موقعه بعمل إشارات تطعن فيما تقول.

٣ - ليس من الحكمة أن تتحدث مع مسلم عن إيمانه أو إيمانك الشخصى فى حضور مسلم آخر، فذلك يجعله على الفور مدافعًا بحرارة ومُرتَقيًا بدينه، خاصة إذا كان فى القرية سكان غير مسلمين، يشاركونهم فى الأرض وفى السيادة.

٤ – من الحكمة أن يكون معك فى دعوتك رجل آخر واحد، أو امرأة واحدة فقط منعاً للإستثارة.

٥ – فى سلوك المسلمين عامة وفى الجزائر خصوصاً، كثير من الإحترام والتبجيل وكرم الضيافة لضيوفهم، حتى ولو كان الضيوف من غير دينهم، فربما يحضرون لك كرسيّا عند زيارتك لهم ويرغبونك فى الجلوس عليه، وهم جلوس على الأرض، فلا بد أن تتجنب ذلك مهما كان قدر الضغط عليك، دعهم يرونك مجرد إنسان تكون كما يكونون، ولا تَنْسَ أنهم يستعملون الحصير الذى يجلسون عليه فى صلاتهم، ولهذا فهم يخلعون أحذيتهم قبل الجلوس عليها، ولا بد أن نفعل مثلهم.

٦ – لا بد أن تراعى قانون المكان فى مجلسك، فتكون جالساً أثناء الوعظ إذا كان الكل جلوساً، وتكون واقفاً إن كنت فى مكان عمل أو سوق أو فى مكان مسموح فيه الإجتماع.

٧ – اللغة العربية عند المسلمين تُسمّى «لغة الملائكة» وهم يبدون فى الوقار والإحترام للنص العربى ويعتبرونه صَكّا مقدّساً فى مواجهة النص الفرنسى الذى يذكرهم بالاحتلال ، وتستطيع أن تستفيد من هذه الخزعبلات، مبيناً لهم أننا نحب الحروف العربية، ونجد المتعة فى قراءتها، واحذر أن تقرأ نصّاً بلغتك غير العربية، حتى لو أن تلجأ لكتابته على لافتة دون أن تقرأه.

٨ – صَلِّ قبل لقاء المسلمين، وصَلِّ وأنت بينهم، وبعد أن تتركهم، أن يسكن سيدنا قلوبهم.

٩ – قبل اللقاءات أكتب أهم النقاط التى سيدور حولها النقاش، واستخدم كثيراً كتابك المقدس، وضَع خطوطًا تحت المواضع التى تناسبك، لتجدها سهلة ومريحة.

١٠– اعتمد على الروح القدس لتهديك إلى هدفك فربما تُقتاد إلى هدف آخر.

١١– ابدأ وعَظْكَ لعشر دقائق حول التقاء الأديان (حوار الأديان) ، والبُشر فى المولد والموت وفى لقاء اللهَ بعد الموت.

١٢– تعامل فى موضوع واحد طوال الوقت، فإن حقيقة واحدة تكون كافية للقاء واحد.

١٣– يُعجب المسلمون بشجاعة المتحدث عن معتقداته، فلا تخش أن تتكلم بالحقيقة كاملة، ولا تحذر إلا أن تجرح دينهم ومعتقداتهم أو تسىء لقرآنهم ونبيهم وعباداتهم.

١٤- لو سُئلت سؤالاً لا تعرف إجابته، أو استشعرتَ فى الإجابة ما يعوق أهدافك، فإن من الأفضل أن تعتذر بعدم علمك، وترجئ الإجابة لوقت آخر، وتُشغِل سامعيك بسرعة موضوعك أنت الذى تعظ فيه.

١٥- قاعدة أساسية للوعظ أن تذكر بين الحين والحين ما هو متفق عليه بينك وبين المسلمين.

١٦- استعن دائمًا بأحد الكتب التى تهتم بالرد على اعتراضات المسلمين، واحتفظ بصفحة واحدة لكل اعتراض، واحذر أن تُستَدْرَج لمناقشة اعتراض لم تُعدّ نفسك لمناقشته.

١٧- من الحكمة تجنب مناقشة الثالوث ولو للحظة واحدة، ولو كان ذلك بإيضاحات مثل: إن الثالوث كالرجل الذى له ثلاث وظائف، أو كالشمس متعددة الأشعة والوظائف، فإن تلك الإيضاحات تناسب العقل الغربى لكنها لا تقنع المسلم.

١٨- تذكر أن المسلم لا ينحنى أبداً ليسوع، سيداً منفرداً عن الروح القدس، فلا تحاول إقناعه بذلك، واحرص أن نُقنعه به فى لقاء آخر.

١٩- لا تحاول أن تستخدم مواهب الروح القدس مثل التكلم بألسنة غريبة (كتحضير الأرواح واستخدام العفاريت) أو عمل معجزة أمامه، لأنه سوف ينسب ذلك إلى الأرواح الشريرة، ولن يقبل المسلم إلا ما تتحدث به إلى عقله، وبلُغَته ستجذبه إلينا.

٢٠- تذكر أهمية الكتاب المقدس ولا تحاول أن تُهديه إلى مسلم إلا بثمن، واعلم أنه سوف يرفض شراءه منك، لأنه لا يحمل الإصطلاح الإسلامى (بسم الله الرحمن الرحيم)، فذكِّره بأنه حينما يشترى خُبزًا فلن يجد عليه هذا الإصطلاح، إنما هو يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) ويأكل، فلم لا يفعل الشىء نفسه مع كلمة الرب التى هى خُبز الحياة؟

٢١- المسلمون فى الجزائر مثلهم مثل كل المسلمين، يتعاملون مع القرآن بكثير من الإحترام، والتقديس، والرهبة، فحاول أن تتعامل مع الكتاب المقدس بنفس القدر أمامهم فلا تحط من قيمته.

٢٢- كثير من المسلمين الشعبيين تائهون عن الحقيقة، يبحثون عن المنقذ الذى يواجهون به حالات الطرد والتشريد والجوع والإضطهاد التى أصابتهم حتى الموت خلال السنوات الأخيرة، ومن الواضح أن الرب يهيئهم حتى تُعمل برسالته بينهم.

٢٣- إن السيد ينادى الشباب أن يخدموه بين المسلمين، بكثير من الصبر الذى

أتى بالعظمة للرب يوم نقف أمام العرش ويصيح رجل بصوت عال « الخلاص لربنا الجالس على العرش ومعه الخروف » (!!!).

٢٤- المسلمون يُدهشون عندما يجدون أن الكتاب المقدس هو كتابان، أولهما : العهد القديم المعروف بتوراة موسى، والذى يضم تسعة وثلاثين كتاباً، وثانيهما العهد الجديد المعروف بإنجيل عيسى، لكنهم سَيُدَهشُون أكثر إذا عرفوا أن العهد الجديد يضم أربعة أناجيل والأناجيل الأربعة سبعة وعشرون كتاباً، ولذا فإنه من الأهمية بمكان أن نقترب من المسلمين بمشاركتهم الدهشة، وإنكار أن لدينَا عدة كتب، لأنها جميعًا عبارة عن بشارات سارة، وليست هى الكتاب الذى نزل على المسيح من السماء.

٢٥- لسوء الحظ أن أناجيلنا تنتسب إلى متّى، ولُوقَا، ومُرقص، ويُوحنّا، وهى إساءة لا يمكن حذفها، فاحذر أن تنسبها إلى الله، لأن كلام الله عند المسلمين هو شريعة وقانون.

٢٦- حاول كثيراً أن تتجنب فى مناقشتك اسم بولس الرسول، فإمّا أنهم لم يسمعوا عنه من قبل، وهذا يثير حفظيتهم لذكر رسول لم يسمعوا عنه من قبل، أو أنهم قد سمعوا عنه؛ حيث يعتبرونه أسوأ رجل فى تاريخ النصرانية لأنه اخترع مفاهيم لم يجىء بها المسيح، وهذا فى الحقيقة ما قرأه أئمة المسلمين فى كتب كبارٍ لإنتقاد الغربيين ذاتهم لتاريخ عقيدة النصرانية.

٢٧- حاذر أن تقول أن المسيح ابن الرب، فأنت بذلك تفعل شيئًا مُزعجًا يعتبرك به المسلمون « مشركًا بالله » وهذا يعنى فى اللغة العربية أسوأ الخطايا التى يمكن أن يرتكبها بشرٍ تجاه الله.

٢٨- تَبعًا لبولس الرسول فإن المسلمين جميعًا يمارسون الوثنية التى هى مكروهة عندهم لتصديقهم القرآن وأتباعهم لنبيهم محمد باعتباره رمزاً لخطيئة البشر التى ترفض كفّارة ربنا يسوع وفداءه، فاحذر أن تصفهم حسب وصف بولس (الضالين)، ولا تقول على قناعتهم بدخول الجنة إذا نفذوا شريعة قرآنهم وإنكارهم لفداء المخلص.

٢٩- المسلمون يصدقون أن الله لديه سلطة كى يُسامح أى إنسان على أخطائه، وأنهم سوف يكونون على الصواب، إذا ما نفّذوا قانونه وشريعته، بينما نحن نعتقد بأننا نكون على الصواب، إذا ما كنا نؤمن إيمانًا كاملاً بيسوع المسيح ربنا وسيدنا، وليس بفعل ما يأمر به القانون، فهل يعنى هذا أننا نرفض القانون، أو نبتعد عنه، إننا

نهتم مثل المسلمين بالقانون وبالشريعة، ولكن إيماننا بالمسيح الرب المنقذ المخلص الفادى يكفينا لأن نحقق كل الصواب الذى يريده الرب، وكل خطايانا قد بذل روحه فداء لها؛ لأن ربنا يجعل المُذنب الذى يؤمن به بريئًا من كل ذنوبه!!!

«وفيه يتضح أنهم يؤمنون بالله إلا أن إيمانهم بيسوع أعظم».

٣٠- إن إبراهيم «عليه السلام» لم يحيا حياة مستقيمة، وقد فعل أخطاء كثيرة، لكنه عند المسلمين «أبو المؤمنين» ويُعتبر مثالاً لهم، وهذا ما يجب أن نوضحه للمسلمين بشجاعة، دون أن نَنقُد القرآن الذى جعل إبراهيم أبًا للأنبياء.

٣١- يتباهى المسلمون بقدسية قرآنهم التى ترقى إليها أناجيل النصارى، فلا تحاول أن تقلل من أهمية هذه القداسة، ولكن يكفى أن تطرح عليهم سؤالاً... هل يوجد مسلم واحد على وجه الأرض يؤكد له القرآن أن زيارته لمكة لأداء فريضة الحج مقبولة عند الله أم لا.؟ بالطبع ستكون الإجابة بالنفى؛ لأن القرآن ينص على أن الجزاء عند الله يحدده بعد الموت، أما عندنا، فيكفى الإيمان بيسوع لنَضْمن أن أعمالنا كلها مقبولة. فأىَ الطريقين نختار؟

٣٢- لا يستطيع مسلم أن يقول أنْ أعرف الله، إنما دائمًا يقول (أعرف من الله) (أعلم عن الله) (أتحرك بعون الله) - فهناك حرف جر يفصل بين المسلم وربه، لأنه يظل يبحث طوال حياته عن معية الله. لكننا النصارى بإيمان الرب نَعرفُه بدون حرف جر.

٣٣- من الصواب أن تقدم وعظك بما هو مشترك بين الإسلام والنصرانيّة، فكلا الديانتين سماويتين، ونَحْنُ مثل المسلمين نحْترم قوانين السماء (يقصدون الشرائع) بإعتبارها بيانًا لإرادته، ونعتقد فى سيادته على المخلوقات وأنه قادر على كل شيء.

٣٤- إن كثيراً مما يرفضه المسلمون من عقيدتنا هو رفض آلى من العملية العقلية الإسلامية، فعليك أن تتسلح بالصبر خاصة أن ثقافتنا لا تساعدنا على منازلتهم، ووجودنا فى بلاد المسلمين لا يحقق لنا نتائج سريعة، ولا تصدمُك كثيرا الكلمات الدينية التى سوف تصل إلى أذنيك فى كل مكان تذهب إليه، لأنه لا تعنى كثيراً عندهم وهم يرددونها.

٣٥- سؤال يسأله المسلمون دائمًا: لماذا كان اختيار يسوع ليهوذا الخائن أن يكون أحد تلامذته الحواريين؟ المسلم يقول إن المسيح كان رسولاً وعلى ذلك فهو يؤمن بضرورة أن يكون لديه موهبة معرفة الغيب، ولذلك فالمسلم يصر على هذا السؤال، والحقيقة أن السؤال أكبر من ذلك بكثير؛ فهو ليس فقط - لماذا يهوذا، ولكن لماذا خلق الرب العالم لو أنه يعلم أن الإنسان سوف يخطئ؟

إن الإجابة جزء من مشكلة أكبر تقع تحت عنوان مشكلة الشر، ويجب أن لا نكون خجولين أبداً عندما نقول إن هناك أشياء معيّنة ليس لدينا الإجابة عنها، ولسنا وكلاء للدفاع عن ربنا.

٣٦- إذا وجه المسلمون إلى المُبشّر (المُنصّر) سؤالاً حول صلب المسيح، واعتبار النصارى أن ذلك كان فداء منه، فلماذا لم يذهب هو للصّلب بداية ويعفى نفسه من الإهانة واللطم والأذى وحمل الصليب والركل بالأقدام والسب؟ ولماذا كان يحاول الهروب أصلاً من القبض عليه وتقديمه إلى الصليب؟

وقد قدم التقرير فى نصائحه (اقتراحات نهائية) أنه عند الإجابة على هذا السؤال، ففى البداية يجب أن نقول إن المسيح كان بشراً وكان إلهًا، ويجب أن لا نقلل من طبيعته البشرية حينذاك، وبطرس الرسول نفسه قد وجد صعوبة فى تقبُّل عملية الصلب، وأنكر ألوهية ربنا المسيح، مع أنه كان أكبر حوارييه، وأقربهم إليه - ولذا يجب أن نكون متعاطفين مع المسلمين فى هذا السؤال، ولا بد أن نصبر عليهم حتى يتفهموا قول المسيح عندما اقترب موته (ليس ما أريد ولكن ما تريد) قالها ثلاث مرات ليظهر لنا أنه بقبول الصلب قَبِل رسالة الرب الذى هو الأب كى يصبح ممثلنا وفادينا.

وكانت تلك هى النصائح الست وثلاثين التى أوصى بها مركز التنصير الإنجيلى الإرساليات التبشرية العاملة فى تنصير الجزائريين، وقد انتشرت على أرض الجزائر فى كل شوارعها، وحاراتها، وأزقتها، خاصة بعد الهزيمة النفسية القاسية التى باغتت الصحوة الإسلامية بعد هزيمة التحالف الإسلامى فى الإنتخابات البرلمانية العامة، منذ سنوات قليلة التى كادت أن تقفز بالمسلمين إلى رأس الحكم لولا عمليات التزوير المفضوحة التى مارستها الحكومات العلمانية فى الجزائر استجابة للضغوط الخارجية الهائلة.

وتجدر الإشارة إلى الدور الخطير الذى اضطلع به الرئيس الجزائرى السابق «أحمد بن بيلا» فى مناهضة المسلمين وقتلهم وتشريدهم، وقد وفد إلى مصر فى صيف عام ٢٠٠٣م بصفته رئيساً لأحد الأندية الماسونية فى الشرق (نادى روتارى الجزائر) وهو نادٍ ماسونى صهيونى للنخاع. ليتحدث بن بيلا فى مؤتمر عقد فى القاهرة عن السلام وضرورته كخيار استراتيجى للعالم العربى وقت أن كانت الأرض تحترق فى كل من فلسطين، والعراق، وأفغانستان، وذلك بعد أن قتل ابن بيلا الديمقراطية، والأصولية الإسلامية لينضموا هؤلاء إلى قائمة المليون شهيد، وهو إلى قائمة الكفرة الفجرة.

عـمومًا: فقـد دخل المسلمـون الجـزائريون فى دائرة العنف التى فرضـهـا النظام الحـاكم هناك منذ أن أخطأوا المسار منذ حين، وتقاتل الأصوليون المسلمون الرافضون للوجود الصليبى، ا لصامدون أمام الغارة التنصيرية الأوروبية - الأمريكية المشتركة مع الحكومة الجزائرية، ووقع المسلمون هناك بين شقّى رحا بين حكومة باتت عاجزة عن التصدى لتلك الغارة، حتى لا تخضع للعقوبات الخارجية تحت مزاعم الإضطهاد الدينى - ومحاربة الأديان فلجأت إلى إخماد الثورة الإسلامية المدافعة عن دين الله، وبين المنصرين والمتنصرين الذين بلغوا الآلاف، وتدعمهم جِهات خارجية عديدة بالأموال والأسلحة والأفراد.

وهذا هو المناخ الجيد لتكثيف عمل تلك الإرساليات، إلا أنها مع ذلك لا زالت حتى الآن تعانى من خيبة الأمل وقلة الحيلة، التى تعبر عن فساد الفهم، وخلل العقيدة، وشدة المؤامرة، على الرغم من بعض المكاسب التى حققتها تلك البعثات التبشرية على أرض الجزائر الشقيقة.

وهذه صرخة أصرخها من هذا المقام وأنا مكلَّمُ الفؤاد مكتويًا بنار الغيظ ممن ينعتون الأصوليين هناك بالإرهابيين - وهم يمارسون جهادًا مشروعًا، أطلقوا عليه كما قال الأعداء إرهابًا إسلاميًا، أو بالمعنى الأدق « التطرف ».

وإلى الله تعالى ألجأ تضرعًا أن تستعيد الجزائر الجريحة عافِيتها، وتُضْمِدُ بزاد الشريعة جراحها.

* * *

(جـ) تنصير الجزيرة العربية

اتجه النشاط التنصيرى نحو شبه الجزيرة العربية بجهد حثيث استطاع خلاله أن يصل بأذرعه الطويلة من أقصى الجنوب الغربى عند اليمن إلى أقصى الشمال الشرقى فى بلاد العراق، ثم امتد منها ناحية الجنوب صوب الخليج العربى فى كل من [الكويت - ودبى، والبحرين]، وقد أخذ يرمى شباكه التنصيرية للإيقاع بالضحايا من أهل هذه البلاد، ثم الزحف نحو السعودية.

وقد تركزت مجهوداتهم عند مدخل البحر الأحمر فى المنطقة المواجهة لقلعتهم المسيحية فى إفريقيا (إثيوبيا)، وكان اليمن هى المحطة الأولى فى هذه المنطقة. حيث قصدتها الارساليات التبشيرية مبكرًا لمواتاة الظروف للقيام بمهام التبشير والتنصير هناك ساعدهم على ذلك أنه بالفعل يوجد على أرض اليمن كما هو الحال فى جنوب العراق - فقراء ومرضى يستبدلون الإسلام بالخبز والدواء، فى ظل حكومات أدمنت الصمت.

وفي أعقاب ١١/٩/٢٠٠٠م في الولايات المتحدة - جاء مقتل ثلاثة من الأطباء الأمريكيين في مدينة « جَبَلَة » اليمنيّة على يد من وصفته وسائل الإعلام بـ« متشدد إسلامي » ليضيف بعداً جديداً في حلقات الصراع المحتدمة ما بين الولايات المتحدة، والحركات الجهادية الإسلامية المصنفة أمريكيًا في خانة الإرهاب، حيث اتهم منفّذ العملية الأطباء الأمريكيين بالقيام بالتنصير وسط صفوف الفقراء اليمنيين في جبلة، مؤكداً على أن العديد من هؤلاء ارتدوا عن الإسلام وتنصروا بفعل جهود المبشرين في « جبلة » وغيرها من المحافظات اليمنية الأخرى، وهو ما يشير إلى أن الحركات التبشيرية تخلت مؤخراً عن طابع السرّيّة الذى اتسمت به نشاطاتها في الجزيرة العربية حتى أن أحد المواقع التنصيرية على شبكة الإنترنت يعلن بصراحة أن هدفه هو كنيسة في مكة، وقُدّاس في المدينة.

وهذا هو ما أكد عليه المنصّر روبرت ماكس حين قال (لن تتوقف جهودنا وسعينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة ويقام قداس الأحد في المدينة)[١]، وأكد مُنَصِّر آخر على إحتدام صراع الحضارات وتضاد أتباع الديانات حين أكد على أنهم بدأوا في قطف ثمار ما زرعوا في إفريقيا، وأن أرض الحجاز هي الهدف التالي المباشر في مخططهم الرامي إلى تنصير المسلمين. بقوله (لقد هان الأمر في إفريقيا فقد انتشر فيها الزنا وشرب الخمور والآن يجب التركيز على الجزيرة العربية[٢].

ويشير المراقبون إلى أن مدينة « عدن » في جنوب اليمن شهدت في الأول من يناير عدة تفجيرات استهدفت أحدها كنيسة المسيح في حي « التواهي »، والتي تعد أقدم الكنائس في اليمن، آنذاك رأت بعض المتابعات الإعلامية في هذا التفجير رسالة إلى بعض المبشرين الأمريكيين الذين توسع نشاطهم من خلال الخدمات الإجتماعية والصحية التي تقدمُها الكنيسة لفقراء عدن، وما تردد عن ارتداد بعضهم عن الإسلام وتحولهم إلى المسيحية.

ولمدينة جبلة التابعة لمحافظة « إب » جنوب العاصمة تاريخ طويل مع نشاط المنظمات التبشيرية، والتي تتمثل في البعثة المعمدانية الجنوبية، وهي هيئة تنصيرية أمريكية تدير مشروعات صحية وخدمية في (١٨٤) دولة، وتشير بعض التقارير إلى أن أفراد البعثة في جبلة استطاعوا خلال سنوات عملهم التي بدأت عام ١٩٦٧ تنصير

---

(١) تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان ص٨.

(٢) المصدر ذاته.

(١٢٠) يمنى من الأيتام، والفقراء، والمرضى المترددين على المستشفى، وفى عام ١٩٩٢ شهدت جبلة حادثة هزت المجتمع اليمنى بأكمله حيث قام مواطنان يمنيان بتمزيق القرآن الكريم، ورميه فى حمامات « مسجد الأشرفية »، وبعد التحقيق معهما اعترفا أمام المحاكم بأنهما ارتدّا عن الإسلام ودخلوا فى المسيحية، من خلال شخص ثالث، وعند استدعاء الأخير أقر باعتناق المسيحية نتيجة قراءته واضطلاعه على الكتاب المقدس – الإنجيل.

وفى محاولة للتصدى لهذه الأنشطة التنصيرية أصدر مركز الدراسات الشرعية فى – إب – عدة دراسات ونشرات للتحذير من نشاط البعثة، كما أن العاملين بالمستشفى تلقوا تهديدات عدة لوقف نشاطهم التنصيرى، وهو ما رصده تقرير الخارجية الأمريكية الخاص بحقوق الإنسان الصادر فى فبراير ٢٠٠١م.

ومن العجيب أن يعلن الرئيس اليمنى على عبدالله صالح عن وقوف صنعاء مع واشنطن فى خندق واحد ضد الإرهاب واستئصال شأفته.

لقد رصد تقرير الخارجية الأمريكية الخاص بحقوق الإنسان تهديد الجماعات الإسلامية للمنصرين، واعتبرهم متشددين إسلاميين يُرهبون الناس ويُجبرونهم على الإعتقاد بعقيدة بعينها ومن ثم فإنهم يمارسون عمليات الإضطهاد الدينى الجماعى، وهو سلوك يتنافى تمامًا مع ما يَدْعُون إليه ويجأرون به من شعاراتهم البراقة الزائفة (حرية أو هى ـ حوار الأديان) التى لا تهدف إلا لتنصير المسلمين دون غيرهم من بنى البشر، وهو أمر يستوجب بالضرورة تدخل الأنظمة والحكومات المحلية فى الدول الإسلامية على قمع وقهر من أسموهم بالمتشددين الإسلاميين، وهو التعبير المهذب الذى لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما أسموهم بالجماعات الإرهابية، وسرعان ما ارتبط الإرهاب بالإسلام فثارت ضجة إعلامية هائلة عما قيل عنه « الإرهاب الإسلامى » وهو الأداة التى استخدمها غلاة اليمين المسيحى المتشدد فى الولايات المتحدة لإحراق كابول واحتلالها ونسف بغداد واحتلالها، وتقسيم السودان وحصار ليبيا، كما يؤكد على هذا رفع العصا الأمريكية الغليظة لمكافحة الخَطر الإسلامى فى وجه كل من سوريا، وإيران، والسعودية والبقية تأتى تباعًا!!!

والأشد عجبًا هو ما نراه من سلوك بعض الحكومات العربية فى السير على الوتيرة الإعلامية الغربية التى لا تخدم سوى أعداء الأمة والمتربصين بها – عن طريق مناهضة الإسلاميين وحظر أنشطتهم والزج بهم فى زنزانات الحبس لتهم لا يعلمون عنها ولجرائم لم يسمعوا بها ولم يكن ذلك أبدًا خطا سياسيًا صحيحًا لأنه يقوض

فرص تحسين العلاقة بين الحاكم والمحكوم وهو كذلك - يخدم المصالح الأجنبية فقط ويُصعّد موجات العداء فى الداخل الإسلامى المهلهل عمومًا، وخاصة بعد أن نفّذت الولايات المتحدة عملية اغتيال الحارثى ورفاقه على أرض اليمن بعد أن نسبت إليهم تهمة تفْجير المدمرة الأمريكية كول أثناء زيارتها للموانى اليمنية.

لذلك فقد بادرت الحكومة اليمنية وبسرعة لتأييد الإدارة الأمريكية فى الحرب التى أعلنتها على ما قالت بأنه الإرهاب، وقد بدا ذلك واضحًا عندما صرح المتحدث باسم البيت الأبيض آرى فلايشر فى أعقاب زيارة الرئيس اليمنى لواشنطن فى نوفمبر ٢٠٠١م عن رغبة «على عبدالله صالح» الشديدة فى أن يكون شريكًا قويًا وحميمًا للولايات المتحدة فى حربها على الإرهاب.

وقد حصل اليمن كمكافأة على ذلك على مبلغ (١٣٠) مليون دولار مساعدات مالية تصرف حسب التعليمات الأمريكية على تنمية المناطق اليمنية الفقيرة، وعلى محاربة الإرهاب[١] - أى إشعال فتيل الحرب الأهلية بين الجيش اليمنى المدافع عن مقعد الرئيس بحكم الدستور، وبين القبائل والعشائر التى ينتمى إليها أعضاء تنظيم القاعدة وما يسمونهم بالمتشددين الإسلاميين وفى طليعتهم الحارثى ورفاقه.

كما تشير التقارير إلى أن أول عمل تبشيرى منظم فى اليمن بدأ عند خمسينات القرن الماضى، وتركز أساسًا فى عدن ومحافظات اليمن الجنوبى «فى ذلك الوقت» واستمر حتى عام ١٩٧٢م، وقد أمتد النشاط التبشيرى إلى شمال اليمن عام (٦٩ : ١٩٨١) ومارسته منظمة تنصيرية اسمها فريق البحر الأحمر الدولى - كما أطلق على هذه المنظمة اسم «الخيَّامُون» حيث كان أفرادها يقدمون الخدمات الصحية، والإجتماعية للمدن والقرى التى ينزلون بها، وكانت المؤسسة ترفع شعار (الإسلام يجب أن يسمعنا) مشيرة إلى أن هدفها نشر إنجيل الرب عيسى بين المسلمين ، وذلك ضمن نطاق عملها الذى يضم كلا من (مالى، وجيبوتى، وباكستان، واليمن، وتنزانيا).

---

(١) الأحداث كاملة في وحيد القرن ورياح التغيير - للكاتب.

ويشير المراقبون إلى أن واجهات التنصير في اليمن تتنوع ما بين دينية واجتماعية وصحية وتعليمية، وفيما يتعلق بالكنائس المسيحية في اليمن، فإن أشهرها الكنيسة الكاثوليكية بمنطقة «التواهي» وهي أهم موقع مسيحي في اليمن وربما في شبه الجزيرة العربية بأكملها، وتتبع المجمّع الكنسي الكاثوليكي في قبرص ولكنها تدار حاليًا من جانب الكنيسة الإنجليكانيّة في دُبيَ بالإمارات، وقد بذلت السفارة الأمريكية في اليمن جهودًا حثيثة لإعادة افتتاح تلك الكنيسة عام ١٩٩٥م ويوجد بالكنيسة مركز طبي يُقدم خدمات لأبناء القرى المحيطة.

وقد نجحت بعض جماعات التنصير الإنجيلية في إقامة كنيسة في العاصمة صنعاء داخل إحدى المجمعات السكنية، وكانت هناك كنيسة معمدانية في مدينة «كرينز» بعدن تدار بواسطة الكنيسة الإنجليكانية في لندن لكنها أُغلقت بسبب إهمال أعضاء البعثة، وتقصيرهم، كما توجد كنيسة ملحقة بالمستشفى المعمدانية في جبلة.

وفيما يتعلق بالواجهة الصحية هناك المركز السويدي في مدينة «تعز»، وجمعية «من طفل إلى آخر» والتي يتركز نشاطها بين الأطفال المصابين بالعمى والخرس، وتدير المنظمات التبشيرية مركزًا صحيًا ودارًا للعجزة في صنعاء، ومن جانبها تنشط منظمة «ماري ستوبس» في مجال رعاية الأمومة والطفولة، وتدعم مشاريع تنظيم النسل.

وتلك هي المداخل الرئيسية لجماعات التبشير التي تجول وتصول في العالم الإسلامي كله وعلى إطلاقه ومن دون استثناء وتتخذ من خدماتها سابقة الذكر وسيلة جيدة للتأثير على المسلمين الذين طحنهم الفقر والجوع والمرض في هذا الزمان الذي ضاقت فيه الأرزاق وحدثت فيه فجوة هائلة بين الدخل والإنفاق، وهي المشكلة التي باتت تؤرق كل البيوت وتثقل كواهل كل الشعوب.

وفي صنعاء تملك جمعية «رسالات المحبة» والتي كانت ترتبط مباشرة بالمبشرة الشهيرة الأم تريزا - مركزًا للمصابين بالجذام والأمراض العقلية تضم (٤٠٠) مريضًا، كما تشرف الجمعية على دارين للعجزة في صنعاء.

وتشكل مخيمات اللاجئين الصوماليين في محافظة «أبين» بيئة خصبة لنشاطات التنصير، وتحدثت تقارير صحفية عن العديد من حالات التنصير في صفوف هؤلاء اللاجئين، ومن الجدير بالذكر أن الحديث عن المؤسسات التنصيرية ليس

له علاقة باليمنيين المسيحيين الذين لا يزيدون عن عدة مئات وهم من جذور هندية، وهم يتمتعون بحرية تامة فى ممارسة شعائرهم وطقوسهم الدينيّة بحكم الدستور والقانون، ولا يمارس المسيحيون اليمنيون أى نشاط تبشيرى، فهذا ممنوع عليهم بحكم القانون، حيث تنص المادة الأولى من الدستور اليمنى على أن الجمهورية اليمنية دولة عربية إسلامية مستقلة ذات سيادة، وأن اللغة العربية لغتها الرسمية، كما تشير المادة الثانية إلى أن الإسلام دين الدولة، فيما تنص المادة الثالثة على أن الشريعة الإسلامية هى مصدر جميع التشريعات.

وامتد النشاط التبشيرى إلى المناطق التى يمثل فيها الشيعة أغلبية سكانية فى المنطقة الشرقية من المملكة السعودية وجزء كبير من منطقة مجلس التعاون الخليجى بالإضافة إلى جنوب العراق بحيث تظهر القلعة الإسلامية (مكة المكرمة) وكأنها تقع الآن بين طرفى كماشة تنصيرية باتت مهيأة تماماً للإنقباض على المناطق البينية – وهم يستعدون لذلك أيّما استعداد.

وسوف نورد كثيراً من هذه القضايا الشائكة ضمن كتابنا القادم / أغوار العالم الإسلامى – أعاننا الله على إخراجه – آمين.

* * *

(د) الإعتراف العلنى

تزعم غلاة اليمين المسيحى حملة شريرة شرسة تستهدف التطاول على الإسلامى وعلى النبى (محمد صلى الله عليه وسلم) يقودُ تلك الحملة ثلاثة من المتطرفين المسيحيين هم (جيرى فولويل – فرانكلين جراهام – جيرى فاينز) يدعمهم فيها اللوبى الصهيونى من خلال ترويجه عبر وسائل الإعلام الأمريكية التى تبذل جُهداً مُضنياً فى سبيل ذيوع تلك المزاعم الآثمة لأولئك الغلاة المتطرفين – فقد تفوه القسيس (جيرى فاينز) بالإثم حين افترى على الرسول ﷺ، واتهمه بأنه (شاذ يميل للأطفال ويتملكه الشيطان).... وفى حديثه فى المؤتمر الشهير لكنيسة المعمدانية الجنوبية فى (سانت لويس) فى يونيو ٢٠٠٢ مضى يقول «إن الله الذى يؤمن به المسلمون ليس الرب الذى يؤمن به المسيحيون، لأن الرب الذى يؤمن به المسيحيون لا

يقوم بتحويلك إلى إرهابى يحاول تفجير الناس، وأخذ أرواح مؤلفة من البشر».

أما القسيس فرانكلين جراهام فقد وصم الإسلام على أنه دين الشر، وأن الإرهاب يمثل التيار العام فى الإسلام، وأصدر جراهام كتابًا مسيئًا للإسلام يحمل عنوان (الإسم) - قال فيه ضد الإسلام والرسول، وتطاول - فقال: أن الإسلام تم تأسيسه بواسطة مجرد فرد بشرى مقاتل يسمى (محمد) وفى تعاليمه ترى تكتيك نشر الإسلام من خلال التوسع العسكرى، ومن خلال العنف إذا كان ضروريًا، ومن الواضح أن هدف الإسلام النهائى هو السيطرة على العالم، وقال - إن الإسلام على عكس المسيحية يحتوى ضمن تعاليمه الأساسية على عدم تسامح عميق مع من يتبعون ديانات أخرى، وفى طعن صريح فى القرآن قال «يحتوى القرآن على قصص أخذت وحرفت عن العهدين القديم والجديد»، وأضاف أن الإختلاف (رقم ١) بين الإسلام والمسيحية أنه «إله الإسلام ليس إله الديانة المسيحية«، وأن الإسلام يعتمد على القوة والتخويف، وغزا بلادًا كاملة لإدخال أهلها فى الإسلام.

هذا وقد دعا اثنان من محررى مجلة (ناشينوال ريفيو) على موقع المجلة فى شبكة الإنترنت فى مارس ٢٠٠٢م إلى ضرب مكة بالقنبلة النووية[١].

تأتى تلك التصريحات وهذه الإعترافات العلنية فى الوقت الذى يسعى فيه الفاتيكان إلى إبرام اتفاقيات مع حكومات الدول الإسلامية، وقد تمكن بالفعل من توقيع اتفاقية غير مسبوقة مع الحكومة التركية ترمى إلى حماية حرية الأديان[٢] والمعتقدات فى إطار ما يسمى تطوير الحوار بين المسيحيين والمسلمين لنشر الثقافة الجديدة التى تمهد الطريق وتفتح الأبواب أمام دعاويهم الزائفة لما يسمى بحرية الأديان والمعتقدات ومحاربة التعصب لتمهيد الطرقات أمام إرساليات التبشير الوافدة، تم توقيع الإتفاق فى الجمعة ٢٦ / ٤ / ٢٠٠٢م، ولم يتم الإعلان عنه إلا فى يوم الاثنين ٢٩ من الشهر ذاته، وقع الإتفاق بالأحرف الأولى (الكاردينال فرانسيس أرينزى) رئيس المجلس البابوى للحوار بين الأديان، و«محمد يلماظ» من «مكتب الشئون الدينية فى تركيا».

---

(١) شبكة المعلومات الدولية (إنترنت) مواقع متعددة.

(٢) أى - ضمان أمن وسلامة إرساليات التبشير العاملة فى الدول الإسلامية.. بحسب رؤيتهم.

يدخل هذا الإتفاق فى سياق المساعى الجارية الحثيثة من أجل مدّ ما يُسَمّى (جسور الحوار) بين العالم الإسلامى والمسيحى، وهذه هى المرة الأولى التى يتم فيها توقيع اتفاق من هذا القبيل بين الفاتيكان وحكومة بلد غالبية سكانه من المسلمين كتركيا

صعوبات

كان الفاتيكان قد وقع فى وقت سابق اتفاقًا مع الجامع الأزهر الشريف فى مصر، غير أن مستشارى بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثانى يشتكون من صعوبة إقامة ارتباطات جديدة مع العالم الإسلامى بسبب غياب سلطة دينية مركزية مماثلة للبابا والنظام الدينى التَّراتُبِى كالكرادلة والأساقفة.

وقال أحد مسؤلى الفاتيكان : إنه لهذا السبب لا مانع من إبرام اتفاقيات مع السلطة الحكومية فى البلاد الإسلامية كما حصل مع تركيا(١).

عمومًا فإن الفاتيكان استطاع أن يوقع اتفاقًا مع حكومة علمانية أقامها اليهود الذين اغتالوا الخلافة الإسلامية، والتى اغترت بوعود واهية للإنضمام إلى الإتحاد الأوروبى – وهو أمر يبدو بعيد المنال – خاصة أن الحكومات التركية نَفّذت معظم الشروط التى وضعها الغرب لقبول عضويتها – فحاربت الإسلام – وعطلت أحكام الشريعة، وفرضت علمانية الحكم والنظام، وسمحت بحرية التنصير أو التهويد أو الزندقة (حرية الأديان والمعتقدات) التى فرضها عليها الغرب، ويحاولون تعميمها منذ حين وبشتى الطرق وبكافة الوسائل على معظم بلدان العالم الإسلامى. وهم نهاية يضعون أمامها العراقيل والمتاريس حتى لا تحظى بعضوية الإتحاد الأوروبى « المسيحى »، تخوفًا من أن ينهض الإسلاميون بداخلها من جديد. لأن الوجود الإسلامى التركى الجماهيرى هو وجود مكروه وغير مرغوب فى وجوده من حيث الأصل، ولو كان غير ذلك لسمحت أوروبا لدولة البوسنة والهرسك أن تكون كما كان يرغب أبناؤها – ثم إنها هى أوروبا المستمرة فى حملاتها الصليبية على الشرق منذ زمن طويل، حتى وإن تطورت وسائل تلك الحملات وإن اختلفت أدواتها فإن الهدف واحد لا يتغير بتغير الظروف أو الأوقات.

فها هى إرساليات التبشير فى إفريقيا، وقد عبرت مبكرًا إلى آسيا، واستطاعت هناك أن تستقطع جزيرة « تيمور الشرقية » وأن تنتزعها من أحضان الأم (أندونيسيا)

---

(١) بى بى سى نيوز – إنترنت فى ٣٠ / ٤ / ٢٠٠٢.

وقامت هناك على أرض هذه الجزيرة دولة صليبية فى العام قبل الماضى، وقد سارع العالم الغربى كله بالإعتراف بتلك الجزيرة دولة ذات سيادة تَتمتّع بحدود معترف بها، وما تزال بعثات التبشير فى أندونيسيا تعمل من غير كلل فى سبيل تنصير المسلمين على أراضى أكبر دولة إسلامية من حيث المساحة والسكان وقد جاءت تفجيرات بالى الشهيرة فى عام ٢٠٠٢م خير شاهد على صمود الجماعات الإسلامية الأصولية فى وجه الزحف التنصيرى الشرس على المسلمين فى بلادهم.

وقد ألقت الحكومة المركزية فى العاصمة جاكرتا القبض على الشيخ (أبو بكر بشير) القائد المناضل فى أندونيسيا. وهو رهن المحاكمة منذ وقت مضى لمحاكمته عما نُسب إليه من تهم الإرهاب «إياه».

إن صراع الحضارات تطور فى عصرنا الحاضر إلى حد السير على درب التنصير بعزم وجدية واجتهاد. وهم يستغلون تماما الأزمات الإقتصادية الطاحنة للشعوب، والإضطرابات السياسية التى يئن بها العالم الإسلامى، والتى تولدت عنها فجوات هائلة بين الحكام والمحكومين، وما ينجم عن هذه من بطالة، وفقر وجهل ومرض وتخلف، وكلها أعراض تؤكد على حدوث إصابة بالغة فى الجسد الإسلامى كله، وهى حمى الإعراض عن دين الله (إلا من رحم ربى) ولجوء قادة العالم الإسلامى من أصحاب الحضارة والفكر والإبداع والإدارة إلى البحث عن حلول لمشاكلهم المتفاقمة تارة فى الشيوعية وأخرى فى الرأسمالية، وتارة فى العلمانية وأخيرة فى النظام العالمى الجديد - أى الذوبان فى (نظام اللانظام)، وجميعها محاولات باءت بالفشل فى جميع مراحلها، ولم يحصد المسلمون من جرائها غير المزيد من السوء والمزيد من المشكلات والمزيد من الفقر.

❊ ❊ ❊

خامساً: العداوة عالمية وجهرية

● **تقـــديم:**

ما يجرى الآن على أرض الواقع هو امتداد طبيعى لحركة التاريخ التصادمى المستمر عبر عشرات القرون، كما عرضنا لذلك فى معرض الكتاب وصدره، وهو ما يكشف لنا عن أن تلك الصدامات وهذه الصراعات ما هى غير مؤشر قوى يؤكد على أن حقيقة العداوة التاريخية ليست إقليمية أو وقتية، إنما يبرهن بقوة على عالميتها وتعدد أطرافها، وتاريخها الشمولى الطويل الذى تنطق الشواهد على أنه زاخر بالهواجس والكوابيس التى أقضت مضاجع العالم الصليبى - الصهيونى الذى سقط بسقوط بيزنطة، ودخول الفتح الإسلامى إلى القسطنطينية، وتقدمه غربا حتى

النمسا- وقد تأكد سقوط هذا العالم بدخول «طارق بن زياد» الأندلس، وبتوغل قوات الفتح الإسلامى بعده فى أواسط أوروبا، ثم دخلت هذه القوات إلى الحرم الغربى ليصل إلى الأراضى الفرنسية.

إن العداوة للإسلام دينًا وأتباعًا هى عداوة عالمية وشاملة، كَشّرت عن أنيابها، ونوعت من أدواتها، وقد تباينت فى نتائجها، وذلك لأنها عبرت الجغرافيا، وسبقت التاريخ، فهى بالتالى لا تعرف حدودًا سياسية أو مكانية، أو مواقيت زمنية أو ضوابط بيئية.

فورثة الإمبراطورية البيزنطية لهم مقر فى النمسا، صاحبة أكبر موروث تاريخى فى إبادة مسلمى الشيشان بالإشتراك مع المجر، أما هؤلاء الورثة الذين يحاولون النهوض بها بهمة ونشاط هم (روسيا - صربيا - بلغاريا - الجبل الأسود - اليونان).

وعلى الجانب الغربى من أوروبا يوجد ورثة الإمبراطورية الرومانية القديمة (أسبانيا - فرنسا - إيطاليا - أمريكا - الفاتيكان) وهم النموذج الكاثوليكى، بالإضافة إلى طرف ثالث لا يغيب، ولم يشأ أن يغيب عن إحدى حلقات المسلسل التصادمى منذ قدموا الشاة المسمومة للرسول ﷺ، وحتى اشتراكهم كمرتزقة فى غزو العراق، وشروعهم فى تطبيق النموذج الفلسطينى على أرضه، هذا غير سعيهم الدؤوب نحو إقامة علاقات دبلوماسية حتى كانت مع مصر والأردن والمغرب وموريتانيا، بينما أصبحت لهم مكاتب سياسية فى البحرين وسلطنة عمان، أما قطر فإنها سبقت الجميع فى السعى نحو تطبيع علاقاتها مع الإسرائيليين بشكل عام.

وعلى الرغم من مثلث العداء الدموى التاريخى الكائن بين اليهود والرومان من جانب، والبيزنطيين واليهود من جانب، فهناك العداء الكاثوليكى والأرثوذكسى من جهة أخرى فى مواجهة اليهود.

إلا أن هذا المثلث المتساوى الأضلاع العدائية تمكن من توحيد اهتماماته لتلبية مطالبهم المسلحة وإشباع نزواتهم الجامحة فى تطهير الساحة من عدوهم المشترك: «الإسلام»، فذابت لأجل ذلك الخلافات، وتناسقت الأدوات، وأضحى الثلاثة أضلاع يشكلون ضلعًا واحدًا مستقيمًا ينتهى برأس مدببة تندفع بسرعة نحو الجسد الإسلامى الهزيل، الذى لا يقيم صلبه غَيْرَ المحاولات الجادة لإعادة بناء هيكله ذاته، إنطلاقًا من اللبنة الأولى للمجتمع (الأسرة)، وإنتهاء بالقيادات العصرية المثقفة الواعية المدركة للأحداث، المتعاملة مع التداعيات، لأن كثيرًا من قادة العالم الإسلامى المتحلل قد اعتزلوا السياسة الدولية بشكل عام، واشتغلوا بقهر شعوبهم، والتسلط عليهم،

وتضليلهم، وصفحات التاريخ خير شاهد على ذلك - كما تحتاج هذه المحاولات إلى انتفاضة حقيقية للتمرد على الواقع المزرى، فالدول الإسلامية بعضها مُحتلٍ إحتلالها عسكريًا سافرًا، وبعض قهرته الديون، وأخريات تتسول وقد تخلفت كثيراً، وغيرهم دول غابت بلا مقدرة أو إرادة، أما الطامة الكبرى فهى أن الكل يعادى بعضه بعضًا، ويتقاتلون فيما بينهم قِتَالاً شرسًا مريراً إنابة عن أعدائهم.

كأس البدع الممزوجة

إن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وما أقبح تلك البدعة المسماة بالأصولية أى (الإرهاب بعينه)، وهى تهمة كبيرة تستوجب الرمى بالرصاص، أو النفى من الأرض.

هذه هى الأصولية التى عقد اليهود العزم على محاربتها لأجل التخلص من صُداعها، إنها صنيعة يهودية خالصة تهدف إلى تقويض كل ما هو إسلامى والإجهاز عليه، وقد شهدت إسرائيلِ نَبتها الأول فلما ابتلعها العالم تمكنت من حث جيرانها العرب على محاربتها أيضًا، وقد استحدثوا لها مرادفًا كبيراً ووهمًا عظيمًا أسموه « الإرهاب »، وقد صنعُوه هم على أعيننا ثم قاموا بتصديره إلى بلاد كثيرة من بلاد العالم.

والثابت أنهم هم أنفسهم أمهر الصناع فى صياغة الإرهاب أسلوبًا وأدوات وهم كما يشهد التاريخ أكبر وأعظم إرهابىّ العالم والتاريخ.

لقد ربطوا رباطًا وثيقًا بين الإرهاب والإسلام، وروجوا لهذا ترويجًا هائلاً بفضل ما ملكت أيديهم من وسائل وأدوات إعلامية تبث سمومهم من خلال التغطية الإعلامية إلى كل شبر على كوكب الأرض - فى تصديق كامل لما أخبرنا به القرآن الكريم حين قوله تعالى: ﴿ **وجعلناكم أكثر نفيرا** ﴾، وقد ابتلع العالم الطعم فربطت دُوَلُهُ بين الإرهاب والإسلام حتى بات كل متدين إرهابيًا حتى يثبت غير ذلك إن استطاع، بينما لا يوجد إرهابى حقيقى إلا وقد تخرج فى مدارسهم العقائدية الفاسدة التى لا تُدرِّس غير الحقد ولا تقدم غير السم الذى يجعل على الأبصار غشاوة تطمس الهويات بجهالتها، وتلصق بالأبرياء الإتهامات بادعاءاتها، إلى الحد الذى يبلغ التطاول على الله جل وعلا.

فتلك إذًا مقولة خاسرة تفوهت بها رئيسة الوزراء الإسرائيلية (جولدا مائير) عندما كانت تُطّيب خاطر الصهاينة « شعبها » وهى تضمد جراحهم بعد أن أذلتهم العبقرية المصرية فى حرب العاشر من رمضان ٦ / ١٠ / ٧٣م فخاطبتهم قائلة (إن الله لم يختار الشعب اليهودى - إنما الشعب اليهودى هو الذى اختار الله).

واسترْجِع ما قال موشى ديان وزير الدفاع الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة فى اليوم الثالث من سقوط القدس بأيدى اليهود عند الإعتداء المفاجئ على الأراضى العربية فى ١٩٦٧م حيث قال: «اليوم أصبح الطريق إلى يثرب مفتوحا وإن لنا فيها لحقوق» وهو ما يبين تهديداً علنيا وإرهابا مفضوحا بتوسيع دائرة الحرب واستمرار التوسع فى الاستيلاء على الأراضى العربية ولكن هذه المرة – إلى حيث مأوى الرسول ﷺ فى المدينة المنورة (إنه الإرهاب بعينه) الذى جعل «ديّان» يتحدث بهذه الطريقة وكأن أراضينا بلا أصحاب، ليضمّها قهراً وقسراً إلى أرض المعاد – إلى الوطن القومى لليهود المزمع إقامته من النيل إلى الفرات.

إنه الإرهاب الموثق الذى يحمل توقيع اليهود والغرب الصليبى، وهو الكلام الذى لا يجب الدفاع عنه بأى صورة وتحت أى ضغط أو تأثراً بأية ظروف. بل يجب فضحه ورفضه وتعريته.

وهذا زعيم الليكود – رئيس الحكومة الإسرائيلية أثناء مفاوضات السلام، الذى أدار بحنكة بالغة عملية معهادة الصلح المنفرد مع مصر فى ١٩٧٩.م بمساعى أمريكية، وبإشراف أمريكى، وبمباركة أمريكية، وفى منتجع سياحى أمريكى هو «كامب ديفيد»، وقد جاء هذا الصهيونى إلى مصر فى زيارة هى الأولى من نوعها وقد قال من أنفه الشامخ المتعالى: «إن اليهود هم الذين بنوا الأهرام» وكانت هذه الجملة بمثابة قنبلة مدوّية أطلقها هذا الإسرائيلى ليشغل بها الساسة والمفكرين وأصحاب الرأى من أجل تخفيف الضغط الواقع على السادات آنذاك من جانب المصريين الرافضين للسلام مع إسرائيل، وقد كان ما فكر بيجين فيه واقعاً – وتم توقيع المعاهدة، وانصرف الرافضون للبحث فى مقولة بيجين حتى الآن.

وبعد أن غادر بيجين مصر فى زيارته الأولى جاءت دعوة السادات إلى دفن مومياء «رمسيس الثانى» احتراماً لقدسية الموت على حد قوله، أما الواقع فإن السادات ما طلب هذا إلا تنفيذاً لرغبة بيجين الذى أراد دفن الملك الذى طرد اليهود من مصر – وهو ذاته الفرعون المصرى الذى شاءت فيه إرادة الله أُخرى لقوله تعالى: ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً** ﴾ [يونس: ٩٢].

ومثال آخر قدمه إسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلى، ورئيس حزب العمل، والذى نعته الإعلام العربى على إطلاقه بأنه حمامة من حمائم السلام، وهو فى حقيقته صقر من الصقور الجوارح، لقد فضح رابين بنْفسه جانباً من عملية التهويد المستهدفة فى الأراضى المقدسة بإعلانه الرسمى الصريح أنه سيحارب الأصولية

الإسلامية، ونفذ فعلاً تهديده بإلقائه (٤١٥) أربعمائة وخمسة عشر من خلاصة المسلمين المجاهدين الفقهاء المتعلمين الفلسطينيين فى ثلج لبنان، من دون طعام ولا كساء ولا رحمة بعد أن طردهم من ديارهم، وجردهم من متاعهم، وصادر ممتلكاتهم، وألقى بهم فوق قمم الجبال ليقابلوا المجهول.

ومما يوجب الأسى والحسرة ما ظهر فوق الأحداث وتردد على المسامع مدويًا - وهو نَعْت الأعمال الفدائية التى تنفذها حركات الجهاد الإسلامى فى فلسطين التى ترزح تحت الاحتلال الإسرائيلى ضد قوات العدو الغاشم وما يحدث بين حين وآخر من استهدافهم لمدنيين إسرائيليين ردًا على اغتيال الإسرائيليين للفلسطينيين بالجملة وهدم منازلهم واستحياء نسائهم، وتشريدهم، وتركهم فى العراء بلا مأوى فى عز الشتاء القارس وترحيلهم خارج أراضيهم - وقد تمكنت إسرائيل من الترويج الإعلامى الهائل لهذه الأعمال الفدائية بأنها إرهاب أصولى إسلامى وقد وجد ذلك صدى إعلاميا مدويًا وقبولاً غير مسبوق إلى درجة مسايرة بعض وسائل الإعلام فى المنطقة لهذه الموجة - وهكذا حدث الربط العلنى بين الإسلام والإرهاب، ووصف الشهيد بالإرهابى، حتى أن السيد / عرفات رئيس السلطة الفلسطينية وقع فى ذات الشرك الخداعى الذى نصبه اليهود عندما أمر بسحب أسلحة الجماعات الفلسطينية المسلحة فى عام ٢٠٠٢م، وطارد المناضلين الفلسطينيين خاصة أعضاء حركتى الجهاد وحماس، ووضع من تمكن من القبض عليهم من هاتين الجماعتين فى أحد السجون الفلسطينية، وقدمهم قربانًا لليهود الذين قصفوا السجن بالصواريخ « جو أرض » من طائرات الأباتشى التى لها القدرة على التعامل مع مثل هذه الأهداف وبدقة، ومات من بداخل السجن تحت الأنقاض - أما عرفات فكان يعمل على استرضاء الإسرائيليين بإثبات حسن نيته من خلال محاربة الإرهاب بالمنظور الإسرائيلى، وكذلك كان يهدف إلى تأكيد سيطرته على قيادة السفينة الفلسطينية والإمساك بدفّتها فى أحرج اللحظات التى كانت تئن فيها الرياح المحملة بالمخاطر والمكاره على الشرق كله ليثبت أنه القائد الذى لا بديل له.

وهذا هو أول رئيس وزراء فلسطينى فى التاريخ المعاصر « محمود عباس » أبو مازن - وهو الرجل ذو الدور الهائل فى المباحثات السرية الإسرائيلية الفلسطينية - وهو كذلك الوجه المألوف والمرغوب لدى الأمريكيين والإسرائيليين كونه يعد مهندس اتفاقيات « مدريد وأوسلو » - وقد فرضه الأمريكيون والإسرائيليون على عرفات حتى كاد الصف الفلسطينى أن ينشق نظرًا لبعض الصعوبات المتعلقة بطبيعة عمله

واختصاصاته التى كان الهدف منها طبقًا للرؤية الأجنبية المشتركة هو تقليص دور عرفات وتحجيمه وسحب البساط من تحت قدميه.

وقد جاء أبو مازن على رأس أول وزارة ليعلن أن أول أهداف حكومته التى وُلدت إكراهًا هو نزع أسلحة المنظمات الفلسطينية والقضاء على الأجنحة العسكرية والحركات الجهادية - أى - القضاء على الإرهاب الإسلامى «إياه»، فازدادت حدة المقاومة وتعددت العمليات الاستشهادية فى العمق الإسرائيلى خاصة مع التصعيد الإسرائيلى الخَطير غير المسبوق . وتسارعت وتيرة العنف، والعنف المضاد - وعجز «أبو مازن» عن تنفيذ برنامجه الطموح فى القضاء على الإرهاب - فأطاحت به إسرائيل بعد أن أحدثت الإنقسام فى الداخل الفلسطينى - وضغطت إسرائيل بشدة - حتى تقدم أبو مازن باستقالته بعد شهور قليلة فى عام ٢٠٠٣م.

ظل ياسر عرفات على رأس السلطة فى الدولة المهزلة، يؤدى المهام التى عُيِّن لأجلها ومن أجلها سُمِح له بالعودة- وأخذ يجتهد فى نزع أسلحة الحركات والجماعات الفلسطينية على أمل الفوز بالرضا، والتوقيع على اتفاق سلام يضمن به مساعدات الدول المانحة، وبخاصة الأموال العربية التى سيتلقاها تحت حساب إقامة اقتصاد فلسطينى وطنى قوى، وإعادة الإعمار، وإقامة هيكل صناعى إنتاجى متكامل. . . إلخ. . وكان عرفات يتبنّى بالتمام كل النظريات الأمنية التى تُملى عليه حتى أمر بنزع أسلحة شعبه. تحت شعار مكافحة الإرهاب، وإبادة الإرهابيين.

ولم نسمع بصوت عاقل ارتفع ليحتج على هذه الأحداث الجسام المزرية والمخزية عدا صوت السيد / فاروق قدومى الذى أذاعت له إذاعة مونت كارلو «أن السلاح الفلسطينى لا يجب أن يُجمع من الشعب الفلسطينى لأنه كله سلاح مرخَّص (مشروع) للجهاد والنضال وتحرير الأرض».

وهو ما يذكرنا بموقف الوزير اللبنانى المسيحى (العربى) ميشيل سماحة عندما أكد على رفضه المطلق وصف المقاومة الإسلامية فى جنوب لبنان بالإرهاب فى حديث له عام ١٩٩٥م.

وفى عام ٢٠٠٣م قالها صراحة الرئيس اللبنانى العماد «أميل لحود» فى وجه وزير خارجية أكبر وأقوى وأعتى دول العالم (كولين باول) وزير خارجية وحيد القرن الذى جاء إلى المنطقة فى جولة مكوكية عقب سقوط بغداد. وقد حاول الضغط على رقاب الفلسطينيين فى سوريا، والإسلاميين فى الجنوب اللبنانى- فرد عليه (لحُود) قائلاً «إن حزب الله هو حزب سياسى شرعى معترف به» واستطرد فأكد على الدور

العظيم الذى لعبه رجال الحزب فى تحرير الجنوب اللبنانى من الإحتلال الإسرائيلى الذى دام عشرين عاماً.

إن المعنى العام لكلمة إرهابى اتسع ليشمل المجاهدين المدافعين عن ديارهم وأوطانهم وأعراضهم وأموالهم وأولادهم أمام بطش الإحتلال الإسرائيلى الغاشم، إلى جانب الجماعات أو الأفراد الذين يقفون أمام إرسالات التبشير، حتى بات كل متدين إرهابياً كما ذكرنا حتى يثبت العكس إن استطاع.

أيها السادة: إن العداوة عالمية وجهرية وفاجرة، فهى تتهم الجهاد الأفغانى فى وجه الإحتلال الأمريكى بالإرهاب. بينما كانت أمريكا ذاتها هى التى تغذى هذا الجهاد الأفغانى وتموله وتقدم له كافة أشكال الدعم المادى والعسكرى حتى تمكن من طرد الإحتلال السوفيتى، وهى ذاتها العداوة التى تغض الطرف عن الإرهاب الصليبى فى البوسنة والهرسك، والإرهاب الروسى الكاثوليكى فى الشيشان، وفوق كل ذلك التزم الجميع الصمت أمام أبشع جرائم التاريخ الواقعة على مدار الساعة منذ ١٩٤٨م حتى الآن فى فلسطين، وما طرأ من جديد بسقوط العراق وما يدور على أرضه.

إن الغرب كله كما كان لا زال حريصاً على احتساء دماء المسلمين، والرقص على أشلائهم، وابتلاع ثرواتهم، وإهدار طاقاتهم - وإنه هو ذاته الغرب الذى انتفض بشدة وهبّ لإنقاذ تماثيل بوذا فى أفغانستان - التى لا تتعدى كونها تماثيل لآلهة تُعبد من دون الله - فى بعض مناطق شرق آسيا حتى الآن - بحجة أنّهَا تراث بشرى يجب الحفاظ عليه وإنقاذه وصيانته، أما البشر المسلم فى عيونهم فليس له حق الحياة كما نطقت بذلك توراتهم وشهد بها تلمودهم.

لقد كان سيناريو أحداث الإبادة الجماعية والجرائم الإنسانية التى تعرض لها المسلمون فى البوسنة والهرسك نموذجًا متكرراً ومتطابقًا مع ما فعله الأحباش ضد المسلمين فى إريتريا والصومال. فالشيوعيون قدموا الأسلحة والذخيرة والمؤن والعتاد للأحباش لإبادة الشعب المسلم فى إريتريا والصومال وامتنعت أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا تماماً عن تقديم أى دعم للصومال أو بيعها السلاح، وفيه دليل قوى على التآمر المكشوف من كل من الشيوعية والإمبريالية لإنقاذ قلعتهم المسيحية فى إفريقيا، وضمان تسيدها على دول الجوار الإسلامى لا أن تكون مجرد جزيرة مسيحية منعزلة عن دول الجوار وغير مرغوب فيها.

لقد فتح الأحباش أو قل (الأوباش) النار على المصلين فى أحد المساجد بمدينة (ريردار) بإقليم أوجادين الصومالى من رشاشاتهم روسية الصنع على المصلّين فأبادوا

منهم ألفًا دفعة واحدة[1]، ولم يتحرك ساكن في الغرب كله الذى يعيش بأخلاق الملائكة بعد أن بلغ الرشد وبلغ التنوير لديهم منتهاه.

يشهد بذلك ما حملته إلينا وكالات الأنباء عن قصة القطة والكلب اللذين اكتشف طاقم الطائرة البوينج أنهما مسجونان فى عنبر البضائع، حيث لا تكييف، وحيث بلغت درجات الحرارة أثناء الطيران فى طبقات الجو العليا ثلاث درجات تحت الصفر، فقرر الطيار الشهم قطع خط السير، والنزول فى أقرب مطار لإخراج القطة والكلب من هذه الثلاجة، واستضافتهما على كوب من اللبن فى الصالون الدافئ للدرجة الأولى حتى بلوغ نهاية الرحلة[2].

بينما فى تلك الآونة مات تحت الجليد فى سرايفو فى درجة عشرين تحت الصفر المسلمون البوسنويون المحبوسون فى ثلاجة الطبيعة الرهيبة، لا يدفئهم غير نيرَان الإنفجارات الهائلة المنبعثة من وابل القنابل والصواريخ التى تمطرها القوات الصربية فوق رؤوسهم، ولا يستشمون غير شواء اللحوم الآدمية التى شبعت بها الكلاب.

إنه الصمت الدولى الرهيب على الإرهاب الصليبى فى البوسنة وأفغانستان والعراق وعلى أعمال القهر والقمع فى استراليا والفلبين وأندونيسيا وفى الهند حتى فى البلاد التى تتشدق بأنها الأم الشرعية للحريات فى العالم وسيدتها على الإطلاق.

كما أن هناك صورة عامة رسمها الروس لأنفسهم عندما نصبوا أنفسهم مكان القائم على حراسة الجمهوريات الإسلامية فى القوقاز، وآسيا الوسطى، بل وأفرَطوا فى التكيف مع معتقداتهم حتى اعتبار تلك المناطق الإسلامية مناطق تابعة لهم كى يضمنوا أن لا تقوم فيها أى أنظمة حكم إسلامية تتمتع بالإرادة الحرة والسيادة المطلقة، وتكمن وراء هذا المخطط كل الأحقاد الصليبية والروسية القديمة ضد الإسلام.

لقد استعادت روسيا هويتها البيزنطية الكاثوليكية بعد رحيل الحكم الشيوعى الذى سقط فى كل مكان، إلا أنه لا يزال يسيطر على تلك البلاد الإسلامية القابعة تحت الحكم الروسى، ويفرضون عليهم قسراً وقهراً من يصادقون من شعوب العالم الإسلامى – حتى لا تنتشر بينهم حُمّى الإسلام والإرهاب المزعوم، من ذلك مثلاً أنهم سمحوا لهذه الشعوب أن يصادقوا الأتراك التى يحكمها العلمانيون الملحدون.

والحقيقة أن الغرب والروس والحكام المحليين لتلك الدول المنكوبة، قد خافوا جميعًا من المد الإسلامى المتنامى فى تركيا نفسها، وزاد تخوفهم من تشكيل محور

---

(١) مجلة الاعتصام المصرية ١٩٧٧.

(٢) الطريق إلى جهنم ص٣٧.

تركى إسلامى يمتد من الأناضول حتى حدود الصين بما قد يُعيد للأذهان أمجاد العصر العثمانى والخلافة الإسلامية.

وقد اجتهد الغرب المتحمس لقيام الإمبراطوريتين البيزنطية والرومانية للحصول على الخبرات اللازمة والنصائح الهامة للقضاء المبكر على أى نحو للحركات الإسلامية، والإبقاء على ثبات التيارات الإسلامية فى ثباتها العميق والنوم الهانئ، وانتهى بهم المطاف إلى الإستعانة بالحكم الإندونيسى العلمانى الذى زار وفدٌ منه هذه الجمهوريات الإسلامية فى إبريل عام ١٩٩٥م وسط أجواء من التفاؤل المسهب، وهالة كبيرة من التهليل والترحيب، والتعبيرات التى أطلقتها الصحافة الغربية بأن أندونيسيا دولة مهمة بالنسبة لنا (أى للغرب) وذلك كله على أمل أن تقدم أندونيسيا خبراتها العديدة فى مجال إبعاد الإسلام عن السياسة.

وفى الوقت ذاته وفى تلك الآونة تفجرت مخاوف عديدة فى الغرب كله عبر عنها بوضوح الإعلام الغربى كرد فعل طبيعيٍ لتنامي الحركات الأصولية الإسلامية فى الداخل الإندونيسى إلى درجة اتخاذها طابعاً سياسياً قوياً بات يزعج الغرب بتطوراته المتلاحقة، على الرغم من أن النظام والجيش الحاكم فى أندونيسيا يتطابق تماماً مع ما عليه الحال فى تركيا الإسلامية الديانة - علمانية النظام وبهذا يظهر الغرب وهو يعانى من حقيقة تؤلمه، ألا وهى أنه لا يوجد صديق إسلامى يمكن الإطمئنان إليه أو معه فى هذه البلاد.

فاتجَّهت حكومات تلك الدول الإسلامية المستكينة المقهورة، بل والقيادات السياسية فيها إلى إقامة علاقات تجارية وأمنية وسياسية. وتطوير التعاون العسكرى مع إسرائيل مثل (تركيا، وأندونيسيا ودول البطن الضعيف للروس) وذلك فى غياب كامل لسبع وأربعين دولة إسلامية وقفت مكتفية بالفرجة، عاجزة عن تقديم فعل، أو القيام برد فعل.

وقد نجحت اسرائيل بفصل المسلمين عن دينهم بالمال والنساء مستغلين فى ذلك حالات الفقر المدقع للشعوب الإسلامية التى تنهب خيراتها الأنظمة العلمانية - كما تعمدت إسرائيل بمباركة الغرب ودعمه تشويه عقيدة المسلمين هناك - حتى بدت تلك الجمهوريات الإسلامية التى قدمت للعالم خيرة العلماء والفقهاء على نحو ما ذكرنا آنفاً وهى الآن تعد من أكثر المناطق التى تروج فيها إرساليات التبشير للدعايات التبشيرية، وأضحت وهى من أهم مناطق النمو المتزايد لأنشطة ونفوذ الكنائس، وإرساليات التبشير النشطة.

وفى الباكستان حيث زارها فى أوائل إبريل ١٩٩٥م الرئيس الألمانى (ردمان هيرزوج) وهو رئيس الدولة التى جعلها الحلفاء خصماً سياسياً، وهى تحاول الصعود من جديد، والدخول إلى مسرح السياسة العالمية والمشاركة فى الساحة الدولية عن طريق الدخول من باب العداء العالمى للإسلام.

وقد أبرزت وسائل الإعلام الألمانية تصريحات « هيرزوج » التى أدلى بها خلال مقابلته مع كبار المسئولين الباكستانيين، وقد أذاعت صوت ألمانيا فى السابع من إبريل ٩٥ م تلك الطروحات الألمانية التى حددها الضيْف فى نقاط أساسية من أهمها:

١ - المطالبة بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية.

٢ - إلغاء العقوبة الجنائية الواجبة على إعلان الكفر والزندقة - أى - إطلاق حرية الأديان وعدم مناهضة ما يترتب عليها من آثار خاصة تلك التى تتعلق بعمليات إرساليات التبشير المسيحى على الأراضى الباكستانية وعدم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على المرتدين عن الدين الإسلامى سواء فى ذلك المتنصرين أو المتحولين إلى عقائد أخرى.

٣ - تحجيم التيارات الإسلامية[١] - أسوة بما هو متبع فى كبريات الدول الإسلامية.

والغريب أن القيادات الباكستانية لم تكتف بمجرد السماع إلى الضَيْف المُبشِّر فحسب. بل أبدت تفهماً لمطالبه.

وقد حاول قائد الإنقلاب الجديد الجنرال (برويزمشرف) الذى تمكن من الإطاحة برئيس الوزراء الباكستانى ا لسابق (نواز شريف) - حاول الإتجاه بالبلاد صوب العلمانيّة لأنه كان يرى فى النموذج التركى مثله الأعلى، غير أنه وجد معارضة داخلية كبيرة كادت تجعل الباكستان على شفا حرب داخلية طرفيها النظام بما يملك من جيش وشرطة فى وجه المواطنين والمنضمين إليهم من المتمردين على أصحاب الدعوة الجديدة وعلى انصارها، رجال الجيش والشرطة.

وبعد تراجعه عن أفكاره العلمانية اتجه إلى الولايات المتحدة وصار نموذجاً متطابقاً مع ما كان من نظيره اليمنى على عبدالله صالح[٢].

ولعلنا لا نكون قد نسينا ما عانى وما قاسى الرعيل الأول الذى ناضل كثيراً من أجل قيام باكستان المسلمة ذات الطابع الخاص والنموذج الفريد.

---

(١) المختار الإسلامى العدد ١٤٩ لسنة ١٦ فى ١٣/٦/٩٩٥م.

(٢) التفاصيل كاملة فى كتابنا - المؤامرة الكبرى.

إن العداوة العالمية لدين الله آخذةٌ فى التطور والتّنوُّع للتطاول على دين الله وعلى أتباعه ممن كانت (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تحدد مسارحياتهم قولاً وعملاً، وما هذه العداوة المتصاعدة إلا ترجمة للحقد المرير الذى يملأ صدر الغرب إلى درجة إصابة عقولهم بالخَبل والجنون، بعد شعورهم بالخوف الرهيب من الإسلام إلى أبعد حد ممكن فى تشكيل التركيبة النفسية الأوروبية.

ذلك لأن الإسلام لا زال كما كان يُشكل أسس العقيدة الأكثر فاعلية فى الرأى العام الإسلامى كله، كما أنه يشكل اللون الأساسى لأتباعه على إطلاقهم، بينما تزداد فاعليته كلما كانت أنظمة الحكم أكثر شعبية – أى – قائمة على أساس إعطاء الحرية للشعوب.

وقد عبر المستشرق الإنجليزى الصهيونى الشهير (برنارد لويس) فى دراسة نشرها عام ١٩٧٦م تحت عنوان (عودة الإسلام) : «إن الإسلام قوى جدًا إلا أنه لا يزال قوة غير موجهة فى ميدان السياسة الداخلية، وهو يبرز كعامل أساسى محتمل فى السياسة الدولية، وقد جرت محاولات كثيرة فى سبيل سياسة تضامن إسلامى أو جامعة إسلامية للدول الإسلامية إلا أنها أخفقت كلها فى تحقيق تقدم نحو إقامة هذا التضامن، وإن أحد الأسباب المهمة هو عجز الذين قاموا بهذه المحاولات فى إقناع الشعوب الإسلامية بما يريدون»[١].

أى أن هذا الصهيونى البريطانى الجنسية يعبِّر عن قناعته الشديدة بأن الإسلام فى طريقه إلى العودة للهيمنة على العالم، ولذلك أراد أن ينبه الغرب بالإنتباه والحذر، وكأن لسان حاله يقول: «إن المسلمين ينتبهون من غفوتهم ويكادون أن ينهضوا من ثباتهم – فدمِّرُوهم، واقتُلُوهم قبل أن يُحطِّمُوا قُيودَهم والأغْلال التى كانت عليهم ويهبوا من رقدتهم – وإذا انتفضوا فلن يقف فى وجههم شىء».

إن هذه العداوة العالمية التاريخية التى تولدت عن هذا الصراع المتأجج بين الحضارات – لتعبرَ تعبيراً دقيقًا وحيًا عن رُعب هؤلاء من الإسلام، لأنهم يعلمون يقينا أنه هو الدين الذى يحرك الشعوب، ويبعث فيها الحركة، ويمدها بالحيوية والقوة والنشاط، كما أنه يربى فى نفوس أتباعه عقيدة الجهاد، وينكر عليهم الخلود إلى الأرض وأخذ الراحة، وهو الدين الذى تأسست عليه أعظم الحضارات الإنسانية على إطلاقها، فأصبح فيها الأعداء إخوانًا، واجتمعت تحت لوائه ألوانًا شتى، وألسنة متباينة

---

(١) قادة الغرب ص٦١.

وكونوا نسيجًا واحداً لأمة ذات هدف واحد، وقيمة واحدة، وأحكام ولغة وشريعة واحدة، فكانت بحق كما قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وذلك هو مكمن الأحقاد ومبعث الغيرة الشديدة ضد هذه الأمة الخيِّرة المرحومة.

ولذلك عكف الكافرون وأذنابهم على دراسة الدين الإسلامى الحنيف، وأوفدوا رُسُلهم إلى ديارنا تحت مسمى «المستشرقين». وقد عرفوا عن استحقاق النوعية التى يخرجها هذا الدين، وشاهدوا الإرادة التى يفرزها، كما علموا عن جدارة عناصر القوة فى عقيدته الشامخة، ومنهجه المستقيم، فتأكدت لهم النتيجة التى خرجوا بها من جولات صراعهم وصولاتها المريرة مع المسلمين، وعلموا عن يقين أن تقدمهم نحو فرض هيمنتهم على العالم، وسعيهم إلى السيطرة عليه، ونيل مآربهم فى إستذلال العباد مرهون بغيبة الإسلامة وجُنْده الصادقين.

فاحتدم بسبب ذلك الصراع ولبس غير لباس ليصبح على ما بات، وهو متجدد لا يشيخ ولا يعرف لغة غير حوار الدبابات، ليتأجج الصراع ويتطور ويمتد إلى الحضارة الإسلامية دينًا وأتباعًا أينما وُجد مسلمون.

وهو صراع ضارٍ يَشنُّه وبلا هوادة ذلك التكتل العالمى الصليبى - الصهيونى الوثنى - بتخطيط شيطاني على كل الأصعدة سياسيّا، واقتصاديًا، وثقافيًا، وإجتماعيًا، وإعلاميًا، وحربيًا بكل ما أوتوا من قوة وما حازوا من إمكانيات.

ويستمر الصراع، ويتطور الحوار.

* * *

الفصل الثالث : العصافير فى القفص الأمريكى

أولاً : ألوان الطيف

لا زالوا عند قولهم أن الإرهاب صناعة إسلامية، وأكدوا عليه بالربط بين الإسلام والإرهاب، وصنّفوا المسلمين إلى ثلاثة :

(أ) المسلمون المعتدلون.

(ب) الأصوليون (المتشددون).

(جـ) الإرهابيون.

وقد نسبوهم جميعًا إلى الرجعية أو السلفية التى تمثل بحسب زعمهم عدواً تاريخيًا للمدنيّة والحضارة الجديدة (العولمة) – وهم بهذا التصنيف يرمون إلى عدم تشتيت مجهوداتهم من جانب، ومن جانب آخر إلى عدم إثارة المجتمع الإسلامى، وطمأنة المسلمين وإقناعهم بأن هناك مسلمون يمثلون خطراً داهمًا على المسلمين، وعلى بنى البشر عامة، وهذا الصنف يجب قتله أو اعتقاله وفوراً.

وقد نجحت المحافل الماسونية المنتشرة فى العالم كله فى الترويج لهذه المزاعم الباطلة والإفتراءات الكاذبة، والعجيب أن هذه الأساطير لاقت أذنًا صاغية وعقولاً فارغة خصبة نبتت فيها تلك الأفكار الجهنمية وترعرعت حتى صار المسلم يرمى أخاه المسلم بتهمة الإرهاب، وفى مثل هذا حدث ولا حرج.

وطبقًا لهذا التصنيف سوف يصفق الجميع عند مقتل المسلمين الكائنين بخانة الإرهاب فى التصنيف الغَربى المُعادى – حتى يتم القضاء على ما يسمونه (مَعَامل تفريخ الإرهاب) – وعندئذ سوف لا تكون هناك شبهة جنائية تقع عند مقتل هؤلاء الإرهابيين المرفوضين من المجتمع برمته.

ثم تدور الدائرة على الأقل رتبة وهم الأصوليون – وتستمر وتتحور لبتْر بنان كل مسلم أصولى بعد أن تم دمج الأصولية فى الإرهاب – وصار لها تعريفًا واحداً وهو الإرهاب الإسلامى.

وفى صحيح القول : يجب على كل مسلم أن يكون أصوليًا – أى – ملتزمًا عاملاً بكتاب الله وسنة نبيه « محمد ﷺ » ومنهجه كما قال ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار ».

والأصولى بهذا المعنى هو الذى تأصلت فيه القيم الإسلامية ورسخت مفاهيمها واستقرت أحكام شريعتها فى أعماقه – وهو بهذا لا تمتد يده إلى إيصال الأذى

لا بالمسلمين ولا بغيرهم ما لم يكن جلبًا لمنافع كنشر الإسلام فى أراضى جديدة، أو درءًا للمفاسد كأن يهب مدافعًا عن نفسه أو ماله أو نفس غيره أو ماله أو عرضه وأرضه ووطنه – ومقاتلاً كل من يؤذيه فى دينه أو يحاول إثناءه عن عقيدته – لما قال ﷺ: «من آذى ذميًا فقد أذاني» ولما قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ – الآية [الممتحنة: ٨]، وهذا هو حجر الزاوية فى الربط بين الإسلام والإرهاب لا فرق بين مسلم معتدل أو غيره لأن المسلمين على قلب رجل واحد عند النكبات والشدائد، وهم جميعًا يقفون فى وجه الغارات التنصيرية الشرسة، لأنهم لا يرضون عن الإسلام بديلاً ولا يبغون عن الجنّة حولاً.

لذلك تطور الصراع واحتوى على كل ألوان الطيف المتناسقة والمتنافرة ضد بنى الإسلام على إطلاقهم حتى هؤلاء العلمانيون من بنى جلدنا وأخوة أوطاننا وقد أصابهم ما أصابهم فرفعوا لواءهم فى غفلة ونشوة بعد أن رشفوا كأس المدنيّة المعاصرة، وبَهرت عيونَهم سحر الإبداعات الحديثة.

ولا زلت أنا عند قولى أن الذين زرعوا الإرهاب فى المنطقة العربية غرثوا معها شتلات الإرهاب والدمار والخراب، ونشروا كذلك بذور حرب عالمية ثالثة، إنهم القائمون على رعايتها وحمايتها، المتعهدون بضمان أمنها وسلامتها – ولذلك يقدمون إليها أحدث أسلحة الفتك والدمار الشامل بما فيها الأسلحة النووية، ليضمنوا لها بذلك تفوقها المطلق على دول الجوار، ولتحويلها إلى قوة إقليمية كبرى لإجهاض مصر وإجهادها ومعها سوريا، وفوق كل ذلك يأتى ضبْط إيقاع العلمانية الحاكمة فى تركية بحيث يتم القضاء مبكرًا على أى محاولة للأصوليين بالصعود إلى مقعد الحكم، وإن حدث فليكن تحت السيطرة كما هو الحال عندما فاز الحزب الإسلامى الذى يترأسه رجب طيب أرطوغان الذى صار رئيسًا للوزراء منذ شهور قليلة(١).

وما ذلك إلا تخوفًا من أن تنهض تركيا النهضة التى يخشونها خاصة مع تنامى الشعور الإسلامى الجارف فى الشارع التركى الذى سوف يقض مضاجع العلمانية الحاكمة عند أجل آت إن شاء الله تعالى – آمين.

ومع هذا الجهد الدولى فى صناعة إسرائيل وزرعها فى قلب العرب إلا أن

---

(١) راجع الموقف التركى غير الحميد أثناءحرب الخليج الثالثة فى كتابنا وحيد القرن ورياح التغيير.

ضجيجهم ملأ الدنيا، وأعلنوا على العالم هذا الذعر المفتعل من خطر محقق يحيط بهم اسمه «الإسلام» وملؤا الدنيا صراخا وعويلاً بأن القائمين بهذا الخطر هم من المنتمين إلى قبائل همجية لا تقل عن همجية التتار فى العصور الوسطى - إنهم المسلمون.

وقد دأب هؤلاء الصناع المهرة من خلال إمكانياتهم الإعلامية والدعائية التى ملأت الأرض والبحر والجو على إقناع العالم بأن هؤلاء الهمج - أى - المسلمين يُخطَطون لإقامة حكومات إسلامية سلطوية علوية - مبلغ همها العمل على قهر العقول على نَمط سياسى سلفى - أى - «متخلف» لا يعرف تعددية حزبية ولا ليقيم للمعارضة وزناً . ناهيك عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى شرب الخمر والزنا والسرقة.

وهكذا نشأت فكرة جديدة تضاف إلى الأفكار السابقة فى القضاء على الإرهاب (الإسلام) - على اعتبار الوقاية خير من العلاج، وهى ههنا الهجوم على هذا الوحش الكاسر فى عقر داره، الأمر الذى يعنى اجتثاث الإسلام من جذوره، وقتل المسلمين ومطاردتهم وملاحقتهم فى كل مكان.

إن هذا الذعر المفتعل مما يسمونه الخطر الإسلامى هو نتاج أياد ماهرة، وعقول باهرة أجادت هذه الصنيعة، وأحسنت الترويج الإعلامى لها، حتى ترسخ فى الشعور الأوروبى العام، والعقل الغَرْبى على إطلاقه أن ضرب الحصار على قبائل الهمج التتارية الجديدة، والهجوم عليها فى كل مكان، إنما يأتى فى إطار السياسة الأمنية والحلول الوقائية من الوباء الفتاك الذى أشرف يهددهم ويستشعرون خَطَرَهُ الذى شارف على تهديد عروش ممالكهم، ومقاعد رئاستهم بعد أن دخل بريطانيا وفرَنسا وأمريكا من غير قتال، كما هز عرش القلاع الغربية من غير فتوحات إسلامية، أو دعاة يعملون هناك كما تعمل إرسالياتهم التبشيرية فى القارتين الإسلاميتين.

دليلنا على ذلك: أن بريطانيا وأمريكا أقامتا الدنيا ولم تُقعداها بسبب الطائرة البريطانية التى تم تفجيرها فوق لوكيربى وتم نسبها إلى الجماهيرة الليبية، وقد نفذت ليبيا جميع المطالب الأنجلو أمريكية التى فُرضت عليها بما فيها تسليم المواطنين الليبيين المتهمين بتفجير الطائرة، ودفع التعويضات الهائلة لأسر الضحايا، وعلى الرغم من الإعلان الفرنسى باستخدام حق النقض (الفيتو) ضد أى محاولة من جانب مجلس الأمن تستهدف رفع العقوبات المفروضة على ليبيا حتى تدفع ليبيا تعويضات مماثلة لأهالى ضحايا طائرة فرنسية نسبتها فرنسا أيضاً إلى ليبيا، غير أن ليبيا رضخت للتطورات الجديدة ودفعت لفرنسا، ولكن لم يتم رفع العقوبات حتى الآن.

إنها إذًا حقوق الإنسان - الإنسان الغربي فقط باعتباره رتبة أعلى من أبناء العَرب والمسلمين وهم الأدنى في الترتيب والتصنيف بما في ذلك المسلم الذي يحمل الجنسية الأوروبية حتي وإن كان أوروبيًا أو أمريكيًا « الهوية والجنسية » لأن مكانهم الطبيعي هو محرقة التاريخ (بحسب قولهم).

والشاهد على ذلك أن الطائرة المصرية التي كانت تحمل على ظهرها الحجيج، قادمة من المملكة السعودية وهي التي قصفتها إسرائيل بالصواريخ فوق سيناء ومات جميع من على متنها والبالغ عددهم المائتين وثلاثة وأربعين راكبًا ومن بينهم المذيعة الشهيرة « سلوى حجازي » . وقد دفنت قضيتهم مع رفاة الشهداء، وطويت صفحات موضوعهم مع صفحات التاريخ. ولم أسمع حتى الآن بدعوى قضائية أقامها اتحاد المحامون العرب أو المصريون للمطالبة بمثل ما كان ضدنا نحن العرب والمسلمين في قضية لوكيربي، وأحداث لندن وبوينس أيريس.

وكذلك لم يتحرك لهم ساكن ولم يطرف لهم جفنٍ على مائتين وخمسين ألفًا من القتلى المسلمين ضحايا الصرب والكروات، فضلاً عن ستين ألفًا من النساء والفتيات أعياهُنّ الإغتصاب العلني في الشوارع والميادين العامة أمام ذويهم، هذا غير ما يناهز الثلاثة ملايين مسلم تم تشريدهم وتهجيرهم إلى دول أوروبا، وقد امتنعت أوروبا كاملة عن تقديم أى عون أو مساعدة عسكرية أو مادية لشعب البوسنة المسلم المُدافع عن وجوده أمام الإنتقام البيزنطي (صربيا - كرواتيا - الجبل الأسود) الذين قدّم لهم الروس وبلغاريا وإيطاليا واليونان كافة أشكال الدعم ليتمكنوا من زحفهم الصليبي على الشعب المسلم الذي تحالف عليه السفاحون والقتلة.

وهذه هي « جُورَاشْدَا » إحدى المدن المنكوبة التي تقع في قلب البوسنة، وتمثل حادثتها مثالاً صارخًا للظلم والبغي والعدوان.

وجُورَاشْدا هذه أعلنتها الأمم المتحدة ملاذًا آمنًا لكل مسلم دخلها، وما لبث قرار الأمم المتحدة أن تحول إلى ورقة مهملة في سلة المهملات ودارت الدائرة على « المدينة المأوى » بعد أن احتمى بها ولجأت إليها جموع النساء والأطفال والشيوخ. ودخلت دبابات الصرب إلى قلب جوراشدا بعد قصفها بوابل من الصواريخ، وإمطارها بغزير القنابل والقذائف، ودهست الدبابات الموتى وأنصاف الموتى، وقضت على المسلمين في ساعة سوداء مات فيها الضمير العالمي كله، وبدأ معها نسيج أول خيط في كفن النظام العالمي الجديد أو ربما ولادة نظام اللانظام.

وحمل خنازير الصرب جثث القتلى المسلمين في الجرافات، وألقوا بها في نهر

(درينا) الشهير الذى بدا وهو مقبرة جماعية مثلجة تغمرها دماء المسلمين الطاهرة، ودفن الخنازيرُ بعضًا فى مقابر جماعية، وخلُّوا بين بعض الجثث الأخرى والكلاب الجائعة ليعتبر المسلمون الذين ينزفون من الأحداث الجسام فى بطن أوروبا الذى ملأ الدنيا نفيرُهُم بحقوق الإنسان والحرية والإخاء والمساواة.

ومن ألوان الطيف كذلك. ما كان من سياسة غض الطرف عن العزيزة الغالية إسرائيل التى لا تكف عن مصادرة الأراضى الفلسطينية، ونهب ممتلكاتهم، واقتلاع زراعاتهم وطردهم وتهجيرهم - أى - فى الجملة أنها تمارس حرب إبادة شاملة بنظام مدروس ووقت محسوب وعمل منظم - رغم ما يقول دعاة السلام، ورغم دعاوى السلام التى تتردد فى الدهاليز السياسية فقط - وهى كذلك ترفض التوقيع على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية، وترفض إخضاع ترساناتها الذرية والبيولوچية والكيميائية للتفتيش الدولى، وهى كذلك تسد آذانها والعالم من حولها، على ثلاث مائة قنبلة نووية جاهزة للإطلاق فى مخابئها السرية فى صحراء النقب، وهى تنصب مئات الصواريخ ذات القدرة على حمل رؤوس نووية موجهة إلى جيرانها العرب - وسيكشف التاريخ عن أن الصواريخ متوسطة وبعيدة المدى التى تم إزالتها بموجب الإتفاق التاريخى الذى وقعه (جورباتشوف، وريجان) والمشار إليه سلفًا، قد بيع معظمها إلى إسرائيل ضمن اتفاقات سرية لم يتم الإعلان عنها حتى الآن، وسوف تبديها الأيام.

تلك القوة الهائلة أضافت قوة إلى جانب القوة الإسرائيلية بحيث أصبحت وكأنها فوق القانون الدولى - وفوق السيادة الدولية، وفوق القوى العربية والإقليمية خاصة بعد أن أقر العرب جميعًا مبادرة ولى العهد السعودى « الأمير عبدالله بن عبدالعزيز » فى مؤتمر القمة العربية ببيروت ٢٠٠٢م- وأكدوا على أن السلام خيار عربى استراتيجى لا حياد عنه، فقابل « شارون » هذا الطرح العربى بإعادة احتلال الضفة الغربية وغزة. وملأ فمه بتوجيه ضربات وقائية ضد مصر وسوريا وإيران والسعودية، كما أنها ترفض إخلاء الجولان السورية وترفض الجلوس على مائدة المفاوضات لإيجاد صيغة مقبولة لمشروع سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط.

بينما يأتى رد الفعل العربى بالإصرار على الحديث عن السلام وخيار السلام، و« بلح الشام ». وكأن السلام هو عكاظ الأعمى وسلاحه فى عالم الظلام.

وإذا كان بيجين شريك السادات فى عملية السلام المنفرد مع مصر لم يوقع على الإتفاقية إلا بعد أن أخضعتهم القوة - وقد تعمد هذا الصهيونى توسيع الفجوة بين

مصر والعالم العربى. حيث فور عودته من الإسماعيلية إلى تل أبيب بعد لقاء السادات، أمر بإرسال مجموعة من طائرات جيش دفاعه الإسرائيلى طراز «F15 ، F16» أمريكية الصنع لتلقى بحوالى ١٦ طناً من القنابل على المفاعل الذرى العراقى فى يونيو ١٩٨١م ، كما تلمح إسرائيل الآن وتهدد علناً بتكرار نموذج بغداد على طهران – كما أنها تهدد كذلك بضرب القواعد الجوية السعودية فى المناطق الشمالية لأنها – إسرائيل – ترى أن تلك القواعد تمثل خطراً على أمنها وسلامتها وتهدد سيادتها. ولذلك أخلت الولايات المتحدة تلك القواعد لعدم تعريض أمن إسرائيل للخطر، خاصة مع تسجيل الطيارين السعوديين لدرجات كفاءة قتالية عالية يمكن لهم بها الإنطلاق إلى إسرائيل فى فترة زمنية لا تستطيع أجهزة الإنذار المبكر التقاطها، ولا قوات الدفاع الجوى التعامل معها.

وفى الوقت الذى تردد فيه الكلام فى الداخل الإسرائيلى عن ضرب بعض الأهداف الإستراتيجية فى مصر، وقصْف السد العالى ومشاريع التنمية العملاقة، فاجأت إسرائيل العرب والعالم بعدوان سافر إجرامى غاشم على الأراضى السورية مساء السبت ٤ / ١٠ /٢٠٠٣م، حيث قصف الطيران الإسرائيلى قاعدة [عين الصاحب] العسكرية السورية بمنطقة التل شمال غرب دمشق على بعد ٢٥كم من العاصمة دمشق فى أول هجوم من نوعه منذ عشرين عاماً، وكان من الممكن أن يكون فى الرد السورى جرأة الصقور – غير أن الوجود الأمريكى على الحدود السورية من ثلاث اتجاهات جعل القيادة السورية تلتزم بصمت القبور.

وقد أكد مستشار شارون (رعنان چيسين) أن عملية القصف تحذير لسوريا وقال: إن سوريا التى ترأس الدورة الحالية لمجلس الأمن يجب أن تكف عن دعم الإرهابيين الفلسطينيين، وأوضح چيسين أن القصف تم بعد مشاورات مكثفة داخل الحكومة الإسرائيلية، وزعم مستشار شارون أن محور الإرهاب يضم سوريا وإيران وغزة، وأضاف أن إيران تسعى لتقوية علاقاتها بالمجتمع العربى داخل إسرائيل، وأكد على أنه لا يستبعد شن هجمات جديدة ضد سوريا فى حالة استمرارها فى إيواء منظمات إرهابية، وبهذا تكون إسرائيل قد أعلنت أنها ستنهش بمخالبها قلب دمشق وطهران والرياض والقاهرة.

ولا تتعجب إذا قلت القاهرة، فإن هناك تقارير أمريكية عديدة ومكثفة تتحدث عن أن مصر والسعودية دولتان راعيتان للإرهاب، ولا تتعجب ثانية إذا ذكرت ههنا أن هناك مشاريع أمريكية تقضى بفرض عقوبات اقتصادية على الدولتين كونهما خرجتا

على الطاعة الأمريكية فى عدم الكف عن تقديم الدعم المادى والمعنوى للشعب الفلسطينى – وهما بذلك تمولان الإرهاب بحسب رؤيتهم هناك.

كما أن الدولتين تمدان يَدَالعون للمسلمين فى البوسنة والهرسك والصومال، والسودان، بالإضافة إلى أن مصر تقدمت بمبادرة مع ليبيا لحل النزاع فى السودان والحفاظ على وحدته الوطنية وسلامة أراضيه، وهو ما يتنافى تماماً مع الرغبات والنهم الأمريكى والأوروبى المهرول نحو تقسيم السودان (كما ذكرنا سابقاً).

زد على ذلك أن مصر والسعودية لم تقبلا بحال إرسال جنود لهما إلى العراق ضمن ما اقترحت أمريكا تشكيله تحت مسمى (قوات حفظ السلام الدولية)، وذلك لأن هذه القوات المصرية والسعودية صراحة ستنوب عن الأمريكيين فى قتال العراقيين الرافضين لأى وجود أجنبى على أراضيهم حتى وإن كان وجوداً عربياً – وبذلك ترحل القوات الأمريكية إلى أعالى الجبال فى القواعد العسكرية التى أقامتها وتقيمها، وتترك الدم العربى – العربى (المسلم) ينزف حتى الموت.

إن ورقة الإرهاب ما هى غير قنبلة موقوتة تستخدمها إسرائيل ومن ورائها الصهيونية العالمية وأوروبا الصليبية والمتحدة الأمريكية، بعد أن أصبح الجميع على هدف واحد – وهو حتمية أن يفكر ألف مرة كل من يحاول التصدى للعزيزة الغالية أن يفكر كيف سيواجه أمريكا أولاً.

وهذا هو عين الإرهاب الذى يرسم الصورة العامة للمناخ الذى تعيشه الدول العربية شعوباً وقيادات، وهو مناخ إرهابى بكل المقاييس.

ويتعين على العرب التخطيط لحلول مشاكلهم الإقتصادية والسياسية والبيئية ورسم صورة المستقبل العربى كله فى هذا الجو الملغم والمكهرب.

فالجميع تحت الحصار – والكل فى مرمى التهديد – وجميعهم فشلوا فى حصار حصارهم.

أيها العرب حاصروا من أجل البقاء حصاركم، إن الخريطة السياسية يعاد الآن رسمها لسحق المسلمين أينما وجدوا على ظهر الأرض فى كل مكان فيها أو عليها، إنّ الأحداث تُشير إلى مؤامرة كبرى تحاك فى الخفاء، وهى تُعبّر بحق عن الصراع المحتدم، بينما يتم توزيع الأدوار بسرّية بالغة ضمن خطة غاية فى السرية للإنطلاق نحو عملية تصفية حسابات قديمة، وميراث حقد مرير يحملونه بين جنباتهم ضد الإسلام وأهله، وليس أدل على ذلك من محاولة إحياء الإمبراطورية البيزنطية فى الشمال، لتكون فى مقابلة الدولة الصهيونية فى الجنوب وبذلك تدور الدائرة على من تبقى من مسلمى

منطقة البلقان، ولا مـانـع إذًا أن تتعـرض تركـيا ذاتهـا إلى نفـس الطحـن بالرّحا إذا ما حاولت أن يكون لها وجودًا إسلاميًا.

بينما تقع الدولة الصهيونية فى الشمال فى مقابلة الوجود الصليبى فى القرن الإفريقى الذى امتد إلى جزيرة العرب مؤخرًا لضمان السيطرة على الطريق الساحلى للبحر الأحمر (كما سيرد الكلام عنه لاحقًا).

تلك هى ثوابت إدارة الصراع، وضوابط إدارة الحوار.

* * *

ثانيًا : العلمانية والزمن الردئ

من الضرورى أن نفرق بين العِلم (بكسر العين)، والعَلمانيّة (بنصبها).

فالعلم تراث إنسانى وثقافة إنسانية محايدة وعقلانية، وهو قاعدة التقدم والإنطلاق لخدمة الإنسانية كلها، ويتم اكتسابه على النهج المألوف، والإسلوب المعهود من خلال المُلقِّن والمتلقى والمادة المرسلة نظير قوله تعالى : ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة : ٣٧] وحتى وصل بنا العلم لدراسة ظاهرة الكسوف والخسوف، والتنبؤ بحالة الطقس لبضع أيام قادمة، ثم الخوض فى علم الوراثة، والكيمياء، والفيزيقا، والهندسة، والطب... إلخ.

أما العلمانية : فهى مذهب فلسفى - قاعدته - بناء الحياة على غير دين - ولهما بذلك موقف خاص ورأى شارد فى الكون وخالقه، والأديان، والموت باعتباره المصير الحتمى للبشرية.

وقد تأسس موقف العَلْمَانيين فى الأصل على أن الله كما يقول بعضهم فى تأدب أنه فكرة غير مطروحة، وغير واردة، أما بعضهم فينكر وجود الله أصلاً، أمّا الغالبية فتحيا طبيعتها وتعيش حياتها على غير دين.

وبذلك يصير الإنسان ولا يُلزمه شىء غير ضَميره ولا سُلطَة رادعة له غير سُلطة الآخرين وقوانينهم الوضعية الهوائية، وبذلك يكون الإنسان فى العلمانية، هو الخصم والحكم وهو حر مسئول عن أعماله - وذلك بعد تعطيل العمل بأحكام الله على الأرض لأن الله فى الأصل لا وجود له عندهم. وعمّت بذلك الأحكام العرفية والقوانين الوضعية.

وعند أهل هذا المذهب وقع فصل الدنيا عن الدين، والشعب عن السلطة، وغاب دور المسجد والكنيسة، فلا مانع من أن يصلى المصلون، ويقيمون شعائرهم إلى مطلع الفجر ولكن من دون إقامة أى اعتبار للدين وتشريعه، وإبعاده ولو بالتدرج عن

إدارة الحكم وتجنيبه بالمرة صياغة القوانين ورسم السياسات، ومن ثم فإن العَلمانية تكون فلسفة ظنيّة تنكر الغيب والآخرة، والبعث، والحساب، والجنة، والنار.

أما أصحابها - العلمانيون فإنهم يقدسون الطبيعة وقوى الطبيعة، ويقولون ملء أفواهم أن الطبيعة فعلت وطورت، وأخرجت من الأرض ماءها وزرعها، كما يقولون بأنها هى التى تصرف الرياح والأعاصير، وتثير الزلال المدمرة، والبراكين المهلكة.

وفى هذا يقول الأستاذ الدكتور العلامة «مصطفى محمود» فى كتابه المعنون - الطريق إلى جهنم - على الصفحة الثانية بعد الخمسين تحت عنوان: عندما تغضب الطبيعة. سمعت المذيع الأوروبى يصف ما حدث من أعاصير، وسيول، وزوابع، فى أوروبا وأمريكا بأنه غضب الطبيعة، وحينما نقل إلينا أخيراً ما حدث فى لوس أنجلوس من زلازل، قال: «إن الطبيعة لم تغضب فى أى يومٍ كما غضبت هذه الليلة».

ويتابع الدكتور العلامة قوله: وتوقّفْتُ طويلاً أمام هذه الكلمة «غضبة الطبيعة» وتساءلت. أيكون الإيدز الذى اكتسح لوس أنجيلوس وسان فرانسيسكو هو الآخر غضبة أخرى من غضبات الطبيعة، ثم أيكون فشل الطبيعة فى ابتكار أى علاج للمرض هو غضب آخر أعمى أعين العلماء عن اكتشاف العلاج؟!!

ولماذا تغضب الطبيعة! - إذا كان العلمانيون أنفسهم يقولون أن الطبيعة هى مجموع القوانين المحايدة التى تعمل فى استطراد ورتابة وشمول - فكيف تغضب تلك القوانين، وتأخذ صفة طائفة ضد طائفة أخرى، وتقف مرة مع العلماء، ومرة أخرى ضدهم - وهل للطبيعة عواطف، وهل عندها محاباة، أم أنه الهَبَل العلمانى الذى يريد أن يتجنب أى ذكر للقوة الإلهية، ويريد أن يبتكر أى لفظة أخرى غير لفظة «الله» التى يبغضها.

يقول عاقلهم بل هى سذاجة من المذيع. فنحن لا نقول بأن الطبيعة تغضب، بل نقول عن هذه الحوادث إنها مصادفات وخبطات عشوائية.

ونسأل بدورنا: أهذه الطبيعة العمياء العشوائية هى التى طورت النملة وخلقت منها شكسبير كما يقولون، وطورت الميكروب وخلقت منه سقراط، وكيف يخلق الأعمى بصرا، وكيف يخلق الناقص كمالاً، ونصدق من؟ عاقلهم أم ساذجهم... أفتونا. انتهى.

إنهم يؤكدون على طرح فكرة «الله» كسبب أول وأوحد وقهرى للأسباب، ويعتقدون فى الأسباب ذاتها، ويعودون بها إلى نقطة البحث عن الخلية الأولى، ووحدة تكوينها (الجينة) وهى أصل البحث فيما يسمى بالهندسة الوراثية التى

تمكنوا بها من استنساخ النعجة « دوللى » الشهيرة، وبدأوا بعدها يعكفون على دراسة استنساخ الأجنة البشرية – مرجعيتهم فى ذلك أن الإنسان هو آخر ما قدمت الطبيعة وأنْتجت، وهو بذلك يمثل ذروَةَ تطورها وحداثتها.

إنهم يؤكدون على طول الخط أنهم حزب الشيطان. وهم يسيرون في التيه والخسران لما قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وهم أصدقاء الشيطان ورفاقه وقرنائه، كما حكى القرآن الكريم عنهم حين قوله تعالى: ﴿**إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا**﴾ [النساء: ١١٧-١٢١].

وقد صار لهؤلاء أتباعًا من بنى أوطاننا، وكونوا تجمعًا علمانيًا يقيم المناظرات المتعددة لمحاكمة ديننا الحنيف، وللسخرية من تراثنا الإسلامى كله، ويأكلون ويشربون على موائد الطعن فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فى المحافل العامة.

وليس لهؤلاء لون تألفه العين، ولا ريح تطيب له النفس، ولا عهد يطمئن إليه البال – وذلك لأنهم لبسوا غير لباس، وصفقوا لكل من ركب، وهتفوا لأكثر من موكب، ورقصوا للعديد من الأنظمة، وقالوا بإخلاصهم لها، وأكدوا على زهوهم بالإنتماء إليها.

إنهم فئة من الناس تحار فيهم الألباب، وتضطرب بسببهم الخواطر، وتفتعل الهواجس، بسبب ما نرى فيهم من تغير جلدهم، واختلاف ألسنتهم وجلوسهم للأكل على كل الموائد.

إن هؤلاء وهؤلاء أعداء للدين بالضّرورة، إلا أن منهم من يظهر عداوته علنًا ويجاهر بها مباشرة مثل العلمانيين فى تركيا، ومنهم من يُخفونها إيثاراً للسلامة كما هو الحال فى بلادنا العربية والإسلامية – غير أنهم لن يصلوا إلى شىء ولن يحققوا آخر – فهم عاجزون حتى الآن عن تقديم ما يقبله العقل ويطمئن إليه القلب . وذلك لأنهم إلى الآن نكرة فى الشارع السياسى ولا وزن لهم عند الجماهير الواعية على الرغم من سطوتهم المفاجئة على وسائل الإعلام التى يتخذونها منابر للخطب والحوارات.

وقد التقى الماسونيون العرب مع التجمع العلمانى العربى والإسلامى وكوّنا سويًا عن قصد أو عن غير قصد غطاءً شرعيًا لإرساليات التبشير كى تمارسها أنشطتها الخبيثة بحرية تامة بعد أن عمل الطرفان على نشر ثقافة حرية الأديان، أو بالتعبير الأدق (حوار الأديان) - أو بعبارة أخرى إطلاق حرية حق الإرتداد عن الإسلام وضمان أمن وسلامة ذلك المرتد، وإلغاء العقوبة الجنائية المقررة على إعلان الكفر والزندقة.

واتفقوا فيما بينهم على أن يدسوا لنا فى العسل السُم القاتل فى تأن وعلى مهل، من خلال الإطباق على العقول بواسطة أطباق استقبال الأقمار الصناعية التى تعلو القصور والفيلات والعشش، هذا غير وسائل الفساد المجانيّة التى لا تحتاج فى استقبال موادها إلى مثيلاتها المبثوثة بواسطة الأقمار الصناعية.

وقد وصل هذا الفساد بكل أشكاله وأوجهه وأنماطه مباشرة إلى كل البيوت - بل - إلى غرف النوم عن طريق جهاز التليفزيون الذى صُنع أصلاً ليتتبَع المعرضين عن الشاشة الكبيرة ومن هجروها إما بسبب ضيق الوقت أو لضيق ذات اليد أو نفورًا من المادة المقدمة التى عكفت على تقديم أفلام الرعب والإثارة، وتدريس الأصول العلمية للسرقات والجريمة المنظمة وأفلام الخيال العلمى، وإظهار قوى الطبيعة، وخوارق الإنس، وأفلام الدعوات المجانيّة للإباحية والفوضوية التى لا تُضيف شيئًا إلا الإغراء بالانحلال، وتجعل الإنسان معزولاً تمامًا طيلة وقت جلوسه أمام الشاشة محبوسًا فى عالم الصور والتوهان بعيدًا عن قضايا دينه ووطنه بل وبيته.

وذلك لأن الرقيب فى حاجة إلى من يرقبه أو يراقبه - فهو لا يهتم بغير زيوع ثقافة المدنية الحديثة التى تعمل لتفريغ عقول الشباب، وغسيل أمخاخهم بالجنس وأفلام العنف والمخدرات - والمباريات - لينام الشباب ويصحى على الكرة ويبرز هنا سؤال مُلّح يسبق كل الأسئلة ويتقدم عليها. وهو:

لماذا لا تقيم حكومات العالم الإسلامى (الحرّة) سدًا منيعًا أمام هذه السيول الجارفة من الأفلام المستوردة أو المحلية على السواء، عن طريق إقامة رقابة فاعلة صارمة صالحة لمعالجة المواد التى تنشر أدب الإباحية والخلاعة والإستهتار والفساد فى أواسط المسلمين خاصة الأجيال الجديدة منهم، وأتساءل كذلك عن السر وراء الإصرار الشديد على عرض أفلام العنف والإجرام التى تطبع فى عقول الشباب هيستريا السلب والنهب والسرقة والسطو وفنون الجريمة المنظمة، بالإضافة إلى أفلام الإباحية التى لا تقدم إلا وقودًا لنار الرغبة ولهيب الجنس بإثارة عواطف الشباب وتحريك شعورهم واستنطاق جوارحهم فينصرفون عن الضرورات إلى المحظورات.

يا حكوماتنا المتدينة فى عالمنا العربى والإسلامى إن ناقوس الأخطار يدق منذ حين مؤكدا على أن المخطط يهدف إلى خلق جيل لا يشغله غير أعضائه التناسلية، واعتدال مزاجه كما ذاع بين الشباب الآن تعبير (أنا عامل دماغ) – عندئذ يصير من اليسير أن تقود امرأة هذا الجيل بأكمله إلى حيث أُمرت أن تقوده، إلى هناك حيث بيوت النساء، حيث تكون المرأة هى محور الحياة عندهم – فالأنثى هى الأصل، والرجل (الذكر) طارئ عليها، فلا ريبْ أن تكون المرأة فى هذه الثقافات محل العناية وبؤرة الإهتمامات فى الحكم والفن والسياسة، ولا حرج فى إبراز خصائصها من خلال منابر الحركة الماسونية المنتشرة فى ربوع العالم، عن طريق الحركات النسائية، والإتحادات النسائية العالمية، والمنظمات النسائية، ولا مانع من الترويج لشيوع سفور المرأة، وترحالها، لإشاعة الفوضوية، ولذلك يقولون فى شعاراتهم الهَدّامة التى انتقلت عدواها إلينا (السيدات أولاً) – Lady is First – مع تقبيل أيديهن – وذلك لأن المرأة هى التى تنجب الأمم وتنتجهم – فهى تأخذ لقاحها من أى ذكر كان ولا حرج فى هذا، ولا مانع ولا ضابط ولا رادع من قانون أخلاقى أو دينى . أيا كانت ملّة هذا الذكر – فتلد المولود ثم ترضعه الضغن والحقد على العالم كله – وترويه بعشق الذهب فى أى مكان وفى كل زمان، ثم هى تُلقّنه كيف يتفانى فى الحصول عليه ليتمكنوا من السيطرة على جموع البشر وهم أسباط – أىْ – فرق وأحزاب – لا يتحدوا فى شىء إلا عند مبارزة المسلمين وقتالهم ومناهضتهم، أما بينهم فقد أخبرنا الله تعالى به عند قوله سبحانه: ﴿ **بعضهم لبعضٍ عدوٌّ** ﴾ [الزخرف: ٦٧].

إن هؤلاء العلمانيون والدهرية سواء: هم يقولون « إنها أرحام تدفع وأرض تبلع » كما قال تعالى: ﴿ **نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدَّهر** ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقوله تعالى عنهم: ﴿ **نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

ويدّعون أن الحاصل إنما هو صروف الدهر وتصرفاته تتداول على الناس، وإن أحداً لا يضطهدهم أو يقهرهم أو يكافئهم فى السماء، فهم سواء فى رفض الغيب برمّته، ويهربون من تكليفات الدين إلى مختارات اجتماعية ومذاهب عقائدية فاسدة تلتقى جميعها فى كونها فلسفات مادية لا تحرم عليهم الملذات، ولا الإستمتاع بالشهوات، ولا تجبرهم على الطاعات وجملة التكليفات، ومن ثم فإنهم يجتنبون الدخول فى متاهات الأديان ومهاترات الأصولية.

وإذا كان أصحاب تلك المذاهب الفلسفية ينسبون إلى أنفسهم تقرير حرية الفرد فى عقيدته ويتباهون بأنهم أصحاب السبق فى براءة ذلك الإختراع، الذى

يضمن حق الفرد فى الإعتقاد فيما يشاء حتى ولو كانت روح « المبشرة العظيمة الأم تريزا » فلماذا إذا هذا العمل الشاق والجهد المضنى والأرق الشديد فى سبيل تنصير المسلمين وإخراجهم من دينهم على النحو الذى ذكرناهُ طيلة عرض موضوعنا هذا.

إنهم الحمقى – الجهلاء – المنكرون لحركة التاريخ والفكر الإنسانى.

فمن عظمة الدين الإسلامى أنه أقر حرية العقيدة وضمنها، ونفى تمامًا إكراه الناس على الدخول فى أشرف الديانات وأعلاها وأوثقها عند الله تعالى لما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩] ونهى تمامًا عن قهر أى إنسان على إشهار إسلامه: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦] حتى ولو كان الذى يُكرهُ الناس هو أرحمُ الناسِ بالناس، فخاطب الحق جل وعلا رسوله ﷺ ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩] وقدر سبحانه وتعالى على أن جَبْر الناس هو شأنه وحده ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ [هود: ١١٨] وأخبر رسوله ﷺ إما نهيًا وإما تقريرًا ﴿ **لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية: ٢٢].

أى أن الله تعالى ضمن فى قرآنه الكريم الحق المطلق والحرية الواسعة لعامة الناس فى اختيار معبودهم، وعلى ذلك فلكل إنسان الحق فى إختيار عقيدته وأسلوب تفكيره.

غير أن تلك الفئات (العلمانية، الدهرية، الماسونية) وغيرهم نَسوا أو تناسوا أن للحرية ضوابط – أولُها أنك حر ما لم تضر، أنت حر فى أن ترفع يدك وتنزل بها على صفحة وجهك لا على وجوه الآخرين، وأنت حر كذلك فى أن تضع رجلك على قفاك لا على رقاب الآخرين، فالكل فى حق الحياة سواء، وليعلم الجميع أن مجرد التجاوز بالتفكير فى فرض تلك المعتقدات التالفة عبر وسائل الإعلام المتنوعة من خلال الحملات المنظمة والمنتظمة التى تهدف نهاية إلى حصار الدين وانحساره والإساءة إليه، والتطاول على أهله لهو فتنة عظمى وطامة كبرى، لأن مجرد الشروع فى هذا باطل وفاسد، وهو حتما يؤدى إلى شحناء وعداوات ومصادمات لا بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى بل فيما بين المسلمين بعضهم فى بعض.

فالذى اختار العلمانيّة عقيدة، والماسونية مذهبًا من بنى أوطاننا، لهُو حرٌّ فى اختياره – لكنه ليس حُرًا فى التصدى للآخرين فمهما حاز هؤلاء من أدوات ومهما أوتوا من قوة، وأيا كان بُعد نفيرهم وَمَداهُ، فإنهم لن يستطيعوا زراعة بذور الفساد، وغرس شتلات التخريب والإرهاب فى بلادنا مهبط الديانات، وأرض الأنبياء والرسل، وليرتَدُوا نسيجهم وليرتَدُّوا على أعقابهم خاسئين – خسروا الدنيا والآخرة– ألا ذلك هو الخسران المبين.

إننا أصحاب ميراث هائل من النور والهدى جاءنا من عند الله ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥] والنور ههنا يراد به سيدنا محمد ﷺ، وكذلك فإن النور يراد به أخرى في موضع آخر كقوله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: ٨] وهو ههنا القرآن الكريم وسنة النبى ﷺ، وقد ائتمننا الله جل وعلا على ثروة هى أعظم الثروات على إطلاقها، وقد أحسن الأجداد توظيفها وتوجيهها، فصنعوا حضارة هى أعظم الحضارات التى عرفتها البشرية.

فلنَنْتبه ولنتَنَبّه جيداً، فميراثنا الهائل أمانة عظيمة، أما الأعظم فهو الحفاظُ عليها، وإعمالها للأخذ بيد البشرية كلها التى أخلدت إلى الدنيا وشهواتها، ورقدت على الأرض بفعل العسل المسموم...

فلا يجب التسليم ولا الإستسلام أمام أصحاب هذه المذاهب الفلسفية الظنية ولننتفض ما لم يكن لأجل انتشال الإنسانية من مستنقع الجهل والتخلف، وعبور الدنيا حتمية المآل والمصير التراجيدى إلى الرحاب الإيمانية، والآفاق العلوية الربانية.
فليكن على الأقل لحماية قيمنا من التهدم وأخلاقنا من التفلُّت، ومبادئنا من الإنهيار، وتراثنا من التحول، وحضارتنا من التسرطن.

* * *

ثالثًا: اللقيطة والعسل المسموم

استنّ النظام العالمى الجديد (عالم اللانظام) بعضًا من التشريعات والقوانين القهرية، وجميعها من صُنع وحيد القرن، الذى اتخذها أداة ليقضى بها على آمال الشعوب، وليسحق بها إنجازات الأمم التى لا تدور فى فلكه الأيديولوجى والسياسى وخرجت على الطاعة الأمريكية وناصبتها العداء أو المناوءة.

وقد اتخذت الولايات المتحدة لتطبيق نظام اللانظام الذى استحدثته لبسط سيادتها، وفرض هيمنتها مجموعة من التدابير والإجراءات من أهمها الفساد المتعمّد، وتدريس أصول ا لجريمة، وسرعة زيوعها، واستعمال الجواسيس ونشر الإرهاب، وإثارة النزاعات، وزعزعة الأمن والإستقرار، ونشر ثقافة الرشوة والمحسوبية، وعودة الألقاب، وجنون الكرة، وتقديس الجنس، وعبادة المرأة، وهلوسة الحب، وإفساد العلاقة بين الحكام والمحكومين، وإقحام العالم الإسلامى كله فى دوامة الإرهاب التى ألصقوا بها بطاقة « الإرهاب الإسلامى » واستعملوا لها الحاقدين، والعاطلين، والخارجين، والمارقين - خاصة فى مصر القبلة السياسية للعالمين العربى والإسلامى، لضرب السياحة،

وتشجيع الإستثمار على الهجرة العكسية لإضعاف الإقتصاد الوطنى المصرى برمته. فتموت أحلام الشباب وتتبدد طاقاته، ويُقتل فيه كل شيء نافع، ويعيش الجميع فى عبثية فكرية وهمجية اجتماعية ، وفوضوية أخلاقية.

بينما تتكلف الولايات المتحدة والغرب إلى جانبها سيولاً من الدولارات التى تتدفق على دول العالم عبر قنوات خفية، إلى شخصيات إجرامية تنوب عنهم فى قضاء مصالحهم وتأمين منافعهم، ولتستعملهم أجهزة المخابرات الأمريكية لتخريب البيت الإسلامى وتقويضه من داخله، واجتثاثه من جذوره، ليتمكن وحيد القرن من الوقوف على أطلال الحضارة الإسلامية قاطبة ثم الإنطلاق نحو خطوات أخرى تالية على طريق إحكام سيطرتهم على العالم – بعد أن يكون قد انتاب أنظمته الضعف، وهاجمتها الشيخوخة، وبدأ انحدارها لتنتهى بالسقوط الذى لا قيام منه.

وكان آخر تلك الأدوات وأهمها ذلك الذى يسمى بمشروع السلام « الإسرائيلى – العربى » إسرائيل زراعة الإصرار العمد، والتخطيط الجيد « الأوروبى الأمريكى »، وحصاد مخططاتهما وهى المطرقة اليهودية التى تدق على رؤوس العرب الواقعين بين سندان التراشق بالإتهامات والإختلافات، والشقاقات والنفاق، والعراك والمهاترات التى لا تنتهى، حتى أعجزت الأمة عن التصرف كأمة واحدة تتحدث لغة واحدة، وتؤمن بإله واحد، وهى مع ذلك تواجه خطراً واحداً كائنًا على أعتابها، فلم تنهض حتى الآن لدفعه أو إفساده، وبين المطرقة التى زودها الغرب بكل الطاقات والقدرات العسكرية حتى باتت إسرائيل تدعمها الولايات المتحدة بعملقتها الجبارة، وقوتها الرهيبة، وترساناتها النووية، ومخابراتها، وبوارجها، وغواصاتها، وأقمارها الهائلة، حتى باتت وكأنها تمتلك فعلاً ترسانات الأسلحة النووية الإسرائيلية، والأوروبية، والأمريكية . لتتمكن إسرائيل من الإمساك بمفتاح أمن المنطقة والعالم.

ذلك هو الأمن بالمفْهُوم الإسرائيلى، والسلام الأمريكى الذى نحاول أن نتسوله وتلك هى الصفاقة (عفواً) الصداقة الأمريكية للشعوب العربية.

وكما ذكرنا سابقًا فإن إسرائيل تجلس منفردة على مقعد الإرهاب العالمى كله، وهى تُديرُه بإحكام شديد، وفى ذكاء قاتل من خلف الساتر الأمريكى المضلل، وعليه فإنها باتَت وهى المصدر الأول لتهريب الأسلحة إلى بؤر التوتر، والصراعات، والإرهاب الذى صنعوه، كما أنها القاسم المشترك الأول فى ضرْب النظم الإسلامية ومناهضة الإسلام فى كل مكان.

إنها إسرائيل التى تسللت إلى دوائر صنع القرار السياسى فى الإدارات الأمريكية منذ عقود ماضية، وصارت لها من يمثلها فى المطبخ السياسى الأمريكى، إلحاقًا على مثل ذلك فى العديد من الدول الأوروبية وفى طليعتها بريطانيا.

والآن، ومع الانتكاسات المتتالية أصبح للإسرائيليين من يمثلهم فى الداخل العربى والإسلامى ذاته عن طريق المنابر الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية خاصة فى الفضائيات والصحافة، وما ذلك غير محاولات جادة لضرب الإسلام ! أو تدرى لماذا؟

لأنهم يمقتون الدين الإسلامى مقت الموت !!!

أو تدرى لماذا..؟

لأن القرآن الكريم فضح ما يدبرونه، وما يُبيِّتُونه وما يفعلونه، وكما فضح سابقًا مؤامراتهم، وفى القديم قرر كذلك وعد الصدق الذى ينتظرهم والمآل الحتمى المنتهى إليه مصيرهم عما قريب إن شاء الله تعالى. وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى غير موضع وقد أكد الحق تبارك وتعالى على أنهم أهل الفساد وأصحابه وأنهم الأساتذة فى صناعة الفتن وإيقاد نار الحروب وأنهم باءوا بغضب الله وببغضه، كقوله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾

[المائدة: ٦٤]

إنها إسرائيل سلطانة الإرهاب فى العالم، وهى الأم الشرعية للتآمر، ومُرضعته وهى التى وضعت المنهج اللئيم للإبتزاز والتخويف والهلاك، كما أنها تتظاهر بأنها ترفع راية السلام والصداقة، وهى تقدم كل ساعة دليلاً قويًا وبرهانًا عمليًا على خبث فكرها ولؤم ساستها وشراسة مجتمعها العسكرى الذى لا يتعامل مع العرب تعامل الند للند، إنما هى تنظر إليهم على أنهم جنس أدنى، ورُتبة أقل انطلاقًا من عقيدتهم الضالة بأنهم شعب الله المختار، المؤمن بعقيدته الضّالة التى تؤكد للإسرائيليين (أن إبادة الشعوب العربية والإسلامية واجب توراتى مقدس) – إنها العنصرية المتعالية الشاذة التى أكدت عليها الفتوى التى قالها كبير حاخامات مستوطنة كريات أربع والتى نشرتها جميع الصحف الإسرائيلية قبيل منتصف التسعينات، والتى أفتى فيها بشرعية قتل وإبادة الجنس العربى (مسلم كان أو مسيحى) سواء فى ذلك المعتدلين والأصوليين المتشددين والإرهابيين وقال فيها: «إن قتل غير اليهودى هو عمل أخلاقى لا غبار عليه – أى – أنه يقرر تجاوز حدود الإرهاب الإسرائيلى لحدود كيانهم الصهيونى القابع على صدر فلسطين المحتلة ليعبر إلى افاق أوسع وأشمل أى أن أتباع الديانات الأخرى وأصحاب العقائد الظنية جميعهم فى مرمى الناشنكاه الإسرائيلى بدءًا بالمسلمين وانتهاء بعبدة الشيطان، وأن الضغط على الزناد بات فى وضع الإستعداد حتى يحين الوقت المناسب وتلوح فى الأفق ملامح الفرصة التى يتربصونها ويتحينونها، بيد أن العرب يحتلون المراكز المتقدمة ويحظون بالأولوية المطلقة فى هذا المخطط الدنىء، وذاكرة التاريخ حبلى ببغيهم وعنادهم.

(أ) الفتوى النموذجية
قتل الفلسطينيين حلال

إنها فتوى أشهر حامات الضفة الغربية الذى أكد على أن الامتناع عن قتل الفلسطينيين أكبر حرام وتابع فتواه فقال إن الضابط أو العسكرى الإسرائيلى الذى يرفض قتل الفلسطينيين لأبُدّ وأن يتم إعدامه.

إنه (شلومو أفنير) الحاخام الذى أبى إلا أن يدلى بدلوه فى الإرهاب الإسرائيلى الجديد. وقد قال صراحة – : إن الذين يقيمون على أرض إسرائيل (فلسطين المحتلة – التاريخية) هم عرب وجب ترحيلهم أو قتلهم، وأنهم – أى – الفلسطينيين عليهم أن يضيقوا من أحلام اتفاق أوسلو، فالإتفاقية كانت غلطة ولن تتكرر، وذلك لأن الشعب اليهودى حسب قول الحاخام هبط فى منطقة صعبة وعليهم أن لا يأمنوا لمن حولهم، لأنه يرى أن لا أمل فى أن يتغير الجيران العرب بين يوم وليلة إلى بَشَرٍ لطفاء يحبون السلام ويؤمنون به، فالجيران حسب رؤيته لا ينفعٍ معهم سوى شيء واحد هو الردع والتخويف... إذا كان هؤلاء سيصبحون قوماً هادئين صامتين، فالردع والتخويف أسلوب أخلاقى فى التربية، فالإنسان الضعيف حسب زعمه من مصلحته أن تفرض عليه أسلوب الردع، ونحن شعب فى غاية اللطف حتى عندما نقبض على (المخربين) – يعنى الفلسطينيين يتم ذلك بمنتهى الذوق ومراعاة مشاعرهم[(1)].

وقد جاء فى فتوى « شلومو » صراحة ما يبيح إهدار دم اليهود سواء أكانوا العسكريين أو الشعبيين أو أبناء الطائفة الدينية الذين يرفضون التضحية من أجل الأرض المقدسة وتطهيرها من الشعب الفلسطينى غير المعترف بفكرة وجوده، وإذا كان فى هذا أحد آراء رجال الدين اليهودى، وقد أحل سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وسحق الضعفاء.

فما هو إذن الرأى الأكثر شيوعاً عند عمدة الإرهاب وسلطانه – أى – أن المراد هو الإجابة على السؤال الآتى:

كيف يكون إرهاب الدولة؟ إنه هو الإرهاب المدروس، المنظم، المقنن الذى يحاول بسط هيمنته بالبلطجة، ظناً منه أنه عمدة الإرهاب الممسك بمقاليد البدء فى المبادرة بتحديد مصير شعوب المنطقة، وتشكيل السياسة الدولية.

---

(١) مجلة أكتوبر ص٢٨ ع: ١٣٤٧ الأحد ١٨ /٨ /٢٠٠٢.

غير أن هذا السلطان نسى أو تناسى أن القوة تخضعه وأن اللطم على قفاه يذله، فأخذ يعربد تارة هنا وتارة هناك ،ويهدد ويقصف ويقتل ويدمر تحت حراسة مشددة من الوجود الأمريكى الحقيقى والمكثف فى المنطقة الذى جاء إليها لإعادة تشكيل خريطتها ورسم سياستها وتسخير طاقاتها لخدمة الاقتصاد الإسرائيلى الذى يؤهلونه لابتلاع ثروات المنطقة بأكملها. وهو عين الإرهاب الدولى المشترك ضد العالم العربى والإسلامى الذى أُحلَّ سفك دمه بحجة محاربة الإرهاب الدولى. وهو الطعم الذى ابتلعه العرب وشربوا بعده كأس العسل الذى دُس به السم.

(ب) حَرْب المياه

احتفل لبنان الشقيق فى الأربعاء ٢٦ / ١٠ / ٢٠٠٢م بضخ مياه نبع الوزانى لتروى ظمأ (٢٥) قَرْية، وستين بلدة تابعة فى الصعيد اللبنانى، وقد حُرمت جميعها من المياه العذبة منذ فترات طويلة، وقد تم الاحتفال وسط وجُود مكثف للجيش اللبنانى، وقوات حزب الله، والمقاومة اللبنانية، وبحضور الرئيس اللبنانى (أميل لحود) الذى فأجا الحضور بوصوله للمشاركة فى تلك المناسبة التاريخية التى حضرتها جميع القوى السياسية الطائفية اللبنانية، كما شارك فى الاحتفال السفراء العرب المعتمدون فى لبنان، وممثلون عن جميع الدول الأوروبية، بينما قاطعته أمريكا التى سارت كالعادة على هدى الموقف الإسرائيلى.

أما إسرائيل فقد أنكرت على لبنان حقه فى استخدام موارده المائية، وثرواته الطبيعية، ليظل الجنوب اللبنانى يعانى من معوقات التنمية الاقتصادية والبشرية والاجتماعية.

وفى أول رد فعل رسمى إسرائيلى أعلن « شيمون بيريز » وزير « الحقيبة الفارغة » أن إسرائيل تحتفظ بحقها فى الدفاع عما وصفه بمواردها المائية، وأنها - إسرائيل - لن تقبل بتدابير من جانب واحد ولها أن تدافع عنها طبقاً للقانون الدولى.

أما شارون رئيس الوزراء فقد أطلق تهديدات قوية ومباشرة ضد لبنان متهما إياه بسرقة المياه التى تغذى بحيرة طبرية، والعمل على تجفيفها وهى المصدر الرئيسى للمياه العذبة فى إسرائيل.

وحمل شارون بعنف « وبقلة أدب » على الحكومة اللبنانية وحزب الله، مؤكداً

استعداده للتدخل العسكرى الفورى للحيلولة دون استكمال المشروع بالقوة، والتهديد بنسف ما تم إنجازه على أرض الواقع، وزعم فى تصريحاته للتليفزيون الإسرائيلى، ومندوبى الصحافة العالمية أن ما أقدم لبنان على تنفيذه هو عمل استفزازى من جانب اللبنانيين لأن مياه نهر الليطانى (على حد قوله) تذهب هدراً إلى البحر، وأنه بإمكان لبنان الاستفادة منها والاستغناء عن نبع الوزانى.

وجاء رد الأمين العام لحزب الله سماحة الشيخ القائد الفذ« حسن نصر الله » حاسماً وقوياً وبليغا، فقد أعلن الشيخ استعداد رجال حزبه للرد على أى اعتداء إسرائيلى على مشروع الوزانى، وأكد أن المقاومة جاهزة للرد خلال دقائق على أى اعتداء إسرائيلى محتمل على مُنْشآت المشروع، وأوضح مجاهراً أن الرد سيكون بضرب أهداف إسرائيلية منتقاة، ومحددة سلفاً وأنها مرصودة بدقة، وأضاف أننا جاهزون لمواجهتها، وأكد الشيخ على أن لبنان سيستعيد حقه فى المياه دون قيد أو شرط، ودون أى وعود أو ضمانات لأحد.

أما الرئيس اللبنانى « أميل لحود » فقد علق على تلك التهديدات الغوغائية، والتصريحات الإسرائيلية الاستفزازية بقوله: ان هذه التهديدات لن تحول دون حصول لبنان على حقوقه المشروعة فى مياهه، وطالب لحود الأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبى، والولايات المتحدة، اتخاذ ما يرونه مناسباً لردع هذه التهديدات، والاعتداءات المتكررة من جانب الإسرائيليين.

ومن جانبه فقد أكد رئيس الوزراء اللبنانى « رفيق الحريرى » رفضه القاطع للتهديدات الإسرائيلية، وأعلن رفضه لاقتراحات شارون بالاكتفاء باستخدام مياه نهر الليطانى بدلاً من الوزانى الذى ينتهى رافده عند الحاصبانى شمال فلسطين المحتلة (إسرائيل) وشدد على أن لبنان سيمضى قدما فى تنفيذ مشروعه الوطنى لنقل (٩٠٠٠,٠٠٠) متر مكعب من مياه الوزانى بدلاً من (٧٠٠٠,٠٠٠) إلى قرى الجنوب المحرومة قبل أن تنساب إلى نهر الأردن وبحيرة طبرية.

وفى محاولة نشطة تستهدف تخفيف حدة التوتر أوفدت الولايات المتحدة مبعوثاً لها لتهدئة الموقف حتى لا ينفجر الصراع فى الأزمة الراهنة آنذاك، حتى لا تعرقل هذه التطورات التحضيرات العسكرية التى تقوم بها استعداداً لغزو وشيك للعراق (آنذاك).

كما أوفد الأمين العام للأمم المتحدة مبعوثه (تيرى لارسن) إلى المنطقة للقيام بمهام مكوكية بين تل أبيب وبيروت[١].

ومن جانبها فقد تمادت إسرائيل فى ادعاءاتها عن طريق وزرائها الموفدين إلى

---

(١) مجلة أكتوبر الأربعاء ١٦ / ١٠ / ٢٠٠٢ - ع ١٣٥٦ ص ١٧.

أوروبا فى محاولة دنيئة ومغرضة ضد لبنان - فحواها أن لبنان يعتزم تحويل مياه نهر « الحاصبانى » الذى ينبع من لبنان، ويسير مسافة ٥٠ كم فى أراضيه قبل أن يصب فى بحيرة طبرية، ومن ثم فإنه يحرم إسرائيل من أهم مصدر للمياه العذبة.

وقد باءت المساعى الإسرائيلية بالفشل، وتجلى كذب ادعاءاتها أمام الخبراء الأمريكيين والأوروبيين الذين جاؤا إلى المنطقة لدراسة المشكلة ومعاينتها على الطبيعة، والتعرف على المشروع اللبنانى وقراءة أبجدياته.

وتشير الشواهد إلى أن منطقة الشرق الأوسط ستصبح عما قريب ميداناً كبيراً لحرب المياه، التى بدأت مقدماتها منذ فترة من الوقت خاصة بعد أن ثبتت فعلاً أن إسرائيل تقوم بسرقة المياه من نهر الليطانى، ونهر الأردن، بالإضافة إلى سرقة المياه الجوفية التى يتم سحبها من تحت أراضى الضفة الغربية لزراعة أراضى الإسرائيليين - بينما هناك ما يقرب من المائة ألف عربى فى المنطقة العربية من الهلال الخصيب وفى جنوبه، يعيشون على حصة مائية محدودة، وهم لا يملكون تدفقها ولا استمرارها لأن « محبس » هذه المياه فى يد الأتراك الذين ارتبطوا مع الإسرائيليين بمعاهدات مياه طويلة الأجل.

ومن ثم فإن تركيا سوف تفتح المياه لمن شاءت وقت أن تشاء، طالما لم تتمكن دول جوارها العربى من توقيع بروتوكولات أو اتفاقيات رسمية تضمن الوفاء الدائم بحصصها واحتياجاتها من المياه العذبة التى تنهال من الأراضى التركية، بينما تمكنت إسرائيل من تحقيق نصر كبير، ومكسب عظيم، بعد أن نجحت فى استثمار التوترات العربية التركية فى الآونة الأخيرة، فاستطاعت توقيع اتفاقيات سياسية وعسكرية ومائية تضمن لها تعاونا فى كل المجالات وفى مقدمتها ما يضمن لها شراء الحصص التركية فى المستقبل.

وإذا انتقلنا إلى مصر لوجدناها تعتمد اعتمادا كلياً على مياه النيل القادمة من منطقتى الوسط والشرق الأفريقى، وهى المناطق التى كثيراً ما تتعرض لكوارث الجفاف الطويلة، كما تعتمد كذلك على المياه الجوفية فى سيناء، وفى الصحراء الغربية (الوادى الجديد، سيوة) وآبار أخرى متفرقة، بالإضافة إلى قليل تعتمد على مياه الأمطار فى أقصى الشمال الغربى. وكل هذه المصادر غير آمنة، وغير كافية إذا ما استثنينا نهر النيل فى الاعتماد على تلك المصادر.

أما نهر « النيل العظيم » فإنه سيكون عرضة فى السنوات القادمة لموجات من التدخل العدوانى السافر الذى يتمثل فى إقامة السدود على مجريات الأنهار والروافد المغذية له، وهو احتمال تنكره الأطراف صاحبة المصالح الاستراتيجية فى أفريقيا والتى يأتى على رأس أولوياتها مشروع تقسيم السودان تحت شعار (حق تقرير المصير - إياه) - وهو طليعة المشاريع الاستعمارية المتوغلة والمتغلغلة فى مناطق الوسط والقرن

الأفريقى خاصة، وعلى الرغم من إنكار هذه الأطراف الدائم لهذه الفكرة إلا أنها ستصبح الخيار الاستراتيجى الأول (رقم ١) ضد مصر، وخصوصاً إذا ما شرع الأردن وإسرائيل فى تنفيذ مشروعهما المشترك بحفر قناة بين البحرين وتحقيق حلم هيرتزل القديم، وهو المشروع الصهيونى الذى روج له الأردن العربى.

إن المياه تحتل رأس الأولويات الأستراتيجية فى السياسة الإسرائيلية، وهى تمثل صلب العقيدة الصهيونية من أساسها، وما يؤكد هذا القول أن ما كان يسمى بمباحثات السلام على المسار السورى الإسرائيلى قد توقف إلى غير رجعة، بسبب الاصرار الإسرائيلى على التمسك الأبدى ببحيرة طبرية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن قضية المياه تؤثر فى المفهوم الفكرى لنظرية الأمن لدى إسرائيل.

إذ أن وفرة المياه تعنى استمرار القدرة على التنمية والتطوير، لا من أجل ضمان التفوق العسكرى والنوعى والتقنى على دول الجوار فحسب، بل على العالم العربى كله، وبهذا المفهوم تجتهد إسرائيل على أن تبقى دائماً هى المسيطرة وبشكل مطلق على مصادر المياه سواء فى فلسطين التاريخية أو فى دول الجوار، لرغبتها الجامحة فى السيطرة الكاملة على المياه العذبة ومصادرها، باعتبارها حقا إسرائيليا مشروعاً لا يقبل المساس أو النقاش فتوجهت شمالاً سلماً صوب تركيا، ثم توجهت عسكرياً صوب الجنوب، وأقحمت نفسها عنوة فى الصراع الدائر منذ ما يزيد على الربع قرن من الزمان، والذى أسفر عن مقتل أكثر من مليون ونصف المليون شخص، وتهجير ونزوح ما لا يقل عن أربعة ملايين آخرين بالاضافة إلى التهام المكاسب السودانية فى شتى الميادين، وذلك بسبب مطالبة الجنوب السودانى بالانفصال عن حكومة الخرطوم المركزية. يدعمه فى مطلبه كل من الفاتيكان وبريطانيا وأمريكا، وبتدخل إسرائيلى مباشر على مستويات التدريب، والاعداد، والتخطيط، والتمويل.

ولأن إسرائيل تؤمن يقينا بأنها لن تكون إسرائيل القوية إلا على حساب مصر الضعيفة، فقد كثفت مجهوداتها لتصل إلى الجنوب السودانى ودول جواره، وتحالفت مع القوى المعادية، بعد أن حددت أهدافها التى ذهبت لأجلها، وفى طليعتها الاضرار بمصر، عن طريق إغراء حكومات تلك المناطق بحل مشكلات الفقر، وإقامة نهضة شاملة تنموية زراعية وصناعية وبشرية وتكنولوجية - مع الترويج بأن ذلك لن يكون بغير إقامة السدود على مصاب الأنهار عند منابع النيل وتحويل مسار روافده ما تيسر، وبالتالى فإن مصر ستتضرر ضرراً مباشراً وبليغاً، وسوف يتعين عليها آنئذ البحث عن حلول لمشاكلها المائية التى تهدد وجودها فى مقتل.

فلا يصبح أمامها غير التفاوض مع الشركات المالكة لتلك السدود، وحكومات

الدول التى تقع فيها السدود، وكلها حكومات مخترقة بالتمام، الأمر الذى يعنى فى نهاية المطاف تزويد إسرائيل بمياه النيل لزراعة صحراء النقب الواسعة.

وهكذا تشير الشواهد إلى احتمال نشوب حرب المياه عما قريب وعلى جبهتين، ويحتدم الصراع ويتطور الحوار.

* * *

(جـ) اللهيب

لا يختلف اثنان ممن يقرأون الأحداث ويستوعبون ما بين سطورها على أن الولايات المتحدة الأمريكية هى دولة استعمارية من طراز فريد، وأنها القاعدة الأولى التى بُنى عليها الارهاب الدولى بكل صوره وأشكاله، كما أنّها هى التى تحدد له مساراته وتدعمهُ بأدواته، بغرض خلق مناطق ساخنة وحدود ملتهبة ومشاكل مزمنة فى شتى بقاع العالم، وهى وحدها تمسك بمفاتيح الحلول، وخططها، بحيث يعجز العالم عن إيجاد صيغة مقبولة لحلول مشاكله، فيلجأ مكرها إلى الارتماء بأحضان الأمريكيين.

والشاهد الحى على ذلك أن مشكلة الشرق الأوسط منذ صدور قرار تقسيم فلسطين الصادر عن الأمم المتحدة برقم ١٨١ لسنة ١٩٤٧م وحتى الآن، وعلى الرغم من قيام إسرائيل فى ٥ / يونيو / ١٩٦٧م بعدوانها السافر على الأراضى العربية واستيلائها على الأراضى التى خصصها القرار للفلسطينيين، وتجرؤها بإعلانها ضم القدس إلى أراضيها، وتأكيدها على أنها لن تعود إلى العرب مرة أخرى بعد أن أصدر الكنيست عدة قرارات بضمها نهائياً إلى إسرائيل – أى – التأكيد على تجنيبها لأية مفاوضات مقبلة مع العرب، وعلى الرغم من احتلالها أراضى عربية لازالت تحت سيطرتها إلى الآن. إلا أن الولايات المتحدة لم تقرر بعد القضاء على أسباب النزاع، وحل الصراع الذى تجاوز عمره أكثر من نصف قرن رغم احتكارها وحدها لمفاتيح السلام فى المنطقة والعالم.

ولم تستطع الولايات المتحدة حسم حربها على اليابان بغير القنبلة الذرية ودخلت فى صراعات مع كمبوديا وفيتنام، وتورطت فى حروب كثيرة وضربت بطائراتها ليبيا عند منتصف الثمانينات، وأرسلت طائراتها المقاتلة لخطف طائرة مصرية مدنية تقل أحد القيادات الفلسطينية من القاهرة إلى تونس فى فترة ولاية « رونالد ريجان » – ، وألقت عشرات الآلاف من أطنان القنابل والصواريخ على أفغانستان، وقصفت أهدافاً بالطائرات فى اليمن، وأخرى بالصواريخ العابرة فى السودان، واحتلت مؤخراً العراق، ووفرت غطاءات كبرى لإبادة المسلمين على نحو ما ذكرنا وما سيرد منه.

وفى الوقت الذى يتشدق فيه القادة والسياسيون الأمريكيون بالكلام عن السلام وتأكيد شعاراتهم البراقة فى نيل صداقة شعوب العالم، ونشر ثقافة الشعار الماسونى الصهيونى المسمم (الحرية، والإخاء، والمساواة) ويؤكدون فى المحافل الدولية على تعميق حقوق الإنسان والتأكيد عليها، يبرز دور السى. آى. ايه » فى تمويل العصابات الإجرامية (الإرهابيين) الذين هم من صنع أمريكا ذاتها.

ولازلنا نذكر عبقرية الأمريكيين الذين حملوا على عاتقهم تحرير أفغانستان من الاحتلال السوفيتى، وتَبَنّى قضايا المسلمين، فدفعت أمريكا للقائد الأفغانى « قلب الدين حكمتيار »- ألف مليون دولار خلال فترة الحرب ضد الروس. حتى تم دحر الاحتلال الروسى وطرده منكسرا ذليلا.

بيد أن ذلك الدعم لم يكن حباً فى المسلمين، ومساعدتهم فى الحصول على تحرير النفس والإرادة من المحتل الدخيل، لإنها فى الحقيقة لا تريد للراية الإسلامية أن ترتفع، ولا للعالم الإسلامى أن يتقدم ويزدهر.

ولذلك سرعان ما دخلت الولايات المتحدة فى مواجهة صريحة وواضحة مع ما دبرت عقُول ساستها ومخابراتها وما صنعت يداها من الإرهابيين الذين اصطنعتهم لنفسها وعلى عينها وبتمويلها، بعد أحداث ١١ / ٩ / ٢٠٠١م.

وظهر جليا ما سمعنا به وَبَرزَ على الساحة الأيديولوجية المسمى (صدام الحضارات)، وهو المعترك الذى بدت فيه الدول العربية والعالم الإسلامى كله وهم عاجزون جميعاً مستكينين وكأنهم على رؤوسهم الطير لا يَسْتطيعون حتى مجرد الوقوف فى موقف الدفاع عن أنفسهم أمام الاتهامات الأمريكية العلنية بأنهم ارهابيون، وقد ربطت بين الإسلاميين، والإرهاب كظاهرة، من دون سبب جوهرى، وبلا مبرر شرعى، غير ما ادعت به الولايات المتحدة وتسببت فى حدوثه ثم نسبته فى نهاية المطاف إلى المسلمين، والمحسوبين على الإسلام.

استمرت الولايات المتحدة فى تفعيل مخططاتها، وبث سمومها حتى ترسخ فى الوجدان الأمريكى، واستقر فى العقل الغربى وسواس مرض أَوْشَكَ أن يغتال العقل الغربى عامة، وهو العمل المستمر على مناهضة الظاهرة الإسلامية وحصارها، وضرب المسلمين فى كل مكان وحين، وتشويههم، والإساءة إليهم لأن ذلك يأتى فى إطار مفاهيم الحلول الوقائية التى تفضى إلى الحروب الاستباقية (الوقائية)، وهى كذلك تمثل سياسات أمنية مريحة وشافية من هاجس مزعج يسمونه (الإرهاب الإسلامى) الذى يشبه سرطانا لا يعلم مدى خطورته وحجم تأثيره أحد من بنى البشر.

وهذا هو الخطر المصنوع، والذعر المفتعل، خاصة مع التأكيد على أن الإرهابيين الذين صنعتهم السى آى إى، والموساد هم إرهابيين مسلمين.

بينما تؤكد الدلائل أن (الموساد الإسرائيلي، و CIA) دون سواهم هم صناع هذا الإرهاب الخسيس الذى يهدف إلى تشويه الإسلام وتبرير هدمه وقتل أتباعه، كما يرمى كذلك إلى زعزعة نظم الحكم فى العالم الإسلامى، وإفقار المسلمين وتجويعهم، ليقف الجميع أمام العتبات الأمريكية متسولين للصداقة الأمريكية، والسلام الأمريكى، والقمح والأمريكى.

أما عالمنا الإسلامى من دون استثناء، أخذ قادته ومسئولوه يبحثون عن تصحيح صورة بلادهم، واجتهد المثقفون، والمفكرون، والسياسيون فى نفى التهمة عن بلادهم، وحاول الكثيرون الحديث عن حقيقة الإسلام، وشرح سماحته، وبيان رسالته فى المحافل الدولية، والمنتديات العالمية، كما اجتهدوا كثيراً فى سبيل تصحيح صورتنا التى تم تشويهها عمداً، وكأنهم آسفون نادمون متحسرون وبشدة على أحداث ١١ / ٩، وأصرت الصحافة العربية يُساندها الإعلام الرسمى على مسايرة اللحن الأمريكى الأوروبى والرقص على إيقاع القول بأنهم إسلاميون. وهو اللحن الذى لا يهدف إلى هدف سوى الإساءة إلى الإسلام، وتشويه رسالته، وتبرير اجتثاثه من جذوره.

وقد فات هؤلاء من بنى ديننا وأوطاننا أن تداعيات سبتمبر كانت آتية آتية، سواء وقعت هذه الأحداث أو لم تقع، سواء كذلك أنها وقعت فى سبتمبر أو إبريل التى كانت سببا ظاهرا لظاهرة جديدة أخرجها الأمريكون إلى الوجود، تلك هى ظاهرة العقاب العالمى الجديد، أو تأديب العالم من جديد، كمرادف لنظام أسموه النظام العالمى الجديد الذى استعانت لأجله الولايات المتحدة بطغيانها وجبروتها وقوتها وسلاحها، كى تفرض هيمنتها على العالم، ابتداء بالشعوب المقهورة التى لا تملك إلا التوقيع على عقد إذعان للدولة الأعظم فى ظل نظام اللانظام الأمريكى الجديد.

وقد تسابقت الدول الإسلامية إلى تقبيل العتبات، وإعلان الرغَبات فى التعاون البنّاء مع « وحيد القرن » الذى تجهّز تماماً وبدأ ينقض للقضاء على الإسلام والمسلمين، وبدلاً من أن نقف جميعاً كعرب ومسلمين فى مواجهة هذه المخططات الشيطانية لإجهاضها قبل أن تضع مولودها، وإفشالها فى طورها الأول، رُحنا نَبْحث عن أخطائنا، ونستكشف مسئولياتنا فى ما حدث، وأرسلنا رُسُلنا لتصحيح الصورة لدى الغرب التى شوهها الغرب ذاته وكأننا نقدم إقرارا بأننا مخطئون مع أننا لم نخطىء فى شىء.

إنما خطأنا الذى أثق بوقوعه أننا عاجزون عن أن نصدق أننا جميعاً أمام مخططات شيطانية، ومؤامرات جهنمية، تعمل جاهدة على سحق المسلمين، والقضاء على حضارتهم، حتى يتمكن المخططون من اعادة تشكيل التّرْكيبة الثقافية، والعقائدية والجغرافية، والطبوغرافية لا فى منطقة الشرق الأوسط فحسب، بل فى العالم كله، ولكن انطلاقا من قاعدة الشرق ذاته باعتباره محور حياة الكرة الأرضية والعالم، ومهبط الديانات والكتب السماوية، وهو لذلك يحتل بؤرة اهتمامات وحيد القرن، إنها المؤامرات التى لا تجدى معها المسايسة أو المهادنة ولاحتى التحامل بالمجاملة.

ولكن الذى ينفع معها. الاستعداد للمواجهة. إعمالاً للقاعدة المنطقية، والأقوال الأثرية. «الحديد بالحديد يُطرق».

* * *

(د) العراق فى العيون الوقحة

أوردت بعض المصادر الإعلامية العالمية (الرسمية والمستقلة) فى بعض من دول العالم تقريراً (أوروبيا) اشترك فى صياغته جهابزة المثقفين، والسياسيين والعسكريين الغربيين، وقد جاء فيه:

إن سياسة الأمن القومى الأمريكى التى استقرت عليها الولايات المتحدة منذ سنوات طويلة تعتمد على ضَمَان تفوق أمريكى ساحق على أى قوة أُخرى فى العالم، وعلى توجيه ضربات وقائية ضد أى دولة أو مجموعة دول ترى واشنطن أنها يمكن أن تهدد الآن أو فى المستقبل المصالح القومية الأمريكية الاقتصادية أو الأمنية.

وأضاف التقرير الذى نشر فى النصف الثانى من عام (٢٠٠٢) أن الولايات المتحدة تستهدف من حربها على العراق - بالإضافة إلى سيطرتها الكاملة على احتياطى البترول الضخم - فرض عزلة كاملة على إيران التى ستصبح مطوقة تماماً بالنفوذ الأمريكى إلى أن تذعن وتتعاون مع الولايات المتحدة ومخططاتها للهيمنة على المنطقة.

كما يشير التقرير إلى أن العراق بعد سقوط صدام حسين وخضوعه للولايات المتحدة سيصبح دولة علمانية حديثة متحالفة مع الغرب، ويمكن أن يكون نموذجاً للإزدهار والتقدم فى المنطقة العربية بكاملها ويصبح مركز الثقل فى الشرق الأوسط، كما أن العراق يستطيع إعادة صياغة حضارة المنطقة بأكملها لأنه سيبعدها عن الإسلام السياسى والقومية العربية المعادية للغرب ولإسرائيل.

ولا شك أن العراق فى هذه الحالة خاصة إذا ما تم إخضاع بتروله للتكنولوجيا المتقدمة، سيصبح الدولة المحورية الأولى بالمنطقة، وبالطبع سيكون أكبر محمية أمريكية على امتداد منطقة تشمل أوزبكستان وطاجكستان وأفغانستان، والخليج، وفي هذه الحالة ستجد ايران نفسها مرغَمة على التكيف والتأقلم مع هذا الوضع، إما بالرضوخ للقوة الأمريكية، وإما بالتنسيق معها.

ولعل تأكيد الرئيس الأمريكى على تعهد الولايات المتحدة بإعادة إعمار العراق بعد تدميرها، والحفاظ على وحدتها الإقليمية يؤكد حقيقة رؤيته ضد العراق، فبمثل هذا التعهد يصبح العراق تحت الحماية الأمريكية.

وهذه بعض مفردات التقرير الذى صاغه مجموعة من الخبراء والسياسيين والعسكريين الإسرائيليين.

أما إسرائيل فقدواتتها الفرصة الذهبية مع سرعة وتيرة الأحداث التى تمر بها المنطقة، للعمل على تدمير أعدائها ولضمان تفوقها الإقليمى على العرب. طبقاً لما أورده التقرير الأوروبى سالف الذكر - والذى جاء فيه: أن أمام إسرائيل فرصة كبيرة لإعادة ترتيب الجوار الإسرائيلى، ولتتمكن من تحقيق حلمها بالسيطرة الكاملة على فلسطين التاريخية والضفة والقطاع، خاصة أن لدى الإسرائيليين خطَط موجودة لإرغام الفلسطينيين، وحملهم على التخلى عن أراضيهم وديارهم، وقد ضمنت تلك الخطط ترشيح العراق لتهجير الفلسطينيين إليه بعد أن يصير محمية أمريكية يساهم عمليا وجديا فى تنفيذ الاستراتيجية الأمريكية، وهى خطط غيْر طويلة الأجل، وهى كذلك غير قصيرة، فهى ترتبط باحتواء المقاومة العراقية، وجعل الأمور تحت السيطرة.

لذلك ذهبت إسرائيل مبكراً إلى العراق كما دخلته مبكراً قبل إعلان الحرب عليه لتقييم[1] الأوضاع، ودراسة السبل الكفيلة، والوسائل المتاحة، والتعرف على الطبيعة النفسية والسلوكية للعراقيين، للدراسة الجادة والمستفيضة والمتأنية قبل تهجير الفلسطينيين إلى هناك، بينما يتم تخدير الزعامات العربية، والضحك على الغلابة من الشعوب العربية وتهيئتهم لتقبل أعمال الترانسفير بعد أن يحصلوا على رشوة جديدة يغلفها لهم حكامهم وقياداتهم كتلك التى كانت قبيل احتلال العراق والمسماة «خارطة الطريق».

وكفانا عار أننا سبع وأربعون دولة إسلامية نربوا على المليار ومائتى ألف مسلم

(١) انظر وحيد القرن ورياح التغيير/ للكاتب.

نقف مكتوفى الأيدى، وعلى رؤوسنا الطير، مكتفون بالمشاهدة والتحسر ومصمصة الشفاة، وربما كان ذلك خشية المارد الأمريكى اللعين – والله أحق أن نخشاه.

ولم لا، وقد أعلنت إسرائيل رسميا عند منتصف أكتوبر ٢٠٠٣م كما ذكرت وكالات الأنباء – أن الولايات المتحدة الأمريكية أعطت لإسرائيل الضوء الأخضر وجواز المرور بوجوب أحقيتها فى توجيه ضربات استباقية (وقائية) ضد الدول العربية التى ترى فيها خطراً عليها، وعلى مصالحها، وقد ذكر (شاؤول موفاز) وزير الدفاع الصهيونى أن إسرائيل مستعدة لتوجيه ضربات وقائية لكل من إيران وسوريا ومصر.

ومن أجل إضفاء الشرعية على تفعيل المخطط ضد طهران أُعيدت إلى الأذهان قضية تفجيرات « بوينس آيرس ولندن » من جديد فمارست أمريكا ضغوطا هائلة على الحكومة الأرجنتينية لإعادة فتح الملف من جديد، فروّجت وبشراسة للإدعاء بامتلاك أدلة جديدة تؤكد على تورط النظام الإيرانى فى تلك التفجيرات، كما حاولت الضغط على لندن لأن تسلك ذات المسلك بعد أن طُويت تلك الصحفات منذ عام ١٩٩٤م.

وكانت المفاجأة أن كُلاً من « بوينس آيرس ولندن » أكدتا على عدم تورط إيران، وبادرت انجلترا بتبرئة ساحة الإيرانيين، وقال مسئولوها أنهم لم يعثروا على بيِّنة تدينها. وفى مطلع الأسبوع الثالث من يوليو ٢٠٠٣م وأثناء احتفال إقامة الحرس الثورى الإيرانى، وبثه التليفزيون الرسمى فى ذات الوقت، وقد حضره المرشد العام الأعلى للجمهورية الإسلامية (آية الله على خامنئى) الذى أكد على أن الشعب، وقواته المسلحة أصبحاً مستعدين للدفاع عن أهدافهم فى أى مكان، وعرض التليفزيون صوراً لنحو ألف جندى على الأقل يتوسطهم ثلاثة صواريخ « شهاب : ٣ » القادر على ضرب إسرائيل ، سارعت إسرائيل إلى استثمار ذلك التصريح استثماراً جيداً، وملأت الدنيا بصراخها الذى أعلنت من خلاله على العالم أن الصاروخ الإيرانى الجديد بمثابة تهديد للمنطقة بأكملها. وعزفت إسرائيل على وتر الخطر الإسلامى من جديد.

وقال (ديفيد سارانجا) المتحدث باسم الخارجية الإسرائيلية، أن صاروخ شهاب القادر على الوصول لإسرائيل بالإضافة لقدرات إيران النووية المحتملة تمثل تهديداً ليس فقط على إسرائيل، ولكن على المنطقة بأسرها وكذلك أوروبا[١] ومع مطلع أكتوبر ٢٠٠٣م عادت الأرجنتين تحت الضغط الأمريكى الشديد، والوعود الإسرائيلية

---

(١) الأهرام القاهرية ٢١/ ٧/ ٢٠٠٣.

المغربية عادت إلى إثارة الشبهات حول بعض الدبلوماسيين الايرانيين، وألقت السلطات الأرجنتينية القبض عليهم بحجة تورطهم فى التفجيرات «إياها»، فيما يُعد استجابة واضحة للضغوط التى مورست على الحكومة الأرجنتينية لاعادة فتح الملف من جديد.

ألقت هذه المشكلة بظلالها على العلاقات الإيرانية من جانب، والأمريكية والبريطانية الأرجنتينية من الجانب الآخر.

وكانت من أبرز الانعكاسات السلبية للتطورات المفاجئة ما جاء على لسان وزير الدفاع الإسرائيلى - موفاز - بأن إسرائيل ستنسف أربع قواعد عسكرية إيرانية فى العمق الإيرانى تمثل تهديدا خطيرا لأمن إسرائيل «حسب زعمه».

وقد أكد المراقبون والمهتمُّون أن إسرائيل لم تتحدث بهاتين (الثقة، والقوة) عن توجيه ضربات وقائية إلى «إيران - وسوريا - ومصر» إلا بعد أن حصلت على الموافقة الأمريكية الضرورية جداً فى مثل هذه الأحوال خاصة وأنهما يجمعهما هدف مشترك فى مواجهة عدوهما المشترك «المسلمين، ومع التأكيد على أن هناك تقارير أمريكية تتهم مصر صراحة بأنها دولة ترعى الإرهاب.!!!

أصبحت طهران على مُشارفة وضع جديد، بعد أن عاشت وسط الأحداث التى وقعت على أرض العراق الجار وبعد أن شاهدت نهايته ومآله.

وفى مساء ٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٣م أعلن وزير الخارجية الإيرانى استعداد طهران غير المحدود للتعاون مع مفتشى الهيئة الدولية للطاقة الذرية. فيما يعد تحولاً كبيراً فى السياسة الإيرانية الرافضة لمجرد إعلان القبول على توقيع اتفاق إضافى بشأن منشآتها النووية، ويعد هذا بمثابة المدخل الأمريكى لانتزاع اعتراف ايرانى بمسئوليتها عن تفجير (لوكيربى الجديدة) - (لندن، وبوينس آيرس) - هذا غير اللعب بالداخل الإيرانى ذاته عن طريق إثارة طلبة الجامعات والليبراليين الجدد، ودعاة الحرية والاخاء والمساواة (إياها) باستخدام النفير[١] الأكثر والأسرع فى التأثير مع انتشار الفضائيات والانترنت فهل تتغير العقيدة الايرانية وتصبح شريكا قوياً وحليفاً استراتيجيا للولايات المتحدة يعملان سويا بالتنسيق المشترك. أم ترضخ للغة القوة - ويتطور الصراع وستبدى لنا الأيام ما لسنا نعلمه خاصة بعد المفاجأة الكبرى التى فجرها الرئيسى الليبى القذافى فى نهاية ديسمبر ٢٠٠٣م بإعلان تخلى الجماهيرية عن برامجها النووية، وتعاونها غير المحدود مع الهيئة الدولية للطاقة الذرية.

---

(١) وسائل الإعلام.

(هـ) الحراب نحو الكعبة المُشَرَّفَة

تبدو عملية نقل مركز القيادة الجوية من قاعدة الأمير سلطان بن عبدالعزيز إلى قطر، وإخلاء قاعدة الظهران إلى جانب تأمين إسرائيل على نحو ما ذكرنا سابقا: لتكون إحدى خُطوات التآمر الأمريكى - الإسرائيلى لتفعيل مخططاتهما ضد المملكة العربية السعودية، وهى المخططات التى تأتى فى إطار الاستمرار فى الحملات الصليبية على الشرق والهادفة إلى تنصير المسلمين، وإقامة إسرائيل الكبرى، وتمهيد الطريق للهيمنة الأمريكية.

وقد تزامن الإعلان عن إخلاء تلك المناطق مع وصول وزير الدفاع الأمريكى (رامسفيلد) إلى السعودية فى ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٣م لتَطْييب خواطر المملكة وطمأنتها من الهواجس التى تجول فى صدور السعوديين بسبب بلوغ ممارسات الضغط ذروتها من جانب [المحافظين الجدد] أوْهُم اليمين المتطرف - على الإدارة الأمريكية لفرض عقوبات شاملة على المملكة السعودية وعزلها ومصادرة أموالها أو تجميدها، فى اطار سياسة التصعيد الهادفة إلى إسراع الخُطى فى إعادة رسم وتشكيل الخريطة السياسية والجغرافية، والسكانية للمنطقة وعلى ذلك استمرت جماعات الضغط فى الكونجرس الأمريكى، وفى الإدارة الامريكية اليمينية المتطرفة التى يسبقها (رامسفيلد) ذاته فى التصنيف، وفى داخل البيت الأبيض فى الضغط بشدة على الحكومة السعودية التى لم تعلن على شعبها حقيقة الأوضاع الراهنة.

وقد كان الحاصل الأولى بعد سقوط العراق هو الإحساس المتبادل بخفض الحاجة المتبادلة بين المملكة وأمريكا، خاصة مع تزايد حساسية السعوديين تجاه أمريكا إلى أعلى مستوى، كما أن الضيق الأمريكى من السعودية آخذ فى الوضوح إلى درجة التصريح الجهرى بأن السعودية هى « بذرة الشر ».

وهذا التصريح يحمل « دلالة » خاصة تؤكد على أن السعودية هى الخلية الأولى للإرهاب الذى يشهد نَبْتَهُ الأول على أراضيها، وهو قول دقيق وخطير لا يجب أن يمر هكذا - كما مرت (خارطة الطريق)، خاصة وأن الحديث عن السعودية محمول على سيقان التاريخ ذو الجذور البعيدة فى الأعماق -وهو حديث عن حرقها وتدميرها. من ذلك مثلا ما قاله المستشرق الفرنسى كيمون فى كتابه « باثولوجيا الإسلام »: وأعتقد أن من الواجب إبادة خُمس المسلمين، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع محمد وجثته فى متحف اللوفر.

كما صرح أحد رؤساء الصرب فى جمهورية البوسنة والهرسك التى دمرها

الصرب على مرأى العالم ومسامعه الملتزم بالصمت الرهيب والمصاب بالعجز الكامل «إننا متسعدون أن نخسر (٣٠٠) ألف جندى لإبادة المسلمين من سراييفو إلى مكة»[١] .

أما رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق ابن جوريون فقد قال (نحن لا نخشى الاشتراكيات ولا الثوريات ، ولا الديمقراطيات فى المنطقة، نحن نخشى فقط الإسلام هذا المارد الذى نام طويلا وبدأ يتململ من جديد » .

وقد تحدث مؤخراً شيمون بيريز رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق، ورئيس حزب العمل السابق والمتظاهر بمظهر حمامة السلام البيضاء فقال (إنه لا يمكن أن يتحقق السلام فى المنطقة مادام الإسلام شاهرا سيفه، ولن نطمئن على مستقبلنا حتى يغمد الإسلام سيفه إلى الأبد) .

ولا حرج إذا فى نعت المتشددين الفلسطينيين بالإرهاب كما سبق طبقا لرؤية « بيريس »، والسعودية يا سادة هى نبت الإسلام الأول، والأرض الطيبة التى شب عليها وهى القاعدة التى انطلق منها ليملأ رحاب العالم عدلا ونورا، ويقيم أعظم الحضارات البشرية التى عرفها التاريخ الإنسانى كله، وهى الينبوع المتجدد والوعاء الذى لا ينضب من تقديم المساعدات المادية والعينية للشعوب الإسلامية والعربية على السواء فى افغانستان والباكستان، والشيشان، والبوسنة – والصومال – والسودان – وموريتانيا وتتقدمهم فلسطين – كما أنها تقيم من دون كلل أو ملل المراكز الإسلامية فى ربوع العالم ومن أشهرها المركز الإسلامى الألمانى الذى افتتح مؤخرا، والجامعة العالمية الإسلامية فى باكستان والمعروفة باسم (شاه فيصل مسجد) .

ولذلك باتت وهى توصم بنعت جديدة قاله الكفرة الفجرة بأنها هى « بذرة الشر » - وهو تعبير فى غير محله ولا أجد ما أقول إلا قراءة ما قال تعالى : ﴿ **إنَّ اللَّه يدافِع عنِ الَّذِين آمنوا** ﴾ [الحج : ٣٨] .

* * *

رابعاً : إحياء الميت وإماتة الحى

نشأ فى المنطقة العربية وضع استراتيجى جديد، عبر عنه صراحة الشعب العربى كله، عندما صحا على وقع عمليات التدمير والتخريب، وعلى أرض الأديان وهى ترتوى بدماء الشهداء الفلسطينيين على اختلاف أنواعهم وأعمارهم كرد فعل قهرى لانتفاضة الحجارة الثانية (إنتفاضة الأقصى) التى بدأت شرارتها الأولى مع

---

(١) لماذا يخافون من العملاق ص ٣٧ .

دخول إيريل شارون وقطعان الخنازير البشرية إلى حرم المسجد الأقصى الشريف فى ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠م.

وقد تقدم هذا الوضع وتطور من صحوة إلى صيحة إلى صرخة مُدوّية تمادت أبعادها بما لم نرى مثيلا لها منذ وقوع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦م.

وقد أطاحت هذه الصيحة أو هى [الصحوة] بالمعادلة الإسرائيلية التى نادى بها « ايتامار رابينوفيتش » معلقا على فشل الجولة الأولى من المحادثات السورية - الإسرائيلية التى جرت عام ١٩٩٥م فى العاصمة الأمريكية حيث قال (نصر على أن يكون هناك كثير من التطبيع، وقليل من الانسحاب، كى نتمكن من قطف ثمار الاتفاق).

وهو قول يعبر بايجاز وبدقة عن الخط الاستراتيجى الإسرائيلى الثابت، ويلخصه، وهو الهادف إلى رفع عمليات التطبيع (السياسى، والاقتصادى، والثقافى، والإعلامى) . . . إلخ مع بلدان العالم العربى إلى أقصى مدى ممكن، دون التقيد بحدود جغرافية أو بأساليب وأنماط تُقيّد تطوير التطبيع نظريا وعمليا مع الحكومات العربية، وبغض النظر عن تركيبتها الثقافية والعقائدية، واعتمادا على بعض جماعات المصالح التى اتخذت ساترا لنشاطاتها غير المعلنة، والتى تسمى نفسها بجمعيات السلام مثل جماعة (السلام الآن) فى إسرائيل، وهم جماعة من الصهاينة المتشددين للنخاع، ونظرائها فى العواصم العربية والتى تكتظ برجال الأعمال وأصحاب المصالح الذين أطعمونا القطن الطبى فى لحم الدجاج الأبيض - وسقونا هيرمون منع الحمل مع مرقة الدجاج (البهاريز)، وأصابونا بالفشل الكلوى بالمبيدات الحشرية، وبالسرطانات فى الزيوت المهدرجة وأطعمونا اللفت على شكل خيار الصوب، وقدموا نهاية لنا البطيخ المميز بالقلب الأبيض من قلوبهم وما أظنه غير تسويق وتطوير وتنمية للمصالح الصهيونية على تنوعها، وألوان خططها، وأبعادها.

فإسرائيل تُخطّط لأن تكون الدولة القائدة، والرائدة فى المنطقة اقتصادياً وتكنولوجيا وعسكريا وماليا، ظنا من مُخَطِّطى استراتيجياتها أن ذلك يؤهلها لمساومة العالم الأول لإدارة شئون المنطقة من خلال مشروع « الشرق أوسطية » الذى طرحه شيمون بيريس تحت مسمى (الشرق الأوسط الجديد) ضمن كتابه الذى أصدره عام ٩٤، بينما تكون إسرائيل والأردن بعد تهيئته، وفلسطين بعد ابتلاع الضفة الغربية وقطاع غزة، أو سوريا إن أُدمجت فى النظام العالمى الجديد. هؤلاء يكوّنون قاعدة

الشرق الأوسط الجديد للإنطلاق نحو اختراق المجال الاقتصادى العربى، ومن ثم يمكن إعادة صياغة القرار السياسى العربى، بحيث يلتقى فى النهاية مع المصالح الإسرائيلية العليا الرامية إلى الهيمنة على صنع القرار العربى وصياغته فى غرفته، لتنفرد هى بالتحدث، وبتمثيل المنطقة كلها أمام العالم.

ولما كانت الحسابات الإسرائيلية محفوفة ومحاطة بسوء الظن من قبل الشعب العربى وهو (سوء ظن قائم على أسس فعلية لها فى التاريخ مواقع وصفحات) كان لابد من تدارك أبعاد هذا المخطط للحيلولة دون تمكين إسرائيل من البدء فى أبجديات هذا المشروع لأنه يحمل بين جنباته مخاطر مأساوية.

أما على مستوى الحكومات فإن بعضاً منها لهم آراء متباينة، وتأتى بعض دول الخليج فى طليعة الدول العربية التى تتسابق إلى اخراج هذه السوق إلى حيّز الوجود وتفعيلها غير أن هؤلاء القادة لن يستطيعوا أن يغيروا طبائع الأشياء التى جُبلت عليها، ومن ثم فإنهم لن يتمكنوا من تغيير نفسيات شعوبهم أو تحويل اهتماماتهم، وإنما أقصى ما يمكنهم فعله أن يقدموا إمكانيات شعوبهم وثرواتهم واقتصادهم كوجبة سائغة على طبق من ذهب إلى فم الذئب الجائع.

بينما هناك بعض الدول العربية لا تقف فى موقف الرفض فحسب بل تناهض هذا المشروع مناهضة جبارة من أهمهم العراق وسوريا واليمن والسعودية - هذا غير دول أخرى صبّت مجهوداتها فى اتجاهين الأول شمالى باتجاه السوق الأوروبية المشتركة، والثانى جنوبى باتجاه دول الاتحاد الإفريقى، وقد أخذت الأخيرة موقف الحياد السلبى، وامتنعت عن الإدلاء بدلوها فى هذا الموضوع الشائك والبعيد الرجاء.

أما الدول التى رفضت الخوض فى الحديث فى هذا الموضوع من حيث المبدأ، فقد تعرضت لسيول من التآمرات والعقوبات والفتن المدمرة.

وقد أفردنا موضوعات شاملة لما كان مع كل من اليمن والسودان وسوريا وليبيا والعراق على صفحات كتابنا وحيد القرن ورياح التغيير، ثم أوردنا فى لقائنا هذا بعضاً من المستجدات فى الحقيبة التآمرية. ونكتفى خشية الاطالة والملل.

وحيث أن إسرائيل تسعى ومنذ وقت مبكر لتشييد بوابة دخول العالم الأول على أرضها، لتمتلك هى وحدها حق التحكم فى مدخل السوق الإقليمية المزمع، وبالتالى إمكانية فتح الأسواق العربية أمام المنتجات الإسرائيلية، الأمر الذى يشجع

بالضرورة على جلب رؤوس الأموال، واستقدام المستثمرين إلى إسرائيل، بغرض الاستفادة من المعطيات فى تحويل إسرائيل كذلك إلى محطة تصدير للمنتجات العالمية إلى دول المنطقة.

ولعلنا نتدارك أن الحديث الإسرائيلى كان عن فتح باب التصدير (فقط) للدول العربية، ولم ترد فيه الاشارة إلى إمكانية تصدير المنتجات العربية إلى الخارج، بما يعطى دلالة على أن النيّة تتجه إلى استمرار العرب قابعين فى التخلف، يعانون من إغراق أسواقهم بالمنتجات الأجنبية، وإذا أرادوا الخروج من هذا النفق المظلم فعليهم جميعاً تقديم توكيل رسمى عام وشامل إلى إسرائيل بتفويضها فى دراسة تلك الظاهرة والبحث عن مخرج لها، وعندئذ ستتمكن إسرائيل من الامساك علنا بزمام الأمور لقيادة المنطقة نحو (روتردام) الشرق الأوسط الجديد[١].

غير أن المواقف العربية المتباينة أثارت حفيظة الإسرائيليين، فخرج شيمون بيريس محاولا تهدئة الخاطر العربى وبث الطمأنينة فى داخلهم؛ بمحاولة جادة لافهامهم أن إسرائيل لا تخطط للهيمنة على المنطقة العربية من خلال مشروعها السوق الشرق اوسطية فقال: ان حكاية الهيمنة كلام فارغ، وأن السوق الشرق أوسطية هى سوق تنافسية لا أكثر ولا أقل وتساءل. هل يمكن أن تُتَّهم اليابان بالهيمنة إذا راجت منتجاتها – إن التجارة تنافس ومنافسة.

وفى حديث بيريز مغالطة ومغايرة للحقائق عن إصرار وعمد، فالمنتجات اليابانية لا تساندها ترسانة نووية مكدسة على أراضيها أو فى الخارج كما هو الحال فى إسرائيل، ولا قوة عسكرية عظمى، ولا لوبى صهيونى يشكل قوة ضغط هائلة على صانعى القرار السياسى فى أقوى الدول وأعظمها على الإطلاق، وهى التى تُمسك بتلاليب النظام العالمى الجديد وبلا منافس، تلك هى أمريكا التى تقف بكل ما أوتيت من قوة، بترساناتها، وأساطيلها، واعلامها وراء إسرائيل، كما أنها تضغط وبكل قوة وبكامل امكانياتها بالوعد تارة وبالوعيد أخرى على زعامات المنطقة من أجل تَمرير صفقة السلام الإسرائيلى، وبالشروط الإسرائيلية. وليست أمريكا وحدها التى تساند إسرائيل بل الغرب كله يقف خلفها ويساندها.

والواقع المرصود والكائن يشهد بأن إسرائيل تمارس الهيمنة عمليا، كما أنها تتصرف فى المنطقة كإسرائيل عظمى، وكدولة كبرى منذ وقت يسبق الآن على

---

(١) انظر: وحيد القرن ورياح التغيير. للمؤلف.

الرغم من أنها لا زالت كيانًا صغيراً حظُّهُ الرفض من كل دول المنطقة التى تحاول هى الإندماج فيها ثم الإمساك بزمام أمورها وقيادتها على نحو ما بيّنا.

وهى مع ذلك متفهمة تماماً للواقع العربى على إطلاقه، فذهبت تستحدث الصراعات وتبتكر المؤامرات لتطوير صراعها الذى لم ينتهى بعد مع أصحاب أقدم الحضارات الإنسانية على وجه الأرض، أصحاب التاريخ والجغرافيا والإجتماع بلغة المنطق والفلسفة والحكمة، لصدق إحساسها باستبعاد الطرح البيريزى وصعوبة تحقيقه.

وأخيراً تفتقت أذهان الإسرائيليين عن مشروع جهنمى يقضى بالضرورة إلى إحداث بلبلة وخلخلة لا فى التوازن الاقتصادى والعسكرى فحسب بل فى النظام البيئى والجيولوچى ذاته، ذلك هو المشروع الحلم القديم لمؤسس الصهيونية الأول تيودور هيرتزل (مشروع قناة بين البحرين) التى تربط الأحمر بالمتوسط مروراً بالحدود الأردنيّة المشتركة مع إسرائيل مروراً بغور الأردن الذى تقيم عليه إسرائيل الآن ما يعرف بالجدار العازل (أو الجدار سيء السمعة) متذرعة بدواعى أمنية معلنة، وهو فى الحقيقة يحمل أبعاداً استراتيچية غاية فى الخطورة والآثار، خاصة أنه يرمى إلى تخفيض سقف المطالب العربية وصرف اهتمامات الرأى العام العالمى عن ممارسات الإسرائيليين داخل فلسطين المحتلة، ولتخفيف الضغط عن الإجراءات الأمريكية فى العراق.

وما زال الحلم الإسرائيلى بالتغلغل والسيطرة على حوض البحر الأحمر يحتل مساحة كبيرة من تفكير الإسرائيليين، ومخططاتهم، فهذا الممر المائى المتميز باستراتيچيته الفريدة كان بحيرة عربية خالصة، ومغلقة على أصحابها وحتى منتصف القرن الماضى.

فبعد انتصار العصابات الصهيونية فى حرب ١٩٤٨م على الجيوش العربية، لم يعد البحر الأحمر هو الممر «الملاكى العربى» الذى تتحكم فى مقدمته الشمالية مصر، والجنوبية اليمن، ومن أهم الآثار أو أخطرها بعد سقوط فلسطين، هو نجاح تلك العصابات فى السيطرة على قرية (أم الرشراش - المصرية) التى أصبحت فيما بعد منفذاً إسرائيلياً وحيداً ، وميناء حيوياً لها على البحر الأحمر يعرف الآن باسم (ميناء إيلات) الواقع على خليج العقبة (اللسان الأيمن للبحر الأحمر).

غير أن الأطماع التوسعية الإسرائيلية لم تقنع بأم الرشراش، وحاولت الاحتفاظ بمنطقة طابا المصرية التى دارت بسببها معركة سياسية هائلة اضطرت إسرائيل على إثرها إلى ا لإنسحاب منها إثر صدور حكم محكمة العدل الدولية التاريخى بأحقية

مصر فى طابا التى عادت إلى أحضان الوطن الأم فى ٢٥ / ٤ / ٨٤م حيث رفع الرئيس المصرى [محمد حسنى مبارك] العلم المصرى ليرفرف خفاقًا على أرضها وفي سمائها.

فاجتهدت إسرائيل فى البحث عن مدخل آخر لا يثير جدلاً، ولا يسبب مشكلات، فلجأت إلى الترويج لمشروعات مشتركة بينها وبعض الدول العربية والتى تتيح لها المشاركة فى العديد من المشروعات خاصة ما يتعلق بإدارة البحر الأحمر.

وهكذا عاد حلم هيرتزل القديم إلى الظهور من جديد كأحدث مشروع ضمن الجعبة الإسرائيلية الممتلئة بالمخططات.

وقد تم عرض هذا المشروع على قمة الأرض التى انعقدت مؤخراً فى جنوب إفريقيا، بشأن حفر قناة تربط البحرين «الميت والأحمر» بزعم انقاذ الأول من الإضمحلال، وانتشاله قبل الجفاف، ومن التصرفات المريبة والمفارقات الغريبة أن إسرائيل لم تتولى الطرح بنفسها إنما الذى روج له هو «الأردن»، لا من دون تنسيق مع الدول العربية المطلة على البحر الأحمر أو مشاورة شركائهم (الفلسطينيين) فى البحر الميت فحسب، بل من دون علم الجميع فيما يعد تأكيداً من جانب الأردن على ما ذهبنا إليه سابقًا أن الأردن وإسرائيل، وفلسطين أو سوريا سيشكلون قاعدة تكوين الشرق الأوسط الجديد، وقد بدأها الأردن حقًا.

وعلى الرغم من المعارضة القوية التى قُوبل بها المشروع من جانب الوفود العربية المشاركة فى المؤتمر خاصة مصر وفلسطين وسوريا ولبنان باعتباره خرقًا للحظر الدى تفرضه الجامعة العربية على إسرائيل، ولتجاهله حقوق الفلسطينيين، بالإضافة إلى حدوث خلل جوهرى فى المنطقة يتعارض مع الأمن القومى العربى للدول المطلة على البحر الأحمر، إلا أن الأردن أكد تمسُّكه بتنفيذ المشروع بالتعاون مع إسرائيل، وفى الوقت الذى يحدده هو - أى - الأردن.

وبغض النظر عن التبريرات الأردنيّة لتمرير المشروع الذى يشددون على أهميته الاستراتيچية القصوى، فإن الإسرائيليين أعلنوا صراحة فى معارضهم التى أُقيمت على هامش المؤتمر بأنه سيتم إقامة قناتين على خلاف ما أعلن الأردن - إحداهما لتوصيل

خليج العقبة بالبحر الميت، والأخرى لربط الميت بالبحر المتوسط، كما أنه سيتم استخدام المياه المتدفّقة من البحر الأحمر فى تبريد مفاعل ديمونة النووى الإسرائيلى.

وإذا كان الأردن يحاول الترويج لمشروعه المشترك مع إسرائيل من خلال نشر تقارير تشير إلى تراجع مساحة البحر الميت من ١٠٠٠ كم٢ إلى ما يقل عن ٦٥٠ كم٢ [١]، وأن المستقبل ينبئ بخطورة فناء البحر على المدى المتوسط، فإن إسرائيل تتحمل الجانب الأكبر من مسئولية تدهور أوضاع هذا البحر، حيث أقامت (١٨) مشروعًا لتحويل مياه نهر الأردن إلى مشروعاتها الزراعية فى صحراء النقب، كما قامت بتحويل الأودية الجارية التى تتجمع فيها مياه الأمطار وتجرى باتجاه «الميت» إلى المناطق المُحْتلة وخاصة للمستوطنات، وقد وصلت نسبة المياه المحجوزة والمحولة عن البحر الميت إلى حوالى ٩٠٪ من مصادره المائية، كما قامت إسرائيل بحفر ما يزيد عن (١٠٠) بئر لسحب المياه الجوفية من المناطق القريبة التى تغذى أيضًا البحر الميت بالمياه، إضافة إلى إقامة المصانع، ومراكز استخراج الأملاح خاصة (البروميد) بصورة كبيرة من البحر الميت، والتى تؤدى حسب أراء الخبراء إلى زيادة مستوى التبخر.

أما وزير المياه الأردنى الذى استغل قمة «جوهانسبرج» كمِنْبر لعرض مشروع بلاده فقد قال: إن مشروع بلاده يعد فكرة رائدة من جانب الأردن وإسرائيل لاستغلال أكبر تجمع بيئى عالمى حول سبل مواجهة هذه المشكلة، وجذب انتباه العالم إلى هذه القضية البيئية الخطيرة، خاصة أن كلفة إنشاء قناة «بين البحرين» الذى أعلنت عنه الأردن بكافة مراحله لا يمكن للأردن وحده تأمينَها، إضافة إلى أنه مشروع ذو صبغة عالمية وإقليمية يشارك به المجتمع الدولى بالإضافة إلى دول الإقليم.

وبعيداً عن العبارات الدبلوماسية التى استخدمتها الوفود العربية للتعبير عن رفضها للمشروع الأردنى، فإن القراءة المتعمقة التى أجراها المتخصصون تؤكد على أنه مشروع صهيونى محض تم تمريره للأردنيين الذين تلقوه سواء بحسن نية أو بدونها، وتولوا تسويقه للدول العربية، والترويج له فى المحافل الدولية، والمجتمع الدولى باعتباره مشروعًا أردنيًا خالصًا يهدف إلى تنمية موارده المائية الشحيحة، وما يؤكد على هذا الإتجاه أن المشروع كان مطروحًا على مائدة البحث بين شارون والمسئولين الأمريكيين

---

(١) قناة المعلومات العربية/ محيط على شبكة (الإنترنت).

أثناء إحدى زياراته لواشنطن ٢٠٠٣م، كما أن المباحثات التى أجراها شيمون بيريز ووزيرة التعاون الإقليمى (تسيبى لفنى) خلال الزيارة انْصَب فى الأساس على الحصول على الدعم الأمريكى لشق قناة بين البحرين المزمعة (قبل قمة الأرض بأيام).

وتعود الجذور الأولى للمشروع الإسرائيلى إلى عام ١٨٥٠ .م حيث جاء كطرح بريطانى لمشروع منافس لمشروع قَنَاة السويس الذى طرحه الفرنسيون خلال حملتهم على مصر عام ١٧٩٨ .م، حيث قام ضابط مهندس يعمل بالجيش البريطانى بنقل الفكرة إلى مؤسس الحركة الصهيونية (هيرتزل) وقامت فكرة المشروع على حفر قناة تربط خليج حيفا على البحر المتوسط مع وادى الأردن والبحر الميت ومنه إلى خليج العقبة على البحر الأحمر ثم إلى المحيط الهندى فالهند(١).

ظل المشروع حبيس الأدراج نظراً لتكلفته العالية حتى تم الإعلان عن قيام إسرائيل، فشرع مؤسسوها آنذاك يتقدمهم [ديفيد بن جوريون] فى إعادة التفكير مرة أخرى بسبب قلقهم على مصير صحراء النقب التى تشكل نصف مساحة فلسطين التاريخية، وتقع على مقربة من مصر ذات الكثافة السكانية العالية.

ولعل هذا القلق – هو ما يفسر قيام إسرائيل بإنشاء مفاعل ديمونة النووى المقدم إليها كمنحة من الحكومة الفرنسية (كما سبق). ليمثل هذا المفاعل (بعبعا) لمصر ودول الجوار، كما أن ابن جوريون قاد بنفسه حملة لإعادة توزيع سكان الدولة العبرية عن طريق تكثيف مشاريع الإسكان، والإستيطان فى النقب . وكانت أولها مستوطنة (سدى بوكرالتى) التى دفن بها بعد هلاكه، كما عمل على توسيع مدينة بئر السبع وبنى فيها جامعة، إلا أن الجهود الإسرائيلية ظلت محدودة التأثير بسبب شح المياه ومناخ المنطقة القاسى.

وكان مشروع قناة بين البحرين قد تعرض لمحاولات متفاوتة تراوحت بين الظهور والمواراة فى عام ١٩٧٦م على أيدى حكومة حزب العمل بقيادة (شلومو اكشتاين) الذى قدم مشروعه، ولم يقدر له أن يخرج إلى النور بسبب وصول كتلة الليكود إلى السلطة عام ١٩٧٧م بقيادة « مناحم بيجين » الذى أُجريت فى عصره دراسة أدق للمشروع، وقد تضمن ثلاثة بدائل، اعتمدت الحكومة إحداها، ولكن المشروع توارى فى الأدراج مع وصول حكومة إسرائيلية جديدة للسلطة عام ١٩٨٤م.

أما شارون الذى جاء إلى السلطة منذ شهور فقد صب جام غضبه فى مذكراته التى صدرت نهاية الثمانينات على قرار الحكومة الإسرائيلية فى ١٩٨٤م تجميد حلمه

(١) المصدر السابق.

الأثير فى حفر قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الميت كمرحلة أولى على أن تمتد فى مرحلتها الثانية حتى خليج العقبة.

غير أنه يعتقد الآن أن الفرصة التى جاءته هذه المرة على طبق من ذهب هى فرصة نادرة خاصة مع جلوسه على مقعد رئيس الحكومة الذى التف حوله الجميع، بعد أن انفصلت الحكومات الحزبية التى حَمَّلَهَا شارون مسئولية تعطيل المشروع، وانفراد الحكومة الإئتلافية التى تتولى السلطة حاليًا فى إسرائيل كما أن شيمون بيريز الذى كان يشاركه الحكم إلى وقت قريب لا زال يشاركه الحلم، إضافة إلى الأوضاع الدولية، والعربية التى تبدو كأنها مستسلمة لأحلام شارون التوسعية التى تهدف بالضرورة إلى خلق وجود أمنى لها فى ٦ من جزر البحر الأحمر، ولا نَجدُ حرجًا أن نقرر فى مقامنا هذا ما أوردته الصحف العالمية من أن إسرائيل بدأت بالفعل فى الترتيب لمثل هذه القواعد تحت زعم حماية مشروع الأنبوب (الإسرائيلى - الأردنى) الذى سينطلق من البحر الأحمر عبر وادى العربة الحدودى وصولاً إلى البحر الميت، كما أنها لن تكتف بإقامة خط الأنابيب المنشود فحسب بل تضمنت دراسة الجدوى إقامة محطات إسرائيلية لتنقية المياه وتحليتها، وكيفية تسويقها لكل من اليمن والسعودية، بالإضافة إلى إقامة محطات أخرى خاصة بالأردن صاحبة الإمتياز الأول لهذا المشروع.

وقد أشارت صحيفة الأسبوع المصرية إلى أن القاهرة رأت لدى دراستها لهذا المشروع أن إسرائيل تريد التوسع فى الممرات الاستراتيچية بالبحر الأحمر، معتبرة أن خطورة سيطرة إسرائيل على هذه الممرات بمثابة البداية للسيطرة على باب المندب، إلا أن الخطورة الحقيقية للتواجد الإسرائيلى تكمن فى الوجود العسكرى الإسرائيلى الذى يتيح لها بالتالى التغلغل فى إفريقيا، إذ أن القوات الإسرائيلية سوف تكون قادرة على التدخل العسكرى السريع فى العديد من بلدان إفريقيا، وهو ما يتعارض كلية مع ثوابت الأمن القومى لكل من مصر والسعودية واليمن، وبخاصة أن الأطماع الإسرائيلية سوف لا تقف عند حد تنتهى إليه، بل ستعبر الحواجز وتسبق الزمن للبدء فعلاً فى التنقيب عن البترول (وشفطه من السعودية ومصر) ثم منافسة مراكب الصيد العربية ولا حرج آنئذ لدى الاسرائيليين من ممارسة أعمال القرصنة البحرية عند الضرورة.

وفى دراسة جادة تضمنتها وثيقة استراتيچية أعدها (نتيحومى ناحال) الذى يعد من أكبر مخططى الاستراتيچية الإسرائيلية جرى التأكيد والتشديد على أن نقطة الإلتقاء (المحورية) بين البحرين الميت والأحمر هى إحدى النقاط الاستراتيچية المهمة

التى يجب أن تظل تحت السيطرة الإسرائيلية، معتبراً أن هذه المنطقة هى خط الدفاع عن كيان إسرائيل، وطالب ناحال بإرغام الأردنيين على توقيع وثيقة إذعان للإسرائيليين للسيطرة على هذه المنطقة.

ولعل هذا ما يفسر تحدى شارون وحكومته فى بناء الجدار العازل الذى يقسم الأراضى الفلسطينية، ويحولها إلى كانتونات، وأشلاء، وبقايا دولة، لأنه ليس فى نية الإسرائيليين إقامة أو قبول ما يسميه العرب دولة فلسطينية ذات سيادة، وما يردده الرئيس الأمريكى (جورج بوش) – الإبن – بشأن رؤيته وقناعته بقيام دولة فلسطينية تعيش جنباً إلى جنب مع إسرائيل – وما هو إلا ذر للرماد فى عيون المساكين، وهم (حيارى مظلومين) أما إسرائيل فإنها ماضية فى سياستها الرامية إلى تهويد القدس، وابتلاع أراضى الفلسطينيين علناً، وحولت حلم الدولة الفلسطينية إلى مشروع مهزلة، وعلى العرب استيعاب الدرس جيداً.

وعلى الرغم من مطالبة الجمعية العامة للأمم المتحدة بالأغلبية الكاسحة فى جلستها المنعقدة مساء الأربعاء ٢٢ / ١٠ / ٢٠٠٣م لإسرائيل بالوقف الفورى لبناء الجدار العازل، مع ضرورة إزالة ما تم بناؤه منه، والتأكيد على إحترام القانون الدولى، فإن شارون خرج متبجحاً وأعلن إصدار أوامره بمد الجدار المذكور ليشمل غور الأردن – ليتأكد بذلك تقطيع أوصال القدس برمتها ولتتفتت ما تسمى القدس العربية (الشرقية).

أو تدرى لماذا؟

إنه التنفيذ الأمين لوثيقة ناحال التى ستضمن وصول الجدار إلى البحر الميت ليدمر تماماً ما تبقى من أراضى السلطة، وليقضى على كل آمال الآملين فى إقامة دولة فلسطينية مستقلة، كما أنه سيضمن الوجود العلنى للقوات الإسرائيلية وتحت غطاء من الشرعية عند النقطة المحورية التى سيلتقى عندها البحران الأحمر والميت، وهى فى قلب غور الأردن فى عمق ما يسمى بأراضى السلطة الفلسطينية (الحلم).

ولتبدأ إسرائيل فى شق المرحلة الأولى للقناة الواصلة بين البحرين المتوسط والميت، والتى ستمتد بجوار الجدار العازل وبطوله، ولتتمكن من الإستيلاء على أراضى السلطة فى مراحل لاحقة ومنتظمة طبقاً لجدول زمنى خاص، بقصد إقامة المشروعات الخاصة بإدارة القناة، والمشروعات التجارية والصناعية والسياحية ... إلخ والأهم هو إقامة النقاط الأمنية، وأبراج المراقبة والثكنات العسكرية – أى التهام الضفة الغربية كاملة – (والبقاء لله).

وعلى الأردن أن يوقع وثيقة للإسرائيليين يتنازل فيها عن سيادته على المنطقة الحدودية كاملة مع إسرائيل والتى تبدأ من (سدوم) على البحر الميت، وتنتهى عند العقبة وإيلات على البحر الأحمر - طالما كان الأردن لا يستطيع الصبر حتى التوصل إلى تسوية شاملة للصراع، لأنه انتظار سيطول فى انتظار سلام لن يأتى، وإن جاء فإنه مهادنة للإنطلاق والتطوير نحو رحاب أوسع وآفاق أكبر ودائرة هى الأخطر فى الصراع.

ومن المثير للدهشة أن يهرول العرب نحو إقامة مشروعات إقتصادية مع الكيان الصهيونى، أما الأكثر فى دهشته أن يصدر عن الأردن تأكيد يقطع بأنها لا تستطيع الصبر حتى تتم التسوية النهائية مع إسرائيل، والأشد غرابة، والأكثر مدعاة للألم والحسرة إنها التزمت الصمت التام طوال أكثر من ثلاثين عاماً سرقت خلالها إسرائيل الجانب الأكبر من المياه المغذية للبحر « المشكلة ».

وإذا عدنا للبحث عن أسباب الفشل العربى الذى يسبب الأوجاع المزمنة، لوجدنا أن دول الخليج العربى كانت ولا تزال يمكنها دعم المشاريع المائية فى الدول العربية خاصة فى السودان، وتنمية القائم منها ولو بقروض استثمارية، أو بأحد أوجه تقديم التمويل المعلومة والمعهودة، وهو مشروع يضمن لتلك الدول الحصول على احتياجاتها المائية بطريقة أو بأخرى.

ثم وَقَعَت الأردن ذاتها فى خطأ مطابق بإقحام نفسها فى متاهات ودروب التعاون مع إسرائيل التى سرقت ماءها، فى وقت تقاعس فيه الأردنيُّون عن إقامة سد الوحدة على نهر اليرموك بالتعاون مع سوريا، وهو المشروع الذى كان سيحرم إسرائيل من أحد أهم مصادرها المائية، بينما كان سيساهم فى معالجة مشكلة شُحّ المياه وندرتها فى الأردن بقسط كبير، غير أنه المد والجزر فى العلاقات العربية البينية الذى لا يقدم ولكنه كثيراً ما يؤخر.

بينما إسرائيل تستمر فى مشاريعها الإستعمارية التوسعية وأفكارها الجهنمية لإحياء الميت وإماتة الحى بما فيه تحويل طرق الملاحة البحرية التجارية العالمية إلى القناة الجديدة كبديل صهيونى رخيص وآمن عن « قناة السويس المصرية » الأكثر عرضة للتوترات وأعمال الغلق.

أما إخواننا فقد ركنوا على ما يبدو إلى التسليم بالقدر والمقدور، و« المكتوب على الجبين » ويبدو أن الأردن سيكون هو محور الارتكاز فى اختراق النظام الإقتصادى العربى، لأن الأمور تبدو وكأنها تؤكد على أن الإنطلاقة الأولى إلى تحقيق حلم بيريز ستكون من العاصمة الأردنية عمّان.

فَمَا أن أعلن بوش انتهاء ما يُسمى بالحرب الرئيسية على العراق، والذى بموجبه توقفت طلعات الطائرة العملاقة « بى ٥٢ »، وانطلاقات صواريخ « كروز وتوماهوك » العابرة وتساقُط آلاف الأطنان من القنابل والصواريخ على شعب العراق، حتى برز على السطح من جديد الصراع الإقتصادى والتجارى مرة أخرى بين صاحبة أكبر وأقوى إقتصاديات العالم على إطلاقه (أمريكا)، وبين ثانى أكبر تكتل اقتصادى (الإتحاد الأوروبى)، وبدأ بذلك التواصل بين الحروب التجارية من أجل السيطرة على الأسواق (كل الأسواق) باستخدام الوسائل المشروعة، وغير المشروعة مثل الإحتلال العسكرى السافر، أو الإعلان عن إنشاء ما يسمى (المناطق الحرة).

دليلنا على ذلك: تلك الأطروحة التى طرحها الرئيس الأمريكى (بوش الثانى) عندما أعلن عن إقامة منطقة للتجارة الحرة كمكافأة للأصدقاء العرب - أى - دمج الصالحين من العرب فى ملكوت التجارة الأمريكية، وهم الأصدقاء الدائمين لأمريكا الذين وقفوا موقفًا مبدئيًا وصريحًا ومخلصًا مع أمريكا فى سحق العراق مثل (الكويت، البحرين، الأردن)، كما أنه يرمى به من جهة أخرى إلى تشجيع الدول المترددة كى تصحح رؤيتها وتعالج مواقفها المترددة، وتقف بثبات وبإخلاص، ومن أهمها (مصر والسعودية وتركيا).

وقد تمكن بوش من الدخول إلى عقول وأفئدة الأنظمة والشعوب العربية بتعبير منطقى وواقعى غير أنه يحمل خبثًا وتورية ومكرًا، قد يجعل البُلَهاء يعطون بوش الحق فيما ذهب إليه، وما قصد التأثير به - وقد - يجعل كذلك الأكثر بَلاهَةً يُقدمون على الهرولة إلى تقبيل عتبات البيت الأبيض مهللين ومصفقين ومباركين دعوة الصديق الملاك بوش الذى قال [إننا نحاول إنتشال الإقتصاديات المحتضرة لهذه الدول لتحقيق مزيد من الإستقرار، حيث أن الناتج القومى لكل الدول العربية بما فى ذلك الدول البترولية حوالى (٢٨٠ مليون نسمة) هو أقل من الناتج القومى لأسبانيا (٤٨ مليون نسمة)].

ولعلنا جميعًا نتدارك حقيقة تراجع الإقتصاد العربى والإنتاج العربى والتصنيع العربى إلى هذا المستوى المتدنى، ولعلنا كذلك لا ننسى الدور الأوروبى - الأمريكى الهائل فى ابعاد تلك المشكلة اعتباراً من نشأتها كما عرضنا لها - مروراً بتطوراتها، ووصولاً إلي طرح الصديق الوفى الباكى على المصالح العربية العليا (بوش).

وفى ظل هذا المناخ السياسى المتأثر بالظروف القائمة والمستجدات الراهنة التى تعيشها المنطقة، بما فيها من محاولات لإسكات الأصوات الرافضة لترسيخ الوجود

الأمريكي في المنطقة، وأخرى لتكميم الأفواه المطالبة برحيل الغزاة المستعمرين من المنطقة لتمكين الشعوب من ممارسة حقها في تقرير مصيرها بإرادتها الحرة، وغيرها من التي تشهد سكب التصريحات الباردة على نار الصدور المتأججة في الشعب العربي كله.

انعقد في العاصمة الأردنية عمّان مؤتمراً جديداً، يشابه إلى حد كبير قمّة الأرض التي انعقدت في جوهانسبرج، من حيث الترويج الإسرائيلي لمشروعاتها المشتركة مع المنشقين العرب.

أما أمريكا فمن جانبها جاءت إلى هذا المؤتمر للإلتقاء مع المُنْشقين العرب على موقف البعض من العرب - أو بعبارة أخرى - للتحاور مع الخارجين على الطاعة الأمريكية، وكذلك لتحييد المحيرّين العرب الذين يظهرون وهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وذلك وسط أكبر حشد دولي ينعقد في المنطقة عقب الإعلان عن انتهاء العمليات العسكرية المباشرة في العراق لذر الرماد في العيون، ولطمأنة خواطر الأصدقاء، والتغرير بالمترددين، وإغراء الفقراء والمعوذين.

وكان من الطبيعي أن يحضر «باول» وزير الخارجية الأمريكي ممثلاً لبلاده في مؤتمر «البحر الميت» المنعقد في الأردن خلال الأسبوع الثالث من يونيُو ٢٠٠٣م تحت شعار «المصالحة ورؤى المستقبل».

وقد تكشفت منذ البداية أوراق هذا المؤتمر «السراب» بمجرد أن حضر «بول بريمر» الحاكم الأمريكي للعراق، ليكون ثاني أمريكي يتحدث في المؤتمر بعد باول باسم بلاده.

وانكشف المستور

واتضح أن المؤتمر في حقيقته ليس إلا محاولة جديدة لإحياء المشاريع الصهيونية الشهيرة وأهمها (الشرق أوسطية) المشروع البيريزى الشهير.

وإذا كان (جورج بوش الأول) الرئيس الأمريكي إبان حرب الخليج الثانية (تحرير الكويت) قد حاول إبرام مصالحة سياسية واقتصادية من خلال الدعوة التي أطلقها في أعقاب مؤتمر مدريد، وإتفاقيات أوسلو، وكُتبَ على محاولته الفشل.

فإن الرئيس الأمريكي «جورج بوش الثاني» قائد عملية الحرب على العراق واحتلاله، جاء ليكرر ذات السيناريو «الخايب» ويتحدث عن الشرق الأوسط الجديد، ليتطابق تماماً مع النموذج السابق الذى حاول أبوه «بوش الأب» بواسطته تخدير

(الناس الغلابة)، ويبدو أن شهية الولايات المتحدة قد تفتحت من جديد، وسال لعابها بغزارة لإحياء مشروع الشرق أوسطية، ودمج إسرائيل فى المنطقة[1].

وقد قدم الوفد الأمريكى كثيراً من الوعود، وتحدث فى كثير من الموضوعات مثل إعادة إعمار العراق، وإعادة إعمار فلسطين، وتنمية المنطقة كلها فى الوقت ذاته.

وجاء مؤتمر البحر الميت كأول تطبيق عملى فى أول حلقة تليفزيونية فى مسلسل «السلام الاقتصادى» على الطريقة الأمريكية الذى تم الترويج له منذ عهد بوش الأول والذى طوره بوش الثانى فيما أعلن عن رغبته فى ترجمة أفكاره، وعرض تصوره بشأن إقامة منطقة للتجارة الحرة مع دول الشرق الأوسط لتحقيق السلام والوئام والإستقرار فى المنطقة المضطربة.

وما هذه فى الحقيقة غير بالونة من بالونات ملونة تخطف الأبصار بألوانها وخفتها التى لا وزن لها، وكذلك لتطابقها التام مع نَمَاذج «مدريد وأوسلو» من حيث الهدف والنتيجة والوقت الذى أعلنت فيه.

أما الهدف الحقيقى من وراء هذا الإجتماع فإنه يرمى إلى توسيع النفوذ ومد الهيمنة، وتأكيد المصالح الأمريكية فى المنطقة، وإحكام السيطرة عليها - للحسم المبكر لأى صراع قد ينشأ مع قوى اقتصادية أخرى قد تفكر فى مزاحمة أو منافسة الولايات المتحدة فى الحاضر أو المستقبل مثل (الإتحاد الأوروبى، الصين، روسيا) خاصة مع الإعلان الأوروبى بشأن قيام الشراكة الأورومتوسطية التى تضم فى عضويتها دول الإتحاد الأوروبى بالإضافة إلى الدول العربية الواقعة جنوب المتوسط، وإنشاء منطقة للتجارة الحرة فى هذه المنطقة التى تعتبرها أوروبا فناء خلفياً لأمنها وسلامتها - وهو المشروع الذى يُعرف «ببيان لشبونة».

وثمة بعد آخر يرمى إليه الساسة والمخطِّطون الأمريكيون من الفكرة المطروحة، وهو إبعاد أوروبا ونهائياً عن الملعب الإقتصادى فى الشرق الأوسط، بعد تحجيم دورها السياسى ابتداء من أزمة العراق، وحتى الآن.

وقد قرأ الأوروبيون الواقع، وقاموا بدراسته، وعلق مفوض الإتحاد الأوروبى لشئون التنمية (بول نيلسون) على المشروع الأمريكى بقوله: «إن الولايات المتَّحدة التى تعمل على إحكام قبضتها على بترول العراق، والسعى للحصول على عضوية منظمة الأوبك، بدأت توسع من مشاريعها لإحكام السيطرة على المنطقة كلها».

إن الصراع الدائر الآن فى الشرق الأوسط وحوله هو صراع محتدم بين قوى خارجية مختلفة تتباين رؤاها، وتُعبِّرُ مواقفُها بصدق عن مصالحها، فى حين أن الجانب المختفى فى هذا الصراع هو الجانب العربى ذاته الذى تدور على أرضه الدوائر، وتُنصب لشعوبه الشباك، وقد سلّم العرب أمورهم مشيئة غيرهم ولم يتعلموا بعد كيف يحسموا أمورهم حتى يتمكنوا من اتخاذ موقف مشترك يحقق مصالح شعوبهم، ويلبى مطالبهم، وينأى بهم عن الوقوع أسرى المؤامرات الخارجية، لعلنا نحن العرب نستطيع إدراك الحقيقة الواحدة الثابتة أمام أعيننا فى الصراعات الدائرة من حولنا وعلى أرضنا، وهى أن الإتفاق أو الإختلاف التصادمى الواقع بين تلك القوى الإستعمارية الصليبية الحديثة، إنما هو كائن إما بسبب الإتفاق أو الإختلاف الأكيد على المصالح، أما هذه الإختلافات الظاهرة على السطح أو ما سبقتها فإنها خلافات ليست بسبب القيم والمبادئ، بل على المصالح الاستراتيچية (وشفط) إمكانيات الأمة العربية والإسلامية.

ودليلنا عليه : أن السيطرة الأمريكية على العراق (بترولاً، وإعماراً ، وإدارة) وعلى مشروعات التسوية، والإنفراد بها، وعلى المناطق الحرة المزمع إنشاؤها يحرم فرنسا وألمانيا وروسيا من إتفاقيات ومشاريع عملاقة تقدر استثماراتها بمئات المليارات من الدولارات، ولعل هذا يُصيب فينا يقينا وقناعة بحقيقة الأسباب التى عارَضَت لأجلها فرنسا، وألمانيا، وروسيا، والصين فكرة الحرب على العراق منذ بدايتها، وهو ما يفسر كذلك امتناع هذه الدول عن إرسال قوات لها إلى العراق حتى تتجرع الولايات المتحدة وبريطانيا كأس الذل دون غيرهم على أيدى المقاومة العراقية التى ستزداد حدتها مع محاولات ترسيخ الوجود الأمريكى هناك، مثلما انفردا بالكعكة البترولية.

وهو ما يفسر كذلك امتناع الدول الأربع عن تقديم أى منح أو مساعدات للمشاركة فى عملية إعادة إعمار العراق الذى دمرته أمريكا بتصرف ثنائى مع بريطانيا وبقرار أحادى أمريكى – وجاء إعلان الدول الأربع المذكورة واضحًا ومباشراً فى مؤتمر الدول المانحة الذى انعقد نهاية الأسبوع الثالث من أكتوبر ٢٠٠٣م وكأنهم يقولون لبوش (يداك أوْكَتَا وفوك نفخ).

إنهم يتفقون أو يختلفون علينا وضدنا، ونحن كأصحاب الكهف فى عميق ثبات، ولا يُوقظنا غير أصوات نعالنا وهى تهرول إليهم، ولا يشجينا غير حنين قلوبنا وهى تهفو إليهم.

فَلْنَنْتبه، ولنَتَنَبّه على الحقائق الماثلة أمام أعيننا والتى من أهمها – القاعدة التجارية المتدنية فى المحيط العربى البَيْنى.

إن تجارة الدول العربية على مختلف أنظمتها ومسمياتها وعقائدها (سلفية أو علمانية) – وعلى تنوع اقتصادها وقدرته وقوته – (بترولية كانت أو زراعية – تسير في اتجاه واحد لا تحيد، ومن أراد أن يتتبع حركة هذا الإتجاه سيصيب يقيناً أن العرب يعانون من (خيبة تُكَال بالْوِيبة) بعد ان يتحقق من الآتى :

* نسبة العلاقات العربية « الأمريكية » تمثل ما بين ٣٥ : ٤٠٪ من حجم التجارة العربية.

* نسببة العلاقات العربية « الشرق أسيوية » تمثل ما بين ١٠ : ١٥٪ .

أما التجارة العربية البينية فهى تتراوح ما بين ٤ : ٧٪[١]

ولا تعليق.

غير أننا مع هذا نلهث وراء كل دعوة، ونُبارك كل عرض يأتى إلينا من قِبل الخواجات، بعد إدماننا إرتداء الملابس المستوردة، وهجرنا للصناعات الوطنية، وبحثنا عن المستورد حتى فى الغناء.

أيها السادة: إنهم يعملون لتهيئة الجسد العربى لدمج إسرائيل فيه بعملية جراحية، أو بوصفة أوروبية مستوردة، لتبث فيه الحيوية، وتعيد النشاط لاقتصادياته المتدهورة أو المنهارة، أو المتعثرة أو التى تحاول النهوض بعد أن أثقلتها الديون، وطحنتها الكوارث، التى هى على رأس قائمة المؤامرات المستوردة.

وإن رفعنا الراية البيضاء، وسلمنا نواصى الأمور للأعداء، فلسوف نُقهَر آنئذ على الدخول فى تحالفات اقتصادية تحت أى مسمى طوعًا أو كرهًا، تحت قيادة، أو إدارة مستوردة، طالما ظل العجز العربى العام، وطالما باتت الجامعة العربية منذ منتصف الأربعينات، وحتى الآن عاجزة تمامًا عن إقامة نظام اقتصادى عربى يضمن وجود كيان تجارى عربى حُر، كما أنها تبدو غير قادرة على ذلك فى المستقبل فى ظل المعطيات القائمة.

لقد عجزنا عن كثير، وفشلنا فى الأكثر وضاع منا الكثير، وتحاربنا وتناطحنا وركبنا آخر عربات القطار (القشاش) بعد أن كنا للعالم سادة.

وهكذا يدور الصراع ويتطور الحوار الذى يميت الحى، ويحيى الميت.

وأمجاد يا عرب.

* * *

---

(١) من مقال للدكتور فتحى عبدالفتاح – الجمهورية الأسبوعى ٢٦ / ٦ / ٢٠٠٣ .

خامساً : السعى نحو النهاية

قلنا سابقًا أنه ما أن رحل الإتحاد السوفيتى عن المسرح العالمى، وتأكد غيابه عن الساحة السياسية كطرف ثان معادل فى موازين القوى الدولية، حتى انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بالظهور، وتمكنت من الإمساك بزمام العالم، ومن الجلوس على مقعد إدارته لتصبح وبلا منافس رئيس مجلس إدارة العالم.

وقد حاولت الولايات المتحدة منذ وقت مبكر يسبق انهيار القطب الآخر، أن تصل إلى حيث انتهت الإمبراطوريات الإستعمارية السابقة فى أمريكا الجنوبية ثم أسيا فإفريقيا بتروٍ وبتريث، وبعيداً عن الإنفعالية والتخبط على عكس ما فعلت فى جارتها أمريكا الجنوبية، فذهبت تنشر أفكارها، وتعمم مبادئها، وتجتهد فى استقطاب الأصدقاء، وتجنيد العملاء، ولم تتردد فى الإعتماد على الخونة حتى انطوت تحت لواءها العديد من الأنظمة إما رهبة وفزعاً، وإما رغبة وطمعاً.

ولقد ذكرنا فى كتابنا (وحيد القرن ورياح التغيير) التاريخ المرير الطويل للتدخلات الأمريكية العسكرية فى الخارج منذ تأسيسها وحتى احتلال العراق، وفيه التأكيد على أنها دولة استعمارية من نوع فريد وطراز خاص وبالأدلة الدامغة.

وقد ذكرنا فيما تقدم كثيراً عن التوسع الأمريكى وخططه ضمن الجزئين السابقين على هذا الجزء الثالث، والمتممين له - حيث قدمنا (المؤامرة الكبرى)، وكذلك (وحيد القرن ورياح التغيير) ، وفى هذا المقام صراع الحضارات، لا يمكن بحال إغفال الولايات المتحدة عن الذكر، أو ذكرها بأقل من حجمها قدر المستطاع خاصة أنها تمسك بلجام العالم فى وقت يعيش فيه عالم هو بحق (وحيد القرن).

ولعلك تلاحظ معى أن الربط بين إسرائيل وأمريكا تصريحاً أو تلميحاً هو حقيقة أكيدة بين السطورة التى بين أيدينا - ذلك لأن الحديث عن إسرائيل مثلاً يعطى دلالة مباشرة عن موكلها، وإذا ذكرنا أمريكا وقعت الدلالة على وكيلها.

ولما كانت الدولتان تعملان فى اتجاه واحد، ويركبان موجة واحدة، تندفع بهما نحو الهيمنة والسطو على مقدرات الشعوب، وطمس حضارتها الزاخرة، والإستيلاء على اقتصادياتها، ومقومات إنتاجها، وموادها الخام - أى - فى الجملة (نهب الثروات) كل الثروات، يسبقها فى النهم البترول، ثم اليورانيوم والذهب والماس ومصادر المياه... إلخ حتى لا يتربح العالم أبداً - وهما يعملان كذلك تساندهما أوروبا التى التقت معهما فى معاداة الإسلام لا أكثر - لأجل القضاء على كل القوى التى يمكن أن تقف حائط صد أمام الهجمات الإستعمارية الحديثة الشرسة على العالم.

وإذا كانت إسرائيل قد زحفت مؤخراً إلى المياه الدافئة فى الخليج العربى، فى وقت تسابق فيه بعض الأمراء العرب هناك على دفء علاقاتهم مع إسرائيل وتطويرها فى معزل عن الإجماع العربى، فإن الولايات المتحدة نظرت مسبقاً إلى تلك المنطقة، بالإضافة إلى أرض الحجاز منذ أن تم الكشف عن الثروة البترولية فى تلك المناطق، واستطاعت مبكراً أن تقيم علاقات فوق الطبيعية مع الملوك السعوديين الجدد الذين جاءت بهم بريطانيا إلى السلطة للقضاء على أحلام الشريف حسين، وهى العلاقات الأفضل من المتميزة، التى بفضلها استحوذت الشركات الأمريكية واليهودية التى دخلت إلى السعودية تحت مسميات شركات بترولية عالمية، ولم تلبث هذه الشركات أن احتكرت عقود التنقيب عن البترول لمدد طويلة، وعليه فإن الأمريكيين بعد أن تمكنوا من تملك عصب الإقتصاد السعودى اشتغلوا بترسيم السياسة الخارجية السعودية، وتحديد أهدافها منذ فجر علاقاتهم بالمملكة، وإلى حين.

انتشر السرطان الأمريكى الذى يحوى فى عباءته الأطماع الصهيونية والصليبية، حتى تمكنت الولايات المتحدة من إقامة اثنتى عشرة قاعدة عسكرية دائمة فى المملكة وفى بلدان الخليج العربى الذى عَبَرتْ إليه بسرعة رهيبة[1]، بواسطة اللين والمسايسة، وكذلك بإستعمال (الكأس، والتفاح) وسهرات الليالى الملاح التى ليس لها صباح.

وظلت الحركة الإستعمارية الجديدة تعمل فى هدوء تام فى المنطقة العربية، وفى آسيا، وإفريقيا، بل وفى شرق أوروبا - من دون تدخل علنى مباشر، إنما كان سبيلها، إثارة الفتن الطائفية، وخلق النزاعات الحدودية، وتفعيل مشكلات الأقليات، وتأجيج نار القوميات، وإفساد الحياة العامة، وهى تقف بعيدة تمد بالسلاح وتمول بمليارات الدولارات، وتشجع على الحروب الإنتحارية البينية، وترفع عصا التهديد ملوحة بالعقوبات فى وجه من يعترض ومن يمتنع، وتتهم الأبرياء برعاية الإرهاب، وتلصق تهمة الإرهاب بالمسلمين - وتصنع العملاء على أعينها - وذلك من غير أثر يشير إليها أو منتجاً يدل عليها.

والجدير بالذكر: أن المنطقة العربية على وجه التحديد وعبر قرون طويلة استأثرت بالنصيب الأكبر والحظ الأوفر من الأطماع الأجنبية التى جاءت إليها لإقامة إمبراطوريات لها على أرضها الطيبة، وهى محاولات نجحت بعض الوقت فى إصابة بعض من أهدافها، غير أنها باءت جميعها بالفشل، ورحلت ذليلة إلى أوطانها تجر أذيال الخيبة والعار.

القادم/ أغوار العالم الإسلامى.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، قد جاءت إلى الشرق كآخر المستعمرين فى الوقت المعاصر رافعة شعارها «إياه» (الحرية - الإخاء - المساواة) الذى روج له الماسونيون العرب، وشكلوا له أندية ثقافية واجتماعية ورياضية، ونوادى رياضية لإستقطاب المغفلين من أبناء الشعوب الذين ابتلعوا الطعم فوقعوا فى شراك الحرية المزعومة (الفوضوية)، والإخاء المزعوم (التطبيع) والمساواة التى ألقت بالفتيان والفتيات فى صالات الديسكو ومقاهى الكيف (والدماغ).

ومع انتشار حركة التنوير التى قادها المثقفون الواعون المدركون لحقيقة وأبعاد المؤامرة، وما أثمرت عنه هذه الحركة الهائلة من نشر للوعى السياسى وترسيخه فى عقول الشباب، ومفاهيمهم، وقد أضْحَت المصالح الأمريكية كاملة على شفا التهديد العلنى بضربها هنا وهناك، خاصة مع تنامى التيارات الرافضة بل والمعادية للوجود الأمريكى فى المنطقة.

وفى ظل هذه المستجدات، وجدت الولايات المتحدة نفسها أمام ضرورة تقضى بتطوير أدائها وتحديثه من أجل التكيُّف مع الأجواء الساخنة التى فرضتها حركة التنوير العربية والتثقيف الإسلامية، لأجل تطويع المعطيات وتليينها إنقاذاً للمخططات من الفشل والمجهودات من الضياع.

فجاءت أحداث ١١ سبتمبر لتزيح الستار عن الوجه الحقيقى للمخططات الإستعمارية التى يسير على درب تنفيذها الأمريكيون، والإسرائيليون فى خطوط متوازية فى اتجاه الشرق تخصيصاً لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية مُعّينة، تحت دعاوى عقائدية بالية، فهؤلاء الذين سحقوا العراق، تعددت تبريراتهم، وتنوعت أقاويلهم التى ابتدأوها بدعوى القضاء على أسلحة الدمار الشامل العراقية، ثم إقصاء صدام حسين عن الحكم، وأتبعوا ذلك قولهم القضاء على النظام العراقى، ثم كانت آخرها (حرية العراق) - أى - بالمفهوم الأمريكى - القضاء على النظام المناوئ للمصالح الأمريكية، ونشر ثقافة الديمقراطية الأمريكية بقوة الصواريخ والقنابل، وتحرير العراقيين من الأفكار السلفية، وتأهيلهم للتعامل مع الفوضوية والإباحية والحرية الجنسية والعقائدية على الطريقة الأمريكية حتى يسهل دمج الإسرائيليين فى المجتمع العراقى الحر الجديد.

وما أن تأكد سقوط بغداد، وأعلن «بوش الثانى» إنتهاء العمليات العسكرية الرئيسية فى العراق، حتى طار رئيس الوزراء الإسرائيلى (شارون) إلى واشنطن للقاء الرئيس الأمريكى «المتدين» بوش الثانى - للتباحث حول نصيب إسرائيل فى التفاحة العربية التى سقطت ضمن المخطط السابق، والذى اتفق عليه الطرفان فى وقت سابق

من العام الحالى والخاص بإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، وإقامة إسرائيل الكبرى، لتكون هى قاعدة الشرق الأوسط الكبير التى تقاتل لأجلها الولايات المتحدة الأمريكية.

تركزت مطالب شارون حول الحصول على حصة مناسبة للشركات الإسرائيلية، والشركات العالمية ذات الرأس مال اليهودى خصوصاً شركات الإتصالات والتشييد، ولو كان عن طريق العمل من الباطن مع الشركات الأمريكية التى حصلت وتحصل على عقود الإعمار فى العراق، وقد وضعت المطالب الشارونية موضع التنفيذ فور عودته إلى بطن أمه إسرائيل.

ومن جهة أخرى فقد نقلت وكالات الأنباء والفضائيات العربية والعالمية نبأ وصول بعض الوفود الإسرائيلية التى تدفقت علناً على المنطقة الكردية فى شمال العراق للتباحث مع الأكراد حول موضوعات متنوعة يأتى فى طليعتها الأكثر أهمية والأشد حيوية وهو محاولة إحياء خط أنابيب النفط الذى كان ينقل البترول العراقى إلى ميناء حيفا الفلسطينى (إسرائيل) مروراً بالأراضى الأردنية حتى أعلنت العصابات الصهيونيّة قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م ولدراسة بدائل هذا الخط لضمان وصول البترول العراقى إلى إسرائيل حتى يتم الإنتهاء من تنفيذ هذا المشروع، وكذلك لضمان وصول البترول إلى إسرائيل حال تعطل ذلك الخط بعد تنفيذه لسبب أو لآخر.

وقد أحيطت هذه المباحثات بسرية تامة، وفرض على نتائجها تعتيم إعلامى شديد، ولم تتكشف بعد إحداها.

* * *

(أ) الملف الجديد فى الصراع (تهويد العراق)

قلنا فى كتابنا (وحيد القرن ورياح التغيير) أن إسرائيل قد نجحت فى التسلل إلى الداخل العراقى فى وقت مبكر على العمليات العسكرية وكما نجحت فى ذلك فإننا نشير هنا إلى نجاحها فى إعادة بعض اليهود العراقيين المهاجرين إلى إسرائيل إلى العراق مرة ثانية بعد حرب الخليج الثانية، وقد تمكنت الآلة الإعلامية الصهيونية من تصويرهم على حال بائس وبملابس رثّة فى أكثر من مكان فى العاصمة بغداد وعلى غير صورة بغرض المتاجرة الإعلامية للتنديد والتشهير بأحوال اليهود فى العراق، ولإعطاء انطباع عالمى بواسطة إعلامهم السرطانى بأنهم كانوا يعيشون فى ظروف سيئة وحال أسوأ، وحياة لم ينعموا بها، وعندما أعاد الإسرائيليون هؤلاء النفر من اليهود إلى إسرائيل مرة أخرى تم تصويرهم بملابسهم اليهودية الجديدة عندما أُعيدوا مرة أخرى إلى الأراضى المقدسة التى كتب الله لهم (أرض المعاد) بعد أن خرجوا من العراق كما دخلوا إليه سراً.

علماً بأن اليهود العراقيين كانوا يتمتعون بحماية خاصة من صدام حسين قبل الإطاحة به.

وقد اتخذت إسرائيل من يهود العراق ذريعة جديدة للتدخل من جديد في شئون العراق والضغط عليه، لتحقيق أقصى الإستفادات الممكنة، والوصول إلى أقاصي الغايات، حيث قدّمت إسرائيل قائمة طويلة إلى حليفيها الإستراتيجيين (أمريكا - بريطانيا) تضم في سطورها كثيراً من ممتلكات اليهود العراقيين الذين غادروا العراق في الفترة الأخيرة (بعد حرب الخليج الثانية) عام ١٩٩٢م للعمل على استردادها، والتي تقدر قيمتها بنحو «مليار دولار أمريكي» وقد طالب الإسرائيليون حليفيهما بتجميد الأرصدة العراقية لديهما ضماناً لهذا حتى تتمكن من استرداده.

لكن ما يتعلق بالأراضي العراقية ذاتها، وهي الأهم والأخطر على الإطلاق في الأطماع الصهيونيّة.

فقد أصدر عدد من الحاخامات اليهوديين فتوى لا تختلف كثيراً في مضمونها عن مثيلاتها سابقة الذكر والتي نادى بها أمثالهم من السابقين، وهي الفتاوى المستمدة من الدستور الدائم للدولة العبرية الذي وضعه (هيرتزل ورفاقه) مضمونها النص على أن العراق جزء من إسرائيل الكبرى - إلا أن الجديد فيها هو الذي جاء مع ما تم تحقيقه من المكاسب على الأرض.

فقد طالبت تلك الفَتْوى الجنود اليهود الأمريكيين والبريطانيين والجنود المشاركين في الحرب على العراق أن يؤدوا صلات خاصة عند إقامة كل مبنى أو خيمة، أو الإستيلاء على مبنى فوق أرض العراق - غرب نهر الفرات.

أما الحاخام (نحميا ههوري) وهو أحد الحاخامات الذين أصدروا الفتوى السابقة قال في توضيح لها: إن على الجنود اليهود في القوات الأمريكية، والبريطانية في العراق تلاوة صلات خاصة عندما يقيموا أي خيمة أو بناء عسكري آخر على شواطئ نهر الفرات الغربية، لأن كل قطعة أرْض غَرْب نهر الفرات هي جزء من أرض إسرائيل الكبرى، ولذا يجب تلاوة هذه الصلات التي تبين تخليص هذه الأرض وتحريرها.

وقد أصدرت مجموعة أخرى من الحاخامات (الصهاينة) الذين نرفض نحْنُ أفكارهم جملة وتفصيلاً، ونصفهم بأنهم متطرفون، وهم في الداخل الإسرائيلي مجموعة دينية محترمة تَحْظَى بكل تقدير، وتنال فَتواها عظيم الإهتمامات لأن المجتمع الإسرائيلي عبارة عن نسيج غير متجانس من شتى الجنسيات، الذين نزحوا من

أوطانهم إلى إسرائيل من أجل العقيدة التى جمعتهم تحت لوائها – وعلى أمل نزول نبى الله عيسى عليه السلام الذى سينزل لمعاونة ملك من نسل داود يحكم العالم !– من مملكة السلام (أورشاليم) بحسب زعمهم، وعلى ذلك فالمجتمع الإسرائيلى كله قد بُنى فى الأساس على عقيدة فاسدة، وهى تحظى باحترامهم وتقديرهم وتقديسهم، لذلك باتوا يقاتلون من أجلها، وعليه فقد دخلوا فى حروب كثيرة مع الدول العربية، وأخذوا يتسابقون فى سبيل تحديث قدراتهم، وتطوير آلاتهم لخوض المزيد من الحروب حتى قيام إسرائيل الكبرى، وفى هذا ما يقدم التبرير المنطقى لإستقبال فتوى الحاخامات اليهودية بمزيد من التقدير والإحترام لاحتوائها على ما يضمن استمرار عقيدتهم الفاسدة فى النمو والتطور.

ولقد أصدر هؤلاء الحاخامات فتوى جديدة مُغلّفة بالضلال والغَىّ محتوية على الإنتقام والثأر حيث قالوا: «على من يشاهد «بابل» أن يتلو صلاة تقول: مبارك أنت ربنا مالك العالم، لأنك دمرت بابل المجرمة».

ولعلنا نجد بين أيدينا مما وفرته لنا هذه الفتاوى، ما يُعد دليلاً قويًا وشاهداً حيًا على عنصرية رجال الدين اليهودى فى الدولة الصهيونيّة، ويؤكد كذلك على عنصرية الدولة الإسرائيلية ذاتها، التى تنظر إلى البشر من غير اليهود على أنهم أحقر شأنا، وأقل رُتبة، وكأن الرب يلفظهم.

ولعلك تستنتج من الفتوى السابقة أن هناك اتجاها أبعد مدى وأخطر أثرا -- حيث النيَة تتجه طبقًا للمؤشرات إلى أن الكعكة العراقية سيلتهمها يهود أمريكا وبريطانيا فقط إلى جانب إسرائيل صاحبة الحق التاريخى والثأر القديم مع العراق مُنذ عصر السبى البابلى – أما الباقون فعليهم الذهاب إلى الجحيم.

ولا عجب فى ذلك، فالوطن القومى الكبير لليهود (إسرائيل الكبرى) الذى يحلمون به منذ أكثر من القرن من الزمان، جعلهم يتحدثون فى الأرض الواقعة غرب نهر الفرات على أنها أراض إسرائيلية تم تحرير بعضها، والبعض الآخر فى طريقهم إليه، وهذه هىَ التى تمثل فى عقيدتهم الحدود الشرقية لدولتهم المزعومة، وهو ذاته الحلم الذى جعلهم ينظرون إلى الحدود الغربية لوطنهم الكبير على أنها لا زالت مستعمرة من الإحتلال المصرى الغاشم!

لأجل ذلك رَفضَت إسرائيل وبشدة مع نهاية السبعينات إقامة سفارتها على الضفة الشرقية لنهر النيل فى محافظة القاهرة، وأصرت على أن يكون موقعها غرب

النيل فى محفاظة الجيزة – وقد قبل سفيرها الإقامة فى منطقة المعادى بالقاهرة وهى الأرض الإسرائيلية التى تخضع للإحتلال المصرى الذى يجب قتاله وطرده حتى تحريرها (لا تتعجب إنها إرادة الله) مع الإعتذار لسيارات النقل بمقطورة.

هذا وقد ارتبَط اسم العراق كثيراً بمشاريع الإستيطان والتوطين اليهودية والصهيونية المتعددة، وهى الحلم القديم المتمثل فى طرد الفلسطينيين من ديارهم وبلادهم، ونقلهم إلى مناطق أخرى مجاورة، وهو حلم له جُذُور تاريخية تعود إلى عام ١٩١١م، حيث اقترح القاضى (يهوشع بوخميل) – من أصل روسى – (رفيق هيرتزل) أن يقوم اليهود بشراء أرض فى العراق كى يتم ترحيل الفلسطينيين إليها، ثم تطورت تلك الدعوة بعد تفتيت الخلافة الإسلامية التركية، وتجزئة الجثة العربية الهامدة، هذا غير انشغال الشعوب العربية بالمتغيرات والتطورات التراجيدية السريعة التى مرت بها المنطقة خاصة فى العراق الذى شهد موجات متتالية من التوترات، والثورات التى مهدت بعد إلى إعلان الملكية، وفى وسط تلك الظروف جاءت دعوة العالم اليهودى (أهارون أهرونسون) لتحويل الوادى الواقع بين دجلة والفرات إلى جنة العالم، كما كان عليه الحال فى العصور القديمة، وعرض مساحات من تلك الأراضى على الفلسطينيين، وبذلك يجذون إغراءً قوياً للهجرة والإستيطان فى العراق.

أما « ابن جوريون » فقد اقترح على اللجنة التنفيذية للحركة الصهيونية فى فلسطين عام ١٩٣٨م – أن يعرض عبر وسطاء لم يحددهم على العراق عشرة ملايين جنيه استرلينى من أجل توطنين (١٠) آلاف أسرة عربية من أرض إسرائيل لديها – المقصود – « الأرض المخصصة لقيام إسرائيل عليها والتى وردت فى القرار ١٨١ فى ٢٩ / ١١ / ٤٧م عن الأمم المتحدة بشأن تقسيم فلسطين ».

وفى عام ١٩٤٢م – أثناء انعقاد المؤتمر الخامس للهيستدروت، طرحت فكرة شراء أراضى عراقية تقع بين الرافدين لنقل الفلسطينيين إليها، ولم يلقى الطرح التأييد المطلوب بسبب الظروف الداخلية بالغة السوء، والتطورات الراهنة فى المنطقة، مع استعار الحرب العالمية الثانية.

وقد حاول « ولتر كلاى ملك » الأمريكى – العزفَ على وتر التهجير إلى العراق

ضمن كتابه (أرض إسرائيل الموعودة) الصادر في ١٩٤٤م بقوله: «إذا وجد العرب أنهم لا يستطيعون العيش في بلد صناعي الذي هو المجتمع الإسرائيلي المتقدم، فسيكون بمقدورهم الإستيطان في وادي دجلة والفرات في أرض العراق الخصبة حيث توجد المياه بوفرة للري».

وعلى صعيد الممارسة الفعلية والتطبيق العملي لنظريات الصهاينة وحديث الأمريكيين أكد مصدر كان ضمن الفريق الدبلوماسي العراقي في الأردن قبل سقوط النظام العراقي في تصريح لإحدى وكالات الأنباء أن العديد من اليهود العراقيين الذين يحملون حاليًا الجنسية الإسرائيلية وصلوا بغداد بحثًا عن منازلهم القديمة من جهة ولشراء عقارات ومنازل وأراضي في العراق من جهة أخرى، وأشار المصدر إلى أنه وبسبب غياب الجهة الرسمية المعنية بتسجيل الأراضي والعقارات، والإشراف على بيعها وامتلاكها في العراق، يقوم اليهود المذكورون بأخذ ورقة مكتوبة بخط اليد من صاحب العقار، وبحضور عدد من الشهود تفيد أنه قام ببيعهم عقاره قبل أن يتم دفع مبالغ كبيرة له قياسًا لقيمة العقار الأصلية[1].

وقد تنبهت بعض فصائل المقاومة العراقية إلى ما يجري، وبدأت في توزيع منشورات على السماسرة المعنيين بهذه الصَّفقَات تهددهم فيها من الإستمرار في التوسط لليهود في عمليات الشراء، وذلك لأن الحقيقة التاريخية الثابتة في القضية الفلسطينية أن عملية ابتياع اليهود لديار الفلسطينيين وأرضهم كانت هي الباب الرسمي الذي دخلت منه الصهيونية العالمية إلى قلب فلسطين.

غير أن الُملفت للنظر أن اليهود العراقيين الذين يشترون الأرض والديار في العراق كانوا يغادرون بغداد فورًا في طريق عودتهم إلى تل أبيب، وهكذا تبدو الأمور وكأن شيئًا ما يُعدّ في الخفاء، ولم يأت أوانه بعد - ولكنه سوف يأتي.

وهكذا أمسى الإسرائيليون والأمريكيون يعملان جَنْبًا إلى جنْب في مصاف الأكابر للسيطرة على العالم، وإخضاعه ابتداء من المنطقة العربية.

وللقرآن الكريم رأى حاسم في هذه التطلعات التي تنبئ عن نجاح مؤقت لتلك

---

(١) جريدة الأهرام القاهرية ص٦ من مقال للأستاذ سامي القمحاوى.

المخططات ومن خلاله سوف يدركون كثيراً مما ساروا إليه – ويُصيبون ما عملوا لأجله. ولكنه إلى ذلك يجزم بحتمية النهاية وسوء المصير – وهو مصير معلق على ظهور فَسَادهم الكائن بأمر من الله تعالى ﴿ لتفسدنَّ في الأرض ﴾ [الإسراء: ٤]، ثم تصير لهم الغلبة والتفوق فى كثير من الأمور ﴿ ولتعلنَّ علواً كبيراً ﴾ [الإسراء: ٤].

وكان علو الجاه وارتفاع الشأن أمر حتمى القيام على أرض أتلفهَا فسادهم.

ومعناه: لولا فسادكم فى الأرض وسعيكم بالتخريب، والتهويد، والقلاقل، والفتن، وإثارة الحروب والنزاعات، والمخاصمات، والقتل، والتشريد، والتعذيب بالحرق ونشر أنبياء الله بالمناشير، وذيوع الرذيلة، والفجور، والمجون والبلوى – لولا كله – ما أصبتم علواً، ولا أدركتم سُؤدداً.

وذلك لأنهم لن يحققوا تقدمًا إلا على حساب الآخرين، ولن يهنأوا بغير بؤس البائيسين – ولن تُبنى سعادتهم إلا على شقاء الآخرين، ولنا فى النظر إلى حال أمتنا العبرة حيث قاست وعانت من فسادهم وإفسادهم.

وهم الآن يسرعون الخُطى طلبًا للعلو والسيادة، يُساعدهم فى ذلك ما ملكت أيديهم من الأموال الطائلة التى لا حصر لها – وهى فى أغلبها أموال عربية وإسلامية مُهاجرة أو مهرّبة، والتى كان آخرها ما فضحته جريدة الأسبوع المصرية حين كشفت تصرفًا غريبًا وغير مفهوم لرئيس مجلس إدارة إحدى شركات التأمين الوطنية المصرية، حيث أقدم الرجل على سحب مبلغ ٢٢ مليون جنيه من أموال الشركة (القطاع العام) المودعة فى أحد البُنوك الوطنية، وقام بإيداعها فى بنك إسرائيلى – أمريكى / مشترك بمشاركة بعض الأفراد المصريين وهو بنك (نوفيا سكوتاشيا) الذى يتخذ من العمارة الموجودة بها السفارة الإسرائيلية بالجيزة مقراً له.

وكما قالت الجريدة فإن المثير فى الأمر أن الوديعة التى تم سحبها من البنك المصرى كانت تُدر فائدة سنوية تقدر بـ٢ مليون جنيه، تم وضعها فى الحساب الجارى للبنك الإسرائيلى – الأمريكى المشترك، وهو ما يعنى حرمان الشركة من الفائدة السنوية التى تعود عليها وعلى حُقوق المؤمنين وحملة الوثائق.

وقد أرجعت مصادر مطلعة قرار رئيس الشركة إلى توجيهات عليا صدرت له من أحد الوزراء لتدعيم البنك الإسرائيلى على حساب البنك الوطنى (المصرى) ومصلحة شركة التأمين[1] الوطنية.

وهذه واحدة تم الكشف عنها مؤخراً، فى أكبر الدول « النامية » التى تأتى فى مصاف الدول الرائدة فى العالم الثالث فما بالك من المتشابهات فى الدول « النايمة »، وهى التى تغلغل فيها النفوذ الإسرائيلى ورسموا سياستها، وامتلكوا فضائياتها.

---

(١) جريدة الأسبوع ٢٠/١٠/٢٠٠٣ ع – ٣٤٦.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ [الإسراء: ٦].

والمقصود بالبنين هنا هم جموع اليهود المهاجرين من روسيا وألمانيا وأمريكا وكندا واستراليا والحبشة، والمغرب، واليمن، ومصر ومن كثير من دول إفريقيا وأسيا وهم اليهود المتدينون - المؤمنون بالوطن القومى وحقيقة إقامته على أرض المعاد لحكم العالم من فوقها بواسطة ملك من نسل داود الذى سوف ينزل عيسى عليه السلام من السماء على أورشاليم لمساعدته ومؤازرته فى إدارة شئون العالم (حسب عقيدتهم الخربة)، هذا بخلاف المسيحيين اليمينيين المتطرفين الذين يُديرون العالم هذه الأيام وهم أصحاب أيديولوچية المسيحية المتصهينة وعلى رأسهم (جورج بوش الثانى) الذى قال: إنه يحارب العراق بتفويض من الرب وأن السماء تبارك هذه الحرب.. وهو الرئيس الأمريكى الذى سخّر طاقات بلاده، والبلاد المسيحية التى تدور فى فلكه مثل: بولندا، وأسبانيا، وبريطانيا، واستراليا لخدمة إسرائيل، وضمان أمن إسرائيل، وسلامتها وضمان تفوقها وتسيدها وهؤلاء جميعًا قد حاربوا العراق وسحقوه نيابة عنها، حتى مكّنوا لرئيس الوزراء الإسرائيلى (إيرئيل شارون) من دخول العراق والمبيت فيه لليلة واحدة وقد أذل شارون (صدام حسين) عندما توجه إليه فى معتقله السرى للشماتة واستعراض العضلات، وللتأكيد على إرساء قواعد الدولة اليهودية فى العراق، فيما يعد تأكيداً على ترسيم حدود الوطن القومى الذى ذكرناه آنفًا.

وهكذا اجتمعت الصليبية المتصهينة مع أبناء صهيون من جديد تحت لواء واحد هو محاربة الإسلام من أجل القضاء على الحضارة الإسلامية قاطبة، وتكسير قوائمها، وتحطيم أعمدتها وخاصة (القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة).

ووجدت الحضارة الإسلامية نفسها أمام العدوين التاريخيين فى وقت يتشدّقون فيه ملء الأفواه بالسلام والحرية والعدل والخيرْ والمساواة، وقد ملت الآذان سماع نداءاتهم (حوار الحضارات) أو يقولونها أحيانًا (حوار الديانات).

إنه الصراع يا سادة - وهو التعبير الأصح من قولهم لما يشهد به الواقع على كذبهم - إنه هو:

صراع الحضارات وحوار الدبابات

وهو الصراع الذى سوف ينتهى حتماً عند النهاية.

النهاية التى ستشهد يقينا مصيرهم الحتمى.

على أرضنا الطيبة، أرض الأنبياء، ومهد الرسالات، ومفتاح الحضارات، وهى ستكون دائماً كما كانت قبل مقبرة الغزاة من النيل إلى الفرات.

* * *

(ب) المصير الحتمى

إنتهينا فيما سبق عند الحقيقة المؤكدة المتمثلة فى وجود فعلى للأعاجم على أرض العراق، وقد جاؤا يدفعهم الحقد المرير على دين الله الذى ارتضى لعباده وهداهم إليه، غير أن كثيرين من خلقه تمردوا على إرادته تعالى واستحبوا العمى على الهدى، أولئك هم الحاقدون - أولئك هم الكافرون، الذين جاؤا مدفوعين إلى المصير الحتمى الذى يوشك أن يحصرهم - إنه القدر المحتوم الذى يمضى بهم «إلى قدر معلوم» طبقاً لمشيئته تعالى وقدرته القاهرة التى قدرها على عباده (عندما خلق الكون)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢] فنعم القادر المقتدر، ونعم القدر المقدور ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣].

إنه القدر الحتمى الذى بينه الرسول ﷺ حين قال فيما رواه مسلم من حديث زهير، عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا مُنعت العراق درهمها وقفيزها، ومُنعت الشام مديها ودينارها، ومُنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتُم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم شهد على ذلك لحم أبى هريرة ودمه».

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا الجريرى عن أبى نضرة قال: كنا عند جابر قال: يوشك أهل العراق أن لا يجبى إليهم قفيز ولا درهم، قلنا من أين ذلك؟ قال: من قبل العُجم يمنعون ذلك، ثم قال يوشك أهل الشام أن لا يُجبى إليهم دينار ولا مُدّ[1]، قلنا من أين ذلك قال من قبل الروم يمنعون ذلك[2].

ولقد بينا ذلك بياناً وافياً فى كتابنا «هذا بلاغ للناس» ويمكنك الرجوع إليه

---

(١) المُدُّ: مكيال قديم اختلف الفقهاء فى تقديره ج (أمْداد).

(٢) الفتن والملاحم للعلامة ابن كثير ص٣٩.

وفيما ذُكر يتضح أن أهل العراق والشام قد نزل بساحتهم ما قال الرسول ﷺ، ولم يتبق من وقوع ما أخبر به نبينا المعصوم سوى نصيب مصر من المؤامرة الخبيثة، وهو ما ذهبنا إليه وما أكدنا عليه فى الجزئين السابقين على هذا الجزء، المشار إليهما فى غير موضع، ونضيف ههنا:

أن الفرات سيحسر عن جبل من ذهب تتقاتل عليه الناس - الكثيرون من الناس - وستكون هناك مقتلة كبيرة تجرى معها الدماء أنهاراً، يتقدمهم الغزاة المحتلون العجم والروم الذين سيقتلون ويُقْتَلون من أجل الفوز بكنز الذهب الكبير، حيث قال البخارى: حدثنا عبدالله بن سعيد الكندى عن عقبة بن خالد، حدثنا عُبيد الله عن حبيب بن عبدالرحمن عن جده حفص بن عاصم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الفرات أن يُحسر عن كنز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً» - قال عقبة: وحدثنا عبدالله حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله إلا أنه قال: «يُحسر عن جبل من ذهب»، وكذلك رواه مسلم من حديث عقبة ابن خالد من الوجهين، ثم رواه عن قُتيبة عن يعقوب بن عبدالرحمن عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة أن سول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يُحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم لعلى أكون أنا الذى أنجو»(١).

مفاده أن الناس إذا سمعوا بجبل الذهب الذى سيحسر الفرات عنه، ساروا إليه وتقاتلوا عليه، لأن أعناقهم مائلة إلى طلب الدنيا.

ولثقة العجم فى صدْق ما قاله الرسول الأمين ﷺ كانوا أشدَ الناس حرْصًا على الوصول إلى الفرات قبل غَيرِهم من الناس، وكانوا كذلك هُم أسبق الناس استعداداً للقتال عليه، وذلك لأن عيونَهم لا ترى إلا الذهب الذى يتربع على قمة القواعد الإقتصادية العالمية، حيث يقوم الإقتصاد الدولى أصلاً على أساس الذهب الذى يحتكره اليهود، لا على أساس قوة العمل والإنتاج والثروات بحيث لا يتربح العالم أبداً، لأن الذهب سلاح ماضٍ فعال، فهو يعد أقوى الأسلحة لإثارة الرأى العام وإفْسَاد الشعوب، والقضاء على الضمائر والأديان، والقوميات، حتى الأسرة، وكذلك إغراء الناس بالشهوات البهيمية الضارة، وإشاعة الرذيلة والإغلال، حتى تُستنزف قُوى الأممين استنزافًا فلا تجد مفراً من القذف بأنفسها تحت أقدام اليهود.

ولعلنا نتذكر جميعًا تلك الأنباء التى طيرتها وكالات الأنباء وتناولتها الصحافة العالمية فى أعقاب أحداث ١١ / ٩ / ٢٠٠١م والتى مفادها أن أكثر من خمسين طنًا من

---

(١) الفتن والملاحم للعلامة ابن كثير ص٣٨.

سبائك الذهب الخالص – أى – « خمسين ألف كيلو جرامًا » دُفنت تحت أنقاض مركز التجارة العالمى الذى كان فى طليعة الأهداف التى استهدفتها التفجيرات المذكورة.

ولعل إسراعهم الخُطى نحو الشرق، والنزول على قلب بغداد، يؤكد أن ما قاله ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان – أن العراق يوشك أن لا يجبى إليه قفيز ولا درهم – أى أنه سيمتنع عليه القفيز والدرهم.

والقفيز فى بطن اللغة هو (المكيال) – وحدة كيل كان يكال به قديمًا يختلف مقداره فى البلاد ويعادل بالتقدير المصرى الحديث ستة عشر كيلو جرام، ومن الأرض قدر مائة وأربع وأربعين ذراعًا، وهو كذلك حديدة مُنعقفة يدخل فيها لسان القفل ونحوه (ج) أقفزه[1].

أى أن يُحرم العراقيون طيب خيرهم، وزرع أرضهم – فلا كيل يكيلون ولا يكتالون، ولا أرض يزرعون لأنّهم سيجدون أنفسهم مضطرين لبيع أرضهم، أو تركها مع تحويل مجرى الفرات من منابعه التركية التى بيدها فتح محبس المياه أو غلقه – حسب مشيئتها – خاصة أنها وقّعت مع الإسرائيليين اتفاقًا ببيعها لهم حصص المياه الزائدة عن الحاجة، والتى سوف توفرها السدود الجارى إنشاؤها على الأراضى التركية[2] والتى بواسطتها يتم تجفيف الفرات، بينما تطمئن إسرائيل على مصادرها من المياه العذبة (كما ذكرنا سابقًا) وحتى يخرج جبل الذهب المرتَقَبْ بعد أن يجف الفرات.

إنهم يدرسون كل شىء، ويخطّطون لكل شىء منذ سقوط الأندلس – وهم كذلك يخططون لاستقبال عيسى عليه السلام فى أروشاليم (مملكة السلام).

إنه سعيهم نحو المصير الحتمى.

يا إخوة الدين– والوطن واللغة – والتاريخ.

إنه لن تكون هناك إمبراطورية أمريكية على أرض الشرق تقود المنطقة والعالم إلا على حساب (أشلاء) دول متحللة قزمية آمنت بالجزئية والقُطرية، ولن تكون هناك إسرائيل كُبرى قوية إلا على حساب « مصر » صغرى ضعيفة.

ولعلنا نَنْظر إلى الخريطة التى رسمها تيودور هيرتزل سنة ١٩٠٤م، وأعاد صياغتها وقام بتعديلها الحاخام (فايتسمان) ١٩٤٧م، وفيها تلاحظ أن إسرائيل الكبرى التى ينادون بها من « النيل إلى الفرات » وهى تشمل لبنان وسوريا وبعضًا من العراق والكويت وشمال الخليج وبعضًا من أرض الحجاز وشمال الجزيرة العربية خاصة يثرب (المدينة المنورة).

---

(١) انظر – هذا بلاغ للناس – للكاتب.   (٢) مواقع عديدة على شبكة الإنترنت.

وما كان هيرتزل ليدُر فى ذهنه، ومن بعده فايتسمان أن يرسما تلك الخريطة المعلقة بسقف الكنيست الإسرائيلى، ويحددا جغرافيتها على أرض لها أصحابها وكيانها ووجودها وتاريخها إلا عن طريق استخدام «محراث» التفتيت والشرذمة ولعلنا ما نسينا ما أرادوه بلبنان عند حَرْبه الأهلية التى استمرت ١٦ عامًا، وما كان بشأن العراق حتى سقط فى قبضة الأمريكَيين، وما قالوه فى شأن تقسيم سوريا إلى دويلات أربع (كردية - درزية - سُنيّة - شيعية)، أما السودان فسوف تنتهى مأساته إلى دولة إسلامية شمالية، وأخرى مسيحية جنوبية - وهو الواقع على الأرض الآن ومنذ حين مضى، كما أن السعودية لم تسقط من حساباتهم : لأن نصيبها معلوم بالضرورة، حيث رسموا لها نموذجًا خاصًا بها ، وكذلك فهناك مشروع فى الأدراج لتقسيم ليبيا إلى ثلاث دويلات ومعها الجزائر - وسوف يدخل المغرب العربى فى دوامة الفَوضى السياسية والإضطرابات المزمنة فى بداية تفعيل المخطط ضده بعد أن تدين الأمور بالطاعة فى جهة المشرق العربى .

وتأتى مصر بحكم عبقرية مكانها، بحيث باتت تتحكم فى أخطر القنوات الملاحية البحرية فى العالم - كما أنها همزة الوصل بين القارتين الإسلاميتين، وهى الغنيّة القوية بأبنائها، وإيمانها، وإمكانياتها، وهى بالتالى لا تَصْلح لأن تكون رفيقًا مؤْتَمَنًا لا يسبب إزعاجًا أو تحديًا فى الإطار المزعوم والمرسوم والمحدد، فكان لا بد من إهلاك شبابها، وتدمير اقتصادها، وكسر أنفها - لذلك جاءت تحتل بؤرة اهتماماتهم الإستعمارية والتخريبية، وقد شمر الجميع عن سواعدهم بقصد إفقارها، وتهميش دورها لإسكات صوتها ومَحْوِ دَوْرها .

فاجتهدت إسرائيل وإلى جوارها أمريكا بشكل مباشر كان أو غير مباشر بمحاولات متعددة للضغط عليها حتى يتيسر لهم تطويعها وتسييسها لتهيئتها للاندماج فى الإطار الإقتصادى والسياسى الجديد المسمى (الشرق الأوسط الجديد) الذى يُقاتل لأجله الأمريكيون والإسرائيليون من خلال الترويج لأحلام السلام المنشود، والديمقراطية المزعومة . وهو سلام القهر والإبادة والإذلال، وديمقراطية عوابر القارات وأم القنابل، وهو السلام الذى حل على الأفغانيين والعراقيين والذى ينعم به الفلسطينيون هذا وقد تأثر السلوك الإنسانى على حين غفلة من غيبة الضمير فظهرت المحسوبيات والروتين، وأهملت الأولويات، وقطاعات كبيرة فى الخدمات، وسيطر غير الأكفّاء على أكثر دوائر صنع القرار الشعبى التأثير - سريع الأثر، وكذلك سيطروا على مواقع الإنتاج، لذلك ضاع الكثير، وخسرنا الكثير، وبات الجميع على شفا الإنهيار التام .

واختفت الصيحات المنادية بالقومية العربية، حتى أولئك الذين يقولون بأنهم إسلاميون، لم أرى فيهم غير عصابات ديكتاتورية تحكم شعوبها بالحديد والنار، حتى تمردت عليهم شعوبهم غير مرة.

فدعاة القومية كتيار معاد للإسلام باعتباره توجهًا عَلْمانيًا، لم تصلح دعوتهم، ولم تُجد - ولأنها لم تتكيف مع المتغيرات فقد ماتت في المهد، أما أصحاب الصوت الإسلامىَ المتشددون أو المعتدلون على السواء، فلم يُسمع حتى لصدى صوتهم لبعدهم عن روح الإسلام.

لذلك أصابنا الدوَار، وشكونا الهوان، وشَارَفْنَا على فقدان الهوية، حتى أصبحنا نَبدُو وكأننا لا نحن عرب، ولا نحن مسلمون.

وهذا منتهى أملهم أن يصبح المسلم فى معزل عن القرآن الكريم، وأن لا يعتز العربى بعروبته، وأن يفقد الجميع روح الجهاد والوطنية والإنتماء - وإن فقدوها فهى لا تعود إليهم أبداً، لأن الصهيونية تمقت الإسلام مقت الموت - لأن القرآن الكريم فضحهم، وكشف مؤامراتهم، كما أنه أكد على عُلوّ شأنهم (ولتعلن علواً كبيراً) ونحن الآن نشاهد بدايات هذا العلو الزائف المصطنع، علو الإرهاب النّووى، والكيماوى والبيولوچى والميكروبى، علو تسانده أمريكا وأوروبا والمشركون من غيرهم، كما أفاد القرآن الكريم أنهم سيتملكون آلة إعلامية كبيرة مدوية، يصلون بها إلى كل شبر على ظهر الأرض، وستبلغ الآفاق والرحاب، وهذه لها أبواق دعائية سامة ومؤثرة، وسريعة بفضل قدراتها الهائلة على أسْر العقول الفارغة، أو أنها التى تفرغت بسبب الدعاية المضللة، والإعلام المنحل، والثقافة الفاسدة - حتى أصيب الشباب بهوس الحب والجنس والكورة - وهذا ما أكده القرآن الكريم حين قوله تعالى: ﴿ **وجعلْناكُم أكْثر نفيرا** ﴾.

فقد باتوا عاقدين العزم بسبب ذلك على محاربة الإسلام قلبًا وقالبًا، شكلاً وموضوعًا، إنهم لذلك يَتحَالفون مع الشيطان، ويتآمرون لإزهاق روح الدين الإسلامى، كما أنهم يجتهدون ويجدون كى يقتلعوا الإسلام من جذوره، حتى لا يتململ من جديد فيهب منتفضًا بنفض الغبار الذى تراكم عليه، ويهب من جديد على قدميه، محطمًا قُيودهُ منطلقًا نحو التحرير - وهو إن قُدِّر له ذلك فلن يوقفه أحد، أو يعوقه متراس، أو يحول دون انطلاقته حائل، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ **إنَّهُم إن يَظْهرُوا عليْكُم يرجمُوكُمْ أَوْ يُعيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلحُوا إذًا أَبَدًا** ﴾ [الكهف: ٢٠].

* * *

(جـ) اللعب على المكشوف

قلنا إن وحيد القرن جاء إلى الشرق ليقيم إمبراطورية كبيرة له على أرضنا الطيبة، كي ينطلق من خلالها لإخضاع العالم ما استطاع حتى يعمل الجميع فى خدمته، ويأتمرون بإشارته.

وقد تمكن فى بداية طريقه الطويل أن يقف فى أول محطات وصوله على قلب عاصمة عربية عزيزة علينا جميعاً، وهى - حاضرة الخلافة العباسية فى عصريها الأول والثانى، وقبلة الطلاب والعلماء، ومنبت الفقهاء حيناً من الدهر - إنها - « بغداد ». العاصمة الأقوى فى مصاف الدول العربية والإسلامية إلى جانب القاهرة.

ولما استقر هناك أخذ يستشعر بحواسه المنطقة كلها ليحدد الخطوة التالية - أين يهبط؟ ومتى؟!

استقرت طموحاته عند الرياض التى أسماها (بذرة الشر) وطهران المارقة، ودمشق التى صدر بشأنها قانون أطلقوا عليه (محاسبة سوريا وسيادة لبنان لعام ٢٠٠٣م) وهو القانون الذى وقع عليه الرئيس الأمريكى (بوش الثانى) مساء السبت ١٤ / ١٢ / ٢٠٠٣م والذى أعده الكونجرس الأمريكى فى وقت سابق من هذا الشهر، وهو نموذج يكاد يتطابق مع ما كان فى مشكلة العراق منذ البذرة الأولى فى صراعه مع أعداء الله.

وإذا استثنينا بترول العراق والسعودية، وأمن إسرائيل، وذهب الفرات - ونحّينا كل ذلك جانباً. لبرز سؤال حيوى على السطح . وهو لماذا التعجيل بالشرق العربى وطعنه أولاً .؟ علماً بأن المغرب العربى هو الأقرب جغرافياً، والأدنى تكلفة مادية إذا ما أراد وحيد القرن إقامة إمبراطوريته الإستعمارية هناك.

ومن فوره تكون الإجابة:

- يرتبط الإتحاد الأوروبى بمصالح مشتركة ومنافع متبادلة مع دول الشمال الإفريقى الواقعة إلى جنوب المتوسط ومن بينها مصر، وهناك مشروع يعرف باسم (اتفاقية الشراكة الأورومتوسطية) وهو المشروع الذى تحاول أوروبا استغلاله باعتباره الوسيلة المثلى التى تضمن السيطرة على إقتصاديات المنطقة، وربطها بالنظام الأوروبـى، وهو ما يعنى ضمناً وقوف هذه الإتفاقية موقف التيار المناهض للمصالح الإقتصادية الأمريكية فى المنطقة، وإجهاض مشاريعها الإستعمارية قدر المستطاع.

ولذلك فإن جنوب المتوسط يقع فى العين والقلب الأوروبيين باعتباره فناءً خلفياً للأمن الأوروبى كاملاً، خاصة وأن الفتح الإسلامى قد سلك طريقه إلى أوروبا عن طريق الأندلس انطلاقاً من بلاد المغرب العربى.

تدارك الأمريكيون هذه الحقيقة مبكرًا، فرحلوا مباشرة إلى الشرق بعد أن أسقطوا الإتحاد السوفيتي، وبعد أن تمكنوا من القضاء على أذنابه وأعوانه والقائمين على رعاية مصالحه وفي مقدمتهم (روسيا) التي تزوجت من الدولار الأمريكي العجيب خلال شهور معدودة من حكم رئيسها « فلاديمير بوتين »، وبعد أن تم تقييدها بأغلال الديون.

وكذلك فإن المشرق العربي صار بلا غطاء عسكري أو سياسي بعد أن اشتغل حكامه بحروب أنهكت قواه – وبعد أن نزف طويلاً من جراء تلك الحروب البينية – (العربية – العربية ، العربية الإسلامية).

وعلى مسار آخر فإن أمريكا لم تمهل القارة السمراء، حيث ذهبت إلى هناك لمحاصرة الأطماع الأوروبية بوجه عام، ولمزاحمة النفوذ الفرنسي والبريطاني – في الوسط والغرب والجنوب. وقد قام بوش الثاني بزيارة كل من بتسوانا، وأوغندا والسنغال، وجنوب أفريقيا، ونيجيريا التي كانت آخر محطاته قبل العودة إلى واشنطن في السبت ١٢ / ٧ / ٢٠٠٣م، وكان من المقرر أن يُعرِّج بوش أثناء رحلته على ليبيريا، غير أن الأحداث الجارية على أراضيها جعلته يرجئ الزيارة إلى مرة قادمة.

وما فعله بوش وسعى إليه هو امتداد لعمل كبير بدأه سابقه « بيل كلينتون » في رحلة مشابهة لبعض دول القارة السمراء قبل خروجه من البيت الأبيض بشهور قليلة.

أما إسرائيل فإنها ذهبت إلى المغرب العربي وصارت لها علاقات سياسية واقتصادية قوية مع المملكة المغربية، وموريتانيا، وتونس، غير أنَّ العلاقات مع موريتانيا تعرضت لأزمة شديدة عقب تمكن قوات الجيش الموريتاني من دحر الإنقلاب العسكري وإعادة الرئيس « معاوية ولد سيدي أحمد الطايع » إلى رأس الحكم عند صيف ٢٠٠٣م.

يبدو المشهد الآن في منتهى الغرابة والتعجب، حيث الكائن الآن على سطح الأحداث يؤكد على أنه : هناك دولتان تعملان لإقامة إمبراطوريتين منفصلتين على أرض واحدة، حتى وإن كان عن غير قصد منهما.

الأولى : إمبراطورية وحيد القرن التي تقود قطار البشرية وتندفع به بسرعة هائلة نحو المصير الحتمي، تُشجعها قدراتها العسكرية، تسوقها أطماعها المعلومة، حتى وإن أعلنت عن وازع ديني يقودها، وأنها تنساق خلفه للإصطدام بالشعب الحر الأبي الذي يعيش على أرض تقع ما بين (الخليج العربي شرقًا، والمحيط الأطلسي غربًا)، وهي كذلك سوف تصطدم بالحضارة الصينية في الشرق الأقصى – يؤكد على ذلك

رغبتها الشديدة فى الإبقاء على موضوع المشكلة الكورية الشمالية التى صنعتها هى، وإرسال إسرائيل إلى الهند، وبنجلاديش مبكراً فى مهام معلنة وأخرى غاية فى السرية.

الثانية: الدولة العبرية: (إسرائيل الكبرى) وهى بلغة التاريخ إسرائيل الثانية[1] والتى ستفسد فى الأرض كما فسدت الأولى التى دمرها (نبوخذ نصر – وهادريانوس)، وفسادهم هذا هو الذى أنبأنا به القرآن الكريم – وهو سبب غُلّوهم، وهو اسم جنس تندرج تحته كل أنواع وأشكال الفساد مما نعلم، وما لا نعلم – مما نطيق، وما لا نطيق – ومما نُدرك، وما لا ندرك.

أى أن الشرق سيكون نهبًا للأطماع الأمريكية، وأرضًا خصبة للفساد الإسرائيلى البادئ فى طور العلو والتصاعد.

والسؤال: هل يستوعب الشرق قيام إمبراطوريتين مختلفتين فى العقيدة والأهداف. وإن اتفقا فى الأسلوب والأدوات؟

نقول: لو أن الأمريكيين يرقبون جيداً حركة التاريخ، ويستوعبون حقيقة الأحداث ما تمادوا فى الضلال والغى، وما استمروا فى تطوير علاقاتهم بالإسرائيليين إلى حد الدفاع عنهم والقتال نيابة عنهم فى كثير من المعارك الخارجية، ولَمَا استخدمت كذلك حق النقض (الفيتو) ضد أى قرار دولى يصدر عن الأمم المتحدة فيه إدانة لإسرائيل.

إذ كان من الممكن أن تستقطب الولايات المتحدة جميع أنظمة الحكم العربية وكسب صداقة شعوبها – بعد أن أصبحت هى وحدها وبلا منافس أو منازع رئيس مجلس إدارة العالم – وخاصة أن العرب أدمنوا اللجوء إلى الإعتماد على القوى الخارجية، واعتادوا الحلول المستوردة حتى لمشاكلهم الداخلية، وهم أكثر شعوب الأرض عرضة لأن تفرض عليهم حلولاً خارجية لمشكلاتهم كما هو الحال الآن فى مشكلة دارفور والجنوب السودانى، وذلك بسبب العجز العربى الفاضح عن الإتفاق على كلمة سواء تلبى الحد الأدنى من المطالب الجماهيرية الجارفة المنادية بعمل عربى عام وموحد – غير أنهم جميعًا اتفقوا اتفاقًا جاداً وملزمًا بعدم الإتفاق.

وهذا هو الخطأ الاستراتيجى الأمريكى الواضح بعد غيبة قطب آخر يحفظ الموازين فى العلاقات الدولية – حيث لم تستثمر الواقع العربى، ولم تحاول إعادة صياغته بما يحقق المصالح المشتركة لجميع الأطراف، وفى مقدمتهم الولايات المتحدة ذاتها.

---

(١) انظر المؤامرة الكبرى – للكاتب.

إنما هو الإيمان المطلق - والعقيدة الخربة التى قاعدتها كراهية الإسلام والمسلمين على طول الخط وبلا ضوابط، كما بينا طوال موضوعنا هذا - بل منذ الكتاب الأول لهذه الموسوعة، وهو المعنون - «المؤامرة الكبرى» المشار إليه فى غير موضع - مرورا بكتاب «وحيد القرن ورياح التغيير»، وانتهاء بالجزء الرابع المعنون (أغوار العالم الإسلامى) أعاننا الله على إخراجه.

لذلك راح الأمريكيون يطورون علاقاتهم بالدولة الصهيونية رغم العداء الأيديولوچى التاريخى القديم بين المسيحية واليهودية، واللذان التقيا فى عدائهما ومعاداتهما ضد الإسلام وأتباعه.

بيد أن الخَطأ الأمريكى الأكثر أهمية: أن الأمريكيين نَسَوْ أَوْ تَناسَواْ حقيقة الجوهر الإسرائيلى صناعة ومنهجاً وأسلوباً.

فالذى يقرأ التاريخ: يعلم أن الإسرائيليين تنكروا لحسن الصنيع. ولم يحفظوا الجميل - فإسرائيل هى صناعة بريطانية خالصة - وعلى الرغم من ذلك ولَّى الإسرائيليون وجههم شطر الولايات المتحدة بمجرد أن تأكد الوجود العسكرى الأمريكى الذى حسم الحرب العالمية الثانية باستخدام الأسلحة الذرية الجديدة. والتى بفضلها تغيرت مفاهيم القوى وموازين التسليح فى العالم، وحدث معها التراجع البريطانى للخلف ليكون قوة ثالثة أو رابعة بعد الإتحاد السوفيتى وفرنسا، ولم يقف الإسرائيليون عند هذا الحد فقط إنما يهددون الوجود البريطانى ذاته فى فلسطين، وضَرَبوا مصالحه هناك، بل وذهبوا إلى حد قتل الإنجليز أنفسهم.

ويذكر التاريخ لإسرائيل فور أن ولَّت وجهها صوب الغَرْب لتحج وتصلى إلى واشنطن بدلاً من لندن، أن عصاباتها الصهيونية بدأت فى استخدام أجهزتها الإرهابية السرية فى الضغط على بريطانيا، فوضعوا خطة لإغتيال وزير التموين الإنجليزى [اللورد موين] وقد سقط صريعًا على أيدى الإرهاب الصهيونى كما نسف الإسرائيليون فندق «داوود» فى القدس بنزلائه فى ٢٢ / ٧ / ١٩٤٦م. وهكذا تجرعت بريطانيا كأس الإرهاب الذى أذاقته للعرب عموماً والفلسطينيين خاصة، بعد أن تجرأت عليها إسرائيل لإجبارها على تسليم الملف الإسرائيلى إلى النجم الجديد (أمريكا) ، وقد كان لها ما سعت إليه، فتم تشكيل اللجنة الإنجليزية الأمريكية فى نوفمبر ١٩٤٦م.

وبهذا يثبت أن الإدارات الأمريكية قصيرة النظر - فهى لا تستطيع عبور الآنيَة إلى الماضى البعيد أو القريب، ولا حتى تخطى الحدود بالنظر إلى التخطيط لغد

سعيد، إنما هم قد عكفوا واكتفوا بالعمل على تأكيد هيمنتهم وسطوهم على مقدرات الشعوب ليتأكد للجميع أن أمريكا كما قلنا دولة استعمارية من طراز فريد.

وتكاد تنطق الشواهد بأن الأطماع الأمريكية والإسرائيلية سوف تنمو وتزداد نمواً وازدهاراً، غير أن المصالح الإسرائيلية هي التي أخبرنا القرآن الكريم بأنها ستعلو وستتمكن وستُدير ولربما تمكنت من أن تقيم الناس وتقعدهم، لما قال تعالى: ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ والعلو ههنا ورد بأسلوب (النكِرة) والتنكير فى اللغة يفيد العموم والشيوع - أى أنه عُلو عَامٌ غير محدود.

ولكنه علو باطل ومزيف كالذى يبنى البيت بالورق المقوى ويرتفع به ارتفاعًا حتى إذا جاء يصعده لم يجده شيئًا ولم يجد له حقيقة ولا أثر غير كومة من الورق الممزق، وذلك لأنه فى حقيقته ترتيب ملفق سيعلو على إمكانيات الآخرين.

وكما أنه علو سريع الإيقاع فإنه كذلك سيكون سقوطًا سريعًا ومدوّيًا. فإسرائيل ليست أقوى من الإتحاد السوفيتى الذى انهار بلكمة اقتصادية واحدة، تلقاها فى رأسه من الكيان الإقتصادى الأمريكى القوى، فأقعدته عن الحراك، وأطاحت به إلى أرفف الطرائف فى أرشيف التاريخ.

ولقد أنبأنا القرآن الكريم بنهاية هذا العلو، وبنهايتهم كما وكيفًا، عند قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

واللفيف:

قال الجوهرى - ما اجتمع من الناس من قبائل شتّى - يقال جاء القوم بلفّهم ولفيفهم، أى وأخلاطهم، وقوله تعالى: ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى مجتمعين مختلطين، وفلان لفيف فلان: أى صديقه.

قال الأصمعى: اللفيف جمع وليس له واحد وهو مثل الجميع[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ [الإسراء: ٧].

فإن المراد هنا ليس هو اليوم الآخر - أى - يوم القيامة، إنما هو نقيض الأولى للأشياء التى ليس لها ثالث. كقوله تعالى: ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤] فالآخرة هنا: هى الحياة الآخرة التى تلى الحياة الدنيا وهى التى تبدأ بقيام القيامة حيث تلتقى الأرواح، والأبدان والأنفس - فى هذه الحياة الآخرة كما

---

(١) تفسير القرطبى سورة الإسراء آية ١٠٤.

كانت تعيش فى الحياة الدنيا (الأولى) - وعليه فلا يصلح القول ولا يصح أن نستبدل لفظة (الثانية) كبديل عن الآخرة فى هذا السياق .

وهذا ما أردنا بيانه هنا - أى أنه إذا جاء الوعد بنهاية الإسرائيليين نهاية تنقطع سيرتهم بها مع دوام الحياة واستمرارها لغيرهم من الأميين سلط الله عليهم المسلمين ليفعلوا بهم ما لم يفعله آخرون، وليدمروا لهم كل شيء وليسحقوهم سحقًا ويحصروهم عددًا ويبيدوهم بددًا - لما قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً** ﴾ [الإسراء: ٧] .

وإذا كانت إسرائيل الأولى التى فسدت فسادًا كبيرًا . فسلط الله عليهم بختنصر الذى أقبل عليهم بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصر (يهوذا) مملكتهم فكان كما قال تعالى : ﴿ **فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ** ﴾ وحكم فيهم حكم الجاهلية فقتل الثلث، وأسر الثلث، وترك المرضى والشيوخ والعجائز ثم وطأهم بالخيل، وهدم بيت المقدس، وخرّب الحصون، وحرق التوراة، ومن ثم فقد أُدْمجت يهوذا فى الإمبراطورية البابلية، ثم كانت نهاية إسرائيل الأولى على يد « هادريانوس » الرومانى الذى احتل أورشاليم ودمّرها تمامًا، وبنى فوقها مدينة جديدة باسم (إيلياكا بيتولينا) وقام الرومان بعمل مذبحة جديدة وكبيرة ختمت عصر اليهود فى فلسطين سياسيًا وسكانيًا وتاريخيًا، وديمغرافيًا، وانتشر الهاربون منهم فى الأرض وأخذوا ينشرون أحقادهم وينفثُون سمومهم فى كل البلاد التى رحلوا إليها حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت بفعل كيدهم ودسائسهم وفتنهم حتى لفظتهم الدول التى كانوا بها، بحيث باتوا فى الشتات وليس أمامهم سوى حلم العودة إلى أرض الأجداد (حسب زعمهم) فى فلسطين لإقامة وطنهم الكبير إسرائيل الثانية (الوطن القومى لليهود)، وهو المراد - إسرائيل الثانية والتى قدّر الله لها عقابًا آخر على فسادها وإفسادها وعلوها الزائف المتسلق على أملاك الآخرين وحقوقهم، وهو عقاب سينزل بساحتهم استحقاقًا لحقهم (لِيَسُؤْا وجوهكم) .

وفى اللغة : السوء : كل ما يغم الإنسان : و- : كل ما يَقْبُح (ج) أسواء، السيِّئ : كل قبيح وشائن (السيئة والعيب والنقص)[1] .

---

(١) المعجم الوجيز ص٣٢٧ .

وليدخلوا المسجد: وهى الرغبة الملحة والأُمنيَة العظيمة، والغاية العُليا من اللقاء المُرتقب لنُصيبُ وجوههم بالسوء، ونجرُّهم عليها لنجعلها معيبة ناقصة وهم يخرجون من المسجد الأقصى (أسيرَهُم الآن) أذلاء مقهورين مكبلين فى القيود لنُعْمل فيهم ما قال تعالى فى أهل النار: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١] وهو كلام متروك لحينه ووعده ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

وفى اللغة: تب الشىء تبًا، تَبَابًا: انقطع، وتبّ فلان: خسر وهلك – يقال فى الدعاء تبت يدَهُ – وتبًا له. و–: ضَعُفَ وشَاخَ، وتب الشىءَ أو الشىءُ – تبًا: قطعه فهو تابٌّ، – تَبَّبَهُ: أهلكه وألحق به الخسارة [1]– أى تدمير وإهلاك وفناءً ما علوا به تدميراً كاملا وهلاكا محققا وفناء مُخلَصًا الدنيا من شرورهم وبغيهم أبَدَ الآبدين ودهر الداهرين، فلا يهود بعد على وجه الأرض إلى يوم الدين، ولا إسرائيل ثالثة تقوم لها قائمة، إنه العقاب الواجب، والجزاء اللازم لإسرائيل الثانية بعد أن انتهت الفرصة الأخيرة التى تنتهى عند قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وهى فرصتهم الأخيرة فى الحياة لذلك لا حرج فى أن يأتوا لفيفًا وعلى عجل إلى أرض المعاد التى ستشهد إنْجَاز وعد الله للمسلمين بالنصر، ولليهود بالقهر بعد أن يأتوا جميعًا (لفيفًا) من كل حدب وصوب مختلطين من أجناس شتى وبلاد متفرقة.

إن شرقنا العربى سيشهد صدامًا هُو الأعنف، وحربًا هى على الإطلاق الأشرس بين إسرائيل التى تحفر خندقًا للأمريكيين ستلقيهم فيه بعد أن يمكنها الأمريكيون من إقامة وطنهم الكبير، وذلك سيكون عندما تصبح الصين هى «النجم المتلالئ الأول على وجه الأرض» حينئذ سيُولّى الإسرائيليون وجوههم صوب الشرق الأقصى، ويديرون ظهورهم إلى الولايات المتحدة لتتجرع أمريكا الكأس كما تجرعته بريطانيا، وتندلع الحرب التى لا مثيل لها مع القوات الأمريكية والتى بسببها سيدخل العرب مضطرين إلى الدخول فى حروب متقطعة مع الطرفين المتحاربين (الصهيونى والصليبى) حتى تأتى «الملحمة الكبرى» التى أخبرنا بها الرسول ﷺ، وقد بدأت هذه الحروب منذ فترة والتى سوف يسبقها صراع مرير بسبب صدام المصالح والسيادة بين الإمبراطوريتين المتنافستين على أرضنا الطيبة ولربما امتد الصراع إلى الصين، وأقول بأنه امتداد حتمى لا بد أنه واقع ولربّما كانت هذه هى آخر الحروب على وجه الأرض

---

(١) المعجم الوجيز ص٧١.

والتى ستدور مُعبِّرة عن أكبر صراع للحضارات وسوف ترتفع فيها أصوات الدبابات عبر التاريخ الإنسانى كله، عندما ينفجر بركان الغضب ويثور الثائرون ويخرج معهم من تحت الأرض سكان القبور، ليخرج من بين المسلمين ثعلب الصحراء الذى سَيَقُودُ أم المعارك وعند زحفه ستهب عاصفة الصحراء الحقيقية التى سوف تصحح مجرى التاريخ الذى انحرف كثيراً عن مساره بعد وفاة البطل صلاح الدين.

ولقد أخبرنا الحق جل وعلا فى كتابه المكنون (القرآن الكريم) عن صدق هذا التوجه، وحقيقة هذه الرؤية، التى تؤكد الشواهد والوقائع على أن الأحداث تُسرع الخُطَى نحو حلول الأجل الذى قضى الله تعالى له فيه كينونته من أجل أن يكون عند القدر المعلوم ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥] وهو الأجل الذى سيحصد أجال المتكبرين، المتغطرسين، أساتذة الفتن وأبالسة العالم وصدق الله العظيم القائل: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾.

* * *

خـــاتمة

يتطور الصراع ويحتدم، ويدار بغير واحدة من الطرق ومن اللغات، ولقد عرضنا لكثير من ألوانه وأشكاله، وأنماطه، ونتائجه، وسُبُله وأحجامه ونتائجه، وانعكاساته، ومردوداته، ومدلولاته ضمن عملنا السابق فى كتابين أشرنا إليهما سابقًا.

وفى العمل الذى بين أيدينا تحتم علينا الغَوْص فى أعماق التاريخ فى محاولة جادة، مُحايدة تهدف إلى الكشف عن حقيقة الصراع الذى عاشته البشرية منذ النشأة الأولى، إما بسبب حب النساء، واكتناز الأموال والذهب والفضة، أو للسيطرة على مصادر الثروات ونهب الخيرات، وإما لجلب المنافع أو درءاً للمفاسد أو تسلطًا على الآخرين.

وفى هذا المعترك من صراع الحضارات

وفى هذه الدردشة من حوار الدبابات

حظيت الأنظمة الحاكمة، والدول، والحكومات، وبعض الأسماء التى لمعت ببريق الأحداث وقد ذكرناهم عمداً لضرورة الحال، إما قصداً أو عن غير قصد، أما الطرف الغائب الذى هُضِم حقه فى هذا اللقاء فإنها الضحية الأولى لتلك النظم، وبطش الحكومات، ودهس الدبابات وهى الشعوب.

وإن دارت الدائرة على كل شعوب الشرق وتجرعوا الكأس مُرًا.

فإنى الآن أقطع بأن القرن القادم - نعم القرن القادم (الثانى والعشرون) سيكون قرنًا جماهيريًا خالصًا، ولننظر - كم لبثت دولة الفُرس، والروم - وكم عمر الدولة الإسلامية (وليست الأمة) الدولة الإسلامية فى ثوبها الأول، - وكم عمر الأمويين والعباسيين، والغزنويين فى أفغانستان، والتتار والمغُول، والإستعمار الصليبى فى العصر الحديث . والذى عاد من جديد بعد فترة من الهدوء.

فقط ستجد الإجابة على صفحات التاريخ.

التاريخ الذى ينطق القرآن الكريم موضحاً مآل الطاغين فيه والظالمين.

لقد اندثرت حضارات هى الأعظم على إطلاقها، وتوارت فى الثرى آثارها فتلك هى ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ ألم تر كيف فعل الله تعالى بها، وذلك جزاء الطاغين ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ [الفجر: ٦-٨].

وتلك هى المدينة الحديثة فى دولة الزراعة والسدود المائية (سبأ) التى كانت تعبد الشمس من دون الله - وهى دولة متدينة - ولما مَثُلتْ مَلِكَتُهَا بين يدى نبى الله

(سليمان) عليه السلام، ورأت دلائل القدرة وبَهرتْها عظمة الإعجاز قالت « بلقيس » ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤] فنفع الإيمان دولتها.

وهذا مَلِك الفرس « كسرى » الذى مزق كتاب رسول الله فمزق الله ملكه.

وثمود، وقوم صالح، وقوم تبّع، والذين أذوا موسى.

وفرعون مصر - أرأيت كيف طبق عليه البحر، فلو قال - آمنت بالله - لنَجّاهُ الله، غير أن صلفه وكبريائه منعَه ، وهو القائل لأهل مصر (ما علمت لكم من إله غيرى) وأخذته العزة بالإثم فقال آمنت بالذى ءامنت به بنو إسرائيل - فزهقت روحه، ونجا بدنه آية للناس ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢]، وهذا قارون اليهودى وهو من قوم موسى وقد آتاه الله من الكنوز العظيمة ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ [القصص: ٧٦].

غير أنه جحد فضل الله تعالى عليه فكان حُكم الله ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١].

إن خلود الحضارات أو فنائها مرتهن بالعقيدة الصادقة المؤمنة بالله، والمترجمة إيمانها إلى أنماط وأفعَال سلوكية حميدة تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وعلاقة الإنسانيّة بالله جل علاه - فيعمُّ الحق والعدل والخير والمساواة التى هى من صميم شرع الله فى دين الله لِخَلق الله ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

إن الدين وحده هو سر استمرار الحضارات بلا منافس أو منازع ولذلك يُعدُّ الدين الإسلامى الخالص من الشوائب ومن الزيف والبدع والمضلات ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ [المزمر: ٣]- هو القاعدة الصلبة التى بُنيت عليها أعظم الحضارات الإنسانية على وجه الأرض وهى (الحضارة الإسلامية) التى جمعت الدنيا والدين، الشكل والجوهر، العمل والأمل، وجمعت الشتات وآخت بين الأعداء ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] حتى صاروا أفضل المخلوقات وأوسطهم وذروة سنامهم، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، غير أن وُلاة أمور الأمة اختلفوا، ودب بينهم الشقاق، وصاروا أُممًا تحت دعاوى القوميات والأجناس حتى ملأت الدنيا هذه الأيام تعبيرات مؤلمة تعبر بجدية عن الأممية والقطرية فأصبحنا نسمع (بالبربرية ،

والزنْجية، والعربية، والقبطية، والفرعونية) وقد وضعتنا هذه الأمية على شفا الإنهيار التام الذى ضيّع فلسطين والعراق - وغداً دمشق والرياض، وجوّع السودان وليبيا وأحرق الجزائر واليمن بنار الإرهاب والتنصير.

حتى ملّت الشعوب العربية والإسلامية، ومقتت مقت الموت تصرفات ولاة أمورها وأنظمتهم، وشعاراتهم، وأطماع أعدائهم.

ويومًا سينتفض المقهورون الغاضبون، الثائرون، الرافضون للشرذمة والتحلل، المؤمنون بالعمل العام، الحالمون بالحرية والديمقراطية والوحدة. ولسوف تنهار الأنظمة أمام الإرادة الجبارة للشعوب التى تحرك إرادتها الجبال، وتقتلع رياحها القلاع، وتدك خطواتها الحصون، وسيتوجه الجميع للقصاص من الأعداء، ونهش لحومهم بالأظافر إذا امتنعت عليها السكاكين والسنج والخناجر والسيوف، وسيمزقُونهم بالأسنان ويلعبون بهم بالبنان.

ولترحل الحكومات والوزارات والسلاطين والأمراء والرؤساء والملوك وليحملوا آنئذ دباباتهم على ظهورهم، أو أن يطيروا بطائراتهم إلى ذاكرة التاريخ، أو ليمتطوا عوابر القارات وليستقروا عند المهيل، أو بداخل العين الحمئة.

ولتنتصر إرادة الشعوب.

ولتحيا الحضارة الإسلامية فى الأزمنة الآتية، بعد أن تتمكن الشعوب من حسم الصراع المحتدم، وقطع لسان الحوار الدائر وإلى الأبد.

* * *

مراجع الكتاب

الكتاب	المؤلف
الإستعمار الفرنسى فى إفريقيا السوداء	ڤيليب فونداسى
موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية	د. أحمد شلبى
تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية	د. أحمد الساداتى
الإسلام والحضارة العربية	لوترب ستودارة
الكامل والبداية	أبو الحسن بن الأثير
نظرات حول العصر العباسى الأول	د. محفوظ نصار
الحضارة الإسلامية القديمة	(موسكانى) ترجمة السيد يعقوب بكر
محاضرات فى تاريخ العرب	د. صالح العلى
تاريخ الشرق الأدنى القديم- مصر وسوريا القديمة	أحمد أمين سليم
تاريخ اليهود القديم بمصر	عبد المحسن الخشاب
تاريخ الشعب اليهودى	م.ل مارجوليز، أ. ماركس اليهوديان
فتوح البلدان	البلاذرى
موجز تاريخ العالم	محمد غريب جودة
سير أعلام النبلاء	الذهبى
تبصير الأذهان ببعض المذاهب والأديان	محمد بن عبدالملك السبيعى
المواعظ والإعتبار	المقريزى
الخائفون من الإسلام لماذا.؟	محمد نعيم ياسين
التبشير والإستعمار	عمر فروخ
السودان المصرى الإنجليزى	الشيخ محمد القبانى
الجغرافيا السياسية لإفريقيا	د. فيليب رفلة
تاريخ الصومال	جامع عمر
قضية كينيا	د. عبدالعزيز كامل
أفريقيا الجديدة	د. جمال حمدان
الإسلام والحضارة الغربية	أ/ محمد حسين
المداخل الجنوبية لجزيرة العرب	غرياستارك
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون
مقارنة الأديان	د. أحمد شلبى

الإستعمار الأوروبى لإفريقيا	د. زاهر رياض
موجز تاريخ أفريقيا	ى سافلييف، ج سافلييف
تاريخ سوريا	فيليب حتى
جزيرة العرب قبل الإسلام	جويدى
تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى	د. أحمد مجاهد مصباح
الصحافة الإسرائيلية والدعاية الصهيونية فى مصر	سهام نصر
التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم	سعيد إسماعيل على
كشف إفريقيا	د. زاهر رياض
ثورة إفريقيا	صبرى أبو المجد
التاريخ العام	لأنيس، ورامبو
تاريخ الحضارة	سينوبوس
مروج الذهب	للسعودى
أصول الشرائع	بنتام
الطريق إلى جهنم	د. مصطفى محمود
أحذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام	سعد الدين السيد صالح
التبشير والإستعمار	الخالدى وفروخ
الإسلام والتنمية الإقتصادية	چاك أوسترى
مصر فى عهد المماليك والعثمانيين	أ.د. عبدالعزيز محمود عبدالدايم
جغرافية العالم الإسلامى	د. طه عبدالعليم رضوان
حرب الأيام الستة	راندولف تشرشل
تاريخ الإسلام فى الهند	د. عبدالمنعم النمر
باكستان فى ماضيها وحاضرها	د. عبدالحميد البطريق
مفاتيح الغيب	الإمام/ فخر الدين الرازى
الملايو وصف وإنطباعات	د. محمد عبد الرؤوف
تاريخ الملايو العظمى	عبدالله عباس ناتسيوم
صفحات من تاريخ أندونيسيا	محمد أسد شهاب
الدعوة إلى الإسلام	توماس أرنولد
القاموس الإسلامى	أحمد عطية الله
ممالك ما وراء النهر	د. عبدالهادى شعيرة

الإسلام والحضارة الإسلامية فى آسيا الوسطى	د. حسن محمود
العلاقات بين العرب والصين	بدر الدين الصينى
معلومات أساسية عن الدولة والقانون السوفيتيين	كوتافين- ترجمة طارق معصرانى
١٩٦٧ الإنفجار	أ. محمد حسنين هيكل
الصين والعرب	محمد محمود زيتون
تاريخ المسلمين فى الصين	بدر الدين الصينى
عالم حر جديد	أ. محمد جميل
المسلمون فى العالم	د. عادل طه
الإسلام فى وجه الزحف الأحمر	الشيخ محمد الغزالى
الديانات فى إفريقيا السوداء	هوبيرديشان
حضارة الهند	غوستاف لوبون
البداية والنهاية	ابن كثير
الأغانى	الأصفهانى
الفتن والملاحم	ابن كثير
المعجم الوجيز	وزارة التربية والتعليم بمصر
إنجيل العهد القديم	
قصص الأنبياء	ابن كثير
تفسير القرطبى	الإمام القرطبى
قادة الغرب يقولون	عبد الودود يوسف (جلال العالم)
لماذا يخافون من العملاق	عبدالحميد بن عبدالرحمن السحيبانى
الغارة على العالم الإسلامى	ترجمة محب الدين الخطيب
مأساة بنكلاديش	محمد خليل الله
القومية والغزو الفكرى	محمد جلال كشك
التاريخ والحضارة فى بلاد الشرق القديم	
تاريخ التمدن الإسلامى	جورجى زيدان
بريطانيون فى السودان	
شبكة المعلومات الدولية - إنترنت	
المجلات والجرائد الوطنية المصرية	

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

العصافير فى القفص الأمريكى



رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٩٢٢٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N 977-225-197-3